تأملات في

سور القرآن

د.نافذ الشاعر

جميع حقوق الطبع محفوظة

تأملات في

سور القرآن

تأليف

د. نافذ الشاعر

اسم الكتاب: **تأملات في سور القرآن**

تصنيف الكتاب: **(تأليف)**

اسم المؤلف: **د. نافذ الشاعر**

الطبعة الأولى: ٢٠٢٦

المحتويات

مقدمة ٦

سورة الفاتحة (المثاني الأولى) ٧

سورة البقرة (الله الحي القيوم) ٩

سورة البقرة (١-٢٠) (أصناف الناس إزاء الوحي الإلهي)..... ١١

سورة البقرة (٢١- ٣٩) (موعظة مختصرة للبشرية جمعا)..... ١٢

سورة البقرة (٤٠-١٢٣) (الناكصون عن الطاعة)..... ١٤

سورة البقرة (١٢٤- ١٤٣) (الابتلاء قبل التمكين)..... ١٦

سورة البقرة (١٤٤- ١٩١) (الإسلام ليس دين الشكليات)..... ١٨

سورة البقرة (٢٢٦-٢٥٢) (الخروج والانفصال)..... ٢٠

سورة البقرة (٢٤٣-٢٨٦) (اسم الله الحي)..... ٣٢

سورة آل عمران (جينات الثبات وجينات العناد)..... ٣٩

سورة النساء (ظلم المستضعفين)..... ٤٣

سورة المائدة (الميثاق)..... ٤٦

سورة الأنعام (وتمت كلمةُ ربِّك صدقًا وعدلًا)..... ٤٩

سورة الأعراف (الخارجون عن العُرْف والمتمسكون به)..... ٥٦

سورة الأنفال (تفضيل المكاسب الدنيوية على المبادئ الإلهية)..... ٦٢

سورة التوبة (الكاشفة)..... ٦٧

سورة يونس (نسائم نبي الله يونس)..... ٧١

سورة هود (عبادة الوجاهة ومتاع الدنيا)..... ٧٥

سورة يوسف (التقمص والتمثيل)..... ٨٠

سورة الرعد (الثنائية)..... ٨٤

سورة إبراهيم (الصبر والثبات)..... ٨٩

سورة الحِجْر (الإحاطة والتحديد والصراحة)..... ٩٦

سورة النحل (السياحة والتطواف والترف الفكري)..... ١٠٧

سورة الإسراء (عالم الروح)..... ١١٨

سورة الكهف (العصمة من الفتن)..... ١٣٤

سورة مريم (الأبناء والأولاد)..... ١٤٠

سـورة طـه (الرِّضا النَّفسي).....١٤٣
سـورة الأنبيـاء (التلألؤ والإشراق).....١٤٩
سـورة الحج (المفاجأة).....١٥٣
سـورة المؤمنون (الاصطفـاء).....١٥٧
سـورة النور (تنوير ما خَفِي).....١٦٢
سـورة الفرقـان (الردّ السماوي على منطق الأرض).....١٧٦
سـورة الشـعراء (الأمانة مع النفس ومع الغير).....١٧٩
سـورة النمل (من معجزات الأنبياء إلى مخترعات الانسان).....١٨٨
سـورة القصص (المرأة في حياة موسى).....١٩٣
سـورة العنكبوت (الابتلاءات والفتن).....١٩٦
سـورة الروم (الأوروبِّيون).....٢٠٠
سـورة لقمان (من الفتنة إلى الحكمة).....٢٠٣
سـورة السجدة (الذي أحسن كل شيء خلقه).....٢٠٨
سورة الأحزاب (الثوابت الكونية والمتغيرات الطارئة).....٢١٠
سـورة سبأ (الكفر يحرم الرزق).....٢٢١
سـورة فاطر (أنتم الفقراء إلى الله).....٢٢٦
سـورة يـس (الديناميكية والحركة المستمرة).....٢٣٢
سـورة الصافات (التمرد والاستسلام).....٢٣٣
سـورة ص (الخصومة).....٢٣٦
سـورة الزمر (حُجُب من وراء حجب).....٢٤٠
سـورة غـافر (الجدال بالباطل).....٢٤٢
سـورة فصلت (المستقبل والأزل).....٢٤٧
سـورة الشـورى (رحمة الله بعباده في الدنيا).....٢٥١
سـورة الزخـرف (الزخارف والزينة).....٢٥٦
سـورة الدخان (اللحظات الفاصلة في تاريخ البشرية).....٢٦١
سـورة الجـاثية (جولة مع الدهريين).....٢٦٥
سـورة الأحقـاف (الحضارات المتغطرسة).....٢٧٠
سـورة محمـد (الإيمان أو الضياع).....٢٧٣

سـورة الفتح (التدفق) ٢٧٨
سـورة الحجرات (امتحان القلوب على طريق التقوى)..... ٢٩٠
سـورة ق (الدقة)..... ٢٩٣
سـورة الذاريات (الأرزاق مقسومة)..... ٢٩٦
سـورة الطور (الرقة والنعومة)..... ٢٩٨
سـورة النجـم (النزول)..... ٣٠٠
سـورة القمر (انتهاء عصر المعجزات)..... ٣٠٣
سـورة الرحمـن (التوازن)..... ٣٠٥
سـورة الواقعة (الظاهر والباطن)..... ٣١٠
سـورة الحديد (القسوة: في المادة، وفي النفس، وفي التاريخ)..... ٣١٧
المجادلة، الحشر، الممتحنة (الأحاديث الخاصة وراء الأبواب المغلقة)..... ٣٢٥

سـورة الحشر (التخلّي)..... ٣٣١
سـورة الممتحنة (تفكيك العلاقات)..... ٣٣٦
سـورة الصـف (الانسجام)..... ٣٣٩
سـورة الجمعة (العلم والحكمة)..... ٣٤٦
سـورة المنافقون (التجمل)..... ٣٤٨
سـورة التغابن (حسابات خاطئة)..... ٣٥٢
سـورة الطلاق (زوجان متباغضان)..... ٣٥٨
سـورة التحريم (زوجان متحابان)..... ٣٦٢
سـورة الملك (القوانين الكونية)..... ٣٦٨
سـورة القلم (المكر الخفي)..... ٣٧٠
سـورة الحاقة (الطغيان)..... ٣٧٣
سـورة المعارج (الهروب في جميع الاتجاهات)..... ٣٧٨
سـورة نوح (الإصرار)..... ٣٨٠
سـورة الجـن (الاستثنائيون)..... ٣٨٢
سـورة المزمل (الضيق)..... ٣٧٨
سـورة المدثر (التفاصيل الشخصية)..... ٣٨٩
سـورة القيامة (التقابل والمزاوجة)..... ٣٩٢

سورة الإنسان (نشأة الإنسان).....٣٩٥
سورة المرسلات (الغضب العاصف).....٣٩٨
سورة النبأ (كل شيء محسوب ومضبوط).....٤٠٠
سورة النازعات (انطفاء الصخب).....٤٠٢
سورة عبس (السعي نحو الأهم فالأهم).....٤٠٤
سورة التكوير (قيامة مماثلة).....٤٠٦
سورة الانفطار (القيامة المباشرة).....٤٠٩
سورة المطففين (اختلال الموازين واستقامتها).....٤١٠
سورة الانشقاق (الإبحار عبر الفضاء).....٤١٢
سورة البروج (ثكنات عسكرية).....٤١٤
سورة الطارق (الاختراق).....٤١٦
سورة الأعلى (الذكر والتذكر).....٤١٨
سورة الغاشية (زمن التفاهة).....٤٢٠
سورة الفجر (تحطيم الأغلال وانقشاع الظلام).....٤٢٣
سورة البلد (جلبة الأسواق).....٤٢٥
سورة الشمس (المثاني الثانية).....٤٢٨
سورة الليل (المثاني الثالثة).....٤٣٢
سورة الضحى (الاسترخاء).....٤٣٥
سورة الشرح (ضيق الصدر).....٤٣٧
سورة التين (المقدسات).....٤٤٠
سورة العلق (وحي القلم).....٤٤٢
سورة القدر (ليلة العمر).....٤٤٤
سورة البينة (التمايز).....٤٤٦
سورة الزلزلة (انهيار عالم الأسباب والمسببات).....٤٤٩
سورة العاديات (جحود الانسان).....٤٥٢
سورة القارعة (الصمت الذي يعقب الكارثة).....٤٥٤
سورة التكاثر (ضياع العمر في مطاردة اللذة).....٤٥٦
سورة العصر (التناقص المستمر).....٤٥٩

سـورة الهُمَزة (رفع النفس بتحطيم الغير).....٤٦٢
سـورة الفيل (الفيل في الحجرة).....٤٦٥
سـورة قريش (النعم التي أفسدتها الألفة).....٤٦٨
سـورة الماعون (الأنانية وحب الذات).....٤٧٠
سـورة الكوثر (حقيقة البركة).....٤٧٢
سـورة الكافرون (القطيعة الأبدية).....٤٧٦
سـورة النصر (عندما تفتح أبواب السماء).....٤٧٩
سـورة المسد (مثيرو الفتن).....٤٨٢
سـورة الإخلاص (ليس كمثله شيء).....٤٨٥
سـورة الفلق (الشرور الخفية غير المرئية).....٤٨٨
سـورة الناس (مصادر الوسوسة).....٤٩١

مقـدمـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ فإنني أقرأ القرآن منذ أعوام طويلة، وأعود إلى سوره مرة بعد مرة، فأجدني كلما فرغت من سورة أحسست أنني خرجت من عالم ودخلت عالمًا آخر. ولست أعني أن معاني الألفاظ تختلف، أو أن الآيات تتغير، فالقرآن هو القرآن، والنص هو النص، ولكن الذي يتغير هو ما ينكشف للقارئ من وجوهه، وما يتهيأ له من أسباب الفهم والتدبر.

وقد كنت أسأل نفسي أحيانًا: ما الذي يجعل سورة قصيرة لا تتجاوز أسطرًا معدودة تترك في النفس أثرًا خاصًا لا تتركه سورة أخرى؟ وما الذي يجعل القارئ يشعر، بعد الفراغ من بعض السور، أنه كان يدور حول فكرة واحدة وإن تنوعت العبارات وتعددت الصور؟

وقد أدركت، منذ زمن بعيد، أن لكل سورة جوًا خاصًا، وشخصية تكاد تتميز بها كما يتميز الناس بعضهم عن بعض، وأن آيات السورة ليست متناثرة تناثرًا، إنما يجمع بينها خيط خفي، إذا اهتدى إليه القارئ رأى من انسجام السورة وترابطها ما لم يكن يراه من قبل.

لذلك فإنني أقدم في هذا الكتاب تأملات نشأت من صحبة طويلة للقرآن، ومن محاولة متواضعة للبحث عن الفكرة التي تبدو المحور الذي تنتظم حوله الآيات.

فالكتاب ليس تفسيرًا بالمعنى الذي أراده المفسرون، وليس جمعًا للأقوال أو ترجيحًا بينها، إنما هو حديث قارئ أحب القرآن، وأطال النظر فيه، ثم سجل بعض ما خطر له من الخواطر، وبعض ما لاح له من الروابط، وبعض ما أحسه من الجمال الكامن في هذا البناء القرآني العجيب.

فاللهم إن كان في هذه الصفحات صواب فمنك وحدك، وإن كان فيها خطأ أو تقصير أو غفلة فمن نفسي، وأنت العفو الكريم الذي لا يؤاخذ عباده بما زلت به أفهامهم، إذا قصدوا وجهك وابتغوا رضاك. فاجعل هذا العمل شاهدًا لي لا شاهدًا عليَّ، واجعله في موازين حسناتي يوم ألقاك، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

سـورة الفاتحة

المثاني الأولى

إن القارئ لفاتحة الكتاب لا يلبث أن يلحظ فيها ظاهرة جديرة بالنظر، وهي هذه الثنائية التي تنتظم ألفاظها ومعانيها انتظامًا دقيقًا.

فالفاتحة ليست كلمات تتعاقب على السمع فحسب، إنما هي بناء محكم، يقوم بعضه على بعض، وتتجاوب أجزاؤه تجاوبًا يثير الإعجاب. فإذا أردتَ أن تتبين هذا التثنيةَ الرائعة في الفاتحة، فما عليك إلا أن تُمعنَ النظر في آياتها، وكيف ينقسمُ اللفظُ فيها تلوَ اللفظِ في توازنٍ موسيقيّ آسر؛ فتراكَ تقرأ:

بِسْمِ اللهَّ الرَّحْمَـنِ ... الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهَّ رَبِّ ... الْعَالَمِينَ

الرَّحْمَـنِ ... الرَّحِيمِ

مَـلِكِ يَوْمِ ... الدِّينِ

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ ... نَسْتَعِينُ

اهدِنَا الصِّرَاطَ ... الْمُستَقِيمَ

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ ... عَلَيهِمْ

غَيرِ المَغضُوبِ ... عَلَيهِمْ

وَلاَ الضَّالِّينَ

وهكذا فإنك إذا قرأت: الحمد لله رب العالمين، رأيت طرفين يلتقيان في معنى واحد. وإذا قرأت: الرحمن الرحيم، وجدت الصفة تُثنّى لتؤكد المعنى وتزيده وضوحًا ورسوخًا في النفس. ثم تمضي السورة في هذا النسق نفسه، وكأن كل آية من آياتها، تميل إلى هذا البناء الثنائي الذي يجعل اللفظ قرين اللفظ، والمعنى سندًا للمعنى، حتى تخرج السورة كلها في صورة متوازنة متناسقة، لا يختل فيها جزء ولا ينفصل فيها معنى عن معنى.

وليس الأمر مقصوراً على هذه السورة وحدها، بل إن القرآن كله -كما قال تعالى: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ} يفيض بهذه الصفة، ولكنها في بعض السور تلوح لنا واضحة جلية، لا تكاد تخفى على متأمل، وفي بعضها تخفى حتى كأنها لؤلؤة في صدفها، لا تظهر إلا لمن أحسن الغوص.

غير أن هذه الظاهرة تبدو في بعض السور أوضح منها في غيرها، حتى يكاد القارئ يدركها منذ اللحظة الأولى. وأولى هذه السور وأجلاها سورة الفاتحة، التي تظهر فيها المثاني ظهورًا بيّنًا لا يحتاج إلى كبير عناء. ثم تمضي هذه الظاهرة في سور أخرى، من بينها سورة الشمس وسورة الليل وسورة القيامة- كما سنرى لاحقًا- حيث تتجلى الثنائية في اللفظ والمعنى تجليًا يدعو إلى التأمل ويستحق البحث.

ومن هنا فإن النظر إلى الفاتحة بوصفها المثاني الأولى ليس مجرد ملاحظة عابرة، وإنما هو مفتاح لفهم نسق من أنساق البناء القرآني، قد يكشف للمتدبر عن أبعاد جديدة من الإعجاز والتناسق في كتاب الله.

سـورة البقـرة

الله الحي القيوم

سورة البقرة، على طولها وتنوع موضوعاتها، يهيمن عليها لون واحد، ومحور جامع، هو الاسم الأعظم: "الحي القيوم". هذا الاسم يختزل معنى السورة بأكملها، فهو حياة القلوب والأمم والأموال والمجتمعات، ومن قطع نفسه عنه فحياته إلى زوال، وإن بدا أنه يتحرك ويأكل ويشرب ويتنفس.

لذلك تبدأ السورة بالحديث عن القرآن الذي أنزله الله على رسوله محمد، صلى الله عليه وسلم، ففيه حياة القلوب والأرواح. ثم تشير إلى الصلاة والزكاة والإيمان بالغيب، وكلها أسباب لحياة الأرواح. ثم تعرض السورة لأصناف الناس: المؤمنون الذين اتصلوا بالحي القيوم، والكافرون الذين أعرضوا عنه، والمنافقون الذين ترددوا بين الحياة والموت، ثم تضرب الأمثال لتلك الأصناف بالزرع والمطر والحجر.

وتشير السورة إلى خروج الإنسان من العدم إلى الوجود، ومن الموت إلى الحياة، ثم إعادته إلى الموت، ثم بعثه للحياة الأبدية. كما تشير السورة إلى قصة خلق السماوات والأرض، وخلق آدم وتعليمه الأسماء كلها؛ التي تقوم بها حياة الإنسان وخلافته في الأرض. ثم تشير السورة إلى أمر الله لآدم بعدم الأكل من الشجرة لأن في الأكل منها التعب والشقاء، ولكن إبليس لبّس عليه الأمر، وزين له أن في الأكل منها الخلود والبقاء.

وتسرد السورة بعد ذلك تاريخ بني إسرائيل: كيف اختارهم الله وفضّلهم، وأسبغ عليهم من فيوض اسمه الحي القيوم ما لم يسبغه على أمة غيرهم، فأنجاهم من فرعون، الذي كان يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، ثم كيف أراهم الله معجزة إحياء الميت بذبح البقرة. ثم تبين السورة كيف أعرضوا عن ذلك، ونقضوا العهود، وخلطوا الحق بالباطل، وتركوا إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ففقدوا أسباب الحياة الروحية.

ثم تشير السورة إلى سفكهم دماء بعضهم بعضًا، وإخراج أنفسهم من ديارهم. كما تشير إلى الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يُرزقون، خلافًا لما يظنه الناس. وكأنما تقول السورة: هناك موت يلبس ثوب الحياة، وهناك حياة تلبس ثوب الموت.

هكذا تمضي السورة في مقاطعها كلها: ما بين عرض لنماذج بشرية، وأحداث تاريخية، وأحكام تشريعية، كلها مردودة إلى حقيقة واحدة: أن الله هو الحي القيوم، وأن من اتصل به نال الحياة، ومن انقطع عنه فلا حياة له. ولذا جاءت ذروة السورة في آية الكرسي، إعلانًا جامعًا لحقيقة السورة كلها: {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}. فهي قطب السورة، بل قطب القرآن كله، وإليها يؤول كل ما فيها من معنى.

سورة البقرة (١-٢٠)

أصناف الناس إزاء الوحي الإلهي

في هذه الآيات من سورة البقرة، يُطالعك القرآن الكريم بمشهد من مشاهد الحياة الإنسانية، لا يراه الناس كما ينبغي، ولا يدركون عمقه كما يجب. فهو لا يبتدئ بسرد الأحداث التاريخية، ولا يبدأ بذكر الأمم الماضية، بل ينفذ مباشرة إلى لبّ القضية: موقف الإنسان من الوحي الإلهي، وكيف استجاب له، أو كيف أعرض عنه، أو كيف راوغ في التعامل معه.

يبدأ الحديث عن فريق هم خلاصة البشرية وصفوتها، أولئك الذين آمنوا بالغيب، فلم يحصروا وجودهم فيما تراه أبصارهم، وتلمسه أيديهم، بل تجاوزوه إلى ما لا تدركه حواسهم؛ فآمنوا بأن وراء هذا العالم المحسوس عالما آخر، لا تدركه العيون، ولا تسمعه الآذان، لكنه حاضر في ضمائرهم. فهم يُقيمون الصلاة، ويُؤتون الزكاة، ويُنفقون مما رزقهم الله. وفوق ذلك، يصدقون بما جاء به محمد، صلى الله عليه وسلم، وما جاء به من قبله، يؤمنون باليوم الآخر، ويرجون رحمة الله، ويخشون عذابه. فهؤلاء على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون.

ثم يعرض القرآن لفريق آخر، لا يؤمنون، ولا يفكرون أن يؤمنوا. قلوبهم مغلقة، وأذانهم صماء، وأبصارهم عمياء، وكأن بين الوحي وبينهم حجابًا كثيفًا لا يُخترق، وكأن على نفوسهم أقفالًا لا تُفتح. لا ينجع فيهم وعظ، ولا تهزّهم آية، ولا يلين لهم قلب، ولا تدمع لهم عين. إنهم الكافرون، لا يستوون بالمؤمنين، ولا يلتقون معهم في طريق.

ثم تنتقلُ الآياتُ انتقالاً سريعاً - كأنما تريد أن تسبقَ خواطر المنافقين والكافرين، وقبل أن يصيبهم الملل ويغلقوا القرآن فلا يكملوا قراءة السورة، فتكشف عن خبايا نفوسهم، فتضعهم أمام مرآة تبين عوارهم وخبثهم. فهم لا مع المؤمنين، ولا مع الكافرين، ولكنهم يتلونون كما تتلون الحرباء، ويميلون حيث تميل المصلحة. يظهرون للناس إيمانًا،

ويُضمرون كفرًا. يخادعون الناس، ويظنون أنهم يخادعون الله، وما دروا أن الله يستهزئ بهم، ويُمهلهم، حتى إذا أخذهم لم يُفلتهم.

في قلوبهم مرض، وما المرض إلا النفاق، وما النفاق إلا ضعفٌ في الفطرة، وفساد في الضمير. يَدّعون الإصلاح وهم مفسدون، ويتظاهرون بالحكمة وهم طائشون، وإذا قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس، قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون.

"سورة البقرة" (٢١- ٣٩)

موعظة مختصرة للبشرية جمعاء

لقد مضت الآيات الأولى تُميز بين الناس، وتُقسمهم فرقًا ثلاثا، كل فريق له سبيله، ومصيره، ونصيبه من الوحي. فلما استقرت النفوس، وهدأ الاضطراب، واستبان لكل واحد طريقه، وجلس كل إنسان في مكانه، جاءت الموعظة الكبرى، ليست للفريق الأول وحده، ولا للثاني دون غيره، بل موعظة للبشرية جمعاء، تتجه إلى القلب قبل العقل، وتخاطب الفطرة قبل الثقافة:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ٢١].

هذا هو النداء الأول، وهذا هو الأمر الذي لا يتقدمه شرط، ولا يعقبه تردد. ربكم الذي خلقكم، لا كما يخلق الصانع لعبته، ثم ينساها في زاوية النسيان، بل خلقكم، وخلق الذين من قبلكم، وجعل لكم الأرض فراشا، والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم. أفيُعقل، بعد هذا كله، أن يُعبد غيره، ويُجحد فضله؟

ثم تأتي الآية التي تُعالج الشك، ذلك المرض الذي يسكن في زوايا النفوس المترددة:

{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ٢٣]

فإن كنتم في ريب من هذا القرآن، فاجمعوا أمر الأدباء، وأشياع الشعراء، وعباقرة التقنية، وخبراء الطباعة، وصناع الصورة، وأتوا بحديثٍ يضاهي حديثه، أو بسورةٍ تشبه سوره. ولن تفعلوا، ولن تستطيعوا، مهما أوتيتم من فصاحة، ومهما أوتِيتم من أدوات. فإن عجزتم، فالطريق واضح، والموقف لا يحتمل الحيرة: آمنوا، وأسلموا، واخضعوا لهذا الوحي الذي لا يصدر إلا عن خالق.

ومن أطاع، فله الجنان، تجري من تحتها الأنهار، ولها من الثمرات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ومن أعرض، فالنار موعده، وله فيها من الشقاء ما لا تحمله الجبال.

ثم تمضي الآيات فتُذَكِّر الإنسان بأنه ليس هذا الكائن الذي يمشي على الأرض عبثا، وليس وجوده صدفة، بل كان ميتا فأحياه الله، ثم يميته، ثم يحييه، ثم إليه يُرجع. وهو سبحانه يعلم ما توسوس به نفسه، فلا يحتاج إلى أن يسمع منه، أو أن يرى حركته، فإنما خلقه ويعلم خفاياه.

ولم يشأ الله أن يترك هذا الإنسان في التيه، بل ضرب له الأمثال، ليُقرّب إليه المعاني، ويصوّر له المجردات. ضرب له مثلا بالبعوضة، فلم يستنكف، لأن الغرض هو البيان لا الزينة، والهداية لا المجاز. ولكن الذين في قلوبهم مرض، هم الذين قالوا: ما بال الله يضرب مثلا بالبعوضة؟ أولئك هم الذين ينقضون عهد الله، ويفسدون في الأرض، ويكفرون بنعمه.

ثم ترفع الآيات الستار عن أول فصل من فصول الوجود الإنساني: خلق الله آدم، وفضّله، وعلّمه الأسماء كلها، وأسكنه الجنة، وجعل له فيها نعيمًا لا يُعد ولا يُحصى. ولكن إبليس، ذلك الكائن الحاسد، أبى أن يسجد، وعصى أمر ربه، وأغرى آدم وزوجه، حتى زلت أقدامهما، وخرجا من دار النعيم.

لكن الله لم يُغلق باب التوبة، بل فتحه واسعًا، فتاب على آدم، ووعده ووعد ذريته أن لهم الجنة من جديد، إن هم استقاموا، وآمنوا، واتبعوا هداه.

تلك هي الموعظة التي لا تُقال همسًا، ولا تُلقى سهوًا، بل تُتلى في وضوح، لعل الإنسان يسمع، ويتفكر، ويهتدي.

"سورة البقرة" (٤٠-١٢٣)

الناكصون عن الطاعة

لا يخلو هذا المقطع الممتد من آية (٤٠ – ١٢٣) من طابع تحذيري وإنذاري، ولكنه لا يبتدأ بالعقاب ولا بالتهديد، بل بما هو أليق بطبيعة القرآن من تقديم الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. فقد افتتحت الآيات خطابها إلى بني إسرائيل بالتذكير بنعم الله التي أنعمها عليهم:

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}،

وهو تذكير يحمل في ثناياه نداء إلى الفطرة واستدعاء لعنصر الحياء في النفس، قبل أن يُواجههم بما اقترفوه من إثم.

وقبل ذلك تحدثت عن نكوص إبليس عن الطاعة: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}.

ثم هنا تتحدث عن جنود إبليس من اليهود والنصارى الناكصين عن الطاعة، لذلك تسير الآيات في منهج محكم، يتدرج في العرض من التذكير بالنعم، إلى تسجيل المواقف السلبية، ثم إلى بيان التناقضات العقدية، وانتهاء بتوصيف الطبائع.

ففي هذه الآيات يستعرض الوحي مواقف بني إسرائيل عبر التاريخ، لا لمجرد تسجيل الأحداث، بل لغرض تربوي وعقدي، يُظهر كيف يمكن للنفس البشرية أن تتنكّب طريق

الهداية، رغم ما يُحيط بها من مظاهر التفضيل والتكريم. فها هو القرآن يعدد لهم صنوف النعم: إنجاءهم من فرعون، وشق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنّ والسلوى، وتكليم موسى. ومع ذلك، يُقابلون النعم بالجحود، ويقابلون المعجزات بالتعنت، ويقترحون أن يروا الله جهرة، ويعبدون العجل من بعد موسى، ويجادلون في أمر البقرة، ويتخذون من الجدل وسيلة للنكوص عن الطاعة.

وتدل هذه الوقائع جميعها على نزعة داخلية في بني إسرائيل، ليست طارئة، بل ممتدة الجذور، تتجلى في كل مرة في شكل جديد. هذه النزعة هي ما عبّر عنها القرآن في أكثر من موضع: النكوص عن الطاعة بعد العلم، واتباع الهوى بعد البيان.

ولم تقتصر الآيات على بيان أفعالهم الماضية، بل امتدت لتكشف مواقفهم الحاضرة. فهم، يعادون الإسلام لا عن جهل، بل عن علم؛ ويستكبرون، ويكتمون الحق، ويُحرّفون الكلم، ويتّبعون الهوى.

وقد تضمن السياق القرآني إشارات نفسية عميقة، فهم لا يؤمنون، لقلة الدليل، بل لضعف قابلية النفس للإذعان:

{أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ}،

وهذا هو الجواب القرآني الصريح عن سبب عنادهم. فالتحريف لا ينبع من قصور في الفهم، بل من تعمّد في الزيغ.

كما تضمّن الخطاب القرآني بيان تناقضاتهم العقدية، إذ يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة لن يدخلها أحد غيرهم، رغم ما يقترفون من قتل للأنبياء، ونقض للعهود، واتهام لسليمان بالكفر والسحر، واتباع لما تتلوه الشياطين.

ويجدر التنبيه هنا إلى أن عرض هذه الوقائع لم يكن بهدف الإدانة المجردة، بل لتُقام الحُجّة على القارئ والسامع، أن الخروج عن الطاعة لا يكون فقط بإنكار النصوص، بل يكون كذلك بالجحود، والمراوغة، حتى مع وضوح الوحي وصراحته.

وقد خُتم هذا المقطع من السورة كما بُدئ، بتذكير آخر بنعمة الله، تأكيدًا على أن المعركة ليست بين الله وعباده، بل بين العبد وهواه، وأن الله لا يظلم أحدًا، وإنما الناس أنفسهم يظلمون.

والمقطع الممتد من الآية ٤٠ إلى ١٢٣ يعرض نموذجًا مركبًا من التاريخ والسلوك والنفس والعقيدة، يُبيّن فيه كيف تتراكم في النفس طبائع التمرد على الوحي، إن لم تُعالَج بالتقوى والخشية، كما ويكشف عن العلة الكبرى في الخروج عن الطاعة، وهي: التعالي على الحق بعد العلم به.

فالآيات لم تُعنَ بإثبات صدق الرسالة فحسب، بل وجّهت الخطاب أيضًا إلى المسلمين، ليتّعظوا بأحوال من سبقهم، ويحذروا من منزلقات النفس، ويعلموا أن الهداية لا تثمر إلا لمن أخلص قلبه، وفتح عقله، وتواضع للحق إذا بان له وجهه.

"سورة البقرة" (١٢٤- ١٤٣)

الابتلاء قبل التمكين

إن من طرائق القرآن المعهودة أن يربّي النفوس على معاني العدل والتكليف والتمييز بين الصالح والطالح، وإن مما انفردت به هذه الآيات من سورة البقرة أنها ربطت بين عالَم القدوة وعالَم الرسالة، فأظهرت أن الإمامة لا تُنال بالأماني، وأن الاصطفاء الرباني مشروط بصلاح القلب والعمل، لا بانتماء السلالة والعِرْق.

وقد افتتحت الآية الأولى هذا المقطع بقصة ابتلاء إبراهيم عليه السلام، وقد قُدمت بلفظ يوحي بالهيبة والتمحيص: { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...}

فالابتلاء هنا ليس عقوبة ولا محنة، بل مدرسة إعداد وتأهيل، وهي السنّة الإلهية في اصطفاء القادة والرسل، لا بد من امتحان النفس وثبات القلب حتى يستحق المرء القيادة الدينية. ولما تمّ لإبراهيم ذلك، أكرمه الله بالإمامة العامة للناس. لكنها إمامة مشروطة، فلا يحقّ لها أن تنتقل بالوراثة، إذ قال الله سبحانه: { لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}.

ثم انتقل السياق من العهد المجرد إلى مظهر من مظاهر هذا التمكين: بناء الكعبة المشرفة، فهي بيتٌ جعله الله مثابة للناس وأمنًا، وفيه مركز العبادة والتوحيد. وها هو إبراهيم يرفع قواعد البيت، وابنه إسماعيل يعينه، وقلوبهما معلّقة بقبول الله: {ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم}.

ثم يرفعا دعاءهما إلى الله أن يبعث في ذريتهما رسولًا منهم، يُزكي الناس ويعلمهم الكتاب والحكمة في إشارة إلى أن إقامة البيت ليس غاية في ذاته، بل وسيلةٌ لبعثة الرسالة.

ثم تتابع الآيات في بيان أن هذه الرسالة لم تكن طارئة، بل كانت وصيةً قديمة من إبراهيم لبنيه، ومن يعقوب لذريته، { يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَّ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}، في إشارة إلى أن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو امتداد لمنهج إبراهيم عليه السلام، وأن الإيمان بالله الواحد وتسليم القلب له هو محور الرسالات جميعًا.

ثم تقف الآيات عند موقف السفهاء من الناس، الذين اعترضوا على تحويل القبلة، ظنًا منهم أن الاتجاه الظاهري أعظم من جوهر الدين: { سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل للهِّ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ...}

وهنا يتجلى الرد القرآني الحاسم: أن الله هو المالك للمشرق والمغرب، يهدي من يشاء، وأن تحويل القبلة ليس عدولًا عن الحق، بل كشفٌ للمطيع من المعاند، وللصادق من المتلون.

ثم جاءت الآية الجامعة: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...}، فإذا بالتمكين يُعاد تقديمه، لا كتشريف، بل كتكليف، فهذه الأمة الموصوفة بالوسطية لم تُختر لتعلو، وإنما لتشهد، ولم تُبعث لتأخذ، وإنما لتعطي.

إن آيات هذا المقطع من سورة البقرة تضع بين أيدينا سنّة قرآنية متكررة: لا تمكين إلا بعد ابتلاء، ولا إمامة إلا بعد إتمام الكلمة، ولا عهد إلا لمن تطهّر من الظلم. وتُبيّن أن إبراهيم عليه السلام لم يكن نبيًّا فحسب، بل كان إمامًا مصلحًا، وأن أمنيته في ذرّيته لم تُلبَّ إلا بشرط العدالة. ومن بعده، بُني البيت ليكون مهبط الوحي، ثم بُعث خاتم النبيين من ذريته، ليكون شاهداً، ولتكون أمته شاهدةً.

تلك سنن الله، لا تحابي نسبًا ولا تنتصر لموقع جغرافي، بل تنصر الحقّ وأهله، حيثما وُجدوا وكيفما استقاموا.

"سورة البقرة" (١٤٤- ١٩١)

الإسلام ليس دين الشكليات

إذا تتبعنا سياق الآيات من الآية (١٤٤) إلى الآية (١٩١) وجدنا أنفسنا أمام نسق قرآني يقرر قاعدة كبرى من قواعد الدين: أن الإسلام لا يقوم على رسوم جامدة ولا طقوس شكلية، إنما يقوم على حقيقة باطنة وروح حية، قوامها الإيمان والعمل الصالح.

وقد ابتدأ السياق بذكر أمر تحويل القبلة. فقد كان أهل الكتاب يظنون أن التوجه إلى بيت المقدس أصل من أصول الدين، فجاء القرآن ليقرر أن القبلة إنما هي وسيلة لا غاية، وأنها رمز يجتمع به المؤمنون على طاعة ربهم، لا معبود يعبد ولا صنم يتخذ. وبهذا أبطل الإسلام عقيدة الشكل التي علِق بها اليهود، ورفع أنظار المسلمين إلى المعنى الأسمى؛ وهو التوجه إلى الله وحده:

{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [البقرة: ١٤٤].

لقد كان أهل الكتاب شديدي التمسك بالشكليات في عباداتهم، يرون في القبلة محور الدين وأساسه، كأنما لا تقوم العبادة إلا بها، فجاء الإسلام ليحطم هذه النظرة الضيقة، ويؤكد أن الدين يقوم على جوهر الإيمان وإصلاح الباطن، لا على مظاهر العبادة.

ثم جاء الحديث عن الشهداء في سبيل الله، ليزيل عن النفوس وهمًا آخر. فالناس يحسبونهم أمواتًا، بينما الحقيقة أنهم أحياء عند ربهم يرزقون. إن في هذا البيان تربية للمؤمن على أن ينظر بعين الإيمان لا بعين الحس وحده، وأن يعلم أن الحياة الحقة ليست حياة الجسد، وإنما حياة الروح المتصلة بالله:

{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ} [البقرة: ١٥٤].

وفي سياق آخر، نجد السعي بين الصفا والمروة، ذلك الطقس الذي كان العرب في الجاهلية يمارسونه، وقد أُلصقت به بعض العادات الوثنية. ومع ذلك، يؤكد القرآن على أنه من شعائر الله، وأن ما أدخله المشركون من أصنام قد أزيل، فعاد الطقس إلى طهارته الأصلية: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ١٥٨].

وهنا نجد الإسلام يفرق بين الجوهر والشكل، فلا يأخذ بالأشكال التي طمستها البدع، بل يحيي جوهر العبادة الصافية. ولقد كان السعي بين الصفا والمروة في الأصل تخليدًا لمعاناة السيدة هاجر، وسعيها بحثًا عن الماء لولدها إسماعيل عليه السلام، وهي حادثة ترمز إلى الصبر والثقة بالله. لكن المشركين أفسدوا هذه الشعيرة بوضع الأصنام، فجاء الإسلام ليزيل تلك الأوثان، ويعيد للعبادة صفاءها ونقاءها.

وبعد هذه الأمثلة من الشعائر، يأخذ القرآن بيد المؤمن ليرفعه من دائرة الطقوس الضيقة إلى آفاق الكون الواسعة. فيأمره أن ينظر إلى الليل والنهار، إلى الرياح والسحاب، إلى المطر والبحار. هنا الدعوة إلى التفكر، إلى العقل، إلى إدراك أن وراء هذه الآيات الكونية إلهًا واحدًا:

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ

كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٦٤].

ويقابل هذا المشهد البديع مشهد آخر مؤسف: مشهد المشركين الذين يرفضون النظر، ويتمسكون بتقاليد الآباء: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة: ١٧٠].

ثم يمضي الإسلام في تحطيم أوهام الشكل حين يحرم ما تشابه ظاهره من الطيبات والمحرمات، فيقول: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٧٣]، فإنما الشبه بين اللحم الحلال واللحم الحرام في ظاهرهما فقط، أما حقيقتهما فمختلفة اختلافاً بيّناً.

ويضرب القرآن على أيدي المتعلقين بالشكليات ضربة قاصمة. فالبر ليس في اتجاه ولا في حركة جسد، إنما في إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وفي إنفاق على الفقراء والمساكين، وفي عمل يقوم على الحق والعدل:

{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٧].

ثم يجيء الحديث عن القصاص؛ ليقرر أن العدالة لا تعرف لونًا ولا طبقة ولا جنسًا. فالقصاص ليس مبادلة سطحية: حر بحر، أو عبد بعبد، أو امرأة بامرأة؛ إنما هو تحقيق للعدل المطلق: النفس بالنفس. وهنا تظهر عظمة الشريعة، إذ ترفض كل مظاهر العصبية، وتضع ميزان المساواة الإنسانية تحت سلطان الحق والعدل:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى: الْحُرُّ بِالْحُرِّ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ، وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة: ١٧٨]

ولكنّ هذا القصاص - مع دقته وصَرامته - ليسَ طقسًا جامدًا يُمارسُ لذاته، بل هو عدلٌ يُرادُ به الحياة. فهُنا يأتي القرآن ليَفتح باب العفو، فيقول: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ}. فما هذا إلّا إعلانٌ بأنّ الشكلَ القانونيَّ للقصاص ليس غايةً، بل هو وسيلةٌ لتحقيق العدل والرحمة معًا.

ثمّ إنّ الله تعالى لا يكتفي بذلك، بل يُذكّرنا بأنّ هذه الأحكام ليستْ حدودًا جوفاء تُقامُ للعيون، بل وراءها حكمةٌ عُليا: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}. فالتدبُّرُ هنا مطلوبٌ، والفهم العميق واجب. فالقصاص ليس انتقامًا أعمى، بل هو نظام يُحيي القلوبَ قبل الأجساد، ويُقيم العدلَ دون أن يقتلَ الرحمةَ في النفوس.

وعندما يأمر الله المؤمنين بالصيام، يؤكد على خصوصية هذه العبادة التي تخرج عن نطاق الرياء والمظاهر:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة : ١٨٣]. فالصيام لا يكون إلا بين العبد وربه، ولا يعلمه إلا الله، لأنه عبادة سرية تُخلِّص النفس من التعلق بالشكل، وتربطها بمعاني التقوى والصدق. وكأن الله يريد أن يعلم المؤمن أن العبادة لا تكون بالطقوس التي يراها الناس، بل بتجرد الروح وصدق النية.

وبعد الحديث عن الصيام يجيء الحديث عن الدعاء:

{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} (البقرة: ١٨٦).

فالدعاء في الإسلام ليس طقوسًا معلنة ولا أصواتًا مرتفعة، بل هو همس خفي ينبع من القلب، وتسبيح صامت يتوجه به العبد إلى ربه، فيجد الله قريبًا منه، سميعًا لدعائه، مجيبًا لرجائه. إنما هي لحظة صفاء بين الإنسان وخالقه، لا تحتاج إلى تجمعات أو مظاهر، وإنما يكفي فيها صدق النية وخشوع القلب.

وقد سمعنا في زمن كورونا الدعاء من مكبرات الصوت من كثير من المساجد لرفع وباء الكورونا، ونسوا أو تناسوا أنهم بهذا الفعل خالفوا كلام الله عز وجل، الذي حذرنا من هذا الدعاء الشكلي، يقول الله عز وجل: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ} [الأعراف : ٥٥]. وقوله: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف: ٢٠٥].

وروي عن أبي موسى أنه لما غزا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير والدعاء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصما ولا غائبا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا"

ثم يعرض القرآن مشهدًا طريفًا يعكس ميل بعض الناس إلى فهم النصوص فهمًا شكليًا. يقول تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} (البقرة: ١٨٧).

فحين نزلت هذه الآية أخذ بعض الصحابة المعنى على ظاهره، فجعل أحدهم خيطًا أبيض وآخر أسود تحت وسادته، وأخذ يأكل وينظر إليهما ليتبين الفجر، فلما لم يتضح له الأمر، ذهب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره، فضحك النبي وقال له: "إنك لعريض القفا، إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل".

أرأيت كيف يوجه النبي صلى الله عليه وسلم، أتباعه إلى تجاوز الشكل إلى المعنى؟ إلى إدراك أن المقصود ليس خيطًا ماديًا، بل هو مشهد كوني فسيح، حيث ينقشع الليل ويبدأ الفجر في التمدد، فتظهر خيوط النور في الأفق، لتعلن عن بداية يوم جديد.

ثم تحذر الآيات من الفهم الخاطئ لمفهوم العدالة: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (البقرة: ١٨٨).

فهذه الآية تُمثّل ضربة قاضية لكل من يتّخذ من الشرع ستاراً لأطماعه. فليس كل ما أقره القاضي حلالاً في الضمير، وليس كل ما أُجيز شكلياً مقبولاً في حكم الله. لقد حذّر القرآن من أكل أموال الناس بالباطل، حتى لو تظاهر هذا الآكِل بثوب الشرعية. فالحكم القضائي - وإن كان ملزماً في الظاهر - لا يُغيّر من حقيقة الباطل شيئاً. وقد أكّد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ بقوله: "إنما أنا أحكم بما أسمع، فمن قطعتُ له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من نار". أليس في هذا تحذيرٌ صارخ من تقديس الشكليات على حساب الحقائق؟

ثم ينكر القرآن على العرب متابعة اليهود في تمسكهم ببعض الشكليات، فعلى سبيل المثال كان الرجل إذا أراد سفرًا ثم بدا له الرجوع لم يدخل بيته من بابه، إنما يدخله من ظهره، مدعيا أن هذا أتقى لله. وكانت طائفة منهم إذا رجعت من أعيادها تدخل البيوت من ظهورها، ويرون أن ذلك أقرب للتقوى؛ فنزل قوله تعالى: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [البقرة: ١٨٩].

ولم يكن المشركون يدركون جوهر الإسلام، بل كانوا يقيسونه على ما ألفوه من عاداتهم وأوهامهم. فقد ظنوا أن المسلمين، مثلهم، يقدسون الشكليات إلى حد التعطيل والتوقف عن الحركة والنشاط. ومن هنا، توهموا أن المسلمين يقدسون حرمة الأشهر الحرم تقديسًا يفوق تقديسهم لذاته العلية. فاغتنموا هذه الفرصة، وتآمروا على المسلمين ظنًّا منهم أن قدسية الأشهر ستحميهم من رد الفعل.

ولكن القرآن جاء ليضع الأمور في نصابها، ويعلن بصوت قوي أن الإسلام ليس دين الشكليات الجامدة، ولا يقدس الزمن على حساب الحق والعدل، كما قال تعالى: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [البقرة: ١٩٤].

وقد كان المشركون يعرفون أن المسلمين يقدّرون حرمة الأشهر الحرم، وقد اعتادوا الاختفاء والتحين للفرص، فإذا جاءت هذه الأشهر ظهروا مجددًا بجرأة واستهتار، آمنين أن المسلمين لن يجرؤوا على قتالهم. وكانوا يظنون أن حرمة الأشهر الحرم ستكبل أيادي المؤمنين، وتجعلهم عاجزين عن رد العدوان؛ فجاء الرد القرآني صريحًا قاطعًا: {وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} (البقرة: ١٩١).

ولقد ظن المشركون أن حرمة الأشهر ستمنع المسلمين من الرد على عدوانهم، وأن القيم الدينية ستجعلهم مستضعفين أمام الغدر. لكن الله أراد أن يقطع دابر هذه الفكرة الساذجة، فأوضح أن الحرمة لا تعني السكوت عن الحق، وأن القصاص هو أساس التعامل مع المعتدين. يُروى عن الحسن أن الكفار سمعوا أن الله نهى الرسول صلى الله

عليه وسلم عن القتال في الأشهر الحرم، فاعتقدوا أن بإمكانهم استغلال هذا الحظر لصالحهم. فجاء الرد الإلهي ليبين أن القصاص قاعدة عادلة، لا تنتهك حرمة الشهر إلا حين يتجرأ المعتدي على انتهاكها.

فالإسلام لا يقدس الأشهر بذاتها، بل يقدس الحق والعدل. فإذا انتهكت الحرمة، فلا معنى للتمسك بها من طرف واحد. ولذلك قال الله تعالى: {وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}، أي إن كل حرمة تقابلها حرمة، فلا يليق بالمسلمين أن يكونوا ضحايا لخداع المشركين.

وفي سياق الحج، تتجلى هذه الروح التحررية، يقول تعالى: {فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ}، ليبيّن أن شعائر الحج ليست أغلالًا تقيد الإنسان، بل هي رموز لها معانٍ عميقة. فإن كان الشعر يسبب الأذى، جاز للحاج أن يحلق رأسه، وإن لم يجد هديًا ليذبحه، فالصيام يكفيه، لأن المقصد ليس في الشكل، بل في الامتثال والانقياد لله.

ثم تأتي الآية (١٩٧) لتركز على هذا المعنى الروحي للحج، فتنهى عن الرفث والفسوق والجدال، وكأنها تريد أن تقول للناس: إن الحج ليس حركاتٍ وأفعالاً فحسب، بل هو تطهيرٌ للنفس، وارتقاءٌ بالروح.

وترد الآية (١٩٨) على أولئك الذين ظنوا أن التجارة في موسم الحج تنقضه أو تفسده. فقد كان الناس في الجاهلية يتورعون عن البيع والشراء في أيام الحج، حتى نزل القرآن يبين لهم أن ابتغاء الفضل من ربهم ليس إثمًا. يقول ابن عباس: "كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في المواسم، فنزلت: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ}".

فما فائدة أن تلتزموا بالشكليات الفارغة، من عدم البيع والتجارة، ثم تكون القلوب مليئة بالسعي وراء مظاهر الدنيا والبعد عن الآخرة؟ وما فائدة أن تعمروا الدنيا، وتجعلوا آخرتكم خربة ؟

وتقدم الآية (٢٠٠) الأمثلة على ذلك، حيث تذم صنفًا من الناس لا همَّ لهم إلا الدنيا وزينتها، فيقول تعالى: {فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ}. فهؤلاء قد ضيعوا حظوظهم من الآخرة، واكتفوا بالعاجلة الزائلة.

وتبين الآية (٢٠٣) سعة الشريعة ومرونتها، فتجيز للحاج أن يتعجل فينفر من منى في اليوم الثاني، أو يتأخر فيبقى حتى اليوم الرابع، وكل ذلك جائزٌ لا إثم فيه.

وفي ذات السياق، يحذر الله من أولئك الذين يخدعون الناس بظاهر كلامهم، فيقول: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} (البقرة: ٢٠٤). فما أشد ما يكشف القرآن هنا عن زيف الأقنعة التي يتستر خلفها بعض الناس، ممن يظهرون اللين والرقة، بينما تضمر نفوسهم العداوة والبغضاء.

وهكذا نرى هذه الآيات تنتقل بالحاج من عالم المظاهر والشكليات، إلى عالم المعاني والأسرار، لتذكره بأن العبرة ليست بالحركات والسكنات، بل بما يخالط القلوب من إيمان، وما يملأ النفوس من تقوى.

ثم تشير الآيات إلى الذين يتعلقون بالأوهام الشكلية، ويلهثون وراء الخوارق والمعجزات في قوله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ} (البقرة: ٢١٠)، فهي تشدد النكير على أولئك الذين يطلبون أن يأتيهم الله والملائكة في ظلال من السحاب، وكأن الإيمان لا يتحقق إلا برؤية العجائب. وما علم هؤلاء أن لو تحقق مطلبهم لقضي الأمر، ولأهلكوا جميعًا، لأنهم يسألون ما لا طاقة لهم به.

ثم يذكّر الله -جل شأنه- بما كان من بني إسرائيل حين طلبوا المعجزات الواحدة تلو الأخرى، فلم يؤمنوا، بل ظلوا في عنادهم وجحودهم، على الرغم من أن الآيات كانت واضحة كالشمس في رابعة النهار، يقول تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ} (الإسراء: ٥٩). وهل كان طلب المعجزات يومًا دليلًا على صدق النية أو صفاء القلب؟ كلا! إنما هو ضرب من التعلل والالتواء، وهروب من مواجهة الحق.

ثم ينبه القرآن إلى طبيعة الكافرين الذين تستهويهم الشكليات فيسخرون من المؤمنين الذين زهدوا في زخرف الحياة، واتجهت أبصارهم إلى نعيم الآخرة. يقول تعالى: {زُيِّنَ

لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} (البقرة: ٢١٢). فشتان بين قوم يبحثون عن الحق ولو تجرد من كل زينة، وآخرين لا يرون الحق إلا في حلته البراقة، فيصدهم ذلك عن رؤية الحقيقة العارية.

وتكشف الآيات عن أولئك الذين ينفقون أموالهم للسمعة والرياء، فيقول: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَّ بِهِ عَلِيمٌ} (البقرة: ٢١٥). فالإنفاق في الإسلام ليس رياءً يُزكّي به المرء صورته أمام الناس، بل هو عبادة تُنفق فيها الأموال في مواضعها الصحيحة، حيث يبتغى بها وجه الله، لا ثناء البشر.

ثم يأتي الحديث عن الجهاد، فيقرر حقيقة عميقة، مفادها أن النفوس قد تكره ما فيه الخير، وقد تحب ما فيه الضرر. قال الله عز وجل: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ، وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ} (البقرة: ٢١٦). وهل في ذلك إلا دعوة للتأمل في طبيعة النفس البشرية التي قد تنفر مما فيه نجاتها، أو تندفع إلى ما فيه هلاكها؟

ثم تعود الآيات لتشدد النكير على المشركين الذين يستنكرون على المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم في الأشهر الحرم، يقول تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهَّ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهَّ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة: ٢١٧].

فهنا نجد موقفاً صارخاً من أولئك الذين يتخذون من الأشهر الحرم ستاراً يخفون وراءه ضلالهم. ولقد استنكر المشركون قتال المسلمين في الأشهر الحرم، وكأن حرمة الزمان عندهم أعظم من حرمة الإنسان. ولكن القرآن يرد عليهم بأن الاعتداء على حرمة البيت الحرام، وصد الناس عن سبيل الله، وإخراج أهله منه، أعظم جرماً عند الله من القتال في الشهر الحرام.

ثم يأتي القرآن ليفضح زيف من يدافعون عن الخمر والميسر، بحجة أن فيهما منافع للناس، كالأرباح والفوائد المالية. ولكن أي نفع هذا الذي يقوم على الخراب ويؤدي

إلى الضياع؟ قال الله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [البقرة: ٢١٩]. وهل في تعلّق الناس بربح زائل ما يغنيهم عن خسارة الأخلاق وضياع الوعي وانهيار الأسر؟ كلا! إنما تلك دعوى زائفة، تحاول أن تزين للناس طريق الهلاك بطلاء براق.

ثم يمضي القرآن في تعرية أولئك الذين يخلطون بين الظاهر والباطن في شأن اليتامى، فيقول: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} [البقرة: ٢٢٠]. تروي التفاسير بأنه لما نزل قوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} (الإسراء: ٣٤)، شق ذلك على المسلمين، فعزلوا مال اليتيم عن أموالهم، حتى فسد الطعام، فاشتد عليهم الأمر. فجاء التوجيه القرآني ليبين أن المقصود ليس القرب المكاني، بل هو منع الاعتداء والاستغلال. فليس الإصلاح في العزل والانفصال، بل في المخالطة التي تحفظ حقوق اليتيم وتعلي من شأنه.

فهذه الآيات تكشف لنا عن منهج الإسلام في محاربة الشكليات والتركيز على الجوهر. فليس المهم أن تظهر الأشياء في قوالب جميلة، بل المهم أن تكون في حقيقتها نافعة صالحة. الإسلام دين المقاصد والغايات، لا دين المظاهر والأشكال.

وتنتقل الآيات من ميدان إلى آخر، لتكشف عن بطلان ما تعلق به الناس من مظاهر زائفة وتقاليد عمياء، فيقول الله تعالى: {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ} [البقرة: ٢٢١].

في هذه الآية نجد معياراً جديداً للزواج يختلف عن معايير الجاهلية، فليس الجمال الظاهري هو الفيصل، بل الإيمان والصلاح. أليست الأَمَة المؤمنة - وإن لم تكن بارعة الجمال - خيراً من المشركة الحسناء؟ أليس العبد المؤمن - وإن لم يكن وسيماً - أفضل من المشرك الوسيم؟ إنها ثورة على المفاهيم الشكلية التي كانت سائدة.

ويمضي القرآن ليهدم عادة أخرى قديمة، وهي تجنب مؤاكلة المرأة الحائض أو مساكنتها، وهي عادة ورثها العرب عن بني إسرائيل، إذ كانوا يعزلون الحائض ويعاملونها معاملة النجس. لكن القرآن يبين أن اعتزال المحيض إنما هو في الجماع فحسب، لا في المؤاكلة والمجاورة. فجاء القرآن ليصحح هذا المفهوم، يقول تعالى:{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ} [البقرة: ٢٢٢].

أما قوله تعالى: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} (البقرة: ٢٢٣). فتمثل ذروة هذا التحرير من الشكليات، حيث يشبه القرآن العلاقة الزوجية بالحرث. إنه تشبيه بليغ يحمل في طياته معانٍ عميقة:

أولاً: إن الزوجة كالأرض الطيبة تحتاج إلى رعاية دائمة واهتمام متواصل، فكما أن الأرض لا تثمر إلا بالسقي والعناية، فكذلك العلاقة الزوجية لا تثمر إلا بالرعاية والصبر.

ثانياً: إن التعجيل في جني الثمار يفسدها، فكما أن الفلاح الحكيم ينتظر وقت الحصاد، فكذلك الزوج الحكيم يصبر على زوجته حتى تأتي العلاقة ثمارها.

ثالثاً: إن العطاء في العلاقات الإنسانية متبادل، فكما تزرع تحصد، وكما تعطي تأخذ. إنها معادلة إلهية محكمة: "فاتوا حرثكم أنى شئتم"، أي أن العاقبة تكون بحسب الفعل.

إن هذا التشبيه القرآني يضع العلاقات الإنسانية في إطارها الصحيح، بعيداً عن المظاهر الزائفة. فليس المهم شكل العلاقة، بل جوهرها. وليس المقدار الذي تأخذه من العلاقة، بل ما تقدمه فيها. إنها فلسفة قرآنية عميقة تذكرنا بأن الحياة ليست مظاهر خادعة، وإنما هي حقائق ثابتة، وأن كل فعل لا بد وأن تترتب عليه عواقبه.

وتمضي آيات سورة البقرة لتكشف عن موقف الإسلام من الأيمان الشكلية التي لا تصدر عن نية صادقة. يقول الله تعالى: {وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ} (البقرة: ٢٢٤). إن الله عز وجل ينهى عن أن يكون الحلف باسمه حائلًا دون فعل الخير أو البر أو الإصلاح. فكثير من الناس كانوا إذا حلفوا على أمر ثم

أرادوا الرجوع عنه تورعوا عن ذلك مخافة الحنث. فجاء القرآن ليهدم هذا الفهم الشكلي للأيمان، ويحث المؤمن على أن يتجاوز القشرة اللفظية إلى الجوهر الحقيقي، وهو البر والتقوى والإصلاح بين الناس، وعن أبي هريرة عن النبي صلّى اللهّ عليه وسلّم قال (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها، فليأتِ الذي هو خير وليكفر عن يمينه).

وهكذا يريد الإسلام أن يحرر العقل من قيود العبارات الجامدة، فلا يكون اللفظ عقبة في طريق الخير. فالمهم هو أن تكون النية خالصة، وأن يكون العمل نافعًا للناس، لا أن يتمسك المرء بقسم جاف يحول بينه وبين الصواب.

ويمضي القرآن في توضيح هذه الحقيقة فيقول: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُّ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} (البقرة: ٢٢٥). إنما المؤاخذة على ما يصدر عن القلب من نية صادقة وقصد جازم، لا على ما يجري على اللسان عفوًا من غير قصد.

وهذا هو الإسلام في نقائه وصفائه، لا يقف عند الألفاظ الجامدة، ولا يكتفي بالمظاهر الخادعة. إنه دين يطلب من الإنسان أن يكون صادقًا مع نفسه قبل أن يكون صادقًا مع الناس، وأن يزن أعماله بميزان الحق لا بميزان الكلمات الجوفاء.

ومن هنا نرى كيف أن الإسلام يحارب الشكليات في أدق تفاصيل الحياة، ويأبى أن تكون العبارات الفارغة عقبة في سبيل البر والتقوى. إنه يدعو المؤمن أن يحرر عقله من سلطان العبارات الجامدة، وأن يستلهم جوهر الدين وروحه، فيمضي في حياته صادق النية، سليم القلب، لا تغره الألفاظ ولا تخدعه المظاهر.

"سورة البقرة" (٢٢٦-٢٥٢)

الخروج والانفصال

حين نصل إلى المقطع القرآني الممتد من الآية ٢٢٦ إلى الآية ٢٥٢ من سورة البقرة، قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أننا أمام مجموعة متفرقة من الأحكام والقصص: طلاق، إيلاء، عدة، فطام، إنفاق، قتال، قصص بني إسرائيل... لكن التأمل العميق يكشف أن هذه الموضوعات ليست متناثرة، بل يجمعها محور واحد هو الانفصال والخروج.

إنها رحلة ترسم للإنسان كيف ينتقل من حال إلى حال، وكيف يجعل من كل مفارقة بداية جديدة لحياة أوسع.

يبدأ السياق بأخصّ علاقات الإنسان: علاقته بزوجته. فإذا أقسم الرجل أن يهجر امرأته أربعة أشهر أو أكثر، فقد أراد أن يفصل نفسه عنها جسديًا ونفسيًا. وهنا يضع القرآن حداً فاصلاً: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. فلا محبة معلقة، ولا ظلم مستمر، بل حسم يفضي إلى وضوح: {لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة:٢٢٦]

ثم تأتي أحكام الطلاق: الطلاق مرتان، رجعي يمكن فيه المراجعة. فإن استُنفدت الفرص وجاءت الطلقة الثالثة، صار الأمر بينونة كبرى لا سبيل بعدها للرجوع إلا بزواج جديد صحيح: { الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} [البقرة:٢٢٩]

ثم يَنهى القرآن عن منع النساء من الزواج بعد طلاقهن، حمايةً لحريتهن واستقلالهن.

إنه تشريع يُعلّم أن الانفصال الأسري، على قسوته، قد يكون سبيلًا إلى حياة أنقى وأعدل: {فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ} [البقرة:٢٣٠]

ثم يذكر القرآن انفصالًا آخر في دائرة الأسرة: انفصال الطفل عن أمه بعد الرضاع عامين كاملين. ذلك الفطام، وإن كان مؤلمًا، إلا أنه انتقال من طور الاعتماد إلى طور الاستقلال: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ... فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا} [البقرة:٢٣٣]

ثم يعرض القرآن لحالة الانفصال بالموت، حين تنفصل المرأة عن زوجها بوفاته. فتُفرض عليها عدة، أو يتم تقرير وصية لها، وكل ذلك لتخفيف أثر الانفصال وضمان حقها بعد رحيل الزوج: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} [البقرة:٢٣٤]

ويشير السياق إلى حالة انفصال مبكر: طلاق قبل الدخول، أي قبل اكتمال العلاقة الزوجية. وهنا يقرر القرآن أن لا جناح فيه، لكنه يربط الأمر بالفضل والكرم، ليظل حتى الانفصال مشوبًا بالعدل والإحسان: {لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ..} [البقرة:٢٣٦]

وما تكاد تنتهي من هذه الشئون الخاصة، حتى يأخذك القرآن إلى ساحة أوسع، فإذا أنت أمام قوم خرجوا من ديارهم خشية الموت. إنه انفصال جماعي عن الوطن، لكنه بلا إيمان ولا ثبات، فجاءت نهايتهم الهلاك: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ..} [البقرة:٢٤٣]

ثم يُعرض نوع آخر من الانفصال: الانفصال عن المال. فالذي ينفق ماله في سبيل الله يظن أنه فَقْدٌ، ولكنه في الحقيقة غُنْم، لأن الله يضاعف له الجزاء أضعافًا مضاعفة:

{مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً..} [البقرة:٢٤٥]

ثم تظهر صورة أعمق للانفصال الاجتماعي والسياسي: قوم طلبوا من نبي لهم أن يبعث عليهم ملكًا يقودهم للقتال. فلما فُرض عليهم القتال تراجع أكثرهم. ثم جاء الابتلاء بالنهر، فانفصل المخلصون عن المدّعين: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ..} [البقرة:٢٤٩]

إنها سلسلة انفصالات: من الأرض، من المال، من الهوى، ومن صفوف المتخاذلين... ووراء هذه الصور كلها معنى أعمق: أن القرآن يريد أن يربّي المؤمن على التحرر من التعلقات الدنيوية. فانفصال الزوج عن زوجته أو العكس ليس نهاية، بل انتقال إلى بداية جديدة. وانفصال الولد عن أمه خطوة نحو النضج. وانفصال الإنسان عن ماله أو وطنه امتحان لإيمانه. والانفصال عن الجند المتخاذلين غربلة ضرورية لتمييز الصفوف.

وهكذا يُظهر القرآن أن الانفصال قد يكون محنة ظاهرًا، لكنه في جوهره منحة روحية، يقرّب العبد من ربه، ويمهّد له طريق النصر والتمكين.

بهذا يجلّي لنا القرآن نسقًا متكاملاً:

من الأسرة إلى المجتمع إلى الأمة، ومن الجسد إلى المال إلى الروح... كلها دوائر يشملها قانون واحد: الانفصال سبيل التحول. فالانفصال في البيت يعلّمك الحكمة والصبر، والانفصال في المجتمع يدرّبك على التضحية والثبات، والانفصال الروحي يطهّرك من علائق الدنيا، حتى تكون مؤهلًا للتمكين.

وبذلك ينكشف إعجاز القرآن في نسقه: آيات تبدو متناثرة، فإذا جمعتها ألفيتها لبنات في بناء واحد، يعلّم الإنسان أن كل فراق في منطق الوحي ليس انهدامًا، بل هو بناء لمرحلة أوسع وأكمل.

"سورة البقرة" (٢٤٣-٢٨٦)

{اسم الله الحي}

إنّ من يتأمّل بناء السور القرآنية يلحظ تلاحم مقاطعها، وترابط حلقاتها، حتى ليخيّل إليه أنّ كلّ مقطع منها لبنة في جدار واحد، أو حلقة في سلسلة متصلة لا تنفصم. فكثيرًا ما يبدأ المقطع بجملة من الآيات تحيط بمعنى واحد، ثم تأتي في ختامه آيات تمهّد للدخول في محور جديد، فتكون كالجسر بين المقطعين.

ومن أبدع الشواهد على ذلك ما نراه في ختام المقطع السابق الذي تناول "الخروج والانفصال"، حيث تلتمع بين آياته الأخيرة أنوار اسم الله الحي، فتأخذ بيد السامع إلى أفق أرحب يدور حول هذا الاسم الجليل. وهكذا، ما بين الآية (٢٤٣) إلى الآية (٢٨٦) نجد مقطعًا متماسكًا يشعّ بنور هذا الاسم العظيم، يردّد على الأسماع أن الحياة الحقيقية إنما هي من عند الله الحي الذي لا يموت، وأن كل حركة في الكون، وكل نصر أو خذلان، وكل قيام أو سقوط، إنما هو أثر من آثار اسمه الحي.

فالناظر في هذه الآيات يلمح لوحة فنية متقنة الصنع، يجمعها خيط ناظم دقيق، لا يظهر للعابر السطحي، بل ينكشف للمتأمل العميق. وكأنما القرآن يصوغ هنا سيمفونية كبرى لحياة الأمة الإسلامية، تبدأ بالنفوس الفردية، فترتفع إلى الأمم الجماعية، لتصل إلى الذات الإلهية العليا، ثم تعود لتنتشر في الكون كله.

في البداية، ترى آية الخروج من الديار:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} [البقرة: ٢٤٣].

أيظن هؤلاء أن في فرارهم من الموت نجاة؟ كلا! إنما الحياة والموت بيد الله الواحد. ثم تمضي الآيات فتربط بين الجهاد والإنفاق، وكأنما تريد أن تقول للأمة: لا حياة لكم إلا بالبذل، بذل النفوس في الجهاد، وبذل الأموال في الصدقات:

{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: ٢٤٥].

وتأتي قصة طالوت وجالوت في الآيات من (٢٤٦-٢٥١) لتكون مثالاً حياً على هذه النظرية القرآنية في حياة الأمم. فبني إسرائيل -وهم أمة من الأمم- طلبوا القتال لتحيا كرامتهم، فكانت المعجزة في النصر بالقلة على الكثرة، ليعلموا -وليعلم العالم كله- أن الحياة لا تُقاس بعدد الرجال، ولكنها تُقاس بإيمان القلوب وصدق العزائم.

وهنا، في ذروة هذا البناء المحكم، ينبثق النور الأعظم في آية الكرسي، كالشمس تضيء ما قبلها وما بعدها:

{اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

إنها ليست آية عابرة، بل هي القلب النابض في القرآن كله، والمصدر الذي تنبع منه كل حياة، والمآل الذي تعود إليه كل قيمة، قال فيها النبي، عليه الصلاة والسلام، لكعب: "أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟" قال: الله ورسوله أعلم. قال: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم".

إنها آية حياة، وفيها خلاصة هذه المجموعة من الآيات التي تدور حول الإحياء، وتكشف للمتدبّر عن صور الحياة التي يهبها الله.

فهو يحيي الموتى بالنشور، ويحيي الأمم ببعثة الأنبياء، ويحيي الناس بإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ولم يقف القرآن عند هذا البيان النظري، بل مضى يقدم الأدلة الحسية على هذه الحقيقة الكبرى. فها هو يخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وهي حياة القلوب:

{اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢٥٧].

وها هو إبراهيم يحاجج النمرود في مسألة الإحياء والإماتة:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ..} [البقرة: ٢٥٨]

وها هو الرجل الذي مر على القرية الخاوية فشاهد بعينه كيف يحيي الله الموتى:

{أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا..} [البقرة: ٢٥٩]

وها هو إبراهيم مرة أخرى يطلب البرهان الحسي على قدرة الله في إحياء الموتى:

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى...} [البقرة: ٢٦٠]

ثم يُتحفنا القرآن بمثال بديع، لا يُقاس فيه الإحياء بالأجساد، وإنما يُقاس فيه المال بالحياة. فالصدقة في يد المؤمن تصبح زرعًا حيًّا، ينبت السنابل وتورق الثمار: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٦١]

أما الذي يتصدق رياءً، وهو لا يؤمن بالله الحي، فإن ماله لا يُثمر، ولا يحيى، بل يذبل ويموت، كمطرٍ أصاب حجرًا أملس، فغسله حتى جرده: {فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا}.

فليس "الحي" - في هذا السياق البليغ- مجرد اسم من أسماء الله الحسنى، بل هو حقيقة كونية تتدفق في كل مخلوق، وتتجلى في كل موجود. إنه الحياة في نفوس الأفراد، والحياة في الأمم والشعوب، والحياة في أموال الأغنياء، والحياة في قلوب المؤمنين، والحياة في أرض الموتى يوم القيامة.

هكذا يبني القرآن فلسفته للحياة، ليس كلمة تقال، ولكن حقيقة تتحقق، ودليل يبرهن، ونظام متكامل يربط الأرض بالسماء، والمادة بالروح، والفرد بالجماعة، والدنيا بالآخرة.

ثم إذا مضيت في سياق سورة البقرة بعد الآيات التي تحدّثت عن حياة الأعمال بارتباطها بالله الحي، وجدت نفسك أمام مشهد آخر يُظهر لك أن كل عملٍ لا يُربط بالحي القيوم، فهو عمل ميت مهما بدا متحركًا نابضًا. انظر إلى قوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٦٤]

هنا رجل يُنفق، ولكن يُفسد إنفاقه بالمن والأذى. أليس يشبه صفوانًا أملس، ألقى عليه المطرُ قليلًا من التراب، ثم لم يلبث أن كشفه وتركه صلدًا قاحلًا؟ صورة بديعة لعمل يظنه صاحبه حيًّا، فإذا هو ميت لا ثمرة فيه ولا بركة له.

ثم انظر إلى مثل آخر: رجلٌ له جنة فيها كل الثمرات، فلما بلغ الكِبَر واشتد ضعفه، وأصبح له ذرية ضعفاء يحتاجون إلى ثمارها، إذا بها تحترق وتبيد:

{أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} [البقرة: ٢٦٦]

ثم يمضي السياق إلى صورة المال الميت، مال الربا:

{يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} [البقرة: ٢٧٦]

فالذين يأكلونه يظنون أنهم يزيدون أموالهم، ولكن الله يمحقها ويذهب بركتها، فإذا هي نموّ في الظاهر، موت في الحقيقة، لأنها لم ترتبط ببركة الحي القيوم الذي يُنمّي الصدقات ويُزكيها.

ويختم السياق بآية الدين الكبرى، آية التوثيق، ليقرر أن حياة الأموال لا تقوم على كثرتها فحسب، بل على صدقها وأمانتها، وعلى أدائها إلى أهلها محفوظة موثقة:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ..} [البقرة: ٢٨٢]

هكذا ترسم الآيات صورًا متتابعة للعمل الذي انفصل عن الله الحي، فإذا هو ميت لا ثمرة له: صدقة باطلة، وجنة محترقة، ومال ممحوق، وحقوق ضائعة. كلها وجوه مختلفة لمعنى واحد: أن كل فعل أو مال أو علاقة لا يتصل بالحي القيوم، سرعان ما يتبدد، ويذهب هباءً، ويُترك صاحبه صفر اليدين. أما إذا ارتبط بالله، فهو حيٌّ باقٍ، يزكو في الدنيا ويثمر في الآخرة.

هكذا تنقضي الآيات، وتصل بنا إلى بداية سورة آل عمران:

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران: ٢] ، فإذا بهذه الآية تعود ثانية، لا تكرارًا، بل توكيدًا وتثبيتًا. وكأن القرآن يريد أن يغرس هذا الاسم العظيم في القلوب، كما تُغرس الشجرة في التربة الطيبة، فلا تزال تنمو وتورق وتثمر.

أفليست الحياة كلها تدور على هذا الاسم؟ أفليس هذا الاسم هو المعنى الجوهري الذي تنبض به السورة من بدئها إلى ختامها؟

وبهذا يتضح أن سورة البقرة من أولها إلى آخرها، إنما هي بيان ممتد لهذه الحقيقة الكبرى. فهي تعرض صور الحياة والموت في الأفراد والأمم والأموال، ثم تردها في النهاية إلى أصلها الجامع: الله، لا إله إلا هو، الحي القيوم. فمن أراد أن يعرف سرّ حياته، فليبحث عنه هنا، عند من بيده الحياة والقيومية، لا عند ما يتبدى للعين من أسباب ظاهرية زائلة.

هكذا تمضي سورة البقرة، في عرضها للقصص والأمثال والأحكام والشرائع، ثم في بيانها لمصائر الأمم، وأحوال الأفراد، ومواقف القلوب بين إيمان وكفر ونفاق. وكل ذلك إنما يرجع إلى حقيقة واحدة: أن الحياة كلها من الله، وأن القيومية له وحده، يقوم بها الوجود، فمن اتصل بالحي القيوم حيي قلبه وماله ومجتمعه، ومن أعرض عنه مات، وإن ظن نفسه حيًّا.

فإذا تأملت معنى القيّوم، وجدت نفسك بإزاء مفهوم لا يقف عند حدود اللغة، ولا يقتصر على ما تعطيه الألفاظ من الدلالة المباشرة، بل يتجاوز ذلك إلى ما هو أعمق. فالقيّوم هو القائم على الخلق جميعًا، لا تقوم لهم حياة إلا به، إذ لا وجود لشيء مستقل عن الله، ولا قيام لمخلوق في ذاته. فالإنسان، على ما أوتي من قدرة وعقل، لا يستطيع أن يزعم لنفسه استقلالًا حقيقيًا؛ لأنه في كل لحظة محتاج إلى ما يمدّه الله به من حياة ورزق وأمان. والعالم كله، على اتساعه وتعقيده، قائم بهذه العلة الأولى التي لا علة قبلها ولا سبب وراءها.

فالله قائم بنفسه، غني عن العالمين، لا يحتاج إلى معين، ولا سبب. وهو وحده الذي تستوي له الغاية والوسيلة، ويستغني عن كل ما سواه، بينما يفتقر كل ما سواه إليه. فهو ليس مجرد قائمٍ على الخلق في حاضرهم، إنما قائم عليهم في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم. وهو الباقي الذي لا يزول، والدائم الذي لا يتغير. والوجود من حوله في تحول وتغير: يولد ويموت، يبنى ويُهدَم، ينمو ويذبل. أما هو، فلا يلحقه فناء، ولا يعرض له ضعف، فالقيومية ليست مجرد صفة من صفاته، بل هي مبدأ يفسر استمرار العالم، ويعلل بقاءه، ويقيم البرهان على أنه لا صلاح له ولا دوام إلا بالله.

اللهم يا حي يا قيوم، يا من لا تأخذه سنة ولا نوم، قُم بقلبي إذا وهَن، وأقم روحي إذا ضعفت، وأقم أمري إذا اضطرب، وأقم لي من أمري رشداً. اللهم إن قيامي بك، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحدٍ من خلقك، واجعلني دائم الاعتماد عليك، مستظلًّا برعايتك، مطمئنًّا بقيوميتك، آمين.

سـورة آل عمـران

جينات الثبات وجينات العناد

تدور سورة آل عمران حول معركة طويلة بين "جينات الثبات" التي أورثها الله للصفوة من خلقه، و"جينات العناد" التي توارثها المكذبون عبر العصور. والسورة لا تقف عند سرد الأحداث، بل ترسم لنا خريطة الجينات الروحية التي تنتقل من الآباء إلى الأبناء، من آل عمران وآل إبراهيم، إلى أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، في مقابل آل فرعون وأهل الكتاب الذين استحبوا العناد على الهدى. فهي سورة تصنيف لا للأقوام فحسب، بل للقلوب والأنفس والطبائع، تمهيدًا لاختيار صفّ الثابتين.

فالناظر في سورة آل عمران، لا يخفى عليه أنها قد نُسجت على منوال خاص، يربط بين أنساب الأنبياء وأحوال الأمم، وبين ما يعتري النفوس من رسوخ الإيمان أو تمكّن العناد. فهي لا تكتفي بسرد القصص، ولا تعرض مشاهد العقيدة والتشريع عرضًا عابرًا، إنما تُقابل بين طائفتين من الناس: طائفة رُزقت الثبات على الحق، وطائفة أُشربت قلوبها العناد فاستمرأت الباطل. وقد استهلت السورة بالإشارة إلى قدرة الله في الخلق والتكوين:

{هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء}

وهذا التعبير، على وجازته، يشير إلى أن الله لا يصوغ الجسد فحسب، بل يضع في النفس ما يشاء من طباع واستعدادات، وهو ما تفسره السياقات التالية من السورة، حيث نرى أُناسًا اصطفاهم الله لحمل الأمانة، فجاء الثبات مركوزًا في فطرهم، واليقين مزروع في قلوبهم.

أرأيت آل عمران؟ ما كانوا رجالا فحسب، ولا نساءً فقط، بل كانوا سلالة من الثبات، طبعهم الله على الصبر، وجبَل قلوبهم على النقاء، فجاء زكريا فيهم داعيًا، ومريم طاهرةً، ويحيى سيدًا حصورًا، وعيسى كلمةً وروحًا. لا يتقلبون، ولا يتذبذبون، ولا يتلونون كما يتلون أهل الأهواء.

هم، كما الآيات المحكمة، لا يزيغ عنهم القلب، ولا يحار فيهم النظر. وتلك إشارة إلى أن الله يخلق النفوس كما يخلق الأجساد، وأن هناك صنفًا من الناس يُجبلون على الثبات، وآخرون على التذبذب والزيغ. وهذه الرؤية تتماشى مع قوله في سورة الأعراف عن القلوب المحجوبة {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا...}.

ثم تشير السورة إلى الآيات المحكمات والمتشابهات بقوله:

{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ..}

فكما أن هناك آيات واضحة لا لبس فيها، فهناك قلوب مستقرة لا زيغ فيها. فالمتشابهات تتطلب قلبًا راسخًا في العلم، مثلما يتطلب الثباتُ قلبًا نقيًّا لا يتبع الهوى. هذا التقابل يضيء السورة كلها من زاوية جديدة.

كما يظهر هذا الاصطفاء في آل عمران وآل إبراهيم، وفي طائفة من الأنبياء والرسل، الذين جمعهم وصف جامع: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}.

فهؤلاء لم يكونوا أفرادًا في أزمنتهم، بل كانوا أصولًا لسلالاتٍ من الثبات، انتقل فيهم الإيمان كما تنتقل السجايا، وتوارثوا صفاء القلب كما يُورث المجد والشرف.

ثم تأمل كيف يعرض القرآن أولئك الذين يُضادّون هذا النقاء، فتراهم على النقيض منه تمامًا: أهل كتاب يحسدون، وطائفة تضلّ، وآل فرعون يكذبون. هؤلاء لم يأت عنادهم من قرار لحظة، ولا من فتنة عابرة، وإنما من طبع راسخ، ومن طبيعة لا تهتدي. كأن الكفر يجري في عروقهم، وكأنهم يرثونه كما يرثون أسماءهم وصفاتهم. وما أشد ما يصورهم القرآن بقوله: {وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ}

فليسوا ضُلالًا فحسب، بل دعاة ضلال، وما ذاك إلا لأن في نفوسهم طبعًا لا يرضى بالحق، ولا يسكن إليه. فهم لا يكتفون بأن يضلوا، بل يريدون أن يُوَرِّثوا الضلال، كما ورثوه.

ثم يذكر الله نموذجًا متكررًا في التاريخ: آل فرعون، الذين ورثوا التكذيب كابرًا عن كابر، فكانت نهايتهم عبرة لمن خلفهم. والقرآن، حين يكرر ذكر هؤلاء، لا يريد مجرد الحكاية، بل يريد أن يقرر سننًا تتكرر، ونماذج تتعاقب.

وتتابع السورة في عرض تلك السنن، حتى تَذكُر الحواريين مع عيسى عليه السلام، وأصحاب بدر وأُحد مع محمد صلى الله عليه وسلم، وكأنها تقول: إن الثبات على الحق لا ينقطع، وإن الله لا يخلي الأرض من أولي بأسٍ في سبيله، يصبرون حين يفشل غيرهم، ويثبتون حيث يفرُّ الجبناء: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا...}.

ثم تختم السورة بنداء جامع، يضع ثمرة هذه السرديات كلها في سطر واحد:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}،

فهي وصية جامعة تذكّرنا أن الإيمان لا يتم إلا بثبات النفس، ومجاهدة الهوى، ورباط القلب على الحق، وإن هذه الصفات ليست نبتةً عارضة، بل هي، عند من وفَّقه الله، خُلقٌ راسخ، وملكة مستديمة، ينبتها الله في القلوب كما ينبت الزرع في الأرض الطيبة.

وهكذا، نرى أن سورة آل عمران تعرض علينا نموذجين متقابلين:

أحدهما: من ورث الإيمان والإخلاص، وجُبل على الصبر والثبات، كما في آل عمران ومن سار على نهجهم.

والآخر: من رُبي على الجحود، وورث العناد، كما في أهل الكتاب وآل فرعون ومن شابههم.

وبين هذين النموذجين، يدعونا القرآن أن نختار، وأن نُعِد أنفسنا إعدادًا يليق بحملة الرسالة، وأن نرابط لا في الثغور فقط، بل في ميادين النفس، حتى لا تهزمنا الأهواء ولا تُزلزلنا الفتن.

فالخلاصة إن بنية سورة آل عمران، تدلنا - موضوعًا وترتيبًا- على أن الثبات والعناد ليسا ظاهرتين طارئتين في النفس البشرية، بل قد تكون لهما جذورٌ سُلالية، وصفاتٌ

موروثة تُصقل بالتربية والتجربة[1]. وتُظهر السورة أن من الناس من يخلق الله فيهم استعدادًا للثبات، ويجعلهم محكمين كالآيات المحكمة، ومنهم من يخلق فيهم ميلًا للزيغ، كالآيات المتشابهة. وهي بذلك تدعو المؤمن أن يسعى لتثبيت قلبه، وأن يربّي نفسه وأبناءه على الصبر والمصابرة، حتى يكون من أهل الاصطفاء لا من أهل الانحراف.

[1] وهذا ما أشار إليه كتاب (الجين الالهي) nethe God ge الذي كتبه عالم الوراثة "دين هامر"، وهو كتاب مثير ومحفز للقراءة، ويشير في هذا الكتاب إلى أن جين الروحانية أو التدين، يسمى (VMAT٢) وهو مسؤول عن الروحانية في الإنسان، وهو الجين الإلهي وهو حلقة الوصل بين الانسان وربه.
وقد قال المؤلف بأنَّ الروحانية شيء عالمي وأنها متاحة للجميع، وهي أوسع من مفهوم الدين فكل متدين لديه روحانية، لكن ليس كل من لديه روحانية متدين. فالروحانية موروثة على عكس التدين. فالتدين- وإن كان له مكون وراثي- إلا أنه أضعف بكثير من المورث الخاص بالروحانية. فالدين، على النقيض من الروحانية، لا ينتقل عن طريق الجينات، بل عن طريق الميمات، والميمات هي الأفكار التي تنتقل من فرد إلى آخر من خلال الكتابة، والكلام، والطقوس، والتقليد.

سـورة النسـاء

ظلم المستضعفين

لا أظن أنّ في كتاب الله سورةً كانت أصدق تصويرًا للمجتمع، ولا أبلغ دفاعًا عن المظلوم، ولا أشدّ حفيظة على العدالة، من سورة النساء. ولست أعني بهذا الاسم عنوانًا فقهيًّا لما يجوز ولما لا يجوز، بل أراه عنوانًا إنسانيًّا، يفيض بالشعور، وينضح بالرحمة، ويُمسك بناصية الظلم ليهشمه، دون صخب، ودون دمدمة، بل بحجّة نازلة من السماء، لا تميل مع الهوى، ولا تتردد أمام سلطان.

ولقد شاء الله أن تكون المرأة عنوان السورة، لا لأنها وحدها المستضعفة، ولكن لأنها كانت في صدر الجاهلية رمز الضعف، ومضرب المثل في المهانة. فقد كانت تُورث كما يُورث المتاع، وتُحبس كما يُحبس الحيوان، وتُكرَه على من لا تهوى، وتُحرم ما كتب الله لها، من مهر ونفقة وميراث. يقول النبي، صلى الله عليه وسلم: "اتقوا الله في النساء، فإنهن عوانٌ عندكم"، أي أسيرات لا يملكن أمرًا، ولا يُمسكن من الحياة إلا ما تُمسك به الأسيرة في يد جلادها.

تبدأ السورة بوصية جامعة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾

وفي هذا تنبيه على وحدة الأصل، قبل أن تُقسّم الطبقات وتتفاوت المصالح.

ثم تنتقل إلى المرأة، باعتبارها الطرف الأكثر تعرضًا للظلم الاجتماعي. فَتُنكر السورة الاستيلاء على أموالهن: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾

ثم لم تكد الآيات تُفيض في شأن النساء، حتى انعطفت إلى اليتامى، أولئك الذين لا أب لهم يذود عنهم، ولا أم تضمن لهم حنانًا، فإذا المال يؤكل من أيديهم، وإذا الحقوق تُنتزع من أفواههم، وإذا الناس، في غفلتهم أو شهوتهم، لا يبالون من يأكل، ومن يجوع، ومن يبكي، ومن يضحك.

ولم تكتفِ السورة بنهي جاف، أو وعيد صارخ، بل قالت في لطف وحزم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾. فانظر كيف جعل الله الظلم نارًا، والنهم إلى المال جحيمًا، والطمع في حق الضعيف سببًا في الخلود إلى عذاب لا يُطفأ.

ثم جاءت آيات المواريث، وما كانت من قبل إلا أحجية تتقاسمها الأهواء، فصار الأمر فيها مفصّلًا تفصيلًا، لا على حسب القوة، ولا على حسب الجنس، بل على حسب العدل، الذي لا يُراعي شهوة ولا عرفًا، وإنما يُراعي الموازين التي وضعها الله.

ثم مضت السورة تتدرج من العدل في البيت، إلى العدل في الدولة، إلى العدل في الحرب، إلى العدل في الاعتقاد. فها هو الصوت الرباني يقول:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾.

وهذه ليست دعوة إلى الزهد، بل تحذير من الظلم في قلب الأسرة، حيث العواطف تميل، والضمائر تغفو، فتُظلم امرأة لتحيا أخرى في دلال كاذب، أو مكانة لا تستحق.

ثم بلغت السورة ذروتها حين أمرت بالجهاد، لكن أي جهاد؟ أهو جهاد الطامعين؟ أهو جهاد الفاتحين؟ كلا، بل هو جهادٌ في سبيل المستضعفين:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾

هؤلاء الذين يُعذبون، ويُطردون، ويُحاصرون، ويُمنعون من أن يقولوا "ربنا الله".

فصار الجهاد، لا حربًا من أجل الأرض، بل نُصرةً لمن ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت.

ثم إذا السورة تُدين من يقول لمن يُلقي السلام: "لست مؤمنًا"، أي من يتخذ من الشك حجة للعدوان، ومن الظن سببًا لسفك الدماء، ومن الهوى أداة لذبح الأبرياء.

ثم نبلغ الخاتمة، فإذا بنا أمام مشهد هائل، تهتز له النفس، وتدمع له العين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾

تسألهم الملائكة: "فِيمَ كُنتُمْ؟"

ما بالكم رضيتم بالذل؟ وسكتّم على الجور؟

فمن كان لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلًا، فعسى الله أن يعفو عنه.

أما من كان قادرًا على أن يقول "لا" فلم يقلها، فهو شريك في الظلم، شريك في الخوف، شريك في السقوط.

وليس غريبًا أن تختتم السورة بالحديث عن مريم البتول، التي افترى عليها قومها، وعن المسيح عليه السلام، الذي زعموا أنهم قتلوه، وما قتلوه، وما صلبوه، ولكن رفعه الله.

هكذا تكشف السورة عن طائفة من الناس كانوا في كل زمان:

يظلمون النساء باسم العرف، واليتامى باسم المصلحة، والمستضعفين باسم السياسة، والأبرياء باسم الدين.

لكن القرآن لا يسكت، ولا يتواطأ، بل يُدين، ويُحاجج، ويُقاتل... بالكلمة، وبالعدل، وبالحقّ.

فما سورة النساء إذن، إلا ميثاق العدالة في الأرض، حين يضيع الميثاق بين الناس.

وما هي إلا أيقونة الرحمة في عالم لا يعرف إلا القوة.

وما هي إلا صوت الله، يُنادينا من فوق سبع سماوات: "لا تظلموا المستضعفين"

سورة المائدة

الميثاق

أحسبُ أن القارئ حين يفتح المصحف على سورة المائدة، لا يلبث أن يشعر أنّه بين يدي وثيقةٍ عظيمة، أشبه ما تكون بدستورٍ إلهيٍّ تنطوي بنوده على تعاقدٍ جليل، لا بين بشرٍ وبشر، بل بين الله وعباده. وما أكثر ما تُفتتح هذه الوثيقة الإلهيّة بنداء يذكّر بالعهد، ويستنهضُ ذاكرة المؤمنين: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا). ستة عشر نداءً يُقرَعُ فيها سمعُ القارئ، حتى ليظن أن السورة كلها ليست إلا ميثاقًا يتلوه ميثاق.

وإذا أنت تأملت افتتاح السورة وجدت الأمر صريحًا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)، ولا يخدعنك ظاهرُ اللفظ فتحسبنه من حديث التجار وأرباب السوق؛ بل هو حديث عن تلك العقود التي ربطت الأرض بالسماء، وجعلت بين الله والناس عهدًا، إن أوفوا به أكرمهم، وإن نقضوه أذاقهم الخسران المبين.

وقد رأى الله أن يبدأ بميثاق الطعام، فما أحلّه لعباده لم يكن عفوًا ولا سدى، بل كان بإذن منه ووفاءٍ منهم. وفي تتابع الآيات يتبدّى للمؤمن كيف أن الحلال طهورٌ، وأن الطيبات من الطعام صورة أخرى من صور الوفاء: (أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ)، وكأن الطهر في اللقمة هو الخطوة الأولى على طريق العهد.

ثم ينتقل بنا الحديث إلى ميثاق النكاح: (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ)، فيبيّن أن الرباط بين الرجل والمرأة ليس رباط شهوة، بل هو رباط ميثاق: (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا).

ولا يكتمل الميثاق إلا بالعدل. فطهارة الجسد لا تُغني عن طهارة النفس، وعدل القلب لا يقلُّ شأنًا عن عدل الميزان. ومن هنا جاء الأمر الصريح: (كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)، وهنا يظهر أن العهد مع الله لا يُنال إلا بالعدل، وأن المكر والشنآن لا يفسدان العلاقات بين الناس فحسب، بل يمزقان الميثاق مع الله ذاته.

ثم يعرض النص القرآني لصفحة من التاريخ الإنساني. أمة قد خالفت الميثاق: (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)، فإذا هم ينقضونه مرةً بعد أخرى، حتى حيل بينهم وبين الأرض المقدسة. لقد استبدلوا الضيق بالسعة، والتيه بالهداية، ونقضوا العهد الذي كان لهم عند ربهم، فنبذهم كما ينبذ أحدُنا صحيفةً نقض فيها خصمه توقيعه.

ثم جاءت قصة قابيل وهابيل. ما الذي جاء بابني آدم في هذا الموضع؟ إنه نقض العهد من جديد. فذاك الذي رفع يده ليقتل أخاه، إنما أفسد ميثاق الأخوة، ونكص عن عهده الذي أُخذ عليه بالفطرة والعقل والدين. (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ)، فكان أول من نقض العهد بيده.

وفي الحديث عن المفسدين الذين آذوا النبي وقتلوا الرعاة، تبرز السورة أن نقض الميثاق ليس مجرد خيانة فردية، بل جريمة اجتماعية، تَشِيحُ لها الوجوه، ويستحقُّ بها العقاب: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ..}. مشهد جسديٌّ دامٍ، يكشف أن الميثاق إذا نُقض، سال الدم، وتقطّعت الأعضاء.

ويبلغ السياق ذروته مع الحواريين والمائدة: (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ)، فقد طلبوا آية، واشترطوا عهداً، ولكنهم – كغيرهم – لم يلبثوا أن نكصوا. ولهذا جاء السؤال الإلهيُّ الرهيب في ختام السورة: (أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ)، سؤالُ من يُحاسب على نقض العهد والميثاق.

وبين هذه المواثيق كلها، يسري في السورة دمٌ قانٍ، تسيل آثاره من بداية السورة إلى نهايتها. إنه دم الذبيحة، ودم الشهيد، ودم القاتل والمقتول، ودم يد السارق، ودم المفسد، ودم المسيح المصلوب في تصوّر القوم. وكأن السورة كلها تُرينا أن العهد لا يُحفظ إلا إذا احترم الإنسان جسده، واحترم جسد أخيه، فكان الطعام طهورًا، والنكاح ميثاقًا، والقصاص عدلًا، والدماء مصونة.

هكذا تمضي سورة المائدة، لا كسائر السور، بل كوثيقةٍ تنبض بالحياة والموت، باللحم والدم، بالوعد والوعيد. وكلما قلبت آياتها، وجدت نفسك أمام مرآة من عهد، إن صَدَقتَ فيها كنت من الذين أوفوا بعهدهم ولم ينقضوا الميثاق، وإن خنت، رأيت دم قابيل يسيل

من بين الحروف، ورأيت المائدة تُرفع، ورأيت السؤال: "أأنت قلت؟" يُلقى عليك لا على المسيح.

كأنها سورة كُتبت لا بالحبر، بل بدمٍ لا يجف، وعهدٍ لا يُمحى، وكلمةٍ لا تتبدل. وكأنها تناديك كلما قرأتها:

"فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما".

سـورة الأنعـام

وتمت كلمةُ ربِّك صدقًا وعدلًا

لعل من الخير ونحن نقرأ سورة الأنعام أن نلتمس فيها الكلمة الجامعة التي تنتظم مواضيعها كله، والتي إن استقرت في الذهن انكشف ما حولها من الآيات انكشافًا بيِّنًا.

وأحسب أن هذه الكلمة الجامعة هي قوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام:١١٥]

فما معنى كلمة ربك؟ أهي لفظ يُتلى، أم حكم يُقضى، أم رسالة تُبلغ؟

والذي أميل إليه أنها رسالات الله إلى البشر جميعًا؛ تلك السلسلة المتصلة من الهداية، التي ابتدأت منذ أن عرف الإنسان ربه، ولم تنقطع حتى ختمت بمحمد ﷺ. وهذه الرسالات إذا تأملناها لم تقم على قوة السيف، ولا على دهاء السياسة، وإنما قامت على أصلين لا يقوم الدين بغيرهما: الصدق والعدل.

فالرسالة إن لم تكن صادقة، لم تكن من عند الله. وإن لم تكن عادلة، لم تصلح لقيادة البشر. ومن هنا نفهم لماذا تسوق السورة أسماء هذا العدد الكبير من الأنبياء في سياق واحد: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، ولوط، واليسع...

إنها لا تذكرهم لمجرد السرد، ولا لتُحصي الأسماء، بل لتُقيم أمام القارئ موكبًا طويلًا من الهداة، اجتمعوا على شيء واحد: أن كلمتهم كانت صدقًا، وأن حكمهم كان عدلًا.

ثم تأتي الدعوة الصريحة: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠].

فكأن السورة تقول: إن أردت أن تُقيم حضارة ربانية، فلا تخترع لنفسك منهجًا من عندك، بل اقتدِ بهذا السلسلة من الصادقين العادلين.

فقد يُخيَّل إلى بعض الناس أن العدل وحده يكفي، وأن إقامة نظام عادل في توزيع الحقوق كافٍ لبناء حضارة عظيمة. وهذا شيء غير صحيح. فالعدل إذا انفصل عن الصدق كان كطائر يحاول أن يطير بجناح واحد؛ لا يلبث أن يختل توازنه، ثم يسقط.

قد يعدل الإنسان في بعض أحكامه، لكنه إذا كان كاذبًا في دعواه، مختلًا في صلته بالحقيقة، فإن عدله الجزئي لا يحفظه طويلًا. ومن هنا نفهم، في سياق السورة، قوله تعالى: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}. وقد قال المفسرون: بأن معنى الآية يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم.

ولست أميل إلى حصر معنى "يعدلون" في معنى الشرك، وإن كان اللفظ يحتمله. بل أراه يشير إلى صورة من صور العدل الظاهر الذي لا يسنده صدق. كما يقول تعالى: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف : ١٨١] وقوله: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف : ١٥٩]، فهم يُقيمون شيئًا من العدل في بعض الشؤون المدنية والقانونية، لكنهم لا يقيمونه في أصل القضية؛ في علاقتهم بالله، وفي موقفهم من الوحي. فإذا اختل الأصل، لم يُغنِ الفرع.

لهذا تعرض السورة صورة أخرى أشد وضوحًا: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ} [الأنعام : ٩٣].

هنا يبلغ الخلل منتهاه. أناس يزعمون لأنفسهم وحيًا، ويريدون أن يُنشئوا لأنفسهم سلطة روحية باسم السماء. وقد يتحدثون عن العدل، وقد يرفعون شعارات الإصلاح، لكنهم كانوا كاذبين في أصل الدعوى، لذلك فإن ما يبنونه لا يستقيم.

ثم تُذكّر السورة بمصير أمم مضت:

{أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ}.

كانت لهم حضارات، وجنات، وأنهار، وقوة، وتمكين. ولكنهم أرادوا حضارة مادية خالصة، لا تؤمن إلا بما تراه العين، ولا تقبل وحيًا إلا إذا نزلت به الملائكة عيانًا. فلما كذبوا، وطلبوا من الغيب أن يتحول مادةً محسوسة، كان في ذلك إيذان بزوالهم.

وسورة الأنعام إذا أحصيت ألفاظها وجدتها من أكثر السور ذكرًا للكذب والافتراء. كأنها تريد أن تقول إن الخطر الأكبر الذي يهدد البشرية ليس الجهل وحده، بل الكذب

الواعي، والافتراء المقصود، وتحريف الحقيقة مع العلم بها. وهي تشير في هذا الصدد إلى أهل الكتاب الذين رفضوا الرسالة، وهم يعرفونها كما يعرفون أبناءهم.

فالمعرفة هنا قائمة، لكن الصدق غائب. فإذا غاب الصدق، لم يبق للعدل معنى حقيقي، ولو بدا في بعض المظاهر.

ومن الأمثلة التي تسوقها السورة على انتفاء الصدق والعدل قوله تعالى: {وَجَعَلُواْ للّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ: هَـذَا للّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا، فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ، وَمَا كَانَ للّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ. سَاء مَا يَحْكُمُونَ}.

يقول الإمام الطبري: "أن مشركي العرب كانوا يجعلون جزءًا من زرعهم وأنعامهم لله، وجزءًا لآلهتهم. فإذا سقط من نصيب الأصنام شيء في نصيب الله تركوه للأصنام، وإذا سقط من نصيب الله شيء في نصيب الأصنام ردّوه إلى الأصنام ولم يردّوه إلى الله".

ولعلنا، إذا أردنا أن نفهم صورة هؤلاء الذين جعلوا لله نصيبًا ولشركائهم نصيبًا، لا نحتاج إلى أن نغوص بعيدًا في عادات العرب الأولى، بل يكفينا أن ننظر في أنفسنا، وفي ما نألفه من شؤون الحياة.

تصوّر طالبًا يعلم أن نجاحه في امتحان قريب هو الذي يحدد مستقبله، وأن المذاكرة هي السبيل الوحيد إلى هذا النجاح. ثم هو، مع ذلك، يقسم يومه قسمة عجيبة: ساعة للدراسة، وسائر الساعات الأخرى للهو واللعب. فيكون قد ظلم الدراسة أولًا؛ لأنه أعطاها أقل مما تستحق.

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد. فهو في تلك الساعة التي خصصها للمذاكرة لا يثبت عليها، بل يقتطع منها دقائق للحديث، أو للهاتف، أو لشيء من اللهو.. أما ساعات اللعب، فهي محفوظة لا يُمسّ منها شيء. لا يجرؤ أن يقتطع منها دقيقة واحدة للدراسة.

فأي ميزان هذا؟ وأي عدل؟

إن الخلل هنا ليس في قلة الوقت فحسب، بل في ترتيب الأولويات. فهو، وإن زعم أنه أعطى الدراسة حقها، قد كشف سلوكه عن أن قلبه مع اللهو لا مع الجد، ومع المتعة لا مع الواجب.

وهذا بعينه ما تصوره الآية: قسمة في ظاهرها اعتراف، وفي باطنها تفضيل. جعلوا لله نصيبًا، لكنهم لم يجعلوه النصيب الأوفى، ولا حتى النصيب المصون. فإذا اختلط الأمر، أو عرضت حاجة، كان نصيب شركائهم أولى بالرعاية.

فالقضية إذن ليست مجرد تقسيم زرعٍ أو أنعام، بل تقسيم اهتمام وتعظيم. حين يختل الميزان في القلب، ينعكس ذلك في تفاصيل صغيرة، تكشف ما حاول اللسان أن يستره.

هكذا نرى أن الإنسان قد يعلن احترامه للحق، ويخصص له مكانًا في يومه، أو في ماله، أو في شعاره، لكنه إذا لم يكن صادقًا في هذا الإعلان، ظهر اضطرابه في التطبيق. فالعدل، إن لم يُدعَم بالصدق، لا يلبث أن ينقلب إلى صورة شكلية، لا وزن لها في ميزان الحياة.

ثم تأتي الآية التي تكاد تكون ذروة السورة ومحورها:

{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}

وهنا يستقر الميزان استقرارًا نهائيًا. فالكلمة تمت: صدقًا في خبرها، وعدلًا في حكمها. لا زيادة تحتاجها، ولا نقص يشوبها، ولا تبديل يطالها. وما عداها، إما أن يكون رأيًا بشريًا محدودًا، أو هوى، أو زخرفًا.

فالآن ونحن نتابع السير في السورة، قد ازداد الميزان وضوحًا، حتى كأن لم يعد نحتاج إلى أن يُقال له: هذا صدق، وهذا عدل، وهذا كذب، وهذا ظلم. بل أصبحنا نرى التفرقة رأي العين؛ نرى كيف تتفرع من الكلمة الأولى نتائجها، وكيف يستدعي الإعراضُ أثرَه، كما يستدعي الصدق ثمرته، فنشعر أننا بإزاء بناء محكم، يقوم على دعامتين عظيمتين: الصدق والعدل. كأن السورة من أولها إلى آخرها حديث متصل عنهما، أو كأنها ميزان منصوب في ضمير الوجود، لا يختلّ فيه لسان ولا تميل كفّة.

ففي قوله تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} نجد أنفسنا أمام الصدق الخالص؛ صدق العلم الإلهي الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يستتر عنه سرّ، ولا يعجزه جهر. وكذلك قوله: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}، فهو تقرير صادق لطبيعة نفس تُعرض عن الحق حين يجيئها، لا لأنها تجهله، ولكن لأنها تأبى أن تخضع له.

وفي قوله تعالى: {فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ}، ترى الصدق في الإخبار، والعدل في الجزاء. فالحق إذا كُذّب لم يذهب هدرًا، وإنما يدّخر للناس أنباءً تكشف لهم عاقبة استهزائهم.

ثم تأمل قوله: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}، فإنك تجد فيه عدلًا في محاسبتهم على قدر ذنوبهم وسخافاتهم.

ويمتد هذا الخيط الرفيع عبر السورة كلها: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}، شهادة الحق التي لا تعلوها شهادة. وقوله: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}، دعوة إلى تأمل التاريخ؛ ففي التاريخ عدل لا يجامل أحدًا، ولا يحابي أمة دون أمة.

ويشتدّ صوت العدل حين يقول سبحانه: {سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ}، وقوله: {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، وفي قوله: {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} يبلغ العدل غايته؛ إذ لا يحمل أحدٌ خطيئة غيره، ولا يُزاد في العقوبة إلا على قدر الجناية.

ثم تعرض السورة قصة إبراهيم، لا عرضًا تاريخيًا جافًا، ولكن عرضًا يكشف صدق النفس حين تواجه الكون وحدها. رأى ملكوت السموات والأرض، فمضى من كوكب إلى قمر إلى شمس، لا ليعبدها، بل ليتجاوزها، حتى استقرّ في يقين لا يتزلزل عبَّر عنه بقوله: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}. فقد كان صادقًا مع نفسه قبل أن يكون صادقًا مع قومه، وكان عدلًا في حكمه، إذ لم يقبل أن يُشرك بالخالق ما لا يخلق.

وفي أثناء السورة إشارة إلى القرآن بأنه مصدّق لما بين يديه: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}، فهو صدق يتصل بصدق، وحلقة من نور تنتظم في سلسلة الهداية.

ثم نرى مشهدًا دقيقًا من مشاهد الاجتماع الإنساني: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ..} فحين يسبّ بعض المسلمين آلهة المشركين، يردّ المشركون

بسبّ الله عدوانًا بغير علم. فينهى القرآن عن هذا السبّ، لا إقرارًا للشرك، ولكن عدلًا في الخطاب، وصيانةً للحق أن يُنال منه بالجهل والاندفاع.

ويبلغ العدل ذروته النفسية في قوله تعالى: {فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}؛ فهو عدل في السنّة الجارية؛ فالهداية انشراح، والضلال ضيق، وكلٌّ يسير في طريق اختاره وسعى إليه.

ثم يجيء ذلك القانون الاجتماعي العميق: {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، فلا تسلط إلا نتيجة لارتكاب الظلم، ولا ولاية ظالم على ظالم إلا ثمرة عمله. وقوله: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ}، فهو نفي قاطع للظلم عن الله، وإثبات لقيام الحجة قبل وقوع العقوبة.

وقوله: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} يفيض توازنًا وطمأنينة؛ إذْ لا يضيع العمل، ولا تختلط المراتب، ولا يُنسى شيء في ميزان الحق.

وفي قوله: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ... ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} يجتمع اللفظان: الجزاء العدل، والقول صدق. كأن السورة تعلن في هذا الموضع عن سرّها الكامن: عدلٌ في الفعل، وصدقٌ في الخبر.

ومن أعمق ما توحي به السورة أن ما يظهر من عدل في الأمم التي لا تؤمن الإيمان الحق، إنما هو نفحة من نفحات الله؛ لأن العدل صفة من صفاته. فإذا رأيت عدلًا قائمًا في أرض، فاعلم أنه أثر من آثار تلك الصفة العلوية، لا استقلال فيه لبشر، ولا انقطاع له عن مصدره الأول.

وفي الختام تتجمع أحكام كأنها خلاصة الشريعة:

{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ: أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا،

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ،

وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ،

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ،

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا،

وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى،

وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا...} {الأنعام: ١٥١-١٥٢}.

كأن السورة تقول: هذا هو العدل في صورته العملية. ليس العدل كلمة نظرية، بل هو نظام حياة. وكل بند من هذه البنود حماية لميزان: ميزان العقيدة، ميزان الأسرة، ميزان النفس، ميزان المال، ميزان القول. ثم تأتي الآية الجامعة:

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.

إنها خلاصة الطريق: صدق في الاعتقاد، وعدل في العمل، واستقامة لا تتشعّب بها السبل.

هكذا تبدو سورة الأنعام سِفرًا في الصدق والعدل، أو قل: إنها دعوة إلى أن يقيم الإنسان حياته كلها على هذين الأصلين؛ فإذا فعل، فقد سلك الصراط المستقيم، وإذا حاد عنهما، تفرّقت به السبل، وكان من الخاسرين. وإن اجتمع الصدق والعدل تمت "كلمة ربك" في الأرض كما تمت في السماء. وإذا افترقا، قامت حضارات ظاهرها القوة، وباطنها الاضطراب، لا تلبث أن تتهاوى، لأنها قامت على نصف ميزان، ونصف الحقيقة لا يُقيم عالمًا ولا يُبقيه.

سـورة الأعـراف

الخارجون عن العُرْف والمتمسكون به

ليس الناس، أولى بأن يحتكموا إلى عقولهم فقط، ولا إلى عاداتهم وحدها، بل عليهم أن يُوزِنوا الأمور بميزان الحق، وإن خالف هذا الحق ما ورثوه عن الآباء، وما استقر في نفوسهم من تقاليد، وما درجوا عليه منذ كانوا أطفالًا في حجور أمهاتهم، يُقلدونهم في اللباس، وفي الطعام، وفي التحية، وفي الدين.

فإذا تأملتَ سورة الأعراف، أدركت أن هذه السورة إنما تصيح في الناس، وتأمرهم بأن يخرجوا على أعرافهم، إن كانت الأعراف باطلًا، أو إن كانت عادات لا يعرف لها الناس أصلًا، ولا يستطيعون لها تأويلًا، وإنما يتبعونها لأنهم وجدوا آباءهم عليها، وهم على آثارهم يهرعون.

وتبدأ السورة بداية لا حياء فيها ولا مداهنة:

{كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}.

فكأن الله يقول لنبيه: امضِ بهذا الكتاب، ولا تعبأ بما يقوله الناس، ولا بما تعارفوا عليه من أقوال وأفعال، فالحقيقة لا تأنف من قلة الأنصار، ولا تستمد شرعيتها من كثرة المتبعين.

فما هذا الكتاب، إلا نورٌ يُضيء في ظلمة التقاليد، وسراجٌ يُطفئ نار الجهل التي يشعلها الناس بأيديهم، ثم يعبدونها ويخافونها!

ثم تمضي السورة، فترى أن أول من خرج على العُرْف هو رب العزّة نفسه، حين أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} [الأعراف: ١١].

وهل كانت الملائكة تعرف السجود لغير الله؟ وهل كان إبليس يتصور أن يسجد لطين وهو من نار؟

لكنه الأمر الإلهي، الذي لا يُعارض بعُرف ولا يُرفض بقياس.

فأطاعت الملائكة، وتأبّى إبليس، وكان في عناده أول من تدين بالعرف، وكفر بأمر ربه.

ثم مضت القصة، فنُهي آدم عن شجرة، فكانت هذه الشجرة عرفًا جديدًا بينه وبين ربه، ثم أغواه الشيطان، فخرج عن هذا العرف، وكان العقاب: الهبوط إلى الأرض.

فهل ترى، أن الإنسان لا يزال يُكرر هذه الخطيئة؟

يتّبع نفسه وهو يظن أنه على عرف، ويهجر ربه وهو يظن أنه على حق؟

ثم انظر إلى هؤلاء الأقوام الذين جاءهم الأنبياء، فأنكروهم، لا لأن الأنبياء لم يأتوا ببينة، بل لأنهم جاؤوا بما لم يعهده الناس من قبل.

نوحٌ، حين قال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قالوا: {مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ} {القصص:٢٤}.

هودٌ، حين قال: اعبدوا الله، قالوا له: {أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَّ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا}؟

صالحٌ، حين حدّد للناقة شِرْبَ يوم، رأوا ذلك خروجًا عن عرف القرية، {فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}.

لوطٌ، حين دعاهم إلى الفطرة، {قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}.

وشعيبٌ، لما طالبهم بالعدل في الكيل والميزان، {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}.

فهؤلاء، لم يعترضوا على المنطق، بل على التغيير. كأنما يقولون: نحن لا نكره الحق، لكننا نكره الجديد.

ثم يجيء فرعون، وما أدراك ما فرعون!

يرى العصا تتحول حية، واليد البيضاء تضيء كالقمر، فلا يُبصر المعجزة، وإنما يُبصر التهديد السياسي: {إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ..}

فهو لا يخشى على دينه، بل على ملكه، ولا على الحقيقة، بل على الأعراف التي تُمسك بزمام السلطة.

ثم تمضي السورة مع موسى، فإذا به يُلقي الألواح من شدة الغضب، ويكسرها.

وهل كان هذا في عُرْف الأنبياء؟

لكنه الغضب للحق، الذي يجعل الرجل يكسر ما بيده ليقيم ما في قلبه.

ويطلب الرؤية من ربه، وقد علم أن الرؤية لا تكون، لكنه تُجاوز العرف وخرج عن المألوف إذْ {قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ...} [الأعراف: ١٤٣]

ويُختار موسى للكلام، ويُضرب له الميقات، ويتلقى التوراة، وكل ذلك خارج عن السائد، ولكنه وارد من الله، ومن كان الله آمره، فليس عليه حرج.

ثم تمضي السورة، حتى تبلغ مشهدًا غريبًا عجيبًا: أصحاب الأعراف. ولقد مضى الناس في فهمهم لأصحاب الأعراف مذاهب شتى، فقد حسبهم بعضهم طائفة واقفة بين الجنة والنار، تنتظر الحكم الأخير، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كأنما أوقفتهم أعمالهم الناقصة أو ذنوبهم الراجحة. ولكنّ في سورة الأعراف ما يشير إلى معنى أعمق وأدقّ، مما يفتح لنا بابًا لفهم جديد، يتجاوز حساب الصحائف إلى حساب الضمائر، ويُرينا في رجال الأعراف صورة لإنسانٍ من نوع خاص، رقيق الحسّ، سليم الفطرة، مشدودٍ بين الحق والخوف، بين البصيرة والصمت.

هم قومٌ، لا كالناس، ولا كأهل الغواية والضلال. رجالٌ وهبهم الله شيئًا من صفاء الفطرة، ونُفخ في أرواحهم من نور الكتاب. قومٌ اختصهم الله بنوع من البصيرة، لا تنطق، ونوع من الصلاح، لا يجأر، ونوع من الإيمان، لا يُعلن، ليسوا من الشهداء الذين يصدعون بالحق، ولا من الغافلين الذين لا يفرّقون بين الضياء والظلمة. إنهم، وإن عاشوا في حاشية الجبابرة، وإن جاوروا السلاطين، لم يكونوا شركاء في الظلم، ولا أعوانًا في

الإثم، إنما كانوا شهودًا صامتين، يأنفون من الباطل ولكن لا يثورون عليه، يدركون الحقّ ولكن لا يرفعون رايته.

إنهم قومٌ صالحون في أنفسهم، عدول في أخلاقهم، متقون في سرائرهم، ولكنهم آثروا الصمت على الجهر، والسلامة على الشهادة، والمواربة على التصريح. يشبهون الرجل المؤمن من آل فرعون الذي كتم إيمانه، فلمّا تكلّم تكلّم بالموعظة، لا بالتحدي، وبالحكمة، لا بالصدام.

هؤلاء هم أصحاب الأعراف. رجالٌ لا يعرفون بالتسمية، ولكن يعرفون بسيماهم. رجالٌ تنبئك ملامحهم بما في قلوبهم، ويهديك صمتهم إلى ما يعتقدون.

أصحاب الأعراف هم أولئك الذين يؤمنون بالعرف، ويخشون الخروج عليه، ويقدّسون الأعراف والبروتوكولات، كأنهم يخافون على النظام أكثر مما يخافون على الدين. يسكتون لأنهم يكرهون الفوضى، ويتجنبون القول لأنهم لا يطيقون الملامة. هم من الناس، ولكنهم ليسوا مع الناس.

وقد قال الله فيهم قولًا جليًا لا غموض فيه: {وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم} . يعرفون أهل الجنة، وأهل النار، ويميزون بين الهدى والضلال، كأن في قلوبهم ميزانًا دقيقًا، لا يخطئ، وإن لم يتكلم.

هكذا تمضي سورة الأعراف، منذ مطلعها إلى ختامها، في رسم مشهدٍ طويلٍ ممتدٍّ بين النور والظلمة، بين الهدى والضلال، بين الذين استكبروا في الأرض بغير الحق، والذين أنابوا إلى ربهم واهتدوا، وبين هؤلاء الواقفين على الأعراف، الذين شهدوا الطريقين، ولم يسلكوا أحدهما إلى منتهاه.

فالسورة، وإن تحدّثت عن الأنبياء وأقوامهم، وإن قصّت نبأ المرسلين والجاحدين، فإنما ترسم، في عمقها، دربَ النفس الإنسانية في حيرتها، وتردّدها، ووقوفها أحيانًا بين صوت الفطرة وصوت الخوف. ومن هنا كان أصحاب الأعراف صورة دقيقة لما في النفس من تردّد بين البيان والكتمان، بين الشجاعة والحياء، بين الدعوة والمجاملة.

وليس غريبًا أن تُسمّى هذه السورة باسمهم، لا لأنهم أعظم أبطالها، ولكن لأنهم مرآةٌ تعكس هشاشة الإنسان حين يكتفي بالبصيرة، ويكفّ عن الجهر، ويخشى أن يُرمى بالسفه أو الغلوّ.

فإذا أخذت في قراءة سورة الأعراف، وجدت نفسك بإزاء مشاهد لا تكاد المألوفات تجري فيها مجراها الطبيعي، ولا العادات تستقيم كما اعتدنا أن تستقيم.

فأنت ترى بني إسرائيل وقد جمعوا حليّهم، فإذا هم يصوغون منها عِجلاً جسداً له خُوار، فيخرّون له ساجدين. أليس هذا خروجاً عجيباً على منطق العقل والعرف؟ أليس من المضحك المبكي أن يُترك الحي القيوم ليُعبد الجماد الذي لا يضر ولا ينفع؟

ثم تراهم وقد مُسخوا قردة، وقد كان لهم أن يثبتوا على إنسانيتهم، فإذا بهم ينحدرون إلى صورة الحيوان. وما المسخ إلا أبشع صورة للخروج عن طبيعة الإنسان وعن العرف الذي جعله الله له تكريماً وتشريفاً.

ثم تقرأ عن رجل آتاه الله آياته، فعرفها وبصّرته بالحقيقة، لكنه انسلخ منها وانحاز إلى الشيطان. فأي خروج أشد من هذا؟ وأي انقلاب أغرب من أن يُعرض الإنسان عما رآه بعينه ووعاه بقلبه؟ وهنا يجيء المثل القرآني: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ}. إن الكلب لا يلهث عادة من عناء أو عطش، إنما يلهث في كل حال، فإذا لهث في كل حال، فقد خرج عن مألوف الأشياء.

فإذا جمعت هذه المشاهد كلها، تبين لك أن السورة ليست سرداً لقصص ولا عرضاً لأمثال فحسب، وإنما هي درس طويل في معنى واحد: أن من انحرف عن الوحي انقلب على فطرته، ومن انقلب على فطرته خرج عن مألوف النظام الإلهي في الكون، فكان شاذاً لا انسجام له مع سنن الحياة ولا مع قوانين الوجود.

ثم تختم السورة، بما لم يعتده القارئ من قبل:

"خُذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين."

فليس كل عرف باطلًا، بل العرف الذي يأمر به الله هو عرف يُحمد.

فالمشكلة ليست في العرف، بل في اتخاذه ميزانًا بدل الحق.

فالمطلوب، أن نزن الأعراف بميزان السماء، لا أن نزن السماء بعُرفِ الأرض.

هكذا، ترى أن سورة الأعراف إنما هي سورة التمرّد الشريف، التمرّد على التقليد الأعمى، وعلى طغيان العادات، وعلى تقديس ما ورثه الناس دون فحص.

فمن كان على عرف يوافق الوحي، فذاك عرف مبارك.

ومن كان على عرف يصدّ عن الله، فذلك طوق من حديد، لا يقطعه إلا سيف الوحي.

وما جاء محمدٌ ﷺ إلا ليضع عن الناس هذا الإصر، وهذه الأغلال التي كانوا بها يعبدون ما لا ينفع ولا يضر.

سـورة الأنفـال

تفضيل المكاسب الدنيوية على المبادئ الإلهية

إنها معركة داخلية قبل أن تكون معركة خارجية، صراع بين النزعة المادية في الإنسان وبين النزعة الروحية. فالإنسان في هذه الحياة بين خيارين: إما أن يكون عبداً للمادة، وإما أن يكون حراً بالمبدأ. إما أن يتبع هواه فيسقط، وإما أن يتبع هدى ربه فيعلو.

هكذا يتجلى محور سورة الأنفال، فالسورة لا تحكي حدثاً تاريخياً فحسب، بل تنقل معركة خالدة تدور في قلب كل مؤمن، بين شهوة الكسب الدنيوي، وبين نداء الإيمان الرباني. فالعبرة ليست في أحداث بدر، بل في ذلك الاختبار الأبدي الذي يخوضه الإنسان في كل زمان ومكان.

وليس من الصعب على المتأمل أن يلاحظ هذا المحور منذ مطلع السورة، حين دار النزاع بين المسلمين على الأنفال، وكأنما كان كل واحد منهم يطمع في أن ينال نصيبًا أكبر من الغنائم. وكأنهم في تلك اللحظة قد نسوا أن هذه الغنائم إنما هي من الله، وأنها ليست موضع تنازع وتنافس. وهنا يأتي صوت السماء ليعيد إليهم رشدهم، وليبين لهم أن هذه الغنائم ليست من صنع أيديهم، بل هي فضل من الله، وما ينبغي لهم أن يجعلوها سببًا في التفرق والاختلاف.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يتجلى المعنى ذاته حين يتجادل المؤمنون مع النبي صلى الله عليه وسلم حول ما إذا كان عليهم خوض القتال أو الانصراف إلى قافلة أبي سفيان، وكأنما كانوا يرون في الاستيلاء على القافلة مكسبًا أسهل من خوض المعركة. وما كان النبي ليرضى بمثل هذا الاختيار الذي يغلِّب المكاسب الدنيوية على المبادئ الإلهية. فكان لا بد من تذكيرهم بأن النصر من عند الله، وأنه لا يأتي من السعي وراء المكاسب.

ثم نجد هذه الفكرة تتجلى مرة أخرى حين يتحدث النص القرآني عن الذين يولون الأدبار يوم الزحف، وقد استبدت بهم الرغبة في النجاة من الموت، فغلبت على نفوسهم شهوة البقاء على مبدأ الثبات في ميدان القتال. فيأتي التحذير واضحًا قاطعًا: {وَمَن يُوَلِّهِمْ

يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}.

ولا تلبث السورة أن تعرض مثالاً آخر، في موقف الصحابي أبي لبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بني قريظة بالذبح، فقد كان مناصحاً لهم، وكانت عياله وماله وولده عندهم، فأراد أن يجعل له عندهم سابقة معروف يستفيد منها بعض المكاسب، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ. وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}. وكأنما أراد القرآن أن يلفت نظر المؤمنين إلى خطورة تغليب المكاسب الشخصية على الأمانة والمبدأ.

ثم تأتي الآيات لتكشف عن موقف آخر، حين مال بعض المؤمنين إلى أخذ الفدية من الأسرى بدلاً من قتلهم، فكان في ذلك تغليب لحب الدنيا على مقتضى الجهاد. وجاء التوجيه الإلهي قاطعًا: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ؛ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ}. إنه توبيخ صارم لمن آثر الفداء على الإخلاص لمبدأ إقامة الحق، وتحذير من أن الانجراف وراء المصالح الدنيوية قد يكون على حساب المبادئ الكبرى التي قامت من أجلها الدعوة.

كذلك تجد عتابًا شديدًا لمن غلّبوا الدنيا على الدين، وفضّلوا المكاسب الزائلة على المبادئ الثابتة عند الحديث عن المهاجرين ، أولئك الذين آثروا الله ورسوله على الدنيا وزينتها وتركوا أوطانهم وأموالهم، وهاجروا في سبيل الله، وأولئك الذين رفضوا الهجرة تغليبًا للمكاسب الدنيوية على المبادئ الالهية: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ، أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ. وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ...}.

إن هذه السورة تضع الإنسان أمام نفسه، فتجعله يتساءل: كيف أوازن بين ما أريده لنفسي وما يريده الله لي؟ وكيف أقاوم غواية الدنيا حين تتعارض مع ما يمليه عليَّ إيماني؟ هي تساؤلات لا ينفك المؤمن عنها ما دام حريصًا على طاعة ربه، وملتزمًا بمنهجه القويم.

إنك إذا تأملت سورة الأنفال، أدركت أن هذه السورة الكريمة قد بُنيت على محور دقيق، تتجلّى فيه حقيقة الصراع بين ما تقتضيه المبادئ الإلهية وما تزينه المكاسب الدنيوية.

وليس أدلّ على ذلك من لفظ "الأنفال"، الذي يشير إلى تلك الزيادات التي ينالها الإنسان فوق حقه. فكأنما السورة منذ بدايتها تريد أن توجّه النظر إلى تلك الرغبة الجامحة في الاستزادة من الخير، ولو على حساب المبادئ والقيم.

لقد جاء السؤال من المؤمنين عن الأنفال كمن يسأل عن كنز ثمين يرجون الحصول عليه، فجاء الجواب الإلهي ليقلب موازين القيم عندهم: {قُلِ الْأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ}. هكذا تضع السورة الأساس الذي ينبغي للمؤمن أن يبني عليه فهمه للزيادة: ليس كل مكسب يُبارَك، وليس كل غنيمة تُطلَب. فالأنفال الحقّة هي تلك التي تأتي من طاعة الله، وإصلاح ذات البين، والالتزام بأوامر السماء. إنها ليست زيادة مادية بقدر ما هي ارتقاء روحي وأخلاقي.

وإذا تأملت في التعبير القرآني البديع {وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ}، رأيت كيف يسمو اللفظ القرآني بمعناه إلى أفق بعيد. فالآية تثير في النفس صورة نابضة بالحياة، كأنها مشهد مرسوم أمامك.

انظر إلى تعبير "ذات الشوكة"، تجده يصور ثمرة من التين الشوكي، أو أي ثمرة يحيط بها شوك مؤذٍ. وتخيل إنساناً يقف أمام ثمرتين: إحداهما ملساء منزوعة الشوك، جاهزة للأكل، والأخرى تكسوها الأشواك، وتتطلب جهداً ومشقة في نزعها. لا ريب أن المرء يختار غير ذات الشوكة، لأنها سهلة ميسورة، ويتجنب الثانية - ذات الشوكة- التي تستدعي الصبر والعمل.

وهكذا كان حال المؤمنين يوم بدر، حينما خُيِّروا بين القتال والاستيلاء على قافلة أبي سفيان. كانت القافلة أشبه بالثمرة الملساء، لا كلفة فيها ولا عناء. وأما المواجهة مع المشركين، فقد كانت ذات شوكة، محفوفة بالمخاطر والشدائد. فمالت نفوسهم إلى الخيار الأسهل، إلى الكسب الذي لا يتطلب عناء القتال.

ولكن الله جل جلاله أراد لهم أمراً آخر، أراد أن يُحق الحق ويُبطل الباطل، ويقطع دابر الكافرين، ليكون النصر من عنده خالصاً، لا يتعلق بأسباب مادية ولا طمع دنيوي. فكانت المشيئة الإلهية أن يخوضوا غمار المعركة، ليختبر صدق إيمانهم وثباتهم في مواجهة الباطل. وليس الهدف عند الله أن ينشغل المؤمنون بمال أو غنيمة، بل أن ترتفع همتهم إلى ما

هو أسمى، إلى نصرة الحق وإعلاء كلمة الله. فالآية تشير إلى ضرورة أن يكون للمؤمنين مقصد أرفع من المال، ومطلب أكرم من الدنيا.

لا ريب أن الناظر في هذه الآيات من سورة الأنفال يدرك كيف يعالج القرآن الكريم نزعة النفس البشرية إلى تفضيل المكاسب الدنيوية على المبادئ الإلهية. فقد جاءت هذه الآيات في سياق الحديث عن غزوة بدر، تلك الواقعة التي اختُبرت فيها قلوب المؤمنين بين التمسك بالمبادئ الربانية وبين التطلع إلى الغنائم والمكاسب.

وتتحدث السورة عن المهاجرين والأنصار، أولئك الذين آثروا الله ورسوله على الدنيا وزينتها، الذين تركوا أوطانهم وأموالهم، وهاجروا في سبيل الله، يبتغون مرضاته، غير عابئين بما قد يخسرونه من دنياهم. هؤلاء هم المؤمنون الصادقون الذين امتُحن إيمانهم فكان راسخًا، وجاءت الآية الكريمة تمدحهم وتُثني عليهم:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ. وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ، وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

لكن السورة لا تكتفي بمدح هؤلاء، بل تُعرّج على أولئك الذين غلّبوا الدنيا على الدين، فلم يهاجروا، ولم يقدموا شيئًا من أجل المبدأ، بل ظلوا في ديارهم، يراعون مصالحهم ويخشون على مكاسبهم. فهؤلاء، رغم إيمانهم، قد فوّتوا على أنفسهم شرف المشاركة في الهجرة والنصرة. وتأتي الآية لتقرر بوضوح: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا}.

إنها حقيقة صارخة، تُبين أن من قدّم مكاسب الدنيا على المبادئ لا يُعطى نفس المنزلة مع من ضحّى وجاهد.

ثم تعود السورة لتؤكد المعنى مرة أخرى، فتُفرد الحديث للمهاجرين والأنصار دون أن يُخالطهم غيرهم: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}. وكأنها تريد أنَ تجعل لهذه الفئة مكانة

خاصة، فلا يُزاحمهم فيها من لم يكن على شاكلتهم، ومن لم يُقدّم المبادئ على المكاسب الدنيوية.

هكذا تتجلى حكمة الله في تمييز المؤمنين الصادقين الذين اختاروا طريق الجهاد على طريق الراحة، والذين قدّموا رضا الله على كل مغنم. وفي المقابل، تُظهر السورة أن الذين فضّلوا المكاسب الدنيوية على المبادئ، قد فوّتوا على أنفسهم مقامًا رفيعًا، ولكن إذا رجعوا إلى الحق، فإن الله يقبلهم برحمته، ليكونوا جزءًا من الجماعة المؤمنة.

إن هذه السورة تقدم درسًا خالدًا في قيمة المبادئ، وتُعلّم المسلمين أن التضحيات في سبيل الله لا تُقاس بحسابات الربح والخسارة، بل تُوزن في ميزان الحق والإيمان.

سـورة التوبـة

الكاشفة

حين تبلغ الدعوة مداها، وتستوي الأمة المسلمة على عودها، وتتحرر من التردد، وتتهيأ للقيادة، فلابد للوحي أن يُلقي إليها ميثاقًا واضحًا، لا مجاملة فيه ولا مواربة، يضع حدود العلاقة مع الآخرين، ويكشف معادن القلوب، ويفضح ألوان النفاق، ويُرسّخ قواعد الولاء والبراء.

وسورة التوبة كانت بيانًا مفصلًا للعقيدة العملية في لحظة الاكتمال، وسِجلًا ناطقًا يحدّد فيها اللهُ، عز وجل، المواقف الشرعية، ويحدد المؤمن والمنافق، والمشرك وأهل الكتاب، والمتخلّف عن الجهاد، والمتاجر بالشعائر، والمرائي بالتقوى.

ومن عجيب ما فيها، بل مما يدل على طبيعتها الفريدة، أنها السورة الوحيدة التي نزلت عاريةً من البسملة، وكأنما خُلِعت منها الرحمة خلعًا، لا لأن الله نزع رحمته – حاشاه – ولكن لأن هذا موضع حزم لا لين، وحسم لا شفاعة، وحقائق لا مجاملات.

ولعلّ هذا هو السبب الذي جعل السلف يسمّونها "الفاضحة" و"الكاشفة" التي كشفت المستتر من الأقوال والأعمال، وفضحت القلوب التي كانت تُظهر غير ما تبطن.

إنها السورة التي كشفت كل شيء: كشفت نفاق المنافق، وتردد المتخلف، وغرور المجاهد، وطمع المشرك، وادّعاء الكتابي، وسوء نية البعيد، وخيانة القريب.

فما إن تفرغ من السورة، إلا وقد وُضعت النقاط على الحروف، وانتهى زمن التردد، وبدأ زمن الاختبار الجادّ.

فأول ما تفعل هذه السورة أنها تعلن البراءة، لا من الأشخاص وحدهم، بل من الكيانات والمواقف والتحالفات، فتقول بوضوح لا يعرف اللين: {بَرَاءةٌ مِّنَ اللهَّ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ}. ثم تُمهلهم أربعة أشهر، لا ليُساوِموا، بل ليُراجعوا، لا ليطلبوا الأمان، بل ليتوبوا أو يُؤخذوا أخذا وبيلا.

ثم تمضي السورة في كشف الوجوه التي كانت تختبئ وراء قناع الفضيلة.

فهؤلاء الذين كانوا يفاخرون بسقاية الحجيج، وعمارة المسجد الحرام، أرادت السورة أن تُريهم أن تلك الأعمال – وإن عظُمت في عين الناس – لا تزن شيئًا عند الله إذا لم تقترن بالإيمان والجهاد. أتظنون أن ريَّ الحجيج يُغني عن الذبّ عن الدين؟ {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ}؟

ثم تواجه السورة أولئك الذين اختلطت عليهم مشاعر القرابة والولاء، فآثروا آباءهم وإخوانهم وأموالهم على الله ورسوله. وهنا يأتي الخطاب في قسوته الجميلة:

{قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ...}.

أي لا جدال، لا تفاوض، بل انتظروا الحكم الإلهي الذي لا يراعي عاطفة النسب إذا خالفت الدين.

ولا تنسى السورة أن تعالج غرور العدد، ذلك المرض الذي أصاب المسلمين يوم حنين، حين أعجبوا بكثرتهم، فظنوا أن الغلبة بالكثرة لا بالله. فجاء الدرس الإلهي قاسيًا: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ}.

ثم كان لا بد أن يُغلق الباب دون الطامعين من المشركين، الذين يتاجرون بالحج ويستفيدون من الأسواق، فحرّمت عليهم حتى الدنوّ من المسجد الحرام، ووصفتهم بأوصاف تُخرِجهم من حظيرة الطهارة: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا}.

ثم تنتقل السورة من مواجهة الشرك الصريح إلى مواجهة الانحراف المبطَّن عند أهل الكتاب، وتصفهم بأنهم لم يكتفوا بالتحريف، بل زادوا عليه الشرك: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ}، وحين جعلوا من الأحبار والرهبان أربابًا يُشرّعون لهم ويُحرّمون.

ثم تُدين السورة الرهبان والأحبار الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويكنزون الذهب والفضة، وتتوعدهم: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهَّ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ...}.

ثم تُسجّل على المنافقين أعذارهم السخيفة، وأقوالهم المرذولة، وضحكاتهم المستهزئة: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهَّ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ}.

وتصفهم السورة بأنهم مرضى القلوب، وأنهم لا يخرجون للجهاد إلا إذا ضمنوا الغنيمة، وأنهم أولياء لبعض، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، ويظنون بالله الظنونا.

ثم تمضي السورة إلى أقصى حدود المكاشفة، فتأمر النبي بألا يصلي على موتاهم، وألا يقف على قبورهم، وألا يستغفر لهم.

وتفضح السورة الذين بنوا مسجدًا لا للعبادة، بل للتفريق والتشويش على دعوة النبي: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَّ وَرَسُولَهُ...}.

فإذا انتهيت من قراءة سورة التوبة، شعرت وكأنك خرجت من معسكر تدريبي قاسٍ، لا يُهادنك، ولا يجاملك، بل يُشعرك بمسؤولية الإيمان، وجدية الانتماء، وخطورة الموقف.

هي سورة وضعت النقاط على الحروف، لا لتجمل النص، بل لتقطع الشك، وتثبت الحق، وتُعلن أن الطريق إلى الله ليس مفروشًا بالرغبات، بل بالصدق، والجهاد، والتجرد.

تتبدّل الأحوال، وتتناوب الدول، ويتحول العدوّ صديقًا، والصديق خصمًا، وتتهاوى المبادئ كما تتهاوى أوراق الخريف. لكنّ سورة التوبة تبقى، تقرأ على الناس في كل جيل، لا لتذكّرهم بماضٍ غابر، ولكن لتوقظ فيهم معيار الحق حين يضطرب ميزانُهم، وتكشف لهم وجوه النفاق حين تتشابه عليهم الأقنعة.

لقد ظنّ قومٌ أن النفاق قد مضى، وأن الكفر الصريح قد وُئد، وأن الشعارات تغني عن الصدق، وأن الكثرة تغني عن الولاء، وأن العاطفة تكفي عن التكاليف. فجاءت هذه

السورة، تقول لهم – كما قالت للذين قبلهم – إنّ الدين ليس مظاهر، ولا ألفاظًا، ولا دعوى، بل موقف صريح، واختيار قاطع، وثمن يُدفع، وسلوك لا يعرف الالتواء.

وفي زمن كثرت فيه الشعارات وتعددت الولاءات، وعاد النفاق إلى الساحة لا باسم النفاق، بل باسم الحرية، والاعتدال، والانفتاح، تصبح سورة التوبة ميزانًا لا يبلى، وكاشفًا لا يُعطل، ونداءً لا يزول. فهي تضعك في لحظة صدق لا مهرب منها، وتسألك:

هل أنت لله أم لغيره؟

هل قلبك مع الله، أم مع تجارتك، ومسكنك، وعشيرتك؟

هل ولاؤك للدين، أم للأرض والناس والراحة والهوى؟

إنها سورة لا تُطمئنك، بل تُحرّكك، لا تُربّت على كتفك، بل تهزّك لتقوم، لا تُخدر ضميرك، بل توقظه لتسير في الدرب مهما كلفك الثمن.

سورة يونس

نسائم نبي الله يونس!

قد يعجب القارئ حين يرى سورة كاملة تُسمّى "يونس"، مع أن النبي يونس لم يُذكر فيها إلا مرة عابرة، إشارة لا تفصيل فيها ولا إسهاب، في حين أن سُورًا أخرى قد بسطت قصته وشرحت محنته ولم تُسمّ باسمه. وقد ذهب بعض المستشرقين إلى الطعن في هذا الاختيار، وساءَلوا أنفسهم: أيّ معنى أن تُنسب السورة إلى نبيّ لم تحتل سيرته إلا لمحة خاطفة في آية من آياتها؟ ولكن من يتدبر السورة حق التدبر، يشعر أن اسم يونس لم يُجعل عنوانًا لقصة، إنما يشعر بعبير خفي، يرده إلى ذكر النبي الكريم الذي سميت السورة باسمه، ويكاد يدرك أن هذا النسيم اللطيف العابر، يهمس له بأن القصة التي تجري بين السطور هي قصة حياة يونس عليه السلام، بحلوها ومرّها، برجائها وقنوطها. كما تجد في كل آية، لمعة من سيرة يونس عليه السلام، أو ومضة من محنته، أو إشارة إلى القوم الذين كاد العذاب أن يحلّ بهم، لولا أن الإيمان سبق الغضب، والرحمة غلبت السخط.

وإن أولى النسمات التي تهب علينا عند وصولنا سورة يونس بعد (سورة التوبة)، شعورنا كأنها ظلّ خفيف يتلو ظلًّا ثقيلاً، وكأنها نسمة رخية تهبّ على قلوب أضناها العتاب. ففي هذه السورة الكريمة صورة أخرى من صور التوبة التي رأيناها في سورة التوبة، لكنها توبة نبي كريم ذهب مغاضبًا، فعاد تائبًا. ولست تجد في القرآن سورة تدور محاورها كلها حول نبي واحد كما تجدها في سورة يونس، فهي تُومئ إلى سيرته تلميحًا مرة، وتصريحًا أخرى، وتسوق أمثلة وتجارب تعيد إلى الذاكرة محنته الكبرى، ومغفرة ربه الرحيم.

وما أشبه مطلع السورة بإشارة خفية إلى بداية دعوة يونس: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ}.

فكأن القوم قد استغربوا أن يُبعث فيهم نذير من أنفسهم، كما استغرب قوم يونس دعوته، فأنكروا عليه رسالته فكان أول الطريق إلى بلائه ومحنته.

ثم تمضي السورة إلى قول الله تعالى: {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}، فإذا بها تلمح تلميحًا شفيفًا إلى عودة يونس إلى قومه، تلك العودة التي لم تكن رجوع بدن فحسب، بل كانت رجوع روح، وتوبة قلب، وعودة رسالة.

وتتتابع الآيات كأنها تعزف لحنًا خفيًا من سيرة يونس:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

إنها صورة الإيمان الذي لم يخذل صاحبه قط، كما لم يخذل الله عبده يونس وهو في ظلمات البحر وظلمات بطن الحوت.

وفي قوله: (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ)، إيحاء بما كان من استعجال يونس للعذاب على قومه، قبل أن يأذن الله بذلك.

وفي قوله: (وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا)، تذكير بما كان من دعاء يونس حين نزل به البلاء العظيم، فاستغاث ودعا بقلب مخلص.

ثم تذكر السورة سنة الله في إهلاك الأمم حين يكذبون رسله:

{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}

كأنها تلمح إلى ما كان سيقع لقوم يونس لو لم يتداركهم الله برحمته.

وتصور السورة حال الإنسان حين يركب البحر، ويسير بريح طيبة، فإذا الريح تعصف، والموج يحيط:

{حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}

أليس هذا مشهد يونس وهو في ظلمات البحر؟

وتكرر السورة الحديث عن الماء، لتربطه بقصة يونس: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ}.

بل إن الماء في هذه السورة يكاد يكون بطلًا خفيًا، له الحضور في كل مشهد، كما كان له الدور الحاسم في قصة يونس، حتى لكأننا نرى الماء روحًا تسبح بين الآيات، وتغمر القلوب بمعاني النجاة والغرق، والهلاك والرحمة.

وفي قوله تعالى: (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ)، إشارة إلى أن الإنسان لا ينفعه عند الشدائد إلا صالح عمله، كما كان من يونس إذ نفعه إخلاصه حين نزل البلاء.

وفي قوله: " (وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)، تقرير بأن الرسل مأمورون بالصبر، لا باستعجال القضاء، فلا يستعجلن رسول كما استعجل يونس في ساعة يأس.

ولئن مضت السورة فذكرت أن لكل أمة رسولًا، فإنما أرادت أن تذكّر بما كان من بعثة يونس إلى قومه، وما حل بهم حين بلغهم البلاء.

ويأتي صوت القوم، كما جاء صوت قوم يونس من قبل، يقولون في لهو وسخرية: (وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ؟)، حتى إذا وقع العذاب، وبلغت القلوب الحناجر، آمنوا حين لا ينفع الإيمان، كما قال الله تعالى: "أثم إذا ما وقع آمنتم به؟".

ثم تمضي السورة تصور مشهد الندامة والحسرة: (وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ)، فكأن المشهد صورة حية مما كاد يقع لقوم يونس لولا رحمة الله بهم حين آمنوا في اللحظة الأخيرة.

وتأتي الآيات بعد ذلك لتحدثنا عن أولياء الله (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهَّ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) فتفتح أمام القلب آفاق الرجاء والطمأنينة، كما فُتحت ليونس أبواب الرحمة بعد يأسه.

ثم يعود القرآن الكريم يطمئن النبي صلى الله عليه وسلم: (وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ للهِّ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) فلا يحزنه قول قومه، كما حزن يونس، وألا ييأس، فإن النصر لمن يصبر، والعاقبة للمتقين.

وتستشهد السورة بقصة نوح وموسى، وكلاهما، كيونس، كان له مع الماء قصة فاصلة: نوح والطوفان، وموسى والبحر الذي فلقه الله له. وهكذا يثبت أن الماء كان في حياة هؤلاء الأنبياء رمزًا للعذاب والنجاة معًا.

أما المشهد الذي قد يشتبه فيه المشتبهون فهو مشهد فرعون حين أدركه الغرق، فقال: {آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.

وقد يشبه هذا المشهد ظاهريًا ما حدث ليونس، حين قال في الظلمات:

{لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}

ولكن شتان بين توبة النبي الطاهرة، واستسلام العدو الخبيث بعد الفوت!.

وتتوج السورة محور حديثها عن يونس بهذه الآية الوحيدة الفريدة: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}، فكأن قصة يونس عليه السلام لم تكن حادثة فردية، بل كانت درسًا خالدًا لبني الإنسان جميعًا: أن باب الرحمة مفتوح ما دام في القلب بقية من يقين.

ثم تعود السورة فتقرر أن الهداية والإيمان إنما يكونان بمشيئة الله وحده، لا بمشيئة البشر، وأن الضر إذا أصاب العبد، فلا يكشفه إلا الله، ولا يدفعه إلا رجاؤه فيه، كما كان حال يونس عليه السلام في ظلمات البحر.

هكذا تنقضي سورة يونس، فإذا هي درس طويل في الصبر، وموعظة بليغة في الرجوع إلى الله. تتبع خُطى نبي ترك قومه مغضبًا، فلقّنه الله في جوف الحوت درس العبودية والرضا، وأراه أن الهداية ليست بيد أحد إلا بيد الله، وأن العاقبة للمتقين.

سورة هود

عبادة الوجاهة ومتاع الدنيا

لا تمر سورة هود لتثير فينا عاطفة عابرة ثم تمضي. بل تخترق الروح اختراق السهم، فتفضح حب الدنيا المتغلغل في النفوس، وتكشف السعي المحموم وراء الوجاهة والثراء.

وقد ظن كثير من الناس أن سورة هود إنما نزلت لتقص أخبار الأمم الهالكة، والأقوام البائدة. لكن المتأمل يدرك أن هذه الأخبار إنما كانت أمثالًا حية لما يصنعه حب الدنيا في القلوب.

فالمحور الذي تدور حوله سورة هود هو: التعلق بمظاهر الحياة وزينتها، والسعي وراء الغنى والمقام الرفيع، ونسيان الله في غمرة السعي والكدح.

تبدأ السورة بهذه الدعوة الرفيقة الرصينة:

(وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ). وفيها وعد صادق بأن من تاب إلى الله وآمن، رزقه الله متاعًا حسنًا، وحياةً طيبة، وغنًى لا فساد فيه، ووجاهة لا استكبار معها.

ثم تذكر السورة بأن الرزق من عند الله، فهو الذي يرزق عباده بما تقتضيه حكمته: (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ).

ولكن الإنسان، منذ خُلق، مولع بالعاجل، مشغوف بالزينة الظاهرة، منصرف عن الحقائق الكبرى، فإذا تيسرت له الزينة فرح وتفاخر، وإذا نزعت منه يئس وقنت:

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ).

وتشير السورة بأن أكثر ما كان المشركون يعترضون به على النبي صلى الله عليه وسلم، بأنه لم يُلقَ إليه كنز، ولم يحطه حراس من الملائكة تمشي بين يديه ومن خلفه:

(يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ، أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ، إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ).

وترد الآيات بأن من يطلب متاع الدنيا وزينتها فسوف يعطاها، لكن جزاءه سيكون الخسران المبين:

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ. أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ).

ومن هنا تتتابع آيات السورة لترسم مصير أقوام ركنوا إلى متاع الدنيا، واغتروا بجاههم وسلطانهم وأموالهم.

وتستعرض السورة قصة نوح عليه السلام، أول الرسل، وكيف دعا قومه إلى الإيمان، ولكنهم أعرضوا، لا لأنهم كذبوا برسالته في ذاتها، بل لأنهم أنِفوا أن يكون رسولهم بشرًا مثلهم، فقيرًا مثلهم: (فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ).

هنا يظهر حب الوجاهة واضحًا: إنهم لا ينكرون دعوة نوح لذاتها، بل يرفضونها لأنها خلت من مظاهر الغنى والسطوة.

وهكذا كان الغنى والوجاهة عندهم معيار الحق والباطل. ويرد عليهم نوح بأن ليس عنده الخزائن والكنوز، ويعيب عليهم بأنهم يزدرون الفقراء الذين لا يَظهرون بأثواب الوجاهة والثراء:

(وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ، وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ، وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْرًا).

ثم تمضي السورة فتقص علينا قصة هود مع قوم عاد، قومٍ جبارين، أقوياء البنية، مهابين في الأرض.

وكانت نصيحة هود إليهم صريحة حاسمة:

(وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ).

أرادهم أن ينالوا القوة الحقّة والوجاهة الايمانية، لا قوة الطغيان والجبروت.

ولكن القوم أعرضوا، لأنهم حسبوا أن قوتهم الظاهرة تغنيهم عن طاعة الله، وتكفيهم عند الشدائد.

ويأتي دور صالح مع ثمود الذين ملأوا الأرض قصورًا، ونحتوا من الجبال بيوتًا. ولكن، حين دعاهم صالح إلى عبادة الله، قالوا مستكبرين:

(أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)

كان حبهم للجاه الذي توارثوه عن آبائهم أقوى من حبهم للحق.

فآثروا تقليد الأسلاف، وما كان عليه الآباء من زينة وعظمة، على اتباع دعوة التوحيد.

ثم يمضي القرآن بعد هذا، فيعرض علينا مشهدًا من مشاهد الحياة، نضِرًا بديعًا، فيه جمال الوجوه، وفيه بشارة النفوس. رسلٌ من عند الله، حسان الوجوه، طلقاء الأسارير، يدخلون على إبراهيم عليه السلام بالبشرى، فيلقاهم كما يليق بالكرام، لا يسألهم عن شأنهم، ولا يطيل الترحيب، وإنما يسرع إلى مائدة تليق بالوجهاء، ويأتيهم بعجل حنيذ، قد أعد على عجل، ولكنه لم يعد إلا بما يليق بكرم المضيف ومكانة الضيف العزيز:

(وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ).

وكأن السورة أرادت أن تمضي مع هذا المعنى، معنى حب الوجاهة والزينة، فجاءت بعد ذلك بقصة لوط عليه السلام. إذ لما وفد عليه الملائكة حسان الوجوه، ضاق بهم صدره واشتد عليه الأمر؛ فقد علم ما كان قومه يصنعون، فخشي على ضيوفه الجميلين، وخشي على نفسه سوء الأحدوثة بين الناس:

(وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ).

ولم يلبث القوم أن جاءوه مسرعين، قد استهوتهم شهوة خبيثة، لا يعرفون للكرامة وزنًا، ولا للحياء قدرًا. هنالك دعاهم لوط إلى الطهر والعفاف، وعرض عليهم بناته الطاهرات، قائلا:

(يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ، فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي، أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ؟).

ثم لا تلبث السورة أن تمضي إلى قومٍ آخرين: إلى مدين، حيث الطمع قد فشا، والغش قد استحكم، حتى صار نقصان الميزان والدينار ديدن القوم، ودينهم الذي لا يحيدون عنه. وهناك يقف شعيب عليه السلام، مذكِّرًا ومنذرًا:

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ، وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ).

لقد أنعم الله عليهم بالخير الواسع، ولكنهم ما عرفوا لهذه النعمة قدرًا، بل ازدروا الضعفاء وأهملوهم، ولم يروا للكرامة حقًا إلا لمن كان فيهم قويًّا عزيزًا:

(قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ، وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا، وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ، وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ).

ويمضي القصص في سورة هود، فإذا نحن بطرف من قصة موسى عليه السلام، وموقف فرعون وملئه. هؤلاء الذين أعمى أعينهم حب الترف والوجاهة والمُلْك العريض، فاتبعوا أمر فرعون، وما كان أمر فرعون برشيد:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ. يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ).

وهكذا، كان المال والجاه، وكان الترف والبذخ، هو الداء الذي أهلك هؤلاء جميعًا.

ثم تعود السورة إلى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فتخاطبه بهذا النذير، المشتمل على التحذير من الترف:

(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ، وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ).

وكأن السورة كلها تريد أن تقول: إن حب الترف، وما يصاحبه من تعلق بالدنيا وزينتها، هو أصل كل بلاء، ومصدر كل دمار. وأن الثبات على الحق لا يكون إلا بزهد صادق في الوجاهة الزائلة والغنى الفاني، وبنظر نافذ إلى ما عند الله، فهو خير وأبقى.

وهكذا نرى أن سورة هود تعرض قصة كل نبي مع قومه، فإذا تأملتَ، وجدت أن الخيط الجامع بينهم جميعًا، هو تكذيب الرسل بدافع حب الوجاهة والترف والخوف على مظاهر السيادة.

قوم نوح: ما منعهم عن الإيمان إلا استكبارهم وخوفهم على مناصبهم ومكانتهم أمام الملأ.

قوم هود (عاد): غرّهم قوتهم وعمرانهم وقصورهم المشيدة، فقال لهم هود:

{أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ}

فكان همهم عمران الأرض للوجاهة لا لعبادة الله.

قوم صالح (ثمود): أوتوا النعمة الواسعة في السهول والجبال، فجعلوها سبيلًا للتكبر والاستعلاء.

قوم شعيب (أصحاب مدين): جعلوا التجارة مظنة الربح الحرام، وبخسوا الناس أشياءهم، ظنًّا أن كثرة المال تغنيهم عن عدل الله.

وفي جميع القصص، يظهر "الملأ" – وهم زبدة القوم وسادتهم – في مقدمة المكذبين:

(قال الملأ الذين كفروا من قومه...) (هود: ٢٧)

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه...) (هود: ٣٨)

فكأن الوجاهة كانت لهم دينًا، والترف معبودًا؛ لذلك كثيرًا ما استخدمت السورة ألفاظ: (الغنى، أغنت، يُغْني...) وفي أثناء ذلك، تكرر السورة التحذير من الاغترار بالدنيا، فتذكر أن العاقبة دائمًا للمتواضعين الصادقين، وأن الله لا يؤخر العذاب عن الطغاة مهما أمهلهم. هكذا تغدو سورة هود سورةً تنبه الأرواح إلى الانزلاق الخفي نحو فتنة الثراء والوجاهة، وتدعوهم إلى توبة خالصة ومتاع حسنٍ في الدنيا والآخرة.

سـورة يوسف

التقمص والتمثيل

من بين قصص القرآن التي تحمل سرًّا دفينًا، وتحوي وراء ظاهرها معنىً باطنًا عميقًا، تأتي قصة يوسف عليه السلام، قصةً منسوجة بأدق خيوط الحكمة، متقنة البناء، متقلبة الألوان والمشاعر، حتى ليظن الناظر فيها أنه يشاهد تمثيلًا حيًّا تتحرك فيه الأرواح والأجساد على مسرح الوجود.

وإن القارئ المتأمل ليدرك أن السورة كلها، برؤاها وأحداثها، بحبكاتها ومفاجآتها، إنما تدور حول فن عجيب، أودعه الله في قلب هذا النبي الصابر: فن التقمص والتمثيل.

ومن هنا، كانت هذه السورة العظيمة أنموذجًا راقيًا لفهم "تأويل الأحاديث"، بما فيه من عمق التقمص، ودقة التمثيل، ونقاء المقصد، وطهارة الغاية.

فالمحور الذي تدور حوله سورة يوسف هو التقمص والتمثيل. وقد جاءت الإشارة إلى هذه الحقيقة بعبارة "تأويل الأحاديث"، التي تكررت ثلاث مرات، دلالة على محورية هذا المعنى في السورة:

قال تعالى أولًا:

{وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} (يوسف:٦)،

ثم قال ثانيًا:

{وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} (يوسف:٢١)،

ثم جاء على لسان يوسف عليه السلام في دعائه عند تمام النعمة:

{رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} (يوسف:١٠١).

وقد ذهب المفسرون – قديمهم وحديثهم – إلى أن "تأويل الأحاديث" يعني تعبير الرؤى وتفسير الأحلام. ولم يعترض عليهم معترض، إذ كان ظاهر السياق يوهم بهذا الفهم، خصوصًا مع تتابع رؤى يوسف نفسه، ورؤية الفتيين في السجن، ورؤية الملك.

غير أن التدبر العميق، يكشف أن ظاهر القرآن أعظم غورًا مما يظنه العجلون. فإن النص حين يستخدم لفظًا دون آخر، فذلك لا يكون عبثًا ولا صدفة، بل لحكمة بالغة، ودقة في البيان لا تدرك إلا بالتأمل.

فلو كان المقصود "تأويل الأحلام" وحده، لقال: "ويعلمك من تأويل الأحلام"، ولكنه قال: "من تأويل الأحاديث". والأحاديث في لسان العرب أوسع دائرة من الأحلام، فهي ما يدارس به الناس بعضهم بعضًا، وما يحدث في القلب، وما يتردد في النفس. ولذلك جاء تمييز القوم في موضع آخر:

{قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ} (يوسف:٤٤)،

فظهر بذلك أن تأويل الأحاديث شيء، وتأويل الأحلام شيء آخر.

والتأويل، في جوهره، هو الانتقال بالشيء من باطنه إلى ظاهره، ومن معناه الخفي إلى شكله الجلي. فإذا حملنا "تأويل الأحاديث" على هذا المعنى، بان لنا أن يوسف عليه السلام أوتي قدرة فذة على فهم خبايا النفوس، وتقمص الأدوار، وتمثيل المشاعر على نحو يُخفي ما يشاء، ويظهر ما يشاء، بحسب ما تقتضيه الحكمة.

وتأمل حوادث السورة تجدها شهادة ناطقة على ذلك:

يوسف في السجن، يتحدث إلى الفتيين حديثًا ينسج فيه الأمل، ويزرع الطمأنينة، ويؤوّل لهما الرؤيا بما تستلزمه الحال. وقد قال للذي ظن أنه ناجٍ منهما: {اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ} (يوسف:٤٢)، ولكنه أخفى رجاءه الحقيقي، وأبدى من نفسه التصبر على المقام.

ويوسف في مجلس الملك، حين فسر له الحلم، لم يبادر إلى الخروج، بل اشترط أن تُكشف قضيته القديمة:

{قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ}

فأظهر كبرياء العفة، وتقمص دور العادل المدافع عن اسمه قبل طلب الحرية.

ويوسف أمام إخوته، حين جاءوا يطلبون الطعام، لم يعرفهم بنفسه، بل تقمص هيئة العزيز القوي، وكلمهم بلغة فيها جفاء ظاهر، وإحسان خفي، حتى إذا تم لهم الابتلاء، وكشف لهم معدنهم، ألقى القناع عن وجهه قائلًا:

{أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي} (يوسف:٩٠)،

وانظر إلى إخوته أنفسهم، يوم احتالوا على أبيهم، فجاؤوا بقميصه ملطخًا بالدم:

{وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ. قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}

ونسجوا رواية الذئب، ومثلوا الحزن حتى أوهموا يعقوب عليه السلام، وإن لم يخدعوه في قرارة نفسه.

وانظر إلى امرأة العزيز، كيف استخدمت مهارة التمثيل لتبرئة نفسها أمام زوجها:

{قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (يوسف:٢٥)،

فألقت بالتهمة على يوسف، وهي في الحقيقة الجانية.

فكل هؤلاء مارسوا التمثيل والتقمص، لكن يوسف كان أرقاهم وأعظمهم في هذه الموهبة، لأنها موهبة خدم بها الحق، وصان بها المروءة، ونصر بها العدل.

ومن هنا يصح أن نقول: إن فن التمثيل، حين يكون موهبة إلهية مستورة، غير مبتذلة، يكون سلاحًا من أسلحة الخير. أما حين يُنشر في المسارح والأسواق، ويُتخذ مهنة للبطّالين، فإنه يفسد الذوق، ويُضل العقول، ويفسد النفوس.

وليس عجبًا أن يبرع اليهود، في فنون التمثيل والمكر السياسي، فإنهم ورثوا ملكة التمثيل عن آبائهم، ولكنهم حرفوها عن موضعها، واستعملوها في المكر والاحتيال، بدلًا من توظيفها للحق والعدل.

وهكذا، فإن سورة يوسف تعلمنا أن التقمص والتمثيل ليسا مذمومين في جوهرهما، بل تكون لهما قيمة حين يخدمان الحق ويستران العفة، ويُستخدمان بحكمة وعقل، لا عبثًا ولهوًا.

وهكذا، يتبين لنا أن سورة يوسف ليست قصة عتيقة تُروى للعظة وحدها، ولا حكاية درامية تساق للتسلية، بل هي درس خالد في فهم أسرار النفس الإنسانية، وفي حسن استخدام مواهب التمثيل والتقمص في خدمة الحق والخير.

ولئن كان يوسف عليه السلام قد برع في "تأويل الأحاديث" حتى صار رمزًا للحكمة والعفة، فإن غيره ممن ورثوا هذه القدرة قد أساؤوا استعمالها، فصاروا ملوك المكر والخداع. فالتقمص والتمثيل، كسائر الملكات، هبة إلهية، تكون نعمة إذا صينت وطُهرت، وتكون نقمة إذا دُنست وخُبثت.

وهذا هو الدرس العظيم الذي ترسمه لنا سورة يوسف بحروف من نور، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

سورة الرعد

الثنائية

ما أحسبني أغلو إن قلت إن سورة الرعد تدور كلها على قطب واحد، ومحور واحد، وهو "الثنائية". وكأنما أراد الله، عز وجل، أن يعرض في هذه السورة طرفي الأشياء وأضدادها، ليؤلف من مقابلة الشيء بضده صورة كاملة للوجود كما أراده خالقه.

فاسم السورة وحده يشهد لهذا المحور شهادة قاطعة؛ فما الرعد إلا أثر عنيف لتلاقي سحابتين، إحداهما تحمل شحنة موجبة، والأخرى تحمل شحنة سالبة، فإذا تلاقيا حدث بينهما البرق، وزأر في السماء الرعد. فأي صورة أوضح في بيان الثنائية من هذا التزاوج بين المتقابلين؟

وما يلبث النص أن يعلن ذلك في مفتتح السورة إعلانًا لا مواربة فيه؛ فيقول: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ}؛ فالحق قد أنزل، والناس قد انقسموا: مؤمن به وكافر عليه.

ويمضي النص بعد ذلك يُبرز هذه الفكرة، فلا يذكر آية من الآيات الكونية أو الإنسانية إلا وقد أبرز فيها تقابل الشيئين واختلاف الضدين؛ فهذا في الشمس والقمر يجريان إلى أجل مسمى، كل منهما في مساره، لا يلتقيان ولا يختلطان: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ).

وهذا في الأرض وما بسط الله عليها من رواسي شامخة، وأنهار جارية، وثمرات قد أخرج منها زوجين اثنين، ليتقابل الليل والنهار، ويظهر اختلاف الأشياء حتى في الزوج الواحد: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

ثم ينبه النص إلى أرَضين متجاورات، قد تتباين تربةً وزرعًا وثمرًا، مع أن الماء الذي يسقيها واحد! ففي ذلك آية باهرة للعقلاء الذين يتفكرون: (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ

مُتَجَاوِرَاتٌ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ، وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ، يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

ويمضي السياق، فيحدثنا عن استعجال الناس للسيئة قبل الحسنة، كأنهم يسألون العذاب قبل الرحمة، فيقابل ذلك بأن ربك ذو مغفرة وشديد العقاب. فما أعجب هذه المقابلة التي تجمع اللين مع الشدة، والرحمة مع النقمة: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ).

ثم يُذكِّر بأن لكل قوم هادياً، يرشدهم ويدلهم. ويذكر أن الله يعلم ما تحمله الأرحام من نقصان وزيادة، وأنه وحده عالم الغيب والشهادة. في كل ذلك تثبت الثنائية: الغيب يقابله الشهادة، والنقص يقابله الزيادة، والسر يقابله الجهر، والاختفاء بالليل يقابله الظهور في النهار: (اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ. وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ. سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ. وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ، وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ).

ويحدثنا عن المعقبات، تحيط بالإنسان من بين يديه ومن خلفه، تحفظه وتراقبه، كأن الإنسان محاط بالرعاية في ظاهره وباطنه. ثم يذكر البرق، يحدث في النفس خوفاً وطمعاً معاً: خوفاً من صواعقه، وطمعاً في غيثه، وأي شعور أصدق وأعمق من هذه الرجفة التي تجمع الرهبة والرجاء؟

ثم يسبح الرعد بحمد ربه، وتسبح الملائكة كذلك، كأن السموات والأرض قد انقسمت إلى فريقين متجاوبين بالتسبيح، كل في مقامه: (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ. هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ. وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ).

ويمضي الحديث عن الدعاء: دعوة الحق التي يستجيب لها الله وحده، ودعوات الباطل التي لا تجد سميعاً ولا مجيباً: (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ).

ثم يبرز التفاوت بين النفع والضر، كما يبرز التفاوت بين الأعمى والبصير، وبين الظلمات والنور، في مشهد يجمع المتقابلين ليدلك على حكمة المدبر الذي جعل في كل شيء زوجيةً وتفاضلاً: (قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا؟ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ؟).

ويضرب الله مثلاً بماء السماء، يسيل في الأودية، فيحمل الزبد الرابي، فما كان زبداً يذهب جفاء، وما كان نافعاً يمكث في الأرض. وهكذا يضرب الله الأمثال للحق والباطل، في مشهد تتجسد فيه الحقائق جلية لا لبس فيها: (أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا. وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ. كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ. فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ. كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ).

ويذكر أن للذين استجابوا لربهم الحسنى، وللذين لم يستجيبوا لهم سوء الحساب. وتتقابل النهاية: جنة للمهتدين، وجحيم للضالين.

وتختم هذه المقابلات بتأكيد أن من يعلم أن الذي أنزل من ربه الحق، ليس كمن هو أعمى. إنما يتذكر أولو الألباب. ويثبت كذلك الفرق بين من يوفون بعهد الله، ومن ينقضون الميثاق، ومن يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ومن يقطعون: (أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ. الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهَّ، وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيْثَاقَ. وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُّ بِهِ أَن يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ).

وهكذا تمضي السورة، كأنها نسيج متين من الأضداد، يردف بعضه بعضاً، وينسج صورة للعالم قائمة على الثنائية: إيمان وكفر، نور وظلام، حق وباطل، خوف وطمع، سر وجهر، حفظ وهلاك، نفع وضر، نعيم وعذاب.

ولو شئت لقلت إن سورة الرعد قد رسمت لنا فلسفة الحياة بأسرها: تقوم على هذه السنّة الإلهية البديعة، سنة الثنائية، التي بها يقوم التوازن في الكون، وتتحقق حكمة الله في الخلق.

ثم تكشف الآيات عن مشهد آخر من مشاهد الثنائية: كيف أن الناس متفاوتون في أرزاقهم، فمنهم من بسط له الرزق، ومنهم من قُدِر عليه رزقه. ولكن هذا التفاضل في الرزق ليس عن غفلة أو عبث، بل عن علم وحكمة، ليبتلي الله بعضهم ببعض، ويمتحن القلوب والضمائر: (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ).

ويجري الحديث عن الذين كفروا: الذين مكروا السيئات، وحاولوا أن يخدعوا الله ورسله، فإذا بأساس مكرهم يتهدم من قواعده، وإذا بالعذاب يأتيهم من حيث لا يشعرون، حتى يذوقوا سوء العذاب في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

ثم يضرب الله لهم مثلاً فيُريهم أن من كان له دعوة الحق هو كمن له بيتٌ واهٍ ضعيف، لا يغني عنه من الله شيئاً. وإنما العزة لله جميعاً، يصطفي من يشاء بعلمه، ويؤتي من يشاء من فيضه وفضله.

ويُرينا مشهداً آخر: مشهد الذين آمنوا تطمئن قلوبهم بذكر الله. ألا بذكر الله تطمئن القلوب! وهذه مقابلة عجيبة بين اضطراب القلوب الفارغة، وطمأنينة القلوب المؤمنة العامرة: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ).

ثم يختم الله تلك المقابلات المحكمة بأعظم تذكير: أن الذين لا يؤمنون، مهما أُعطوا من متاع الحياة الدنيا، فإنهم في الآخرة من الخاسرين. وأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وأنه لو بسطه لجميع الناس لبغوا في الأرض، ولكن ينزله بقدر، بما تقتضيه حكمته وعلمه.

وتمضي الآيات تسوق أنباء الأمم الماضية: كيف أرسل الله إليهم الرسل، فآمن منهم من آمن، وكفر منهم من كفر، ثم كانت العاقبة للمتقين. وكأنما تُرسم بهذا خطى التاريخ الإنساني بأسره: سنة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل.

وتختم السورة هذا النسق العجيب من التقابل، مؤكدة أن الله الذي أرسل الكتاب هو الذي يعلم السر والجهر، وهو الكبير المتعال. وأنه لو أن قرآناً سُيرت به الجبال، أو قُطعت به الأرض، أو كلم به الموتى، لكان هذا القرآن. ولكن لله الأمر جميعاً.

فلا عجب أن يختم الله السورة بتثبيت قلوب المؤمنين: (أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً؟)، وأنه ما يزال الذين كفروا تصيبهم القوارع بما صنعوا، أو تحل قريباً من دارهم، حتى يأتي وعد الله، إن الله لا يخلف الميعاد.

هكذا كانت سورة الرعد حديثاً متصلاً عن الثنائية العميقة في بنية الكون، وفي طبيعة الحياة الإنسانية، وفي مصير الإنسان. نور وظلمة، إيمان وكفر، طمأنينة واضطراب، عطاء وحرمان، حياة وموت، سعادة وشقاء. وما كانت هذه الثنائية عبثاً، بل كانت سنّة إلهية محكمة تقوم عليها حركة الوجود بأسره، وتكشف عن عظمة الخالق، وحكمة المدبر، ورقة ميزانه الذي لا يميل ولا يختل.

سـورة إبراهيم

الصبر والثبات

اقرأ إن شئت مطلع هذه السورة، واقرأ إن شئت خواتيمها، بل اقرأ ما بين أولها وآخرها، تَجِدْ أن نَفَسًا واحدًا ينساب فيها كما تنساب الروح في الجسد، وتَسْرِي فيها كما يسري الدم في العروق، وتجد أن الموضوع لا يتفرق فيها ولا يتشعّب دونها، إنما يتكرر ويتجدّد، يُبدي نفسه ويُعيد، ثم يلبس ثوبًا جديدًا، ثم يعود إلى أصله، وكأنّما هو عود على بدء، وابتداء لا ينقطع: الصبر والثبات!

وسمّيت السورة إبراهيم، ولا أظنّ أن اختيار هذا الاسم كان اعتباطًا، فإن إبراهيم، عليه السلام، هو المَثل الأعلى للصبر والثبات. صبره في مواجهة قومه، وثباته على الكلمة، وتوكله على الله، وتَجَرُّده من مألوفات الناس، كل ذلك تجسَّد في اسمه، كأنّ السورة كُلّها قد بُنيت عليه، فكانت له مرآة.

فإذا فتحت المصحف، جاءتك الآية الأولى:

{كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}

أترى أن الخروج من الظلمات إلى النور يكون طريقه سهلًا، ممهدًا، لا رهق فيه ولا تعب؟ كلا، بل هو طريقٌ وعرٌ، موحش، لا يسلكه إلا من أُوتي صبرًا يشبه صبر الأنبياء، وثباتًا لا يزعزعه وعيدٌ ولا يغريه وعد. فالدعوةُ إلى النور لا تُثمر إلا حين تُروى بدمع الصابرين، وأحيانًا بدمائهم.

ثم تأتي الآية الثالثة، فتريك عجبًا آخر:

أن الكفار أنفسهم صابرون، ولكن على باطلهم!

{ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ، وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ، وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا، أُوْلَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ} .

وهم لا يكتفون بالانحراف، بل يصبرون عليه، ويثبتون له، بل ويتعصبون له، ويطلبون طريقًا أعوجًا، فيهدمون ويشوّشون ويصدّون.

ثم تَجيء ذكرى موسى، وليس ذكره كذكره في سائر السور، بل هنا يتلخّص في معنى: أنه أُرسل ليُخرج قومه من الظلمات إلى النور، وكأنها الصيغة الأرضية لنفس المهمة الإلهية التي بُدئت بها السورة.

ويُذكّر الله قوم موسى بيوم البلاء:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ، وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ}،

ذلك البلاء الذي ما صبر عليه أحدٌ كما صبر بنو إسرائيل، يُذبّح أبناؤهم ويُستحيا نساؤهم، وهم ثابتون، كأنهم قد قُيّدوا برجاء لا يموت.

ويُقرن ذلك بما حدث من قبل، فيقول:

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}.

قوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم، هؤلاء لم يذكر القرآن مواقفهم التفصيلية، بل ركّز على ما هو ثابت فيهم: أنهم أصرّوا، وثبتوا، وكفروا، ثم هلكوا.

ثم تنتقل السورة إلى صوت الرسل:

{قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى؟ قَالُواْ: إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا، تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا، فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}.

هنا نلمس الصبر العقلي، واليقين الهادئ، والتوكل الراضي، والنفوس التي تعبت ولكنها لم تنكسر.

ويقولون، في آية من أروع الآيات:

{وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا...}

فهم لا يشكون، ولا يتوعدون، بل يصبرون، ويُوكِلون أمرهم إلى الله، ويجعلون من الألم طريقًا إلى التوكل.

ثم تنقلب السورة إلى مشهد الآخرة، مشهد المستكبرين والضعفاء، فإذا بهم يقولون:

{سَوَاءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا...}

فقد فات الأوان، والصبر هنا لم يعد فضيلة، بل صار عجزًا.

ثم يأتي صوت غريب، ولكنه جليّ، يأتي صوت الشيطان، فإذا هو في أعلى درجات الثبات!

لا يعتذر، لا يتلجلج، لا يضطرب، بل يخطب في أتباعه خطبة صريحة قائلا:

{وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ: إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم! مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ. إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ..}

ومن هنا نفهم، أن السورة كلها دعوة إلى ثبات داخلي، لا يظهر في الخطابة، ولا يُقاس بالكثرة، بل يُقاس بالتماسك تحت الضغط، بالهدوء في وجه السخرية، باليقين في قلب التردد.

إنها سورة تُعَلِّمكَ أن الهداية لا تُؤتى إلا بالصبر، وأن الرسالة لا تُبلَّغ إلا بثبات.

وأن من سار في طريق إبراهيم، لا بد أن يلبس جُبّته، وأن يتحمّل ما تحمّله، لا مجرّدًا من الأذى، بل محتملًا له، بل مقتحمًا له، راضيًا به، لعلمه أن النهاية نور، وأن هذه الطريق، مهما طال ليلها، لا بد أن تشرق شمسها.

وما أحسب القارئ يغفل عن هذه الصورة البديعة التي ختم الله بها مشهدًا من مشاهد سورة إبراهيم، ذلك المثل الذي يُضرب لا ليزيّن القول، ولا ليزيد المعنى تجمّلاً، بل ليجلو الحقيقة في أبسط صورة وأكملها، تلك الحقيقة التي جرت على لسان المرسلين، وترددت

في آذان الناس، فما كان منهم إلا الإعراض والجدال، حتى جاء المثل في آيات الكتاب، لا يقبل جدلًا، ولا يترك للمعترض سبيلا:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ، وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا...}،

ثم يعقبها بالمثل المقابل فيقول:

{وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ، اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ، مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ}.

وقد كنتُ، وما زلت، أُطيل النظر في هذين المثلين، وأتدبّر موضع التقابل بينهما، فما وجدت الأمر كما ذهب إليه المفسرون الذين ظنوا أن الكلمة الخبيثة تنقطع بانقطاع أصلها، وتنتهي باجتثاثها، فلا أثر لها بعد ذلك، كأن الشر إذا قُطع من جذوره لا يعود، وكأن الفساد إذا اجتُث لا يتمادى، وكأن الكفر لا يعاود الكرة إذا وُئد مرّة.

ولكني- بعد تأمل طويل- وجدت في الآية من العمق ما لا تدركه النظرة العجلى، ومن الإحكام ما لا يقف عليه القارئ إلا بالصبر والتؤدة. فقد ظنّ المفسرون أن قول الله تعالى: {مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} يراد به أن الشجرة لا أصل لها، ولا استقرار لها في الأرض، فهي منتهية، ساقطة لا تثمر. وليس ذلك على ما أرى. فالله، جل ثناؤه، لم يقل إنها لا تثمر، ولا إنها لا تنمو، ولكنه قال: ما لها من قرار. وهذا تعبير في غاية الدقة، لا يعني الانقطاع، بل يعني ما هو أشدّ منه: يعني أنها لا تستقر، وأنها دائمة الحركة، متقلّبة، منبعثة، لا يسكن شرّها، ولا يهدأ فسادها، ولا يكفّ ثمرها الخبيث عن التداعي والانفجار.

وقد يتبادر إلى الذهن أن الشجرة الطيبة تُثمر الخير كل حين، والشجرة الخبيثة- إن كانت مقابِلة لها- فإنها تثمر الشر كل حين كذلك. وليس في هذا ما يُستنكَر أو يُستبعَد. بل هذه المقابلة هي جوهر البيان في الآية، ولكنّ الفرق هو في طبيعة الثبات: فالشجرة الطيبة لها أصل ثابت، وفروعها تتصاعد في السماء، فهي تنمو نموًّا راسخًا هادئًا، وتُؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، في انتظام وطمأنينة، لا يفسدها اضطراب، ولا يشوشها قلق.

أما الشجرة الخبيثة، فليس لها من هذا نصيب، فهي اجتُثت من فوق الأرض، كأنها تعيش على السطح، تتسلل وتتلوّى، لا تستقر في موطن، ولا تهدأ في مكان. وهي، على

الرغم من ذلك، تثمر، بل تثمر في فوضى، وتنتشر في اضطراب، وتلقي بشررها في كل ناحية. إنها لا تقرّ، ولا يستقرّ لها قرار، فهي أشبه ما تكون بالريح العقيم، أو بالنار في الهشيم، أو بالداء الذي يسري في الجسد لا يكاد يظهر حتى يستشري.

ويعرف هذا كل من جرّب فلاحة الأرض، ورأى بأم عينه ما تصنعه تلك النباتات الضارّة التي تكمن تحت التربة، ثم تمتد كالأفاعي، فإذا اقتلع المزارع بعضها، غابت جذورها تحت الأرض، ثم ظهرت في موضع آخر، وكأنها تتناسل من ذاتها، وتتكاثر من غير زرع. والنجيل، والسعد، والهليون، ونظائرها، كلها تُنبئك عن معنى قوله تعالى: ما لها من قرار. أي: لا تثبت في مكان، ولا تفنى في زمان، فهي شرّ مقيم لا يسكن، وخبث ممتد لا يُستأصل.

وهكذا تكون الكلمة الخبيثة. لا تقف عند قائلها، ولا تنتهي عند سامعها، بل تنفجر شررًا في القلوب، وتشتعل في العقول، وتفتح أبوابًا من الشرور ما كان الناس ليطرُقوها لولا تلك الكلمة التي أُلقيت يومًا بلا حساب، أو نُشرت في غفلة من وعي. ومتى اشتعل الشر بالكلمة، فإنه يتناسخ، ويتضاعف، كما تتضاعف القنبلة الانشطارية، لا تُصيب موضعًا واحدًا، بل تصيب أضعافه في لحظة واحدة، ثم لا تلبث أن تخلّف وراءها خرابًا لا يستقر، ودويًّا لا يسكن.

وما أبعد الفرق بين الكلمة التي تُثمر في سكون، وبين الكلمة التي تَذُرُّ رمادها في اضطراب، وما أوسع المسافة بين كلمة يُباركها الله فيُخرج منها كل حين ثمرة طيبة، وبين كلمة يُباركها الشيطان، فتُخرج كل حين فتنةً وفسادًا.

فالكلمة الطيبة ثابتة في أصلها، ممتدة في ثمرها، والكلمة الخبيثة لا أصل لها، ولكنها لا تسكن، بل هي فتنة متجددة، لا تُجتث إلا لتعود، ولا تُطفأ إلا لتندلع من جديد.

أما تلك الشجرة الطيبة، فلم تكن في صحراء خالية، بل كانت على خطى إبراهيم، عليه السلام، ذاك الذي ترك زوجه وولده عند بيت الله المحرم، حيث لا ماء ولا شجر، ورفع صوته بدعاء فيه من الرجاء قدر ما فيه من التسليم: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي

إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}، وكأنما كان يغرس غرسًا لا يراه، ولكنه يوقن أنه سيؤتي أكله كل حين بإذن ربه.

فما مرت الأيام، ولا عبرت القرون، حتى أخرج الله من تلك الذرية محمدًا، صلى الله عليه وسلم، الذي ما كان إلا ثمرةً من تلك الشجرة الطيبة، يفيض منها الإيمان كما يفيض الماء من الجداول، ويملأ الأرض عدلًا بعدما مُلئت جورًا.

ولم يقف القرآن عند التشبيه، بل مدَّ الخط من المثال إلى الواقع، فجاءت آية بعد آية، تُبين أن الثبات ليس شأن الشجر وحده، بل هو صفة الذين آمنوا. قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}.

ثم يترقى الحديث، لا بالجدل ولكن بضرب الأمثال، فتأتي آية فيها من الأمر ما يُربي القلوب: {قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ} فالصلاة تثبيت، والإنفاق تثبيت، لأن فيهما مجاهدة للنفس، ورفضًا للهوى، وقيامًا في مقام الخشية.

ثم تأتي الآيات التي تفتح الأبصار على سنة الله في الكون:

{وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}.

ماء ينزل، فثمر يخرج، وفلك يجري، وشمس وقمر لا يفتران عن المسير، وكأن الله يقول: كما ثبتت سنني في الكون، فاثبتوا أنتم على الحق. فكل شيء يجري بأمره، ثابت في سنته، لا يتغير ولا يتخلف، وإن حسبه الناس يسيرًا، فهو عنده دقيق محسوب.

ثم ينتقل السياق إلى بسطٍ كريمٍ لرحلة الدعاء، منذ أن قال إبراهيم: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا}، حتى قال: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ}، فيكون هذا السرد كأنه وثيقة حية تبرهن أن الدعاء طريق الثبات، وأن الثابتين لا يسألون غير ربهم، ولا يعتمدون إلا على رجائه.

ثم تأتي آية كأنها صفارة الإنذار: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ}، فلا يغرنكم مكر الظالمين، ولا دوام سلطانهم، فإنما يمهلهم، حتى إذا جاء اليوم الذي لا مرد

له، إذا هم مهطعين، مقنعي رؤوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم، وأفئدتهم هواء، قد خلا منها اليقين، وزال عنها الثبات.

ثم يواجههم بالحق الذي أنكروه، فيقول: {وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ} وهم الذين كانوا يظنون أنهم باقون على ملكهم لا يزول، فإذا الأرض زالت، والسماء تبدلت، وبقيت الأصفاد في أيديهم، والقطران على أبدانهم، والنار على وجوههم.

هكذا تمضي سورة إبراهيم، من أولها إلى آخرها، ترسم طريقًا لا يعرف الزيغ، وتؤسس لبناء لا تهدمه الرياح، وتزرع شجرة أصلها في الأرض، وفرعها في السماء، لا تضرها العواصف، ولا تعبأ بتقلب الليالي.

ولئن بدت لنا سورة إبراهيم، في ظاهر نظمها، متفرقة المقاصد، متوزعة الآيات بين دعاء إبراهيم ومثل الشجرة وتحذير الظالمين، فإن الناظر المتأني يرى الخيط ناظمًا، والجذر رابطًا، والسياق متماسكًا. فمحور الثبات الذي بسطنا الحديث فيه، ليس إلا مركزًا تتجمع عنده سائر آيات السورة، وتلتقي عليه سُبل الدعوة، وسنن الله، ومصارع الظالمين.

سـورة الحِـجْر

الإحاطة والتحديد والصراحة

هذه السورة، التي تبدأ بالحروف المقطعة كما تبدأ كثيرٌ من أخواتها، لا تفتتح الحديث بالتدرج كما تفعل سورٌ أخرى، وإنما تلقي القول دفعةً واحدة، وتضرب به في النفس كما يُلقى الحجر في الماء الراكد. ونحن، إذ نقف بين يدي هذه السورة، لا نكاد نغادر آية منها حتى نُردّ إلى الأخرى، فترانا كأننا نسير في معراجٍ من التحديد، لا ضباب فيه ولا ارتياب، بل إحكامٌ من لدن حكيم خبير.

فاختيار اسم السورة "الحِجْر" ليس مجرد إشارة تاريخية إلى موضعٍ بعينه، بل هو مفتاح دلالي لفهم بنيتها الكاملة ومحورها العميق.

"الحِجْر" من حيث اللغة هو: التحديد، والمنع، والإحاطة الصارمة. يُقال: "حَجَرَ عليه القاضي" أي منعه من التصرف. وهو في الجغرافيا: موضعٌ جافّ، محدّد الحدود، لا ماء فيه، ولا مرونة. وهذا يتقاطع تمامًا مع محور السورة، الذي يدور حول الصراحة المكشوفة، التي لا مواربة فيها، فهي حَجْرٌ على الالتواء، وقَطْعٌ للطريق على التأويلات اللزجة التي تداور ولا تصدّق.

وأما في معناها الاصطلاحي، فهي ديار ثمود، وقد جاءت في السياق كرمزٍ لأقوام واجهوا الصراحة بالعناد، والوضوح بالتكذيب، فكُتب عليهم العذاب بلا تورية ولا تأجيل.

فاسم السورة ذاته يختزن المحور: فالحِجر مكانٌ محصور، وضيق، وجاف، يرمز لقول الحق مجردًا من التزيين. وهو أيضًا حِجْرٌ على القلب المتكبر، لا يمر فيه النور، ولا يسقيه الرجاء.

وفيه كذلك إحالة على الصلابة: تلك التي قابلت بها الأقوام دعوة الرسل، وتلك التي يُطلب من المؤمن أن يُقابل بها السخرية والتكذيب.

فالقرآن لا يختار أسماءه عبثًا، بل يسمي ليس فقط ليُشير، بل ليُوجّه ويُركّز: تمامًا كما يفعل "الحِجْر" باللغة.

في الآية الأولى: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ}

ليس في هذه الآية تورية، ولا في ألفاظها ستر. إنما هو البيان، والقرآن المبين. ومعنى الإبانة هاهنا ليس مجرد الوضوح، بل هو إظهار الحق وقطع التردد. إنه كتاب لا يدع لك أن تقول: "لعله"، أو "ربما"، أو "من يدري؟"، وإنما هو يقيم البرهان كما تُقام الحجة في المحكمة، لا يقبل الشك، ولا يترك مدخلاً للريبة.

ثم في الآية الثانية: {رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ}

هي صراحة لا تُوارب. لا إيماء، ولا تلميح، بل إفصاح عن حسرةٍ ستأخذ القلوب ذات يوم، فيتمنى الذين أنكروا لو أنهم خضعوا، ولو خضعوا لَمَا نُزع منهم ذلك التمني يوم الحسرة. هذه الآية، وإن حملت "ربما"، إلا أن السياق ينفي الاحتمال ويؤكد الوقوع، فالحسرة واقعة، والندم نازل، لا محالة.

وفي الآية الرابعة: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ}

ها نحن نعود إلى الإحاطة مرة أخرى، وإلى التحديد. ليس في الإهلاك فوضى، ولا في القضاء ارتجال. بل هو كتاب، معلوم، محفوظ، مُسبق التعيين. ولعلها من أعجب آيات القرآن، تلك التي تردّ على أوهام أولئك الذين يظنون أن التاريخ عبث، أو أن المصائر تتشكل من غير حساب:

{مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ}

لا تقديم، ولا تأخير. أجل معلوم، لا يتقدم ولا يتأخر. وهذه صرامة مطلقة، تشبه في نفاذها قانون الزمن، بل هي أعتى من الزمن، لأن الزمن محكوم بها.

{يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}

هنا نجد تحديداً عجيباً في صيغة التهكم. هم لا يقولون: "هذا رجل يدّعي"، بل يصنفونه، ويضعونه تحت لافتة جاهزة: "مجنون". كأنهم يريدون أن يُسكتوا صوت

الحقيقة بالصاق وصمةٍ ثابتة بصاحبها. وهو منطق يعرفه كل من قرأ التاريخ، وكل من رأى كيف تصنف النبوءات في زوايا الجنون أو الخيال.

{لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}

طلب محدد. دليل بعينه. هم لا يطلبون دليلاً عاماً، بل يقولون: الملائكة. فكأنهم لا يريدون الإيمان، وإنما يريدون أن يُحرجوا النبوة في شرطٍ لا يتحقق. وهذا أيضاً من صرامة الجدل، ومن حيل المكذبين حين يُطالبون بالآيات وهم قد أغلقوا قلوبهم عنها.

{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}

وهذا هو أعلى صور الإحاطة. حفظٌ لا يوكل إلى بشر، ولا إلى ظرف، بل يتولاه الله نفسه. فكيف تُختلس الآيات، وكيف يُخدش الذكر، والله قد أحاط به حفظاً لا يتطرق إليه النقص؟

وتُعيد السورة مرارًا الإشارة إلى الكتاب المحفوظ، الإمام المبين، النذير المبين، الوقت المعلوم، الكتاب المعلوم، الجزء المقسوم، الخلاق العليم..

كل ذلك ليس من باب التكرار، بل من باب ترسيخ الإحاطة: هذا كلامٌ محفوظ، لا يَضلّ ولا يُنسى، محفوظٌ من التبديل، محفوظٌ من النقص، محفوظٌ من أن يخرج عن حدوده، كما هو محفوظٌ من أن يخرج أحد من حكمه:

{كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}

وسياق "السلك" هو سياق الإحاطة. هو إدخالٌ دقيق، كالسلك حين يُدخل في جرابٍ أو في أنبوب. فكما أن الذكر محفوظ من الخارج، فإنه حين يدخل القلوب إنما يُدخل على نحوٍ مخصوصٍ، فيُحفظ أثره، أو يُرفض تماماً، فيكون كالحَجْر على القلب لا ينفذ إليه شيء.

{وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ}

حتى مع الباب المفتوح، وحتى مع الصعود المادي إلى السماء، فإن الموقف لن يتغير. ما دام القلب مغلقاً، فلا باب السماء، ولا أجنحة الملائكة، ولا خوارق الطبيعة ستقنع..

{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ}

ثم تأتي السماء، المحفوظة هي أيضاً. قد زُينت وبُرجت، وكل برجٍ فيها يحرس، وكل كوكبٍ يؤدي دوره المحدد، فليس فيها شَطط، ولا فيها انفلات.

{وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ. وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ. وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ}.

هي آيات تُري القارئ كيف أن كل شيء قد حُدّد، ووزن، واحتُفِظ به، وأُفرِج عنه بالقدر المناسب. فالرزق لا يأتي هملاً، وإنما يُفْرَج عنه من خزائن محددة، وبتقدير معلوم، لا يزيد ولا ينقص.

{ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ، فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء، فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}

وهنا تدخل الرياح في موكب الأوامر المحددة، فلها وظائف، ومن هذه الوظائف التلقيح، كأنها رسل تحمل رسالة، وتنفذ أمرًا. أما أنتم، أيها البشر، فلستم بخازنين، لا للماء، ولا للرياح، ولا لغيرها. وهذا هو الحد، وهذا هو الفارق، وهذا هو الحَجْر على الزعم بأن الإنسان يحوز كل شيء.

{وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ}

ما أشد صراحة هذه الآية، وما أصرح قولها. هي لا تحتمل المجاز، ولا تُبقي للخيال نصيبًا، وإنما تضع الحياة والموت والمصير جميعاً في يد الله وحده.

فهذه الآيات من أولها إلى آخرها، قد فُرض عليها الحَجْر من كل الجهات: لا مواربة، ولا تسويف، ولا هروب من تحديد الموقف. إما أن تؤمن وتخضع، وإما أن تُكذّب وتنتظر. الإيمان واضح، والتكذيب واضح، والتقدير معلوم، والأجل محسوب، والمصير محتوم.

وليس هذا المعنى غريباً عن بقية معاني آيات السورة، إنما هي معانٍ واحدة تتكرر، وتتشابك، وتختلف ألوانها لتقول الحقيقة ذاتها: أن كل شيء بإذن، وكل أمر بميزان، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً وقدراً وتقديراً.

وما زالت السورة تمضي في سبيلها، على ذلك النسق العجيب، الذي يُفيض على النفس طمأنينةَ البيان، وجلالَ الإحاطة، وهيبةَ التحديد، وتلك الصراحة التي لا تعرف التردد، ولا تأخذها لومةُ المواربة. ومن العجيب، بل من البديع، أن السورة تُشيع هذا الطابع في كل آية من آياتها، فيشعر القارئ أنه في حضرة كتابٍ لا يُخاطب هواه، بل يُحيط بعقله، ويضبط وجدانه، ويأخذ بيده إلى غاية لا غموض فيها، ولا تسويف

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾

ما هذا إلا إحاطة تامة، لا يستثني منها حاضرًا ولا غائبًا، ولا من تقدّم في سيره ولا من تأخّر. إنها آية ترسم لنا علمًا لا تشوبه غفلة، ولا يدخله نسيان، بل يحيط بالزمان في أطرافه، كما يحيط بالبشر في حركاتهم وسكناتهم. ما من أحد يتقدّم إلا والله يعلمه، وما من أحد يتأخر إلا والله محيطٌ به. فلا عجب أن يشعر الإنسان أمام هذا النص بشيء من الرهبة، وأنه مُراقب في جميع أطواره.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾

ما أصرح هذا التحديد! لا يترك النص موضعًا للتخمين، ولا يسمح بالتأويل المتساهل. فكأنما يريد النص أن يُنزل الإنسان من علياء غروره، ويضعه أمام حقيقته الأولى، فيراها، ويعترف بها، ويسكن إليها، قبل أن يتطاول.

ويحدد مادة الإنسان، بل يذكرها بصيغتين: صلصال، وحمإ مسنون. والصلصال هو الطين اليابس، والحمأ هو الطين الأسود المتغيّر. فجاء الصلصال هنا ليتناسب مع اسم السورة (الحِجر) وهو المكان الجاف المحصور بين الجبال. وكذلك جاءت (نار السموم) لتتناسب مع جفاف رياح الصحراء اللافحة التي تهب فيها الرياح الجافة الحارقة.

وفي قوله (نار السموم) تحديد آخر، لا يقل دقة عن سابقه. الجانّ خُلق من نار، لا أي نار، بل "نار السموم"، تلك التي لا تُطاق، ولا يُعرف لها لطف، وإنما هي نار خالصة، منزوعة الرحمة، خالية من البرودة، تُصهِر ولا تُنضِج، تُحرِق ولا تُلين.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾

وها هو الأمر الإلهي، يتحدّد في لحظة مخصوصة: "فإذا سوّيته"- لا قبلها، ولا بعدها- "ونفخت فيه من روحي"، عندئذٍ فقط: "فقعوا له ساجدين". لحظة واحدة مفصلية، ينتقل فيها المخلوق من كائن طيني إلى كائن روحاني يستحق السجود، لا لذاته، ولكن لنفخة الروح فيه. وكل شيء مضبوط بميزان لا يخطئ.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾

أي وضوح أشد من هذا؟ لا استثناء، ولا تردد، ولا تأويل: الملائكة كلهم، أجمعون، سجدوا. السجود هنا طاعة كاملة، لا يعرف التراخي، ولا يسمح بالانقسام.

ثم تأتي قصة إبليس، لا كما أتت في "البقرة" أو "الأعراف"، بل وهي مشبعة بمعاني التحديد الحادّ، والإحاطة الدقيقة. فانظر كيف يحدد الله مقام إبليس، ويسأله، لا ليعلم، بل ليُظهر للخلق علة الطرد. فالسورة، في كل موقف، لا تترك مجالًا للمداراة:

﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾

فيأتي الردّ من إبليس، أيضًا، بلا تمويه، ودون تلوين:

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾

وها هو إبليس يُفصِح، لا يُخفي منطقه، بل يحدده: لا يقول: "خُيّل لي"، ولا "ظننت أن من الأفضل"، بل يقول: "لم أكن لأسجد"، وكأن الأمر عنده مبدأ لا يتزحزح. وهذا هو وجه الصراحة في السقوط: أن يقول المتمرّد إن تمرده خيارٌ واعٍ، لا زلّة، ولا تأويل.

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾

لعنة محددة المدة، لكنها طويلة بقدر ما يطيق الوعي البشري أن يتصور: "إلى يوم الدين"، أي إلى يوم لا رجعة فيه، يوم الحساب والجزاء. وما بعده فمصير أبدي، لا يتغير.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

وإبليس، وهو اللعين، يطلب نظرة، ولكنه لا يطلبها عبثًا، بل إلى غاية محددة: "إلى يوم يُبعثون". حتى الشر حين يُفصح، يُفصح بتحديد، ولا يتوارى وراء العبارات المبهمة. بل إن الله لا يُخفي عن خلقه شيئًا من خطته مع إبليس، ولا يُورِّي، بل يقول له:

{قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ}. وقتٌ معلوم. ما أضيق فسحة الشيطان، وإن بدا مطلق السراح.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾

وها هو التحديد الأشد: لا سلطان لإبليس إلا على من تبع هواه، أما أولئك الذين أخلصهم الله لنفسه، فقد خرجوا من دائرة تأثيره، خروجًا لا لبس فيه.

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾

ما هذه إلا صراحة ترعد لها القلوب: جهنم ليست كيانًا واحدًا، بل ذات أبواب، سبعة. وكل باب يُفترض أن له وجهة ومصيرًا وسكانًا. هذا العدد، وهذا التقسيم، هو في ذاته تحذير، وتحفيز على الاتعاظ.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾

الغلّ هنا لم يُترك في الهواء، بل وُضع في "الصدور". موضعه معلوم، ومكانه محدد، وإزالته كانت فعلًا إلهيًا مباشرًا. وكأن الله لا يكتفي بإدخال عباده الجنة، بل يُنقّيهم حتى من رواسب الغلّ الخفي.

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾

ما أتمّ هذا البيان، وما أشد صراحته. فالله يُعرّف نفسه بصفتيه: الغفران والرحمة، وهما ركنان من أركان الرجاء. لكنه لا يُسقط جانب الهيبة، بل يُتْبِعه مباشرة بالتحذير: "وأن عذابي هو العذاب الأليم". لا تعارض، بل توازن، ولا غموض، بل وضوح، بحيث لا يبقى لأحد حجة، ولا عذر.

وهكذا تسير سورة الحجر، في انتظامٍ يُدهش النفس، وصرامةٍ تُعجب العقل، فهي تُحدّد لنا الأشياء لا لتُضيق علينا، بل لنرى بعينٍ صافية، وميزانٍ معدول.

وتمضي السورة تذكر الأمم: أصحاب الأيكة، وثمود، ولوط، وإبراهيم، وكل واحدةٍ منها مشمولةٌ بالإحاطة، وكل واحدةٍ جاءها نذيرٌ، وحدّد لها أجل، فلما بلغته، لم تَستقدم ساعةً ولا تَستأخر:

{وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ: سَلاَمًا! قَالَ: إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ}.

فهذا إبراهيم، الخليل، حين دخل عليه الضيوف، لم يوارِ ما في نفسه، ولم يُخفِ ما في صدره، بل قال: "إنا منكم وجلون". وكان الوحي صادقًا حين نقله إلينا بهذه الصراحة التي لا تلتوي. فالوجلُ، وهو الفزع الذي يأتي من إحساس غريب أو غير مألوف، لم يُجمل في لفظٍ مبهم، بل سُمي باسمه، وسُكب في لفظٍ صافٍ، كأنه السيل في يوم مطير.

{قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ}

ثم تتعاقب اللحظة، فيرد الملائكة على وجله، لا بتطمينٍ مجرد، بل ببشارةٍ عظيمة تُخرجه من دائرة الوجل إلى فضاء الفرح والدهشة: "إنا نبشرك بغلامٍ عليم". لا غلامٍ فقط، بل عليم، يعرف حدود الأشياء ومقاديرها.

{قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ. قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ}

وها هو يسألهم، وهو النبي، يسأل ولا يتردد: "فما خطبكم أيها المرسلون؟" فجاءوه بالجواب، لا بالتورية ولا بالتلميح، بل بالتحديد: "إنا أُرسلنا إلى قومٍ مجرمين". وما أصرح هذا الجواب! وما أبلغه في الإدانة! قوم مجرمون، لا لبس في وصفهم، ولا مداراة في حقيقتهم.

{إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ}

ثم يستكمل الوحي مشهده، فيبين أن من آل لوط سينجو، "إلا امرأته". وحدد مكانها في المصير: "قدرنا إنها لمن الغابرين". فهي غابرة، ماضية في الهلاك، لا تُستثنى، ولا يُقضى لها بنجاةٍ لم تصدق فيها نية.

{فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ، وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ، وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ، وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ}.

وتأتي الوصية الإلهية للوط على لسان الملائكة، فتُحدَّد له الساعة: "فأسرِ بأهلك بقطع من الليل". ويُؤمر ألّا يلتفت منهم أحد، ويؤمر أن يتبع أدبارهم، ويؤمر أن يمضي إلى مكان محدد. خطة إلهية شاملة وافية:

{وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ}. فها هو الصبح موعد القضاء، لا تأخيره ولا تقديمه.

{وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ. قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ}.

وها هم القوم يحيطون ببيته، لم يقل لهم لوط: هؤلاء أولياء، أو ملائكة، أو أناس غرباء، بل قال لهم كلمة تدل على ميثاق الضيافة وحرمة الزائر: "هؤلاء ضيفي فلا تفضحون". فالتحديد هنا يراد به صون العرض قبل الكشف عن الغيب.

{قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ}.

ثم أشار إلى بناته، ولفظه دقيق لا تلميح فيه ولا مواربة، بل صراحة مكشوفة: "هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين". لا هوى في القول، ولا ميل في النص، بل إحالةٌ إلى الطهر المشروع في مقابل الفجور المحظور.

{وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ}.

ويجيء ذكر أصحاب الحجر، قوم ثمود، "ولقد كذّب أصحاب الحجر المرسلين". فالحِجر، وهو الموضع المحجور بين الجبال، هو أيضًا دلالة على القلوب المحجورة، والأنفس المحصّنة بالغرور عن الإنابة.

{وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ}.

كانوا آمنين في الظاهر، لكن الوحي يكشف زيف الأمان حين يكون مبنيًا على المادة دون الروح، وعلى الصخر دون التقوى.

{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}.

فالمُعطى هنا ليس عددًا مجردًا، بل هو رمزٌ للتمام، إشارةٌ إلى الفاتحة، أصل السبع، وعمود الصلاة، وبيت التسبيح.

{لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ}.

إنه نهيٌ عن الطموح إلى زخرف الدنيا، ووصيةٌ بأن يكون الجناح مخفوضًا للمؤمنين، لا للمتكبرين، ولا للمترفين.

ثم يجيء أمر النبوة الصريح:

{وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ}.

لا خفاء في الدور، ولا تردد في الإعلان.

{كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ}.

قسموه، ومزقوه، وآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، فحُكم عليهم بأنهم سيُسألون، ويُعاقبون على هذا الانشطار في الموقف من الحق.

ثم جاء التكليف الذي لا محيد عنه:

{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} والصدع كالشق في الصخر، لا رجعة فيه، ولا خفاء.

{إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ}. كفايةٌ محيطة، وحصانةٌ إلهية لا تحتاج إلى سيف، بل يكفيها أن تنبع من الذي لا يغفل ولا ينام.

وتبلغ الصراحة منتهاها حين يُقال للنبيّ، وهو الحبيب، المصطفى، المختار:

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ}.

لا يُقال له: "سيُصدّقونك قريبًا"، ولا: "اصبر فإن القوم سيتغيّرون"، بل يُقال له: "نحن نعلم أنك تتألم، ولكن هذا هو الطريق"، طريق لا مواربة فيه، لا عبارات تلطيف، بل حقيقةٌ مجرّدة: الناس سيُعرضون، وأنت ستحزن، فاصبر وسبح بحمد ربك وكن من الساجدين.

ويُختم الأمر بخاتمة المقصود:

{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}. واليقين هنا، في أصفى معانيه، هو الموت، وهو اللقاء، وهو لحظة تنقشع فيها الغيوب، وتُسفر الحقيقة، ويتحدد المصير.

هذه هي سورة الحجر، لمن أراد أن يفهمها لا ككلامٍ منمق، بل كدرسٍ أخلاقي، وجودي، فلسفي في آنٍ معًا: إنها سورة تقول لك الحقيقة كلها، دفعةً واحدة، وتدعك تُفكّر، أو لا تفكّر. ولكنها لا تداور. فهي من أولها إلى آخرها، تُصاغ بخيطٍ ناظم من التحديد. تحديدٌ في الأشخاص، في اللحظات، في الأقدار، في الصفات، حتى لا يبقى في القلب موضع للتمويه، ولا في العقل مسربٌ للشك. وكأن الوحي يعلّمنا أن الهداية لا تقوم إلا على الوضوح، وأن النبوة لا تُمارَس إلا في دائرة الجلاء.

سـورة النحـل

السياحة والتطواف والترف الفكري

كأنما سورة النحل، لا تُقرأ كما تُقرأ سائر السور، وإنما يُطاف بها كما يُطاف بمائدة حافلة، أو يُرتحل معها كما يُرتحل في بلاد مترفة، تنتقل من منظر إلى منظر، ومن نكهة إلى نكهة، ومن لذة حس إلى لذة عقل، ومن متعة عين إلى متعة قلب.

وما تسميتها بالنحل إلا من باب هذا التطواف، ومن باب هذا التذوق. فآياتها كسرب النحل لا تعرف السكون، وكأنها كائن حيّ لا يطيق البقاء في مكان واحد، بل يذهب في الأرض ها هنا وهناك، يتخيّر من كل زهرة رحيقها، ومن كل ثمرة لبّها، ليخرج لنا شرابًا مختلفًا ألوانه، فيه شفاء للناس.

تبدأ السورة لا كما يبدأ الحديث، بل كما تبدأ المسرحية الجليلة. فإذا أنت أمام مشهد من مشاهد السماء: أمر إلهي، ونزول وحي، وجلال ملائكة، كأنّ الستار قد رُفع، والمشاهدون بعد لم يستقروا على مقاعدهم. ثم لا تلبث الآيات أن تنقلك، في رفق الفن وسلاسته، إلى عالم الإنسان: {خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ}، فهو مخلوق ضعيف، وإن علا صوته واشتد غروره. ثم إذا بالأرض كلها تُعرض عليك كأنها مسرح الطبيعة الفسيح، وكأنك تنظر إليها من علٍ: أنعام تمشي، وخيول تعدو، وحُمر تُركب، وزينة تُعلّق، وجمالٌ يُستملح.

ولا تقف الآيات عند الضرورات، ولا تقف عند ما يحفظ الحياة من طعام وشراب، بل تطوف تطواف النحل، وتلتمس مواضع الترف، ونقاط الرخاء، وأسباب الزينة، ووجوه النعمة التي لا يعيش بها الإنسان فحسب، بل يتنعم ويتذوق ويحيا الحياة التي تُعاش من أجل الطعم والرائحة واللون.

أرأيت كيف تتحدث الآيات عن المطر؟ لا تذكر شدته ولا طوفانه، ولا سيله الجارف، ولا ما يهلك الحرث والنسل، بل تذكر وجهه الآخر، وجه النعمة التي تنزل على مهل، فتنبت الزرع، وتُخرج الزيتون، والرمان، والعنب، وسائر الثمرات التي لا يأكلها الجائع

وحده، بل يتخيرها المترف في مجلس طعامه، يزين بها مائدته، ويجعل منها بهجة لعينيه قبل أن تكون غذاء لبطنه.

وتتحدث عن البحر، لا من باب هيبته، ولا من باب موجه العاتي، ولكن من حيث هو مصدر للؤلؤ، ومعدن للجمال، ومرسى للسفن التي لا تُسيّر لأمر خطير فحسب، بل لحمل الطيب، ونقل الثياب، والتجارة، والسفر، والسياحة، والزيارة.

وكأن الإنسان في هذه السورة ليس مخلوق النجاة فحسب، ولا مخلوق الضرورة فقط، بل هو مخلوق التذوق، والترف، والكمال، والفن، والحياة الراقية. خلقه الله على صورة من الجمال والحس، وأمدّه بالأدوات التي لا تكتفي بالبقاء، بل تتطلع إلى اللذة.

ولا غرو، فإن السورة نفسها تنطق باسم هذا الكائن الذي يُخرج من جوفه العسل، وهو خالص شفاء، وهو خالص متعة، وهو محض نعمة تُطاف بها على الناس.

ولعل هذا هو السر في أن تتحدث السورة عن النعم بهذا الامتداد، وتعرضها عرضًا يشبه المقطوعات الموسيقية في تنقلها من مقام إلى مقام، ومن إيقاع إلى إيقاع، حتى إذا استقر فيك المعنى، جاءك الخاتم والعصارة: هذه نعم الله، فماذا أنتم فاعلون؟ أتشكرون؟ أم تكفرون؟ أتهتدون؟ أم تضلون؟

هكذا تمضي سورة النحل في سياحتها الرحيبة، تطوف بالذهن والقلب كما تطوف النحلة بين الأزهار، ترتشف من كل لونٍ رحيقاً، وتحمل إلى القارئ شرابًا مختلفًا ألوانه، فيه شفاء للفكر، وإنذارٌ للروح، ودعوةٌ إلى اليقظة من غفوة الطمأنينة إلى نعيم الدنيا.

فانظر – إن شئت – إلى قوله تعالى: {وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} كيف يرسم مشهد الأرض وقد أُلقيت فيها الرواسي، جبالٌ شامخات كأنها أوتادٌ تشدّ الأرض شداً لئلا تميد بنا، وكأنما الله أراد أن يقول للإنسان: إنك أيها الضعيف ما كنت لتنام آمنًا، ولا لتبني، ولا لتزرع، لولا هذه الجبال التي تمسك الأرض عن أن تضطرب تحت قدميك، وتهلكك في لجّها المتحرك.

ثم قوله تعالى: {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} يأخذ بيدك إلى السماء، إلى تلك الأنجم التي تُرصِّع جبهة الليل، لا عبثًا ولا زينةً فحسب، ولكن لتكون لك علامات

تهتدي بها، في ظلمات البر والبحر، وفي دروب الفكر أيضًا. فكأنما الكون كله مسخّر لك أيها الإنسان، أرضه وسماه، ومائه وناره، جماده ونباته، حتى النجوم التي لا تصل إليها يدك، هي في خدمتك، ترشدك وتضيء لك السبيل.

ثم يأتي الصوت القرآني الرقيق العميق، ليهتف في أذنك: {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}، وكأن السورة تقول لك: أفق أيها الإنسان من سباتك، انظر كم أُعطيت، وأين شكرك؟ أنعم الله عليك بكل هذه الألوان من الترف والنعيم، وأنت لا تقدر على شكر نعمةٍ واحدة، ومع ذلك، فإن ربك رؤوف، حليم، غفور، يراك مقصّرًا فلا يعجّل لك العقوبة، بل ينتظرك أن تعود.

ويغوص بك الخطاب إلى غور النفس، إلى السرّ الباطن، حيث لا يبلغ نظر الناس، ولا يطّلع عليه إلا خالقك: {وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} يعلم همساتك، وخوفك، وجشعك، وتطلّعك، وحبك للترف، وحرصك على زخارف الدنيا، ويعلم كذلك كم من مرة سجدتَ بغير قلب، ودعوتَ بغير رجاء، وزعمتَ حبّه ولسانك يهتف بغير اسمه.

ثم تأخذك السورة في تطواف جديد، إلى مشهد من أشد المشاهد تناقضًا، حين يصنع الإنسان تمثالًا من حجر، أو يبني قبرًا فوق ميت، ثم ينحني له، يطلب منه النفع والضرّ: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ. أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}، إنها لتقرع العقل قبل القلب، أن هؤلاء الذين تدعونهم لا يملكون لكم شيئًا، لا يسمعون ولا يجيبون، ولا يدرون متى يُبعثون! أفيليق بك – وقد أُوتيت عقلاً وفهمًا – أن تسجد لما لا يسمع ولا يبصر ولا يرحم؟

فأنت حين تمضي في آيات سورة النحل، تجد أنها لا تنفكّ عن عرض مشاهد من الحياة والآخرة، تتخللها دعوة إلى التفكّر والتطواف، وكأن السورة تدعوك لتكون سائحًا في الأرض وفي النفس، سائسًا لعقلك وقلبك، تذوق من نعم الله، وتخشى أن تنقلب هذه النعم إلى وبال، إن هي نُسيت أو نُسبت إلى غير خالقها.

فانظر مثلًا إلى قوله تعالى: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ، فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ! بَلَى، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} كيف يصوّر النفس وهي تُنتزع من الجسد، لا كما تُنتزع القطرات من السحاب، بل كما تُنتزع الأوتاد من الصخور، والنفس

تصيح وتستسلم وتقول: ما كنا نعمل من سوء!، ولكن هيهات! فالله أعلم بما كنتم تعملون. لقد كانوا من قبل يتنعمون في الأرض، يتفكرون في الطير مسخرات، وفي النحل يصنع بيوته بين الجبال، وفي الجمال كيف خُلقت، ثم ما شكروا، وما تابوا، بل قالوا إنما الحياة مادة، وإن النعيم حقٌ لمن ملك، والملك لمن فكر، ونسوا أن للفكر ربًا، وللملك مالكًا، وللنعم رازقًا.

ثم تمضي السورة فترينا مشهدًا آخر، نقيضًا لأولئك الجاحدين، مشهدًا للذين اتقوا، كيف تتنزل عليهم الملائكة بالسكينة، وتسوقهم لا إلى النار، بل إلى جنات عدن، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين:

{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.

هؤلاء ما كانوا يترفون مثل غيرهم، بل ترفهم كان من نوع آخر، ترف النفس بالتقوى، وترف الروح بالطمأنينة، وترف الفكر بالرضا عن الله.

ثم تتابع الآيات في تصوير حال المكذبين، أولئك الذين ما صدقوا أن للكون ربًا، وأن للوجود غاية، فبنوا حضارتهم على أساس من الرمل، وأقاموا مناهجهم على شفا جرف هار، فإذا الريح تهب، وإذا السماء تمطر، وإذا العذاب ينزل، كما نزل على من قبلهم. فلئن استكبروا وقالوا: {لَوْ شَاء اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ} فإن الله رد عليهم بقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}. فهل يعقل أن يبعث الله الرسل، ثم يجعل القضاء هو المانع من الإيمان؟ إن هذا لقول مردود، لا يقبله عقل، ولا يقرّه وحي.

ثم يخاطب الله نبيَّه الكريم، ذلك القلب الرؤوف الحريص على أمته، فيقول له: {إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ}، لأن الضلال قد غلف قلوبهم، واتخذوا من عقولهم آلهة، وعبدوا الفكر الذي يخرج من أذهانهم كما يعبد الجاهلون صنمًا من حجر

نحتته أيديهم. وما أشبه هؤلاء بمن يأكل العسل ويقول: ما أحلاه! ثم ينكر أن للنحلة ربًّا يسيرها.

وانظر إلى هؤلاء الضالين وهم يقسمون بالله أن لا بعث، فترى في كلامهم تناقضًا عجيبًا: يقسمون بالله وهم ينكرون وعده، ويذكرون اسمه وهم لا يعظمونه، فهم على الحقيقة قوم يحبون أن يكونوا آلهة يتبعهم الناس، لا عبادًا يتبعون الوحي. فدعوا إلى فلسفاتهم، ونظّروا لمذاهبهم، وجعلوا من الكفر صنعة، ومن الضلال فلسفة، ومن الإنكار علمًا، ومن الطغيان حرية.

هكذا تمضي سورة النحل، آية بعد آية، تطوف بك في الدنيا، في الأرض، في النفس، في السماء، في التاريخ، ثم تعود بك إلى مشهد يوم القيامة، فيكشف الله لك هناك أنّ الترف، إن لم يُشكَر، كان وبالًا، وأن التفكر، إن لم يُربط بالوحي، كان غواية، وأن الفكر إذا تجرد من الإيمان، كان كالعسل في فم السكران، يلتذ به، ثم يهلكه. فالذين قالوا إن الإنسان ابن الطبيعة، وإن الدين وهم، وإن البعث خرافة، سيعلمون يوم القيامة أنهم كانوا كاذبين، وأن العسل الذي ذاقوه كان علقمًا، وأن القصور الفكرية التي بنوها، قد هدمها الله من القواعد فخرت على رؤوسهم.

ثم تبدأ سورة النحل تُفصِح عن وجهٍ آخر من وجوهها: وجه التجربة الإنسانيّة حين تضيق به الأرض، ويتحول الترف الفكري إلى قيدٍ من حديد. فإذا ذاق المؤمنون من ظلم المستكبرين، واستشعروا أن البلاد التي نشأوا فيها قد ضاقت عليهم، لا لضيق مساحتها، ولكن لضيق الصدر، ولأنها لم تعد ترحب بكلمة الحق، فإنهم يهمّون بالرحيل، لا إلى أرضٍ أوسع فقط، بل إلى أفق أرحب، إلى حرية الاعتقاد، وإلى نَفَسِ السماء الطليق:

{وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}.

ثم ما يزال الفكر الإلحادي يرفض أن يكون البشر رسلاً، وهذا في ذاته نوعٌ من الترف العقلي، ومن اللجاج الذهني الذي يريد أن يُملِي على السماء شروطه، بدلًا من أن يخضع هو لشروطها. يريدون ملائكة لا تذوق الطعام، ولا تمشي في الأسواق، ولا تشعر بما يشعر به الناس. وهنا تنطق الآية، في شيء من الجدة والصرامة:

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ}

فهي ليست بدعة أن يُرسَل بشر، بل هي سُنة قديمة قِدم الوحي. ثم تردف الآية، كما يفعل المفكر حين يدعوك إلى الرجوع إلى الأصول، إلى الخبراء في التاريخ، فتقول: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}

هكذا، يظل محور سورة النحل يدور في فلك الإنسان المتنقّل: متنقّل بجسده في أرض الله، ومتنقّل بعقله بين الفلسفات والشرائع، ومتنقّل بقلبه بين الترف والحق، بين لذة الأفكار المزوقة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وبين طمأنينة الوحي التي تهب للمرء سكينة العارفين.

ثم تمضي السورة في نسقها العجيب، تبني على ما سبق، وتكشف ستارًا جديدًا من ستائر النفس، ومن حجُب الغفلة التي يختبئ خلفها أولئك المترفون. أولئك الذين أعطاهم الله من نعمه ما لذّ وطاب، فأكلوا العسل مصفى، وشربوا اللبن سائغًا، وتفيأوا الظلال وارفة، ولكنهم ما شكروا، بل مكروا، وما سجدوا، بل تكبّروا. فأصبحوا، بما خططت عقولهم وبما خفتت بصائرهم، لا يختلفون عن منكرٍ لمعروف، ولا عن جاحدٍ لنور أشرق في وضح النهار.

فتأتي الآية التالية، لا لتخاطبهم فقط، بل لتخاطب كل من سولت له نفسه أن يختبئ في ترفه عن تبعة الإيمان، وأن يحسب أن دنياه آمنة من مكر القدر:

{أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ، أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ؟ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ، فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}

وانظر كيف الله، في رقةٍ تقطع القلوب، يختم هذا الوعيد بوصفٍ لا يكاد يُصدق في مقام الإنذار:

{فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}.

أهو تهديد أم تذكير؟ أهو رجاء في التوبة أم حجة على من أبى؟ كأن الله يقول لهم: "أنا الذي أخوفكم بالعذاب، لكنني الذي أمهلكم رحمةً، وأنتظر منكم رجوعًا". هذه اللمسة، وحدها، تفرّق بين عذاب يُراد به الهلكة، وعذاب يُراد به اليقظة.

ثم تُحيل الآيات أبصارهم إلى ما حولهم، إلى الطبيعة التي يتفيأون ظلالها وهم يعصون الله في ظلالها، فتقول لهم: انظروا إلى ما خلق الله، {يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا للهِّ وَهُمْ دَاخِرُونَ}. فها هو الشجر الذي تظنونه بلا عقل، والظلّ الذي تحسبونه جمادًا، يسجد لله، سجودًا لا يعلم سره إلا الله. أما أنتم، وأنتم أولي العقول، أفلا تسجدون؟ أما تستحيون من شجرةٍ تسجد وأنتم تُعرضون؟

ثم ترتقي الآيات، فتفتح نافذةً على السماء، وتقول في جملة واحدة تحمل من الدقة ما يُدهش العقل:

{وَللهِّ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ}. فالملائكة، مع علوّ منزلتهم، لا يستكبرون. فكيف يستكبر من يأكل ويشرب، ويخطئ ويضعف، ويجهل ويضلّ؟

وتختم السورة هذا المشهد الرهيب بهذه العبارة التي تُذيب الجبال:

{يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}.

فهكذا يكون السجود، لا خضوعَ أجسادٍ فقط، بل انقيادًا دقيقًا، وفعلًا لما يؤمر به دون توانٍ ولا اعتراض. فأين هؤلاء المترفون من هذا الطهر؟ وأين أولئك الذين أضلّهم الترف، من هذا الخوف الكريم، والخضوع الطائع؟

وكأنما القرآن هنا يرسم صورة سائحٍ في نعمة الله، يطوف في جنباتها كما يطوف السائح في الجبال والأنهار، لكنه سائح أعمى، لا يلتفت، لا يشكر، لا يفكر، بل يمضي مرفّهًا عقله باللعب، ومترَفًا وجدانه بالمحاكاة الكاذبة، ناسِيًا أن هذه النعمة ليست دائمة، وأن من يُنكر فضل المنعم، فإنه موعودٌ بزوال النعيم، مهما طال به المقام.

ثم إذا السورة تنتقل نقلة رفيعة، تربط بين الوحي والمطر، بين الروح والطبيعة، بين هداية النفوس وإنبات الأرض:

{وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ. وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ}.

ففي هذه الآيات نجد السياحة الفكرية وقد تَجلّت في أعظم صورها. فها هو الله يذكّرهم بأن الماء الذي يسقي الأرض فيحييها، كالقرآن الذي يسقي القلوب فيبعثها، وأن اللبن الذي يخرج من بين فرث ودم، إنما هو صورة من صور التصفية الإلهية، التي تجعل من القذر طهارة، ومن العفن غذاء.

أما هم، أولئك الغارقون في الترف، فإنهم لا يرضون بهذه السنّة، بل يفسدونها، فيحولون الخيرات إلى شرور: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا}. فأنّى لهم أن يدركوا أسرار النعمة وهم يستعملونها لهدم عقولهم، وإطفاء أرواحهم؟

ثم تأتي النحلة، هذه الكائن الصغير، الذي لا يُحسن جدلًا، ولا يعرف لغوًا، لكنها تسير بوحيٍ من الله، فتأكل من الثمرات، وتخرج شرابًا فيه شفاء للناس: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}

فأين هؤلاء البشر الذين عُقلوا العقل، وزُوّدوا البيان، ثم لم يهتدوا، من تلك النحلة التي لم تتعلم في المدارس، ولا درست الفلسفة، ولكنها عرفت ربها وأطاعته، فكانت مصدر الشفاء، وهم مصدر الشقاء؟

أفتأملْتَ، أيها القارئ، كيف أن الترف الفكري لا يقل خطرًا عن الترف المالي؟ وكيف أن من ضلّ في فكره، فهو أحرى أن يضل في سلوكه؟ وكيف أن كل انحراف في تصور الله والكون، إنما هو مقدّمة لانحرافٍ في الواقع، في الأسرة، في المجتمع، في التاريخ؟ تلك هي السياحة القرآنية، وهذا هو التطواف بين الآيات، الذي لا يُراد به فرجة، بل يقظة، ولا يُقصد منه التنقل، بل الرجوع إلى الفطرة، والتوبة إلى الله.

ثم تنتقل الآيات من مشهد الطبيعة وآياتها الدالة على النعمة، إلى مشهد النفس البشرية وهي تتقلب بين عهدٍ يُعقَد، ثم يُنقَض، وبين إيمانٍ يُظهَر، ثم يُخفى وراء ستار من الرياء والمداجاة:

{وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ. وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}.

ولعلّ المتأمل في هذه الآيات لا يملك إلا أن يقف طويلًا عند الصورة التي ضربها الله، تلك المرأة التي غزلت بيدها غزلًا متينًا، ثم لم تلبث أن جعلت هذا الغزل أنقاضًا، كأنما عبثت به عبث المجنون أو غدرت به خيانة الطبع.

ثم إنك لو تأملت هذا النقض للعهد وتأرجح الإنسان بين الوفاء والخذلان، لرأيت فيه وجهًا من وجوه الترف النفسي، لا ذاك الترف المتصل بالطعام واللباس وحدهما، بل ذاك الترف الذي يجعل الإنسان يتجمل في الإيمان، كما يتجمل بالثوب الجميل، ويزيّن ظاهره بالأيمان المغلظة، لكنه يضيق ذرعًا بالوفاء حين لا يُثيبُه الناس على إيمانه ثناءً ولا يحمدونه على تدينه رياءً، فيغدو الإيمان وسيلةً، لا غاية، وتغدو العقيدة زيًّا يُلبَس حينًا ويُخلَع حينًا.

وهذا ما تشير إليه الآية في نهيها عن اتخاذ الأيمان "دخلًا بينكم"، فالدخل هنا ليس إلا تلك النوايا الملتوية التي يداخِلُ فيها المرءُ دينَه طلبًا للسيادة أو رغبةً في أن تكون "أمةٌ هي أربى من أمة". إنها مفارقة قاسية، بل مأساة فكرية ونفسية، أن يُجعل الدين سُلّمًا للعلو في الدنيا، لا سلّمًا للسمو في الآخرة.

ولو أنك أمعنت النظر لرأيت كيف تفتح هذه الآيات نافذةً أخرى على عالم أرقى، وهو العالم الذي يترفع فيه المؤمن عن هذه التجارة الرخيصة، تجارة الأيمان بعرضٍ من الدنيا قليل، فيستبدل بها الحياة الطيبة، تلك التي وعد الله بها من "عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن"، حياةٌ لا تقوم على الرياء، ولا تنقض غزلها، بل تنسج صبرًا وإخلاصًا، وتُجدِل الإيمان بالعمل كما يُجدَل الغزل المتين:

{وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهَّ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللهَّ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللهَّ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهَّ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهَّ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ}.

وما أكثر ما نرى في حياتنا أولئك الذين اتخذوا الدين زينةً وسياحةً! لا سياحةً في الأرض بقصد الاتعاظ، بل سياحةً في مظاهره وأشكاله، حتى غدت لحاهم جوازات سفر، وأثوابهم بطاقات تعريف، وألسنتهم بما يقرؤون من كتاب الله أدوات عرض، يعرضون بها أنفسهم على الناس ليحظوا بقبول، ويجنوا شيئًا من المهابة في المجالس، أو الرهبة في العيون. وهذه سياحةٌ جديدة، لم يُرْضِها الترحال في البلاد، فأحبت الترحال في مقامات التدين الظاهري، ترفًّا نفسياً يظنه صاحبه سُموًّا، وما هو إلا خداع للنفس وغرور بالذات.

ولو أن هذا السائح- سائح القلب لا سائح القدم- نظر في كتاب الله كما ينبغي، وتأمل في قوله: {وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا}، لعلم أن إيمانه المبتدأ إن لم يُتَوَّج بصدقٍ دائم، وصبرٍ متين، وتحقيقٍ خالص، فسينقضه نقضًا، كما تُنقض العقدة من بعد إحكامها، وكما ينهار البنيان إذا نُكِئَتْ لبنته الأولى.

وما أبدع ما تصور الآية، في هذا السياق، حال أولئك الذين أفسدوا تديّنهم بريائهم، وقطعوا غزل قلوبهم حين خلطوا الإيمان بالمصلحة، والدين بالمغنم، والعهد بالعَرَض القليل من الدنيا! فلئن قرأوا القرآن، فإنهم لا يقرؤونه ابتغاء الهداية، بل ابتغاء وجاهة لا تلبث أن تزول، وإن أنصتوا للآيات فإنما ينصتون لها كما يُنصَت للموسيقى الجميلة أو للكلام المؤثر، لا كما يُنصت المتلقي لرسالة من رب العالمين.

لهذا- ولهذا فقط- جاء ختام هذه الآيات البديعة ليُرشد القارئ، حين يَقرأ، إلى الاستعاذة من الشيطان، ذلك العدو الذي لا يحول بين العبد وربه بشيء ظاهر، بل

يوسوس له بالنيات، ويُلبِس عليه الإخلاص، ويدفعه إلى التزين لا للناس فقط، بل لنفسه أيضًا، حتى يُعجَب بها وتُعجب به.

{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} ... استعذ به لا من عجزك عن الحفظ، ولكن من فساد نيتك. استعذ به لا من ضياع صوتك، بل من ضياع قلبك. لأن الشيطان لا سلطان له على مَن قرأ القرآن يتوكّل على الله، يطلب الحق، ويخشع قلبه، إنما سلطانه على مَن اتخذه سبيلاً إلى غير الله، ومَن جعل العلم بالدين طريقًا إلى الجاه، لا إلى جنات النعيم.

وفي هذه الخاتمة من السورة، تلتقي محاور كبرى من السورة كلّها: السياحة- لا في الأرض، بل في النفس، في مظاهر الإيمان وجوانبه المختلفة؛ والتطواف- لا بالأقدام، بل بالأهواء بين عهدٍ ونقض، وإيمان ورياء، وصدقٍ وتزييف؛ والترف- لا في المتاع، بل في الفكر، حين يكون الدين زينةً فكرية لا أثر لها في العمل؛ كل هذه الجوانب تُختَتم بالتحذير من أعظم ما يفتك بالنفس: الرياء، والغرور، والخيانة للعهد.

فليت شعري: أيُّ سياحة أبلغ من تلك التي تُفضي بك إلى قلبك، وأيُّ تطواف أنفع من الذي يردّك من الغرور إلى التواضع، ومن الرياء إلى الصدق، ومن التزين للناس إلى التهيؤ للقاء الله؟

إن في سورة النحل صورة دقيقة لعقلٍ قد سافر في الآفاق، ولكنه لم يُبارح هواه. عقلٌ جال في الخلق، ولكن لم يتطهر، سأل، ولكن لم يتواضع.

تلك هي محنة الرسالة في وجه المترفين.

هكذا، تمضي سورة النحل كأنها رحلةٌ فكرية وسياحةٌ عقلية، تُمتحَن فيها القلوب، وتُكشف فيها العقول، بين ما أُعطيَ الإنسان من دليل وما أُصيب به من كِبْر. فلا عجب أن تختم السورة بذلك التوكيد الجليل:

{ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}، فالحكمةُ وحدها هي القادرة على أن تُقيم الحجة وتُذيب الغرور، وتُرِي المترفين من الناس أن ما عند الله خيرٌ مما يجمعون.

سـورة الإسراء

عالم الروح

الإسراء ليس رحلةً في المكان فحسب، إنما هو، في حقيقته، انتقالٌ من عالم الحس إلى عالم الغيب، ومن عالم الجسد إلى عالم الروح. وهو رمزٌ للرحلة التي تَعرُج فيها النفس الإنسانية حين يُسلَب الجسد عنها، فتجاوز حدود الشهادة، وتدخل في سرِّ الغيب، حيث الحساب، وحيث القرار الأخير.

وقد أُسري بالنبي، عليه الصلاة والسلام، كما يُسرى بالروح حين تنفصل عن الجسد، فدخل عالمًا لا يدخله الناس عادةً إلا بعد الموت، ثم عاد إلى الدنيا ليخبر عنها، ويقصّ على الناس ما لم يعهدوه من قبل، وما لا تدركه الأبصار، وما لا تحيط به الظنون. فكان هو وحده، من بين الناس، من زار ذلك العالم ثم رجع، وأبصر ما فيه من نعيم وجحيم، وملائكة وأنبياء، وعوالم لا تُرى، وسماوات لا تُبلغ إلا بالرّوح الطاهرة.

فما الإسراء إلا صورة أولى لذلك العروج الذي لا رجعة فيه، والذي يقع لكل حيٍّ إذا حضره الموت، فإن المؤمن إذا فاضت روحه، عرجت إلى السماء، وفتحت لها الأبواب، ودُعي إلى الجنة. أما الكافر، فقد أخبر الله عنه أنه لا تفتح له أبواب السماء، ولا يدخل الجنة، بل ترد روحه، وتُمنع من الصعود، يقول تعالى: {إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها، لا تفتح لهم أبواب السماء}.

وكأنّ الله أراد أن يُطلِع النبي، صلى الله عليه وسلم، على ما يكون بعد الموت، ليكون هذا المشهد الجليل شاهدًا ودليلاً، وليكون هو المبلّغ الأمين لما رآه بعينه، وما شهدته روحه، وما بلغته منازل الأنبياء، ومشاهد الجنة والنار، وأحوال العصاة والطائعين. وكأنّ الله أراد أن تكون هذه الرحلة إجابة للسائلين عن الروح، فقال في منتصف السورة: {ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي}. فكان الإسراء هو الجواب العملي، وكان هو البيان الذي لا تدركه العقول بالبرهان المجرد، وإنما تدركه الروح إذا سافرت إلى ما وراء هذا العالم.

ولم يكن النبي، صلى الله عليه وسلم، في رحلته هذه من أهل ذلك العالم، بل كان فيه زائرًا مكرَّمًا، وضيفًا مبجَّلًا، يُكرَم بما يُكرَم به الزائرون من علّيين، ويُهدى بما يُهدى به الغرباء إذا رجعوا إلى ديارهم. وكانت هديته هي "الصلاة"، التي هي هدية من عالم الروح إلى عالم الجسد، من السماء إلى الأرض، من الغيب إلى الشهادة. تلك الصلاة التي فُرضت هناك، في مقام القُدس، فصارت هي الحبل الممدود بين الأرض والسماء.

فإذا قام المسلم إلى صلاته، وأخلص فيها قلبه، وخشع فيها جسده وروحه، فكأنما ارتفعت روحه هي الأخرى، وعرجت كما عرج النبي، صلى الله عليه وسلم، وزارت ما زاره، وشهدت ما شهده. هكذا أراد الله أن يجعل الصلاة تذكيراً دائمًا بتلك الرحلة، وصلة لا تنقطع بين العبد وربه، وبين عالم التراب وعالم الأرواح.

لذلك، فإن سورة الإسراء تتحدث عن ما يطهّر روح الإنسان فيجعلها مؤهلة لتلقّي الإلهامات الروحانية، وتكشف كذلك عمّن يجعلها مظلمة فتتلقى الإلهامات الشيطانية. فهي قد أكثرَت من الحديث عن عباد الله، وعن عباد الشيطان، ففرّقت بين من سلّم أمره لله، وسعى في تطهير نفسه، وبين من اتّبع هواه، وأضلّته شياطينه.

ولم تُسمَّ السورة بالإسراء فحسب، بل سميت أيضًا "سورة بني إسرائيل"، وكأن القرآن أراد أن يجمع بين المعنى العلوي الذي يسمو بالروح، وبين الأرض التي أثقلها الكبر والتمرد، حيث وُلد السؤال عن "الروح" ولم يُرد به وجه الحق. فإن بني إسرائيل هم الذين سألوا النبي عن الروح، لا لينتفعوا بالجواب، ولكن ليمتحنوه وليحرجوه، فجاءهم الجواب من عند الله، جوابًا ليس كمثله جواب، يردّ العلم إلى مصدره، والأمر إلى صاحبه، والروح إلى ربها.

فكان في ذكر بني إسرائيل في صدر السورة، وتعداد ما اقترفوه من نقضٍ للمواثيق، ومن إفسادٍ في الأرض- تعريض لهم وتنبيه للغافلين. فإن من سأل عن الروح بقلب مظلم، فلن يُبصر النور وإن أُجيب، ومن سأل عن الغيب ولم يطهر قلبه، فلن يعرف من أمر ربه شيئًا، ولو نزل عليه الوحي نفسه.

لكن لماذا سميت سورة "بني إسرائيل" ولم تسم سورة اليهود؟ وما الفرق بين اليهود وبين بني إسرائيل؟

لو أمعنا النظر في الآيات التي يرد فيها ذكر اليهود وبني إسرائيل، لوجدنا أنفسنا أمام اسمين لا يلتقيان دائمًا وإن اجتمعا أحيانًا في التاريخ. وليس من شأن الألفاظ في القرآن أن تجيء عبثًا، ولا أن تتبادل مواقعها دون قصد أو دلالة.

فبنو إسرائيل، في النص القرآني، قوم يجمعهم نسب وتاريخ، وتؤلف بينهم شريعةٌ ورسالة. هم أبناء يعقوب، الذين قامت حياتهم على عهد بينهم وبين الله، فكان الدين في وجودهم أصلًا، وإن انحرفوا عنه، وبدّلوا فيه، وحرّفوا كلماته. فكانوا يخطئون، ولكنهم كانوا يخطئون في إطار الدين، ويعصون وهم يعلمون أن ثمّة شريعةً خالفوها، وعهدًا نقضوه. كانت سيادتهم، حين قامت، تقوم باسم الدين، وكانت نبوتهم وحكمهم وكتابهم جميعًا متصلةً بهذا الأساس.

أما اليهود، كما يصوّرهم القرآن، فهم أقرب إلى نموذجٍ نفسيٍّ وعقليٍّ منه إلى جماعة ذات رابطة دينية صافية. فلا يجمعهم مبدأٌ واحد، ولا تحدّهم حدود أرض بعينها، بل ينتشرون في الأمم، ويمتزجون بالمجتمعات، ويتشكلون بأشكالها. فهم أسرع تكيفًا، وأشد ميلًا إلى المنفعة واللذة وجمع المال، ولا يكاد يربطهم رابطٌ جامع إلا السعي في مصالحهم حيثما كانت.

والملاحظ أن القرآن، إذا أراد أن يخاطبهم من جهة الشريعة والعهد والكتاب، قال: "بني إسرائيل"؛ وإذا أراد أن يخاطبهم كنموذجٍ إنساني، قال: "اليهود". فإذا كان الحديث عن التوراة، والحكم والنبوة، والصلاة، والزكاة، كان الاسم هو بني إسرائيل. وإذا كان الحديث عن الجدل والمماراة والسعي في الفساد، كان الاسم: "اليهود".

وبنو إسرائيل، كما يظهرون في نصوص القرآن، أمةٌ تجتمع على فكرة، وتنتظم تحت لواء واحد، وتقوم لهم دولةٌ باسمهم. أما اليهود فصورةٌ أوسع انتشارًا، وأشد تفرقًا؛ يعيشون في كل مكان، ويذوبون في كل مجتمع، ويصدر عن بعضهم ما يقارب الإلحاد والمادية الخالصة، حتى ليبدو أنهم نمطٌ نفسيٌّ أكثر منهم جماعةً محدودة.

ومع ذلك، فإن القاسم المشترك بين الاسمين، كما يذكر القرآن، هو السعي في الفساد. فبنو إسرائيل قُضي عليهم في الكتاب أن يفسدوا في الأرض مرتين، واليهود يذكرون بأنهم

يسعون في الأرض فسادًا. لكن الفارق أن الأولين يفسدون وهم يحملون اسم العهد، والآخرين يفسدون وهم يتحركون في فضاء أوسع، لا يحدّه مكان.

ومن هنا قد يُقال إن الصهاينة الذين أقاموا كيانًا سياسيًا في فلسطين إنما أقاموه باسم بني إسرائيل، لا باسم اليهود؛ لأن الدولة لا تقوم إلا على رابطة جامعة، وعقيدة معلنة، وتاريخٍ يُستدعى ليُحتج به. فكل صهيوني يهودي، لكن ليس كل يهودي صهيوني؛ لأن اليهودي قد يكون فردًا ذائبًا في أمة أخرى، لا يحمل من ذلك المشروع إلا الاسم.

ومن العجيب أن ثيودور هرتزل، حين ألّف كتابه الذي يتنبأ فيه بوطن قومي لليهود، سمَّى كتابه "الدولة اليهودية". لكن هذه الدولة، حين قامت بعد موته بعشرات السنين، سُمّيت "دولة إسرائيل" نسبةً إلى بني إسرائيل، ولم تُسمَّ الدولة اليهودية. وبهذا صدقت نبوءة القرآن: {وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا}.

فلا يهم إن كانوا ينتمون إلى سلالة إسرائيل من ناحية الدم والنسب، أو لا ينتمون، إنما المقصود هو الانتماء الروحي والفكري، مثل قولنا «أبناء مصر»، «أبناء العراق»، «أبناء النيل»..

هكذا يبقى الفرق، بين اليهود وبني إسرائيل، فرق بين اسم يدل على جماعة ذات عهد وشريعة، واسم يدل على حالة فكرية وسلوكية تنتشر حيث تشاء، وتتخذ من كل أرض مقامًا.

ثم يجيء الحديث عن الإنسان ومسؤوليته، عن كل عمل يفعله، وكل قول ينطقه، وكل نية يُضمِرها، فقد كُتِب عليه أن يحمل عمله في عنقه، ولا يحمل عنه أحد. وتأتي تلك الآية التي فيها من البلاغة والبيان ما يُدهش العقل والخيال: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا}، فصور العمل طائرًا، كأنما هو عصفور مربوط بخيط في رقبة صاحبه، يظنه طليقًا، وما عليه إلا أن يشدّ الخيط، فإذ بالطائر يعود إليه، لا يضيع ولا يغيب.

وتأتي القاعدة الكبرى في ميزان الحياة: (الاعتدال)! الاعتدال في الإنفاق كما في التديّن، في الحركة كما في السكون: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}، فلا تكن بخيلًا يضنّ، ولا مُسرفًا يُضيّع. وكأن الآية تُحدّثك عن كفّتين في الميزان: الإفراط والتفريط، فإن رجحت إحداهما، اختلّ الميزان، وانهار البناء. ومن هذا الباب جاءت الآية التالية:

{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ}. ولعلّ الناس قد كفّوا عن وأد البنات كما كانوا في الجاهلية يفعلون، لكنهم ما زالوا يئدون أولادهم بيدٍ خفيّة. يئدونهم حين يتركونهم للجهل، أو يدفعونهم إلى التسوّل، أو يُلقونهم في مجاهل الحياة بلا تعليم ولا حنان ولا بصيرة. إنّ القتل لم يكن يومًا بالسيف وحده، بل قد يكون بالإهمال والحرمان والشح والبخل والخذلان.

هكذا نرى أن الآيات– في انتظامها العجيب– لا تنتقل من عبادة إلى عبادة، ولا من أخلاق إلى أخلاق، إلا كما تنتقل الروح من حال إلى حال: ناعمةً راضيةً.

فهذا هو عالم الروح، لا يُقاس بالمادة، ولا يُوزن بالكيلوغرام، إنما بميزان أثقل من الجبال، وهو في يدك، وفوق ظهرك، وبين جنبيك.

ثم تبدأ الآيات في عرضٍ بديع لما يخنق الروح، وما يُطفئ سراجها، حتى يُقعد الإنسان ذليلاً، مذمومًا، مخذولًا. فإنك رأيت أول الأمر شِركًا، ثم عقوقًا، ثم تضييعًا للحقوق، ثم بخلاً، ثم إسرافًا، ثم انحدارًا في فاحشة الزنا، ثم قتلًا للنفس، ثم خيانةً لليتيم، ثم خيانةً للميزان، ثم اقتفاءً لما لا علم به، ثم خيلاء في المشية والنفس! وكأنها درجات في هبوط الروح، يتدرج بها الإنسان من نور الفطرة إلى ظلمات الهوى. وقد بدأت هذه السلسلة بقوله تعالى:

{لاَّ تَجْعَل مَعَ اللهِ إِلَـهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً}، وكأن الشرك أوّل سهم يُصوَّب إلى صدر الروح. فمن أشرك بالله فقد فرّق ولاءه، وشتّت وجهته، فلا هو إلى ربّه أخلص، ولا إلى نفسه أنصف. ومن كانت وجهته ممزقة، كيف تقوى روحه، وكيف يتماسك قلبه؟ بل كيف لا يكون مذمومًا مخذولًا، لا من أهل السماء، بل أيضًا من أهل الأرض؟

ثم تأتي الوصية بالوالدين: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}، إشارة إلى أن الروح التي سمت إلى توحيد الله، لا تكتمل إلا إذا عرفت الجميل لمن كانا سبب وجودها في عالم الدنيا.

ثم جاء الزنا، تلك الفاحشة التي تخنق الروح. وتأمل في دقة التعبير: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً}، ففي أصل الكلمة ما يُوحي بباطنه، فقد جاء في المعجم أن "الزَّنَن" هو القليل الضيق، كالبئر الظنون، لا يُدرى أفيها ماء أم لا. فكأنّ الزنا وهمٌ يخيّل لصاحبه أنه فيه سعة وانفراج وسعادة، فإذا به ضِيق فوق ضيق، وظلمة فوق ظلمة.

ثم تأتي جريمة أخرى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ}، وما أشدّها على الروح! فإن من قتل غيره، أو قتل نفسه، إنما قتل الحياة في قلبه. ثم جاء التحذير من أكل مال اليتيم، ثم من نقض العهد، ثم من تطفيف الميزان، وكلها جرائم ضد الروح، لا ضد الجسد فحسب.

ثم تأتي الآية التي كأنما تُجمِل ما سبق: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}. والقَفو من القيافة، وهو اتباع الأثر، فإنك إن قفيت ما لا تعلم، فقد ضيّقت نفسك بخطٍّ واحد لا تخرج عنه، كما يسير القطار في سكّته، لا يمين له ولا يسار.

ثم نصل إلى هذه الآية البديعة، التي تكشف عن صورة من صور الغرور البشري، ذاك الغرور الذي لا يُرى بالعين وحدها، بل يُشمّ في المشي، ويُلمَح في الالتفاتة، ويُدرك في حركة القدم، وخفقة الرداء، ونظرة المُتبختر في الأرض، كأن الأرض خُلقت له، وكأن الجبال تنتظره ليبلغها، ويُجاوزها، ويتطاول فوقها، بل كأن السماء لا تستحي أن تنحني له!

{وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً}، فالمرح هاهنا ليس ما نظنه من السرور البريء، بل هو ذاك الكبر المقرون بالحركة، والخيلاء المصاحبة للخطو، والمباهاة التي تظهر في المِشية، كأن المرء يُحدِّث الأرض بأنه سيدها، وأنه إن شاء شقَّها بنعله!

ثم تمضي الآيات في هذا الموكب من التوجيه، وترتفع شيئًا فشيئًا، حتى تبلغ ذروتها عند هذه الآية العظيمة، {وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا}، وهي،

وإن جاءت في هذا الموضع، لم تكن إلا امتدادًا لما قيل في مبتدأ هذه الوصايا: {لاَّ تَجْعَل مَعَ اللهَّ إِلَـهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً}، فكأن السياق قد ابتدأ بالشرك، ثم عاد فختم به، وكأنما هو المرض الأول والمرض الأخير، فهو الداء الذي تبدأ به العِلّة، وتنتهي به السقطة.

لكن تأمل كيف صوّر حال المشرك في البدء، ثم كيف صوّره في الختام: بدأ بالقعود، ذاك القعود الذليل، العاجز، المُهان، وكأن الإنسان إذا أشرك، فقد عُطلت فيه حركة الروح، وجمد فيه تيار الحياة، وأصبح كالخروف الصغير الذي تخلف عن القطيع، لا يد له تدفع، ولا رجل له تهرب، ولا نداء له يُسمع، فيتخطفه الخطر من كل جانب، وينهشه الوحش من غير رحمة. ثم لا يقدر هذا العاجز القاعد أن يُصلِح حاله، ولا يسلك طريق النجاة، حتى يُلقى، كما تُلقى الآلة المعطوبة، التي عجزت عن مواكبة أخواتها، فخرجت من سير العمل، وخرجت من دائرة النفع، فكان مآلها إلى المهملات: {فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا}، ملومًا بما اجترحت يداك، مدحورًا مطرودًا من رحمة الله، منبوذًا من بين عباده، محجوبًا عن نور الحق، مسجونًا في عتمة الضلال.

ثم تمضي الآيات فتحدثنا عن عالم آخر. عالم لا تدركه الحواس ولا تطاله الأبصار. عالم الأرواح الشفافة التي ترى ما وراء الظواهر، وتدرك من الحقائق ما تعجز عنه العقول. هناك، في ذلك العالم، تسبح السموات السبع والأرض ومن فيهن بحمد الله، كل شيء في الوجود ينطق بجلاله، وإن لم يفهم البشر هذا التسبيح: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}.

وكأن الله، جل شأنه، يريد أن يضع بين المؤمنين بالقرآن وغير المؤمنين به حاجزًا منيعًا، حاجزًا لا تراه الأعين ولا تحس به الجوارح، بل تدركه الأرواح: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا}.

ثم تشير الآية التالية إلى مسألة نفسية دقيقة تحتاج إلى تأمل عميق وفكر صادق. ذلك أن الإنسان لا يمكنه الوصول إلى الحق إلا إذا جرد عقله من الأحكام المسبقة، وحرر قلبه من التحيزات التي تحول بينه وبين الحقيقة. أولئك القوم الذين جاؤوا يستمعون إلى القرآن، لم يأتوا بقلوب خاشعة وعقول متفتحة، إنما جاؤوا يحملون في صدورهم حكمًا جاهزًا: أن هذا النبي ساحر أو مسحور. وكيف لمن كان على هذه الحال أن ينفذ إلى الحق

ويهتدي إليه؟! يقول الله عنهم: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا}.

فقوله تعالى: {يَسْتَمِعُونَ بِهِ} يشير إلى حال من التحيز المسبق، فكأن هؤلاء القوم إنما يستمعون إلى النبي ﷺ وهم قد أعدوا في نفوسهم أحكامًا جائرة، لا يحملهم السمع على الإنصاف ولا يدفعهم الإصغاء إلى التأمل، بل يقفون عند حد ما ترسخ في عقولهم من تصورات باطلة.

ويشبه ذلك قوله (خَرَجُوا بِهِ) في قوله تعالى: {وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ} [المائدة: ٦١]، إذ يدخل بعض المنافقين في جماعة المسلمين وهم على كفرهم الذي حملوه معهم، لم يتخلوا عنه ولم ينبذوا ما في صدورهم من ضغائن. فكأنهم لا يدخلون الإسلام خالصًا، وإنما يدخلونه بأحمالهم الثقيلة من شك ورياء وكذب..

وهذا المعنى يتجلى أيضًا في كلمة (يَشْرَبُ بِهَا) في قوله تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} [الإنسان: ٦]، فقوله: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ} [المطففين: ٢٨]، يدل صفات المؤمنين المغروسة في أصل فطرتهم. فالعين لم تكن مجرد ماء يشربه الناس كافة، بل كانت عينًا يجد فيها- المتقون خاصة- حلاوة الروح وطهارة النفس، لأنهم يحملون في ذواتهم ما يجعلهم أهلاً لهذا النعيم. فكأن العين ليست شيئًا يتذوقها كل أحد، بل هي نعمة ترتبط بنقاء النفوس وصفاء القلوب، فلا ينال بركتها إلا من تهيأ لها بإخلاصه وتوجهه إلى الله. وهذه إشارة إلى أن البركة كامنة في الداخل، لا تستجلب من الخارج، وهي من فيوض الروح التي تفيض على من أعدّ نفسه لها.

ثم تأتي الآيات لتكشف عن سبب رفض المشركين الإيمان، وتبين أن العلة ليست في غياب الآية أو المعجزة، بل في طبيعة قلوبهم التي تأبى التصديق مهما تعددت البراهين. فليس من شأن الله أن يُنزِل الآيات لمجرد الإعجاز الظاهر، وإنما هو يرسلها تخويفًا وتحذيرًا، فإذا لم تُقبل وتُصدق، كان العقاب محتومًا. وقد سبقتهم أمم في طلب المعجزات، فلما جاءتهم كذبوا بها، فلم تغن عنهم شيئًا. كما فعلت ثمود حين أرسل الله لهم الناقة مبصرة، فعقروا وظلموا: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا}.

وانظر إليّ قوله تعالى: {فَظَلَمُوا بِهَا} في الآية السابقة، فهو يحمل في طياته معنى عميقًا يدعو إلى التأمل والتدبر. ذلك أن الناقة التي أرسلها الله تعالى إلى ثمود لم تكن مجرد معجزة عابرة، بل كانت نفعًا عظيمًا لهم، وكأنها أشبه بالاختراعات العظيمة في عصرنا هذا؛ مثل الحواسيب والذكاء الاصطناعي، التي جاءت لتيسير الحياة وتقديم الخير للناس. فقد كانت تلك الناقة آية مبصرة، دالة على الحق واليقين، ومصدر بركة ونفع؛ إذ يروى أنها كانت تهديهم إلى مواطن الخير، وتشير إلى ما ينفعهم في إقامة العمران، وتكشف لهم عمّا خبأه الناس من ممتلكات أو أخفوه من أشياء.

لكنّ القوم لم يقفوا عند حدود النفع المشروع، بل تجاوزوها إلى استخدام هذه الآية في غير ما أراد الله لها، فعمدوا إلى استغلالها في ظلم بعضهم بعضًا، وكشف مدخرات الناس ومقتنياتهم، بل وتسخيرها في الإفساد بدل الإصلاح. فكأنهم بذلك قد انقلبوا على مقاصد الآية، وحوّلوا النعمة إلى نقمة، كما يفعل بعض الناس اليوم عندما يسخرون الذكاء الاصطناعي- وهو من أعظم النعم الحديثة- في الإضرار بالبشرية ونشر الفساد بدلًا من توظيفه فيما يعود بالخير.

ولقد كانت مسألة المعجزات من أكثر ما واجه الدعوة الإسلامية في مهدها. فقد كان المشركون يصرون على أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم معجزات تدل على صدق رسالته، لذلك جاءت هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء ترد على طلب الكفار للمعجزات، مؤكدة أن الرسالة الإلهية تُعرف بالفطرة السليمة والروح الطاهرة، لأن الله أودع في كل نفس بشرية إدراكًا فطريًّا للحق، فإن ضلت هذه الفطرة أو زاغت عن السبيل، فلن تُغني المعجزات عنها شيئًا. ألم يقل المسيح عليه السلام في إنجيله: {إنكم عندما تنظرون إلى السماء تعرفون هل ستمطر غدًا أو لا، فكيف لا تميزون بين الرسول ومدعي الرسالة؟}.

ولم يكن الله ليستجيب لطلب المعجزات من الكفار لأسباب عدة، منها: أن من يطلب المعجزة لن يؤمن بها، إذ لا يطلبها إلا من في قلبه مرض أو فساد، يقول الإنجيل: {جيل

شرير يطلب آية}. فإذا تحققت المعجزة وكفروا بها، فإن العقاب يكون محتومًا كما كان في الأمم السابقة، يقول تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ}.

والأمر الثاني أن طلباتهم كانت ساذجة وسطحية، لا تليق بمقام الرسالة الخالدة، فجعل الله معجزة الإسلام هي القرآن الكريم، معجزة خالدة لا تبلى بمرور الزمن. أما ما يقترحه المشركون من تفجير ينابيع الأرض أو إقامة جنات من نخيل وأعناب، أو إسقاط السماء كسفًا، أو بناء بيوت من زخرف، فقد تحققت كثير من هذه الأمور في العصر الحديث، ومع ذلك فإن الناس لا يلتفتون إليها، ولم تؤثر في نفوسهم.

ثم إن القرآن الكريم نفسه قد أشار إلى هذه الحقيقة حين قال في سورة الإسراء: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}، فهذا الكتاب الخالد لم يأت ليبهر الناس بانبهار اللحظة، بل جاء ليمكث معهم لا يزول بزوال النبي مثلما زالت معجزات الأنبياء السابقين بزوالهم. لهذا لم يكن القرآن مجرد نص عابر، بل كان معجزة باقية تتحدى العقول وتسمو بالأرواح.

والفرق بين معجزات الأنبياء السابقين ومعجزة القرآن جلي واضح. فإن موسى عليه السلام قد فلق البحر وأخرج اليد البيضاء وجعل العصا حية تسعى، والمسيح عليه السلام قد أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله، غير أن هذه المعجزات قد انقضت بانقضاء زمنها، ولم يبقَ منها إلا الأثر في الكتب والروايات. أما القرآن فقد بقي معجزة عقلية وروحية، وآية الله الخالدة التي لا تنطفئ.

ولقد كشف الله بأن من أسباب جحود البشر هو العدو الأكبر إبليس: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا }. وقد توعّد آدم بقوله: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ، لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً} [الإسراء: ٦٢].

وانظر إلى هذا التعبير البليغ: {لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ}، فهو يشير إلى شدة عداوة إبليس لبني آدم، وقد يحمل في طياته أكثر من معنى. فاحتناك الدابة يعني وضع اللجام في فمها لقيادتها، وكأن إبليس يتوعد بأن يقود بني آدم كالدواب، يسيّرهم كيف شاء. ويحتمل أن يكون المعنى من احتناك الجراد للأرض، أي استيلائه عليها بالتهامها، فيكون إبليس

متوعدًا بالاستيلاء على قلوب الناس وأفكارهم. وهناك معنى ثالث يتصل بتجارب الحياة، كما يقال: "حنكه الدهر"، أي صقلته التجارب وصيرته ذا حكمة، فكأن إبليس يتوعد بأن يغوي الناس حتى يبرروا معاصيهم بالحجج الواهية، وكأنهم أقاموا أنفسهم في مكانه، يضلون ويفسدون ويبررون للناس سبل المنكرات.

إن هذه العداوة الأزلية بين الإنسان وإبليس هي أصل الصراع الروحي، حيث يسعى الشيطان لتكبيل بني آدم بالأوهام والمعاصي، بينما تدعوهم الرسالة الإلهية إلى التحرر من قيود الهوى والانتصار للروح على الجسد.

أما قوله تعالى: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا}[الإسراء : ٦٤]، فإنه يشير إلى ذلك الاستيلاء الماحق الذي يمارسه الشيطان على أرواح أتباعه. إنهم يعيشون في ظل غوايته، تحيطهم وساوسه من كل جانب، من فوقهم ومن تحتهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم. أما قوله: {بِصَوْتِكَ}، فيدل على كل صوت يدعو إلى المعصية ويغري بالضلال، سواء كان ذلك صوت غناء يثير الشهوات، أو صوت امرأة تتكسر في حديثها، أو صوت صديق سوء يضلل صديقه بكلمات شيطانية. وأما قوله: {وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ}، فيعني حشد كل وسيلة من وسائل الفتنة والإغواء، من رجال يزيّنون المعاصي، ومركبات تدعو إلى الفتنة وتجر الإنسان إلى اللهو والبعد عن طاعة الله. ثم يأتي قوله: {وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ}، ليشير إلى ذلك التسلط العجيب، حيث يستجيب الأبناء للشيطان أكثر من استجابتهم لآبائهم، ويكونون عونًا على معصية الله وطاعة الشيطان. وأما مشاركة الشيطان في الأموال، فتتجلى في إنفاقها في المعاصي، وتبذيرها فيما لا يرضي الله. ثم تأتي الخاتمة المحكمة: {وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا}، حيث تزدحم الأماني الكاذبة والأحلام الخادعة في صدورهم، فهم يظنون أنفسهم على خير وصلاح، ويتوهمون أن المستقبل سيحمل لهم الأمنيات الجميلة. وهكذا، يظلون في غمرة تلك الأوهام حتى يدركهم الأجل، وقد ضيّعوا أعمارهم في تلك الأماني.

ثم يمضي القرآن في بيانه، فيقول: {وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا}. وهنا، أرى أنه قد اشتبه على بعض المفسرين معنى "كادوا"، فظنوا أنها من أفعال المقاربة، بمعنى "أوشكوا"، ولكنني أرى أن "كادوا" هنا بمعنى المكر والدهاء، فكأنما المعنى: وإن مكروا وتآمروا خفية ليفتنوك عما أوحينا إليك، فلن يكون لهم إلى ذلك من سبيل إلا بأن يتظاهروا بالمودة والخلّة والصحبة، كما تفعل الدول التي تُظهر الودّ لبعض الرؤساء أو الشخصيات وهي تضمر الكيد والشر.

وكذلك قوله تعالى: {وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا}. والمعنى أنهم إن دبروا لك المكائد، وسعوا في استفزازك وإخراجك من أرضك، فلن تطول فرحتهم، ولن يلبثوا بعدك إلا قليلا، بل سرعان ما تدور عليهم الدائرة، ويُخرَجون هم من ديارهم، كما وقع لبني النضير، وبني قريظة، وبني قينقاع، حين مكروا فكاد الله لهم، فكانت الدائرة عليهم.

في خضم هذا السياق الجليل، وفي قلب هذه السورة الكريمة، يأتي التوجيه الرباني إلى أول خطوة في مسار تقوية الروحانية لدى الإنسان، ألا وهي إقامة الصلاة في أطراف النهار وزُلفاً من الليل، ثم التهجد في جوف الليل، مع قراءة القرآن والإكثار من الدعاء:

{أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا. وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا. وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا}.

وهنا يتجلى سرٌّ من أسرار السعادة الروحية، فإن الله أنزل في آيات القرآن ما يكون للمؤمنين شفاءً من أسقام القلوب، ودواءً من آلام النفس، وعلاجاً من همومها وأحزانها ووساوسها. أما أولئك الذين كفروا، فهؤلاء لا يجدون في القرآن إلا ما يزيدهم خسراناً على خسران، وبوارًا على بوار: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا}.

ثم ينصرف الخطاب القرآني إلى جوهر الموضوع، وإلى لبّ المعنى وعمقه، حيث طُرِح السؤال الذي حارت فيه العقول: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا

أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}. فما هي الروح التي أُلقي هذا السؤال حولها؟ وما سر هذا الإبهام الذي اكتنف الإجابة؟

لقد شغل السؤال عن الروح أذهان البشر منذ فجر التاريخ، بل لعله سبق التاريخ نفسه، إذ ما انفك الإنسان يبحث عن كنه نفسه، ويحاول أن يكتشف سرَّ وجوده. فما هي الروح؟ وما حقيقتها؟ وهل يستطيع العقل المحدود أن يحيط بهذا السرِّ العظيم؟

لقد تباينت آراء العلماء في تفسير الروح، فتعددت الأقوال وتشعبت المذاهب. فمن قائلٍ إنها القرآن الكريم. إلى آخر يعتقد أنها جبريل عليه السلام، ومن ثالث يرى أنها روح الحيوان الذي بها تحيا الأجساد. بل ذهب بعضهم إلى أنها روح عيسى ابن مريم، بينما اعتبرها آخرون ملكاً من الملائكة ذا شأنٍ عظيم.

أما اليهود، فقد قصدوا بالسؤال عن الروح معنى آخر، إذ أرادوا به مصدر تلك الإلهامات الروحية التي تُلقى في نفس الإنسان، فتحرك وجدانه، وتوقظ خياله، فيفيض شعراً أو نثراً أو ما شابه ذلك من فنون القول. غير أن الأنبياء، إذا ما اتصلت بهم هذه الروح، لا يأتون بشعرٍ منثور، بل ينزل عليهم وحيٌ مقدسٌ يحمل كلام الله تعالى إلى البشر. ولذلك سأل اليهودُ النبيَّ ﷺ عن مصدر هذه الروح التي أوحت إليه بهذا القرآن.

والتاريخ يحدثنا أن اليهود قد اعتقدوا بأن اتصال الإنسان بالأرواح يمكّنه من معرفة الغيب، ونظم الشعر.. ولقد أسرفوا في هذا الأمر، فجاء النهي صريحاً في التوراة تحذرهم من هذا الضلال، فتقول: "لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم، ولا من يُرقي رقية، ولا من يسأل جاناً أو تابعة، ولا من يستشير الموتى".

ولم يكن هذا الاعتقاد مقصوراً على اليهود، بل شاركهم فيه العرب في جاهليتهم، إذ كانوا يزعمون أن الشعراء المبدعين يتلقون شعرهم من الجنِّ الساكن في وادٍ اسمه "عبقر"، فصار كل أمرٍ عجيبٍ يُنسب إلى ذلك الوادي الخيالي.

بل تجاوز الأمر العرب واليهود إلى أمم أخرى في العصور المتأخرة، ولا سيما في القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث انتشرت حركات الروحانيين في أوروبا وأمريكا، ونشأت الجمعيات "الثيوصوفية" التي تدعي الاتصال بعالم الأرواح واستجلاب علم الغيب

منها. كما ازدهرت مثل هذه المعتقدات في الهندوسية تحت اسم "اليوجا"، بزعم أنها وسيلة لتطهير الروح وبلوغ الكمال.

لكن القرآن الكريم قطع دابر هذه الأوهام جميعاً، فقال في وضوح لا لبس فيه: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}. فالروح ليست شيئاً يُدرك بالتمارين أو يُنال بالسحر والدجل، بل هي سرٌّ إلهيٌّ لا يعلمه إلا الله، يمنحه من يشاء، ويحجبه عمن يشاء.

وكان العرب إذا استعصى عليهم أمرٌ لجأوا إلى اليهود يستفتونهم، لأنهم أهل كتابٍ. فلما أعياهم ما جاء به النبي ﷺ من أنباء الغيب، استشاروا اليهود فيه، فأشاروا عليهم أن يسألوه عن الروح. فجاء الجواب الإلهي حاسماً، مؤكداً أن الروح من أمر الله وحده، لا يد للإنسان فيها.

إذن، لقد سأل اليهود عن مصدر هذه الروح التي أوحت إلى النبي بهذا القرآن، وتساءلوا في دهشة وعجب: من أين له هذا البيان العجيب، وهذا الكلام الذي لا يشبه كلام البشر؟ فجاءت الآيات التي تلت ذلك لتجيبهم إجابة قاطعة، لا تحتمل الشك ولا الريبة: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا. وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا}.

إن سورة الإسراء تأخذنا في رحلة من عالم المادة إلى عالم الروح، من سرد التاريخ إلى تأمل المصير، من حياة الناس على الأرض إلى مصيرهم في الآخرة. وهي تضع أمام أعيننا حقيقة واحدة لا تتبدل: أن الروح هي محور الوجود الإنساني، وأن إدراك هذا المعنى هو السبيل الوحيد لفهم حقيقة الحياة والموت، والهداية والضلال، والفناء والخلود.

بقي ملاحظة أخيرة حول سورة الإسراء وهو رؤيتنا في آياتها لونًا واضحًا من ألوان الحتم، وكأننا أمام كتاب يُتلى فيه القضاء المبرم الذي لا يرد، والسُّنَّة الجارية التي لا

تتحول. فهي سورة لا تكتفي بالقصص ولا بالموعظة، إنما تعرض علينا نظامًا كونيًّا ثابتًا، قد قُضي أمره، واستقر شأنه، ومضت به إرادة الله في خلقه.

فأول ما يستوقفنا منها تلك البركة التي أضفاها الله على المسجد الأقصى وما حوله من البقاع؛ بركة ليست عارضة ولا محدودة بزمن، إنما هي ممتدة في الزمان امتداد النور في الفجر، لا تنقطع ولا تزول. فكأن البركة قدرٌ من أقدار الله، لا يغيّره حدث، ولا تناله يد.

ثم تمضي السورة لتكشف عن سنة أخرى من سنن الحتم، في حديثها عن بني إسرائيل، وإفسادهم في الأرض مرتين؛ وكأن التاريخ نفسه خاضع لقانون لا يتبدل، يعاقب من يُفسد، ويُمهل من يشاء، لكنه لا يُغفل ولا يُهمل.

ولا تقف السورة عند هذا الحد، بل تشير إلى أمور كثيرة، كأنها معالم ثابتة في طريق الإنسان: هداية القرآن التي لا تتخلف عمن أقبل عليها، والعذاب الأليم لمن أعرض عن الآخرة، وطبيعة الإنسان القلقة التي تدعوه إلى الشر كما تدعوه إلى الخير، وعجلته التي تسبقه إلى ما لا ينبغي، وجعل الليل والنهار آيتين قائمتين تشهدان على النظام والدقة، ثم هذا الكتاب الذي يُلزم الإنسان في عنقه، فلا ينفك عنه، ولا يفلت من حسابه.

ثم يبلغ الحتم مداه في قوله تعالى: { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}

فهو قضاء جامع بين حق الله وحق الوالدين، ليس فيه تردد ولا احتمال، وإنما هو أمر مبرم، قد استقر في ميزان الوجود.

وتعرض السورة كذلك لعداوة إبليس لآدم وذريته؛ عداوة قديمة، متجددة، لا تهدأ ولا تنقطع: {لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا}

غير أن هذا الحتم يقابله حتم آخر يبعث الطمأنينة في القلب: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}. فكأن الصراع نفسه محكوم بحدود مرسومة، لا يتجاوزها الشيطان، ولا يملك أن يخرقها.

وتتكرر في السورة الإشارة إلى سنن الله الماضية في الرسل والأمم: {وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا}، فهو قانون ثابت، لا يعرف التحول ولا يقبل التبديل.

ثم يرتفع التحدي إلى ذروته في الحديث عن القرآن: {لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ}، فكأن العجز عن الإتيان بمثله قدرٌ لازم، مهما اجتمعت الإنس والجن وتظاهرت قواهم.

وأخيرًا تشير السورة إلى وعد الآخرة وجمع بني إسرائيل لفيفًا؛ فالوعد آتٍ لا محالة، والتاريخ يسير إلى غايته التي قُدرت له، لا يتقدم عنها ولا يتأخر.

وهكذا تبدو سورة الإسراء سورة القضاء والحتم، ترسم لك عالمًا يمضي وفق نظام محكم، لا عبث فيه ولا فوضى، إنما هو قدرٌ نافذ، وحكمةٌ بالغة، وسُنَّةٌ لا تجد لها تحويلًا.

سـورة الكهف

العصمة من الفتن

ليس في كتاب الله سورة تمثل للنفوس المؤمنة حرزًا من الفتن، وعصمة من غوائل الحياة، كهذه السورة الكريمة التي تسمى سورة الكهف. والمحور الذي تدور حوله سورة الكهف هو العصمة من الفتن، وقد ضربت لنا الأمثال في أربع فتن عظيمة، كل فتنة منها كانت ميدانًا لاختبار الناس، ووسيلة لتمييز المخلص من الغافل، والصابر من الجاهل.

الفتنة الأولى: فتنة الدين

وتجلت فتنة الدين في قصة أصحاب الكهف، أولئك الفتية الذين آمنوا بربهم، وزادهم الله هدى، ففروا بدينهم إلى الكهف حين لم يجدوا ملجأ يأوون إليه في أرضهم.

وكانت العصمة من فتنة الدين بثلاثة أمور:

الدعاء: {رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} (الكهف:١٠)، دعاء خالص يفيض من قلب طاهر، يرجو من الله عونًا ورشادًا.

الصحبة الصالحة: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم} (الكهف:٢٨)، إذ لم يكن الدين ليقوم في قلب الفرد إلا حين يجد حوله قلوبًا تعينه وتؤازره.

العزلة: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ} (الكهف: ١٦)، عزلة عن أهل الباطل، لا هروبًا من الدعوة، بل حماية للدين قبل أن يضعف أو يفسد.

الفتنة الثانية: فتنة المال

ثم جاءت فتنة المال في قصة صاحبي الجنتين، حيث اغتر أحدهما بما رزقه الله، وطغى وتجبر ونسي أن الفضل كله لله.

وكانت العصمة من فتنة المال بثلاثة أمور:

فهم حقيقة الدنيا: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ} (الكهف: ٤٥)، فالدنيا زائلة لا بقاء لها، تزهر يومًا وتذبل أيامًا.

تذكر الآخرة: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} (الكهف:٤٧)، فالعاقل من وضع بين عينيه أن اليوم الآخر هو المصير الحق.

معرفة العدو الأكبر: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي} (الكهف:٥٠)، فالشيطان يسعى ليزين المال ويغري به، حتى يهلك صاحبه.

الفتنة الثالثة: فتنة العلم

ثم تأتينا فتنة العلم في قصة موسى والخضر، حيث أراد موسى، نبي الله، أن يتعلم علمًا لا يحسنه.

وكانت العصمة من فتنة العلم بثلاثة أمور:

التواضع للعلم وأهله: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} (الكهف:٦٦)، فما بلغ عالم العلم إلا بالتواضع لغيره.

الصبر في طلب العلم: {سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا} (الكهف: ٦٩)، فالعلم لا يؤتَى جزافًا، وإنما يؤخذ بالصبر الطويل.

الفتنة الرابعة: فتنة السلطة

وأخيرا، تجلت فتنة السلطة في قصة ذي القرنين، ذلك الملك العادل الذي طاف المشارق والمغارب، يحكم بالعدل، ويقيم القسط بين الناس.

وكانت العصمة من فتنة السلطان بخمسة أمور:

العدل مع الرعية: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى} (الكهف: ٨٨)، فلا فضل لحاكم إلا بعدله.

تفقد أحوال الرعية: {وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا} (الكهف: ٨٦)، {وَوَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ} (الكهف: ٩٠)، {وَوَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا} (الكهف: ٩٣)، فلا يُحمد حاكم أغفل أهل الأرض.

الزهد فيما في أيدي الناس: {مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ} (الكهف: ٩٥)، لا طمع، ولا طلب مكافأة.

تذكر الفناء والآخرة: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ} (الكهف: ٩٨)، فالملك زائل، والدار الباقية خير وأبقى.

الإخلاص في العمل: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا} (الكهف: ١١٠)، ولا يجعل الناس ولا الدنيا شركاء في العمل لله.

وهكذا تمضي سورة الكهف، صفحة بعد صفحة، تضيء للناس ملامح الطريق، وتكشف لهم مواطن الزلل والفتنة، وتعلمهم أن العصمة لا تكون إلا برحمة من الله، وهداية يلقيها في قلوب من أخلصوا له العبادة، وصبروا على مشقة الطريق.

وما كانت هذه القصص التي بثها الله في السورة ضربًا من الحكايات، ولا لونًا من ألوان التسلية، وإنما كانت عبرًا بالغة، ودروسًا حية، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

موسى والعبد الصالح

سِرُّ القَدَر

ما أظنني أجاوز الحق إن قلت إن قصة موسى والعبد الصالح، في سورة الكهف، إنما كُتبت لتكون درسًا خالدًا في فهم القضاء والقدر، بل في التسليم المطلق لما خفي من أمر الله، واستغلق على العقول الضعيفة والأفهام القاصرة.

ذلك أن موسى، عليه السلام، وهو النبي الكريم، وقف ذات يوم حائرًا بين مشاهد الحياة. رأى العجوز الضعيفة تعتمد على ابنها الوحيد، فما يلبث هذا الابن أن يُقبض فجأة، وتُترك هي وحدها في مواجهة الوحشة والهوان. ثم رأى الغني المتبختر يُرزق البنين والبنات، فلا يفقد منهم أحدًا، كأنما الحظوظ تجري بين الناس جري السحاب، لا قانون لها ولا ميزان.

فأنكر موسى في نفسه، وتساءل: أي الحكمة في هذا القضاء الذي يرفع هذا ويخفض ذاك؟ أليس أقرب إلى العدل أن يُؤخذ من الثري بعض ما أُعطي، ويُبقى للضعفاء بعض ما يستعينون به على البقاء؟

ولعله تساءل أيضًا: لماذا خُفي القضاء عن العيون، وأُخفيت الأقدار في غياهب اللوح المحفوظ؟ أليس أهدى للناس أن يعلموا مصائرهم حتى يحسنوا العمل لها؟

فشاء الله أن يجيبه جوابًا عمليًا، لا جدلًا ولا خطابًا، بل عملا يرى بالعين، ويدرك بالحس.

أرسل إليه عبدًا من عباده، آتاه الله رحمة من عنده، وعلمه علمًا لدنيًا لا تناله مدارك الناس، ولا تدركه العقول.

ورافق موسى هذا العبد الصالح في رحلة عجيبة، اشترط عليه فيها الصبر وعدم الاعتراض، فقبل موسى، وهو لا يدري ما عساه أن يرى من غرائب أقدار الله.

ركبا السفينة، وكان أهلها مساكين يعملون في البحر، فما إن استقرا فيها حتى عمد العبد الصالح إلى خرقها.

فاضطرب موسى لهذا العمل اضطرابًا شديدًا، كيف يُفسد سفينة قوم ضعفاء؟ كيف يُعان الفقر على مزيد من البؤس؟

فنطق موسى بما لم يستطع كتمانه: "أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئًا إمرًا"

ولكن العبد الصالح ذكّره: "ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرًا؟"

ثم مضيا، فلقيا غلامًا يلعب، فإذا بالعبد الصالح يقتله.

وتفجرت مشاعر موسى بالغضب والإنكار: "أقتلت نفسًا زكية بغير نفس؟ لقد جئت شيئًا نكرًا".

ولكنه يعود، مضطرًا، فيعتذر، ويلتمس العذر لنفسه في غلبة الطبع على الصبر.

ثم بلغا قرية أهلها لئام، بخلوا عن الضيافة والجود، ومع ذلك أقام العبد الصالح جدارًا كان على وشك السقوط، دون أن يأخذ منهم أجرًا أو جزاءً.

فعجب موسى وسأل، فإذا العبد الصالح يخبره أن هذا هو فراق بينه وبينه، وأنه سيكشف له تأويل ما لم يستطع عليه صبرًا.

هنالك يتجلى سر القصة كله:

خرق السفينة لم يكن ظلمًا، بل كان رحمة، حفظًا لها من يد ملك ظالم كان يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا.

وقتل الغلام لم يكن جناية، بل كان إنقاذًا لأبويه المؤمنين من فتنة عظيمة، لأن الغلام لو عاش لأرهقهما طغيانًا وكفرًا.

أما الجدار، فكان تحته كنز لغلامين يتيمين، وكان أبوهما صالحًا، فأراد الله أن يحفظ لهما الكنز إلى أن يبلغا أشدهما.

هكذا تعلم موسى أن الأقدار ليست كما يراها العبد في لحظة ضيقة من الزمان، بل هي تدبير واسع، تتشابك فيه الحكمة بالرحمة، ويغيب سره عن أعين الناس رحمة بهم لا ظلمًا لهم.

ولو كُشف الغيب للإنسان، لفسد أمره، واضطربت حياته، وتحولت نعم الله عليه إلى نقم.

إنها صورة عظيمة، رسمها القرآن في هذا السياق البديع، ليعلم الإنسان أن القضاء الإلهي يجري بحكمة لا تدركها العقول، وبرحمة لا تحيط بها الأفئدة، وأن الصبر والتسليم هما أولى بالإنسان من الاعتراض والإنكار.

وهكذا تمضي القصة في سورة الكهف تمضي متمهلة رصينة، لا تثير العاطفة وحدها، بل تحرك الفكر والقلب معًا، وتدعونا إلى أن نعرف قدر أنفسنا، وأن نقف خاشعين أمام حكمة الله التي تحيط بكل شيء علمًا.

وليست هذه القصة ضربًا من التسلية أو الحكاية، إنما هي درس عميق في الإيمان، يريد الله به أن يعلم الإنسان أن وراء ظاهر الأحداث عللًا خفية، وأن وراء الألم الظاهر رحمة مدخرة، وأن ما يحسبه الناس شرًا قد يكون في علم الله عين الخير.

وبهذا تسدل القصة ستارها، وقد علّمت موسى، وعلّمت كل قلب مؤمن، أن لله في قضائه أسرارًا، وأن الحكمة أعظم وأجل من أن تدركها الأبصار.

سـورة مـريم

الأبناء والأولاد

إذا كانت سورة يوسف قد صوّرت ألوان الابتلاء بين الأهل والإخوان، فإن سورة مريم تتفرّد بتصوير علاقة الإنسان بالولد: طلبًا ورجاءً، قبولا وتسليمًا، أو طغيانًا وافتراءً.

ولذلك، فإن المتأمل في بنائها يجد أن محور الأولاد يخترق كل مشاهدها، ويشد كل أجزاءها بعضها إلى بعض كالسلسلة المحكمة.

ومن يتأمل سورة مريم، يجد خيطًا واحدًا ينسج أحداثها كلها، ويصل أولها بآخرها، ويربط مشاهدها ربطًا محكمًا لا انفصام له: ذلك هو محور الأولاد.

فالسورة كلها حديث عن الولد: طلبه، وهبته، نسبته، وفتنة الناس به.

تبدأ السورة بمشهد مؤثر لزكريا عليه السلام، الشيخ الكبير الذي رق عظمه واشتعل رأسه شيبًا، يناجي ربه نجوى خاشعة، يرجوه أن يهبه ولدًا، وليًا يرثه ويرث من آل يعقوب، ويكون مرضيًّا عند ربه:

{فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} [مريم: ٥-٦].

ثم تنتقل السورة إلى قصة مريم عليها السلام، الطاهرة العفيفة، التي فاجأها المَلَك بالبشارة بولد من غير زوج ولا مساس، فتعجبت مستغربة:

{ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا } [مريم: ٢٠].

وهنا، الولد معجزة، الولد آية، الولد أمانة ثقيلة ألقيت على عاتق فتاة في محراب العفة.

ثم تمضي السورة فتقص علينا مشهدًا آخر من مشاهد الوعد الإلهي بالذرية: إبراهيم عليه السلام، الذي حين اعتزل قومه وأهله وما يعبدون من دون الله، عوضه الله بأعظم العطايا، فوهب له إسحاق ويعقوب، وجعل كليهما نبيًّا:

{ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ، وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا} [مريم: ٤٩].

فالولد هنا مكافأة الإيمان، وعطاء الانفصال عن الباطل.

ثم تعرض السورة صورة أخرى من صور التعلق بالأولاد، ولكنها صورة مشوهة فاسدة: الكافر الذي يتبجح بأن المال والولد سيكونان له نصيبًا مقدرًا، كأن الولد عنده وسيلة افتخار وغرور:

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا} [مريم: ٧٧].

فانقلب حب الولد عنده من نعمة إلى فتنة، ومن رزق إلى وسيلة طغيان.

وتختم السورة هذه المسيرة العجيبة بإنكار خطير: نسبة الأولاد إلى الله عز وجل.

لقد زعم المشركون أن للرحمن ولدًا، فأنكر الله عليهم هذا القول الشنيع إنكارًا عظيمًا، أذهل السماوات والأرض وكاد يفطرهن:

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا، أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا، وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا} [مريم: ٨٨-٩٢].

فهنا يبلغ الحديث عن الأولاد ذروته، حين يقارن بين عطية الولد لعباده، وافتراء الولد عليه سبحانه وتعالى.

وهكذا نرى أن سورة مريم تدور من أولها إلى آخرها حول الأولاد:

بين طلب الولد من الله بدعاء صادق،

وقبوله كهبة إلهية فوق الأسباب،

وبين الافتخار به في الكفر والطغيان،

وانتهاءً بنسبة الولد زورًا إلى الخالق العظيم.

إنها سورة الأبناء، بكل ما يحمله الولد من رجاء وألم، ابتلاء ونعمة، حق وباطل.

ومن وراء كل ذلك، دعوة لطيفة إلى أن يظل القلب معلقًا بالواهب لا بالموهوب، وبالرازق لا بالرزق، وأن لا تتحول نعمة الولد إلى فتنة تصرف عن الحق، ولا إلى افتراء يخرق الفطرة.

وهكذا تمضي سورة مريم، من مشهد إلى مشهد، ترسم صورة الولد في حياة الإنسان: أملًا يدفعه الدعاء، واختبارًا يحتاج إلى الصبر، وفتنةً تهدد بالإغواء.

وفي نهاية السورة، ترتفع الرسالة إلى ذروتها: لا ولد للرحمن، ولا نسب له مع خلقه، بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد.

ومن هذه الرحلة الإيمانية، يتعلم القلب أن لا يغتر بالهبة، ولا يضل بالنعمة، بل يظل ساجدًا للخالق الواحد، موقنًا أن كل ما بين يديه هبة مؤقتة تُسأل عنها النفس يوم العرض العظيم.

سـورة طـه

الرِّضا النَّفسي

ليس في القرآن سورة تبدأ بهذا الصوت الحاني، وذلك العتاب الرقيق، كما تبدأ سورة طه. فما ألين الخطاب، وما أهدأ النغمة، وما أرقّ ذلك الوعد الذي يُلقى في سمع النبي وكأنّه بلسم على القلب، وترياق على النفس: {طَهَ. مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى}.

وتُعدّ سورة طه من السور المكية التي نزلت في مرحلة شديدة الحرج من الدعوة، حيث كان المؤمنون الأوائل يتعرضون للاضطهاد، وكان النبي ﷺ يحمِل همّ الدعوة وأعباءها الثقال. وفي هذا السياق الزمني والنفسي، تبدو سورة طه كأنها خطاب تسكين وتثبيت، لا للمؤمنين فحسب، بل وللنبي ﷺ نفسه.

ومع أن السورة قد اشتهرت بأنها سورة موسى عليه السلام، لما فيها من تفصيل قصته، إلا أن النظرة الموضوعية الشاملة تشير إلى أن عرض القصة جاء خادمًا لهدفٍ أعمّ، وهو بناء النفس الراضية، المطمئنة بمقام النبوة، الواثقة بوعد الله، المستسلمة لأمره، والمُعرضة عن أسباب الشقاء.

وبالنظر في موضوعات السورة ومساراتها النفسية، يتبين أن "الرِّضا النَّفسي" هو المحور الذي تنتظم حوله كثير من مشاهدها، سواء في عرضها لقصة موسى عليه السلام، أو في توجيهاتها للنبي محمد ﷺ، أو في تشخيصها لحالات الصراع الداخلي عند الشخصيات الأخرى.

وافتتحت السورة بقوله تعالى:

﴿طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾

وهو نفي صريح للشقاء من غاية إنزال القرآن. وقد اختلف المفسرون في المعنى المراد بـ"لتشقى"، إلا أن أغلبهم ذهب إلى أن الله يرفع بهذا الكتاب عن نبيّه ما كان يجد من مشقة نفسية وبدنية في دعوته، وأن القرآن وسيلة هداية وسكينة، لا وسيلة تعب وتكليف مرهق.

وهذا التقديم يُهيئ القارئ لمحور نفسي تُبنى عليه مضامين السورة؛ إذ تصف الآيات بداية رحلة موسى بقوله:

﴿إني آنست نارًا﴾

والأنس هو شعور بالارتياح في مكانٍ ما أو إلى شيء ما. وهذه اللفظة تشير إلى لحظة نفسية داخلية تلامس الرضا، رغم أن موسى كان في سفر شاق وفي ظروف غامضة.

وفي الواقع، هناك متعة وأُنس في إشعال النار والمكوث بجوارها، ولستُ أدري ما سبب ذلك. وهذا سر خفي في نفس البشر جميعًا، دائمًا أحاول تحليله. وإشعال النار – مثل جميع الأرزاق التي يحصل عليها الإنسان في يومه – فأحيانًا تُشعل بسهولةٍ ويُسرٍ، وتُنضِج الطعام سريعًا، وأحيانًا تكون نارًا عَنيدةً تُطفأ سريعًا، ويكثر دخانها، ولا تنضج الطعام إلا بشِقِّ الأنفس.

وهذا يشبه الكتابة لدى الكاتب؛ فأحيانًا تُطاوعه الأفكار سريعًا، بحيث لا يُلاحِق في تسجيلها، فكأنه يمتاح من بئرٍ، وأحيانًا تستعصي عليه وتَحرِن، كأنما ينحت في الصخر.

ثم تأتي الآية: ﴿ربِّ اشرح لي صدري * ويسر لي أمري﴾

فحين أُمر موسى بالرسالة، لم يطلب مددًا ماديًا، بل دعا بدعاء نفسي صرف، يعبّر عن رغبة داخلية في تقبّل التكليف برضا وارتياح، لا عن مجرد أداء الوظيفة النبوية.

كذلك في لحظة قاسية من مشاعر الأمومة، حين تُجبر أم موسى على إلقاء وليدها في اليم، يقول تعالى: ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ ﴾

هذا المشهد يعبّر عن نموذج للرِّضا النّفسي المُنزل من الله، والذي يترتب على الثقة في الوعد الإلهي.

وتُذكّر السورة بموقف قتل موسى للرجل المصري وما ترتب عليه من شعور داخلي بالضيق والغمّ، ثم تقول:

﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾

وهو تعبير صريح عن استعادة التوازن النفسي بعد الاضطراب. والنجاة هنا لم تكن نجاة جسدية فقط، بل نجاة من حالة اضطراب داخلي، حلّ محلها الاطمئنان إلى المغفرة والاصطفاء.

وتوجه الآيات موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون، وتوصيهما بقولٍ خاص:

﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾

فاللين ليس ضعفًا، بل هو صورة من صور الطمأنينة النفسية التي لا تحتاج إلى العنف لتثبت الحق.

والآية: ﴿وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾، تعزّز هذا التوجه نحو السلام النفسي كأثرٍ مباشر للهداية.

وقد أرادت سورة طه أن ترسم هذا الرضى النفسي، لا في القول وحده، بل بالصورة أيضاً؛ فجاءت مشاهدها كأنها لوحات طبيعية، فيها ما يُلَطِّفُ من وحشة القلب، ويبعث في النفس شيئًا من الأنس، وراحة النظر.

فها هو موسى، عليه السلام، يُعرِّف عصاه تعريف الصديق لصاحبه، فيقول: {هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي}، فكأنما نحن بإزاء فتى يرعى غنمه في سفح الجبل، لا يحمل همًا إلا أن يهش على أغنامه، ويستند إلى عصاه، ويملأ رئتيه من نسيم الحرية والبراءة.

ثم انظر إلى قوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى. كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ...}، فهو لا يكتفي بوصف الطبيعة، بل يُطلق للعين حقّها، وللبطن نصيبه، وللأنعام مرعاها؛ وكأنما العالم كلّه يُقدَّم للإنسان هدية، كي يطمئن ويأنس ويشكر.

وليست السورة واقفة عند مشهد الريف والمطر والنبات، بل تنقلك إلى صورة أخرى، لا تقلّ عنها بهجة، ولا تقلّ عنها أثرًا في النفس، إنها صورة العيد: {مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}.

أيّ جمال هذا الذي في ذكر الزينة؟ وأي سعة في النفس حين يحشر الناس ضحى؟ حين يلبسون أحسن ما عندهم، ويجتمعون في يوم لا عمل فيه إلا الفرح، ولا شاغل لهم إلا التجمّل والانتظار.

وهكذا، فإن سورة طه لا تنصح فحسب، بل تداوي، ولا تعظ فقط، بل تُلهم، لأنها تعرف أنّ الرِّضى لا يُنتزع من القلب انتزاعًا، وإنما يُسكب فيه شيئًا فشيئًا، كما يُسكب الماء في الكأس الصافي.

وتصف السورة حال السحرة في لحظة التهيئة للمواجهة:

﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ والتنازع حالة داخلية، تَسبق القرار، وتدل على غياب الرضا النفسي واستقرار الرؤية.

يقول السحرة لفرعون بعد تهديده:

﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾

هكذا انتقلوا من التنازع إلى ثباتٍ ويقينٍ في مواجهة الموت، وهو قمة الرضا النفسي الذي يمنحه الإيمان حين يستقرّ في القلب.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ تصريح بحالة عابرة من الخوف الطبيعي، قابلها الوحي بالتطمين الفوري:

﴿ قُلْنَا لا تَخَفْ﴾، لبيان أن الرضا قد يتعرض لهزّات، لكنه سرعان ما يستعيد ثباته إذا ثبتت صلته بالله.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ تمثل ذروة هذا المحور، حيث يُصرّح موسى بأن حافزه وعلّة سعيه ومبادرة خطاه هو تحقيق رضا الله.

وهذا التصريح يُعدّ جوهرًا للمحور النفسي في السورة، إذ يجعل الرضا غاية عليا تُحرّك الأنبياء وتوجه مسيرتهم.

ويشير القرآن إلى تبرير بني إسرائيل لفعلهم حين عبدوا العجل، أنه كان بسبب ما حملوه من الذهب وما شعروا تجاهه من اضطراب:

﴿لَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾

ثم يشير إلى تبرير هارون لصبره، بأنه خشي الفتنة:

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ في إشارة إلى أن الرضا أحيانًا يُختار حتى على حساب المواجهة، إذا كانت المواجهة ستجلب الفتنة.

ويُعاقب السامري بسلب الرضا والاتزان النفسي:

﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ﴾ فلم يُعاقب السامري بعقوبة جسدية، بل بعقوبة نفسية: عزلة، وقلق دائم، وانفصال عن المجتمع... وهي أقسى أنواع العقوبات لمن فقد طمأنينته.

وأشارت السورة إلى قصة آدم وتحذيره من الشقاء:

﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾

فالخروج من الجنة ليس مجرد انتقال مكاني، بل انتقال من حالة الرضا والنعيم إلى الشقاء والكدّ.

وتختم السورة بجملة من التوجيهات التي تصبّ في محور الرضا، ومنها "الصبر والتسبيح":

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ- لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠].

ومنها الزهد في الدنيا سبب للرضا:

﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

الإعراض عن الذكر سبب للضيق النفسي:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾

و"الضنك" ليس قلّة المال، بل ضيق النفس، وكدر البال، واضطراب الضمير، وهي مضادّات الرضا.

كل هذه التوجيهات تؤكد أن الرضا النفسي في الإسلام ليس شعورًا طارئًا، بل نتيجة لمنهج عملي وروحي يبدأ من التسبيح وينتهي بالتجرد عن زينة الحياة.

وهكذا يمكننا القول إن سورة طه لا تُعالج فقط الوقائع التاريخية لقصة موسى، بل تؤسس لبنية نفسية متكاملة، تُبيّن أن الرضا ليس شعورًا عابرًا، بل هو ثمرة لليقين، ونتيجة لطاعة متصلة بالله، تبدأ من لحظة التلقي الأولى، وتنتهي بالتسليم الكامل في أشد مواضع البلاء.

وبهذا يظهر أن محور الرضا النفسي في سورة طه ليس افتراضًا تأويليًا، بل مقصدٌ قرآنيّ مستتر تحت الظاهر القصصي، وممتد في نسيج الآيات كلها، يحتاج فقط إلى تأملٍ يربط الظاهر بالباطن، والمشهد بالحالة النفسية الكامنة فيه.

سـورة الأنبيـاء

التلألؤ والإشراق

تمثل سورة الأنبياء نموذجًا فريدًا في البناء التصويري والموضوعي للخطاب القرآني، حيث تتضافر آياتها لتشكّل سياقًا نفسيًا وروحيًا متكاملاً، يمكن توصيفه بمحور دلالي جامع هو: التلألؤ والإشراق المفاجئ. ويُقصد بذلك سلسلة الانكشافات المتتابعة التي تضيء النفس والكون والتاريخ والنبوة فجأة، فتوقظ الوعي الإنساني من غفلته، وتربطه بالمطلق الإلهي عن طريق المفاجأة النورانية.

تبدأ السورة بمشهدٍ خاطفٍ، فيه رهبة ودهشة: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ}، فهي كضوءٍ انبثق فجأة في حجرة مظلمة، فأزعج النائمين، وأيقظ الغافلين، ثم ما تلبث أن تشير إلى هذا النور لا بوصفه عتابًا فقط، بل ذكرًا مُحدَثًا، جديدًا في معناه، وإن كان قديمًا في نصّه: {مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ}.

و"الذكر المحدث" هو تلألؤ وإشراق، فهو تفسير النصوص الدينية بتفسيرات عصرية تناسب الزمن، فيُشعر السامع بالفرح والسرور، لذلك فهو ليس فقط كلماتٍ تُتلى، إنما هو إشراقٌ عقليّ وروحيّ، يُوقظ في الإنسان جذوة التأمل، ويبعث فيه روح الاستبشار، حين يرى النص القديم يتكشّف له بمعانٍ لم يكن يُدركها من قبل، فتلتمع له الآية كما تلتمع النجمة في فجر النفس.

ثم تمضي السورة فتكشف عن إشراقٍ آخر، وهو نزول القرآن: {لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ}، فقد كان الناس في ظلمة التاريخ، فجاءهم هذا الكتاب، فتلألأ لهم، فذكرهم وأعلى شأنهم.

ثم تنقلب السورة إلى مشهدٍ آخر من مشاهد الضوء: صِدام الحق والباطل، ذلك الصدام الذي لا يحدث خفية، بل يقع فجأة: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}، فإذا الباطل، بكل صخبه وزينته، قد زال كما يزول ظلٌّ بعد شروق الشمس.

ومن تلألؤ الفكر تنتقل السورة إلى تلألؤ الوجود نفسه، فتُذكِّر الناس بأن هذا الكون لم يكن كما هو الآن، بل كان مغلقًا مندمجًا، حتى فُتِق، وتفجّر، وأشرقت السماوات والأرض كلتاهما: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}.

ثم لا تلبث أن تمطرنا السورة بمطر آخر من الإشراق: ماءٌ تنزّل من السماء، فبعث الحياة في الأرض، وكأن كل نقطة منه شرارة حياة، لا رطوبة فقط: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ}.

ويمتد هذا المعنى في السورة، حتى إذا وصلنا إلى الأنبياء، رأيناهم مصابيح أُرسلت لتضيء الدرب، كلٌّ في زمنه، وكلٌّ في قومه، يعلنون النور الخالص: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ}.

ثم ترى الوحي حين يتنزل على موسى وهارون، فيوصف بأنه "ضياء"، لا لمجرد البلاغ، بل لأنه يُنير ويُفرق ويهدي: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ}.

ويلفت السياق إلى التلألؤ الفكري في موقف إبراهيم عليه السلام، إذ تلتمع الفكرة في ذهنه فيحطّم الأصنام ويتّخذ من "كبيرهم" حجةً لزعزعة يقين قومه: {قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ}، وهو نوع من الإشراق الحجاجي الذي يستند إلى المفاجأة العقلية.

ثم يُثني النص على سليمان عليه السلام بلفتة لطيفة: وهي لحظة تلألؤ ذهني تجلّت في صورة حكمة مخصوصة: {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ...}.

وفي سياق التلألؤ المتدفق في سورة الأنبياء، تتجلّى مشاهد لا تقل إشراقًا عن سابقتها، لكنها هذه المرة تنبع من أعماق المحنة. فليس النور الذي تفيض به السورة مقتصرًا على الكون أو الرسالة، بل هو نور ينبثق من النفس البشرية حين تستيقظ على باب التضرع.

يأتي ذكر أيوب عليه السلام في مقام البلاء والابتلاء، وقد بلغ من شدة الضُّر مبلغًا يقطّع الروح، ومع ذلك لم يزد على أن نادى ربه بكلماتٍ تُشرق منها الثقة واليقين:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

فما كان من ربه إلا أن استجاب:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾

ثم جاءت لحظة الإشراق، لا بكلمات، بل بأمرٍ مباشر يتفجر منه الماء، وتتفجر معه الحياة: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

إنها لحظة تلألؤ مائيّ، خرج بها أيوب من ظلمة المرض إلى نور الشفاء، ومن صبر الصالحين إلى نعيم العابدين.

ثم ننتقل إلى مشهد يُضيء من قلب الظلمات، مشهد يُونس عليه السلام، الذي التقمه الحوت وابتلعته الغياهب الثلاث: البحر، والليل، وجوف الحوت.

لكن من جوف تلك الظلمات، انبعث صوتٌ فيه من النور ما يفتت صخور الندم، ويبعث إشراق التوبة:

﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

وهنا يتجلى الفرج المفاجئ، لحظة التلألؤ، إذ يُقذَف بالنبي الخارج من الظلمة إلى الشاطئ، حيث النور والهواء والنهار.

فهو خروجٌ من باطن الظلمة إلى ضوء الحياة، ومن العزلة إلى الرسالة، ومن الضمير المعذَّب إلى النبوة المجدَّدة.

إن هذين المشهدين - أيوب ويونس - يجعلان من السورة لوحة كاملة من التلألؤ المتصاعد: من إشراق الوحي، إلى إشراق الفهم، إلى إشراق الطبيعة، إلى إشراق النفس في أعماق محنتها.

ويتجلى التلألؤ الماديّ والروحي في قصة زكريا ومريم، إذ تأتي الملائكة بالبشرى في محراب العبادة، وتُشرق اللحظة بحدثٍ معجزٍ. فتبشر زكريّا بيحيي، وتبشر مريم بالمسيح.

وحين يأتي الحديث عن يأجوج ومأجوج، فهو انفجار آخر في وجه الأرض: {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ}، كأن التلألؤ أحيانًا لا يكون رحمة فقط، بل يكون فزعًا يسبق النور الأخير.

ثم تختم السورة بما لا مزيد عليه: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}، إنها لحظة اختتام كل إشراق، وضمّ كل ضوء في صفحة واحدة، ليبدأ إشراق آخر لا يُطفأ، هو إشراق الأرض حين يرثها عباد الله الصالحون: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}.

وهكذا تمضي السورة، من تلألؤ إلى إشراق، ومن إشراق إلى انبلاج، حتى ليحسب القارئ أنه لا يقرأ سورة، بل يخطو في ليلٍ يوشك أن ينقلب فجأة إلى نهار.

سـورة الحج

المفاجأة

تتفرد سورة الحج بمحور يعصف بالقارئ منذ أول آية، وهو محور "المفاجأة". مفاجأة كونية، ومفاجأة نفسية، ومفاجأة روحية، ومفاجأة تاريخية، وتمتد خيوطها من صيحة البعث إلى تفاصيل الحياة اليومية، ومن رجّة الساعة إلى رعشة القلب، ومن زلزلة الأرض إلى اهتزاز الإيمان.

بل إن بنية السورة نفسها، بتقلب موضوعاتها وانتقالها المفاجئ بين مشاهد كونية، وأحداث تاريخية، واهتزازات نفسية، تحاكي الزلزلة التي تبدأ بها. كأن الإيقاع ذاته يهزّ القارئ كما تهزّ الزلزلة الأرض، فلا قرار له في المعنى إلا بالركوع والسجود، والانصهار في يقين البعث.

وبنداء فريد يرتعد له الوجدان تفتتح السورة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}. لا يقول القرآن: "ستأتي الساعة"، بل يصوّرها زلزلة، كأنها آتية فجأة، فائرة، غافلة عنها العيون والقلوب، فتفجؤها بغتةً.

ثم لا تمضي الآية الثانية إلا وتنتقل بنا إلى مشهد كوني مذهل، حيث تنقلب المعايير، وتضطرب الصور، وتموج النفس بالرعب:

{ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ }، وكأن السورة تبدأ من قمة الحدث، لا من مقدماته؛ تبدأ بالدهشة لا بالتمهيد، وكأن السطر الأول في كتابها هو البعث بعينه.

ثم تمضي بنا السورة إلى خلق الإنسان، فإذا هو يأتي من ماء مهين، ويخرج من رحم أمه كما يخرج الناس من القبور. مشهد الولادة في السورة ليس مجرد بداية، بل هو رمز لمفاجأة البعث: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ، ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ...}. فتسرد الآيات مشهد التحول العجيب من علقة إلى مضغة، ومن مضغة إلى عظام، حتى يُلبسها الله لحماً.

ولا تنفك المفاجأة تتكرر، ليس فقط في الأحداث الكونية بل في تقلب النفس البشرية:

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَّ عَلَى حَرْفٍ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ}، فبعض الناس يعبد الله على حرف، على هامش، على طرف احتمالي هش، فإن أصابه خير اطمأن، وإن أصابته فتنة انقلب – لا رجع – انقلب على وجهه. وكأن الدين عنده علاقة نفعية، فإذا انهارت المنفعة، انهارت العبادة.

ثم نأتي إلى مشهد درامي عجيب في قوله تعالى: {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ}. شخص يمد سببًا إلى السماء، فيخيل للقارئ أنه طالب نصرٍ أو علوّ، فإذا هو يقطع حبله فجأة، كناية عن الانهيار المفاجئ. إننا أمام عرض حيّ للتوتر النفسي والانقطاع الروحي.

ثم تأتينا مفاجأة من نوع آخر: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالَّذِينَ هَادُوا، وَالصَّابِئِينَ، وَالنَّصَارَى، وَالْمَجُوسَ، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، إِنَّ اللهَّ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}. تلتقي كل الفرق والملل، المتضادة في التاريخ والعقيدة، في لحظة واحدة بين يدي الله، ليُفصل بينهم. المفاجأة هنا في الجمع، وفي تسوية الجميع أمام ميزان العدل الإلهي.

ثم تأتي الآية التي تقلب أفق القارئ رأسًا على عقب: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ}، سجود لا يخص الإنسان وحده، بل يشمل السماوات، والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب. مفاجأة تخلخل مركزية الإنسان وتُعيد تشكيل تصورنا للكون: الكل في طاعة، والإنسان وحده يتردد.

ثم يفاجئنا الله بأذان إبراهيم من أعماق الأزمنة: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ}، وكأن القارئ يسمع الأذان نفسه يتردد في الآفاق، رغم أن إبراهيم في وادٍ غير ذي زرع. وإذا بالمفاجأة تتوالى: {يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}. أذان فاجأ التاريخ، وما زال يتجدد كل عام.

إن مشهد الحجيج الآتين من كل فجٍّ عميق لا يُفاجئ التاريخ فحسب، بل يُفاجئ الذات الإنسانية التي تخلع لباسها الدنيوي، وتتجرد من اسمها ومكانتها، لتدخل في

طقسٍ يعيد صياغة الوجود. فكأن الحج نفسه بعثٌ رمزي، ووقفة عرفات مفاجأة روحية توازي رجّة الساعة.

وتتصاعد وتيرة المفاجآت في قوله تعالى: {وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}. السقوط هنا ليس رمزيًّا فحسب، بل مشهدي بصري، يصف سقوطًا مرعبًا، تخطف فيه الطير الجسد، أو تهوي به الريح إلى هاوية لا قرار لها.

وقوله تعالى: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} يصف المؤمنين بأن قلوبهم توجل وتهتز فجأة عند ذكر الله. هذا الاهتزاز الروحي المفاجئ هو علامة الإيمان الحقيقي.

ثم نُفاجَأ مرة أخرى بالذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق، لا لشيء إلا أنهم قالوا: ربنا الله. لا مقدمة، لا اتهام، فقط الطرد المفاجئ. لكن المفاجأة الأعمق أن الآية تُفصح عن أن الحرب هي التي تحمي المعابد من الهدم، لا العكس، كما قد يظن الناس: {وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ، وَبِيَعٌ، وَصَلَوَاتٌ، وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا}. هكذا تُقلب الصورة الذهنية: فالعنف في سبيل الحق هو الذي يصون المقدسات، ويمنع قوى البغي من محوها.

ثم ينقلنا السياق فجأة من ذكر مكذّبي الأمم إلى {وَكُذِّبَ مُوسَى}: {وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ، وَعَادٌ، وَثَمُودُ، وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ، وَقَوْمُ لُوطٍ، وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ، وَكُذِّبَ مُوسَى} وكأن لتكذيب موسى وزنًا خاصًا، إذ يوضع في كفة بمفرده، في حين يوضع تكذيب الأنبياء الآخرين في كفة، وذلك بحكم موقعه الفريد بين النبوة والفرعون، وبعثه إلى بني إسرائيل تلك الأمة المتقلبة الصعبة المراس.

ثم تأتي واحدة من أعمق المفاجآت في السورة، بل في القرآن كله: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ}. فالعمى ليس من اختلال الحواس، بل من البصيرة. مفاجأة تمسّ جوهر الوعي.

وفي الآية (٥٢)، يتدخل الشيطان في أمنية النبي، ليجعل الله ذلك فتنةً للذين في قلوبهم مرض. مفاجأة تُربك التصورات الساذجة عن النبوة:

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}.

ثم نرى الكفار ينتظرون الساعة، ساعة لا إنذار لها، ولا أجراس تدق قبلها. وكما في حياتنا: يُطوى دفتر العمر فجأة، دون أن يُمهَل صاحبه ليفتح صفحة التوبة: {وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ}.

وتصل المفاجأة إلى ذروتها في التحدي العقلي الرهيب في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ}. ليس جبلًا ولا إنسانًا، بل ذبابًا!

بل أكثر من ذلك {وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ}.

وفي الآية (٧٧)، تأتي الدعوة المباشرة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا}. أمر مفاجئ، قطعي، لا يحتمل التردد.

وختام المفاجآت سجدة أخرى، في السورة ذات السجدتين، وكأن في ذلك استجابة حركية لإيقاع السورة النفسي والروحي.

وهكذا، فإن سورة الحج ليست مجرد سرد أحداث، بل سلسلة من الصدمات المقدّسة التي توقظ القلب، وتوقظ الضمير، وتربك السكون الظاهري للحياة، لتدفعنا نحو الحقيقة المطلقة: البعث، القرار، الرجوع، والمصير. إنها سورة المفاجآت بامتياز.

وإذا كانت المفاجأة في سورة الحج تُرعب الحسّ وتُفاجئ الوجدان، فإنها في الوقت نفسه تكشف عن رهانٍ خفي: رهان الإنسان على وهم السيطرة، أو على أن الحياة ستستمر كما هي. لكن المفاجآت تُسقط هذا الرهان تباعًا، وتُظهر أن الرهان الوحيد الرابح هو الرجوع إلى الله، والانخلاع من نفعية الإيمان إلى صدقه.

سـورة المؤمنون

الاصطفـــاء

من بين السور التي تقف فيها النفس موقف الإجلال والروعة، سورة المؤمنون التي سميت باسم قومٍ هم صفوة الناس. تلك السورة التي ما إن تبدأ بآياتها الأولى حتى تشعر أن فضلًا يُسكب عليك من علٍ، وأن طائفة من الناس قد اختصهم الله، ورفعهم درجات، وجعلهم صفوةً من الخلق، لا لشيء إلا لما وقر في قلوبهم من خشية، ولما استقامت عليه جوارحهم من طاعة.

وهكذا، تمضي بك السورة في خط مستقيم، لا يلتوي ولا ينحرف، كأنها نهر نقيّ، يتخذ طريقه بين الصخور والحجارة، فيُخصّب ما حوله، ويهدي من يسير بمحاذاته إلى المنبع الأول، حيث الاصطفاء أصل كل خير، ومنشأ كل فضل، وغاية كل طريق مستقيم.

ولقد ابتدأت السورة باصطفاء عظيم، لم يكن فيه تردد ولا مراوغة:

قد أفلح المؤمنون، ولكن ليس كل مؤمن، بل من خشي فخشع، ومن صدق فطهر، ومن سجد فتواضع. فهؤلاء هم الصفوة المختارة من بين الخلق أجمعين، ليُمنحوا خاتمة الخير وفلاح المآب:

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}.

ثم تُنتقل النفس بعد ذلك من اصطفاء الإيمان إلى اصطفاء الخلق، فإذا بالآية الرابعة عشرة تروي مشهدًا من مشاهد التكوين: ثم أنشأناه خلقًا آخر، وكأنما الإنسان اصطفِي من طين، ثم اصطفِي من النطفة، ثم اصطفِي من أطوار الخلق المتعددة، حتى استوى على قدم العقل والتمييز، فصار مكرمًا:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}.

وفي مشهد ثالث، تبدو الأرض وكأنها تعرض بضاعتها على الله، فيختار منها شجرة مباركة، تنبت بالدهن وصبغ للآكلين، فهي الزيتونة التي اصطفاها ربها من بين الأشجار كلها:

{وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ}.

ثم يُقرَّب المشهد أكثر إلى الإنسان، فإذا هو يرتضع من نعم الله، وإذا اللبن – لا اللحم ولا الوبر – هو الذي يُذكر، ويُخصص، ويُميَّز، لأنه خالص سائغ للشاربين. أفلا يكون ذلك اصطفاءً لنعمة دون غيرها؟:

{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}.

ويمضي السياق إلى جدلٍ قديم، بين الكافرين والأنبياء، فإذا بهم يعترضون على الاصطفاء ذاته: {مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ}. وكأنهم ما فهموا، ولن يفهموا، أن الله يصطفي من عباده رسلًا، كما يصطفي من الأيام جمعته، ومن الليالي قدرها، ومن الكلام قرآنه.

ثم يجيء مشهد الطوفان، وإذا نوح، عليه السلام، مأمور باصطفاءٍ جديد: احمل فيها من كلٍ زوجين اثنين، واختيار من آمن من أهله، وإن كان ابنه في الغابرين. وهكذا يكون الاصطفاء عزيزًا، لا يخضع للعاطفة ولا للمزاج، بل للميزان الإلهي الخالص:

{فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ. وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ}.

ولم يكد يستقر نوح في السفينة حتى قال: {رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ}. فاختار من الله أن يختار له منزله، فهو اصطفاء مضاعف، من العبد لربه، ومن الرب لعبده.

ثم يُبعث موسى وهارون إلى فرعون وملئه، فينكرون عليهما الرسالة، لا لشيء إلا لأن الله اصطفاهما من دونهم: {أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا}؟ وكأن الاصطفاء جريمة في نظر المكذبين.

وفي سياق الرحمة، يصطفي ابن مريم وأمه، فيكونان معًا آية، ويصطفي لهما ربوة ذات قرار ومعين. وكأن الاصطفاء هنا لم يقتصر على الأشخاص، بل تعداهم إلى المكان:

{وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً. وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ}.

ويعود السياق إلى الرسل كافة، فيقال لهم: كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا، فيكون اصطفاء الطعام الطيب مدخلًا لاصطفاء العمل الصالح:

{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}.

وتُختم هذه الفقرة ببيان جامع: وإن هذه أمتكم أمة واحدة، أي أنها أمة اصطفاها الله من بين الأمم، كما اصطفى لها الدين من بين الأديان:

{وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}.

ثم تقطع السورة على الكافرين حُججهم، فتقول عنهم إنهم لا يسارعون في الخيرات، ولا يختارون طريق الله، بل يختارون السمر على القرآن، أي اللغو والجدل والاعتراض:

{قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ. مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ}.

أما الله، فيُقال فيه إنه لا يتبع أهواء الناس، بل يقول الحق، ويصطفي من القول أصدقه، ومن الحكم أعدله، ليقيم السموات والأرض بالقسط:

{وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ}.

ثم يدعوهم النبي، عليه الصلاة والسلام، إلى صراط مستقيم، لا التواء فيه ولا اعوجاج، وهو صراط مصطفى، لا كغيره من السبل:

{وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ}.

وحين يُفتح لهم باب من أبواب العذاب، فذاك اصطفاءٌ آخر، لا للنعيم بل للعقاب، يُفتح على قوم استكبروا وتولوا:

{حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}.

ثم يعود الجدل إلى الكافرين، فيُؤخذ عليهم أنهم لم يختاروا قول الله، بل اتبعوا أقوال الأولين، واصطفوها على وحي ربهم:

{بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ. قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}.

ويُسألون: من بيده ملكوت كل شيء؟ فيقولون: الله. فيقرّون بأن الله هو المصطفي، المختار، المالك، لكنهم لا يتبعون:

{قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}.

ثم تُنكر السورة على من زعم أن لله ولدًا، فالله غنيّ عن الشريك والولد، ولا يصطفي لنفسه من خلقه نسبًا، كما يصطفي الناس لأنفسهم أزواجًا وذريات:

{مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ}.

ويطلب النبي في دعائه: {رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، أي لا تصطفني يا رب في زمرة المغضوب عليهم، فإن الاصطفاء قد يكون للخير، وقد يكون للبلاء.

وتُختم السورة بأوامر رقيقة، فيها دعاء، وفيها اصطفاء الكلمة الطيبة:

{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ}. وكأن الفعل الحسن وحده هو المختار من بين سائر الأفعال.

ويُذكر فريق من عباد الله، يخصهم الله، لأنهم قالوا: {رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}. هذا الدعاء هو ما اصطفاه أولئك من بين الأدعية، فكان جزاؤهم أن اصطفاهم الله في الآخرة وجعلهم من الفائزين:

{إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ}.

وتُختتم السورة بأمر إلهي: {وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}.

فكأن الكلمة الأخيرة في السورة دعاء، وكأن الدعاء هو التاج، وهو الاصطفاء الأخير، الذي ينبغي أن يعلو سائر الكلام.

وهكذا ترى السورة، من أولها إلى آخرها، إنما تدور حول الاصطفاء: اصطفاء في الخلق، واصطفاء في الرسالة، واصطفاء في السلوك، واصطفاء في القول، حتى لكأنك إن نسيت كل شيء منها، لم يغب عنك أنها سورة الاصطفاء.

سـورة النور

تنوير ما خَفِي

المحور الأساسي الذي تدور حوله سورة النور هو (تنوير ما خَفِي)!

فها هي ذي السورة تبدأ لا كما تبدأ السور، ولا كما اعتادت الآيات أن تنساب على قلوب السامعين، ولكنها تفجأهم فجاءة القَسَم أو النداء، وتفرض نفسها فرضًا، لا تُمهّد له بذكر الكتاب، ولا تُلطف فيه بذكر النبي، بل تقف بين يدي الناس وقفة السلطان الذي يُعلن أمرًا لا يُردّ، وحكمًا لا يُناقش.

نزلت هذه السورة، وسُميت بالنور، لا على سبيل التسمية العارضة، ولكن لما وُضع فيها من مصابيح البيان، ومشاعل التوضيح، وكأنها مصباح أُوقد من زيت مبارك، يكاد ضوؤه يضيء ولو لم تمسسه نار، تنكشف فيه الحقائق كما تنكشف الأشياء حين يسطع ضوء النهار.

افتتحت السورة بآية كأنها باب عظيم لفهم ما يجيء بعدها:

{ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}،

وما أجدرنا أن نتوقف عند هذا التفريق البديع بين "أنزلناها" و"فرضناها". فقد ينزل الوحي إلى قلب النبي، صلوات الله عليه، فلا يتلوه حتى يُملي عليه جبريل، وما أكثر ما أنزل في صدره، ولم يُفرض. أما الفرض فهو تلاوتها على الناس، وبيانها لهم، فتصبح عندئذ نورًا اشتعل ليُبصر به السائرون في طريق الله.

ولم يُختم هذا الإعلان الجليل بوعد ولا وعيد، بل بشيء أدقّ من هذا كله: {لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}. فكأنّ كل هذا النور، وكل هذا الفرض، إنما هو دعوة للتذكّر؛ لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد. والتذكّر هاهنا ليس مجرّد الحفظ ولا العلم، بل هو تذكّر الأصل، والعودة إلى الطهر الأول، يوم كانت النفوس بيضاء، قبل أن تُكدّرها الظنون، وتُعفّنها الريبة، وتُضللها الشهوات.

وها هو النور، وقد انبثق من أول السورة، لا يسير في درب المجاز، ولا يكتفي بالإيماء، بل يسلك طريق البيان الذي لا يُبقي للهوى موضعًا، ولا يدع للشهوة معذرًا: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ}،

الزنا! ما أدراك ما الزنا؟ تلك الخطيئة التي لا تقع في جسدين وحسب، بل تقع في المجتمع كله، فتهزّ بناء الأسرة، وتنقض ثقة القلوب، وتفتح أبوابًا للريبة، لا تُغلقها الأقوال العذبة ولا الأعذار المهترئة. ولهذا جاء الحكم قاسيًا، نعم، ولكنه العدل، والعدل إذا لم يقسُ حين يفسد الناس، فمتى يقسو؟

{وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}

هنا يتجلّى الفرق بين الرحمة التي تُبنى على الحق، والرأفة التي تُبنى على ضعف الهوى. فالرأفة التي تُعطّل الحدود، وتُخرس الشهادة، ليست من الإيمان، وإنما هي عاطفة عاجزة، تخون الله والرسول والمؤمنين.

{وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}

ما أعجب هذا الخاتم: وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين، فليست الحدود حُكمًا يُنفّذ في الخفاء، بل هي درسٌ جماعي، وتربيةٌ جماعية، وصرخة نورٍ في وجه الظلمة. لا انتقام هنا، ولا تشفٍّ، بل إصلاحٌ، وردع، وإنذار.

{الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً. وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ. وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}.

فالمشرك والزاني قد اجتمعا، وإن اختلفت أسماؤهما، في انتقاض العهد، وخرق الميثاق، وتمزيق ستار الحياء. وهنا لا يكتفي القرآن بالتحذير، بل يُعلنها كلمةً لا لبس فيها: {وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}. فالنكاح في الإسلام ليس عقد لذة، ولا سوق تبادل، بل هو ميثاق غليظ، لا يُعقد إلا على طهر، ولا يُبرم إلا على تقوى.

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}.

والآن تنصرف السورة إلى جرمٍ لا يقل نكارة عن الزنا، بل قد يكون في بعض وجوهه أشنع منه، وهو القذف. أن تُتهم المرأة في عرضها، أو يُرمي الرجل في شرفه، بغير بيّنةٍ، ولا حجةٍ، ولا أربعةٍ من الشهداء، فذلك هو الفجور في القول، والفسق في العمل، والعدوان الذي لا يُغتفر.

فما أكرم الله هذا العرض، وما أعزّ هذا الحياء، حتى جعل القذفَ جرماً يُجلد صاحبه، ويُطرَح صدقه إلى الأبد، ويُوسَم بالفسق، وإن لم يرتكب زناً ولا سرقة، ولا قتلًا.

لأن الكلمة في الإسلام ليست هواءً يُطلق، وإنما هي ميزانٌ تُوزن به القلوب، وتُعرف به النيات، وتُبنى به المجتمعات.

فمن رمى محصنةً، والمحصنة هنا ليست المرأة الطاهرة جسدًا فقط، بل الطاهرة قلبًا، المعروفة بالعفاف، فقد هدم جدار الثقة، وسكَب الشكَّ في قلوب المؤمنين، وهزّ بنيان الأسرة، وبذر الريبة بين الناس. وما أعظم ما يقترف المرء حين يستحلّ ذلك باسم الغيرة، أو الدعابة، أو الظنّ!

{إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

وهكذا، لا يلبث القرآن أن يفتح باب الرجاء بعد أن أطبق على الجريمة بأشدّ العقوبة، فيذكّر العاصي بأن الطريق إلى الله لا تُغلق، وإن عظُم الذنب، ولا تنقطع، وإن طال الغيّ.

فمن قذف، ثم تاب، ومن افترى، ثم أصلح، فإن الله لم يُعجِزْه ذنبُه، ولم يُبعده إثمه، إنما يغفر ويرحم، إذا رجع إليه العبد نادمًا، وأقلع عن القبيح، وصدّق التوبة بإصلاحٍ ظاهرٍ يصدّقه القلب والعمل.

فالإصلاح هنا شرطٌ لا يُغفل، إذ ليس التوبة قولًا يُقال، ولا اعتذارًا يُتلفّظ به، بل هي انقلاب في النفس، وتحولٌ في الطريق، وردٌّ لما فسد، وتعويضٌ عمّا ضاع.

والغفران في القرآن ليس غفلة، بل هو رحمة بعد عدل، وصفحٌ بعد حساب، وفرجٌ بعد توبةٍ تُجلي الصدأ عن القلب، وتُعيد إلى المؤمن كرامته بين الناس وربه.

ثم يتوالى البيان، ويأتي التنوير تباعاً: فإذا نحن ننتقل من هذه الأحكام إلى واقعة الإفك، فنرى النور أشد ظهورًا، نراه يكشف الكذب، ويفضح الريبة، ويؤدب ألسنةً

أطلقتها الفتنة، وأفواهًا لاكت عرض رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأحب الناس إليه. ما أعجب هذا البيان الذي تأخر، حتى أظلمت القلوب، ثم نزل، فأزاح الغشاوة، وغسل العار عن الطاهرة المبرأة:

{إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُو بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

هنا، أيها القارئ الكريم، نبلغ ذروة السورة، وقلبها النابض، وموضع البيان الذي انتظره الناس أيامًا، بل كأنهم انتظروه دهرًا.

ثم نرى كيف يُضيء هذا النور حتى يكشف زيف الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين، ويُبدي كيف يُطمس على البصائر شيئًا فشيئًا، حتى يألف القلب المنكر، ويزهد في المعروف:

{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ}.

وهنا، يبلغ التأديب مداه، وتُسلّ سيوف الوعيد في وجه من لم يصنعوا الإفك، ولكن أحبّوا له أن يُشاع، وتلذذوا بانبساط الحديث، وراقهم أن تسري الفاحشة في كلام الناس كما تسري النار في الهشيم.

فهؤلاء، وإن لم ينطقوا بها أولًا، قد حملوها على ألسنتهم، وتلذذوا بتناقلها، وتواطؤوا على نشرها، وكان فعلهم عند الله عظيمًا.

فالقرآن لا يُعاقب على الفعل الظاهر فحسب، بل ينفذ إلى النية، إلى "الذين يُحبّون" إشاعة الفاحشة، وكأن الحبّ وحده – وإن لم ينطق به اللسان – إثمٌ يوجب العذاب، لأن الحب هو مبدأ القول، وهو الغرض المستتر خلف كل حديث يُقال بزينة، وهو السمّ المذاب في كأس المجاملة.

ثم تأتي الآية التي تهزّ القلب هزًّا:

{وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}

يا لرحمة الله! لولاها لهلك القوم، ولأخذهم العدل أخذًا، ولما بقي بينهم من هو أهل لأن يُطهَّر أو يُعذر.

لكن الله رؤوف، يعرف ضعف النفوس، ويسدل على الزلل ستره، ويهب التوبة بابًا مفتوحًا لمن وعى واتّعظ:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}.

وكأن ما جرى من حادثة الإفك، وما تبعها من الشائعات والقول بلا علم، كلّها كانت من "خُطُوات الشيطان"، يُزيّن أولها، ويهون ثانيها، حتى يقع العبد في الكبيرة وهو يحسب أنه على خير.

فالسورة هنا تعلّم المؤمن أن كل زلّة تبدأ بخطوة صغيرة، وأن الوعي اليقظ هو الذي يقطع الطريق على الشيطان في بدايته، لا في نهايته.

وتختم هذه الآية بمبدأ عظيم:

{وَلَوْلا فَضْلُ اللّهَّ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللّهَّ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

فالطُهر ليس بلسان الناس، ولا بسُمعة تُشاع، وإنما بتزكية من الله، ومغفرة منه، ورحمة يصبّها على من يشاء من عباده.

وتأتي الآيات تترى، تُهذب العاطفة، وتؤدب الانتقام، كما في عتاب الله لأبي بكر، إذ أقسم أن يمنع عن قريب له صدقته، لأنه كان من الخائضين في الإفك، فإذا بالقرآن يقول له: {أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللّهُ لَكُمْ}، فأي نور هذا الذي ينزل على القلوب فيجعلها تعفو وتصفح، وتؤثر الآخرة على الدنيا؟

ثم يتدرج النور، فيُضيء الألسنة والأيدي والأرجل التي تشهد على الإنسان يوم القيامة، ويبين أن لكل امرئ ما يناسبه:

{الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ، وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ. وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ، وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ. أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ، لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}.

وتُوضع آداب الدخول في البيوت، وتُراعى الأنفس التي فيها، ثم تُفصّل نظرات العيون، وزينة النساء، وحدود الاحتكاك المشروع بين الرجال والنساء، كل ذلك ليكون المجتمع طاهرًا، مضيئًا، لا ظلمة فيه ولا ريبة.

ثم ليس من العبث أن يقول الله – جلّ وعلا:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا...} [النور: ٢٧]

وليس من السهو – كما زعم الزاعمون ووسوس الموسوسون – أن تُكتب الكلمة "تستأنسوا" بدلاً من "تستأذنوا". فإنك لتعجب من أولئك الذين لا يكادون يفقهون من لسان العرب شيئاً، ثم هم يتطاولون على كتاب أنزله الله بلسان عربيّ مبين، فيه من البيان ما يخرس ألسنة المعترضين لو أنهم عقلوا.

فما بالهم يظنون أن في هذه الكلمة خطأ؟

وما بالهم يزعمون أن الكاتب – حاشاه – قد سهى؟

كلا! بل الحق أن الكلمة جاءت في موضعها، حيث لا يحسن غيرها، ولا يقوم مقامها سواها. فالاستئناس ليس مجرد استئذان، بل هو أرفع وأعمق، هو حال من السكينة والألفة، حال من إيناس النفوس بعضها بعضًا، وذهاب الوحشة التي قد تعتري الداخل كما تعتري صاحب الدار.

والناس – كما تعلم – يخرجون من أعمالهم كما يخرج الجند من ثكناتهم. هذا موظف في سلطة، وذاك ضابط في جيش، وثالث يدير مؤسّسة، وكلهم قد تعوّدوا الجدية والصرامة، وقد تَكْسر طباعَهم الأوامرُ والنواهي، وتطبع وجوههم الكلمةُ الخشنة والنظرة الحادّة. فإذا رجع أحدهم إلى بيته، أو قصد بيتًا غير بيته، فما الذي يمنعه من أن يحمل تلك الصرامة معه؟ وما الذي يكفه عن أن يدخل على الناس في بيوتهم كأنه يدخل عليهم في ميدان عمله؟

هنا تتجلّى حكمة القرآن، وهنا تسمو بلاغته، إذ يأمر الداخل إلى بيت غير بيته ألا يقتحم الأبواب وهو بعدُ على حالته المتوحشة، بل أن يتأنّى، أن يهدأ، أن يتلطف، حتى تستأنس نفسه، وحتى تستأنس به الأنفس. فهو لا يُطلب منه الإذن فحسب، بل يُطلب

منه الإيناس، يُطلب منه أن يدخل وقلبه ساكن، ووجهه باش، ولسانه لطيف، ومشيته وادعة، لا أن يدخل وفيه بقايا السلطان أو طيف الكبرياء.

ولو كانت الآية كما زعموا: "حتى تستأذنوا"، لكان ذلك أمراً عادياً، يليق بعامة الناس. لكنّ القرآن أراد تهذيب القلوب، لا مجرد تنظيم الحركات، وأراد إصلاح الداخل، لا الإشارة إلى الباب فقط.

فالاستئناس، إذًا، ليس إذنًا يُنتظر، بل استعدادٌ في النفس لأن تكون محبوبةً مقبولةً، أليفةً مألوفة. ومنه الأنِسة – كما يقول أهل اللغة – تلك الفتاة الطيبة النفس، الحسنة الحديث، التي إذا حضرت أنِس المجلس بها، وإذا تكلمت رقّ السمع لكلامها.

فانظر كيف يجعل القرآن من لحظة الدخول إلى بيت الغير امتحانًا للأخلاق، ومقامًا من مقامات تهذيب الطبع، لا مجرد إجراء اجتماعي.

ذلك هو القرآن، لا يكتفي بظاهر الأفعال، بل يتوغل في النفس يتعهدها، ويهذبها، ويأخذ بيدها من التوحش إلى الأنس، ومن الجفاء إلى الرفق، ومن الصرامة إلى البشاشة.

فلا تعجب بعد هذا، ولا تستغرب، أن قال الله: {حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا}، ولم يقل: "حتى تستأذنوا".

ويأتي الزواج، فيُعرض لا كمتعة، بل كتحصين، ويُراعى فيه الفقراء، ويُحذر من استغلال الإماء في البغاء، ثم، في قلب السورة، تتلألأ الآية العظيمة، حيث تظن أن القارئ قد تاه، أو ضاع في تفاصيل الأحكام، أو غرق في فروع القصة، إذا بالقرآن يضع يده على القلب، فيصعقك بهذه الآية العجيبة:

{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ، يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ، زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ}

ولا أدري، أهي آية من القرآن، أم هي نور من نور الله، قد تقمص حروفًا، فصار كلامًا يتلى؟ إنها آية لا تُقرأ، وإنما تُشرب، لا تُحفظ، وإنما تُذاق.

وما أظن هذه الآية نزلت في هذا الموضع إلا لتكون هي السراج الذي تستضيء به الآيات قبلها وبعدها. كأن الله جل جلاله وضع مصباحاً في منتصف الحجرة، لا ليُرى، ولكن ليُريك. نورٌ لا يُمسّ، ولكنه يمسّ القلوب، ويبدد الحيرة.

ثم إذا نظرت إلى ما بعدها، رأيت النور يتفرّع، ويتوزّع، ويُنظّم حركة الناس، يدخل معهم المؤسسات، والشركات، والبيوت، وينظم لهم طريقة النظر، وطريقة المشي، وطريقة الحديث، وكأن النور الذي بدأ شرعيًا فقهيًا، وانفجر معنويًا في آية النور، قد عاد اجتماعيًا سلوكيًا، يهذّب العادات، ويقوّم الأخلاق.

فانظر إلى قوله تعالى: {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ}، ثم: {وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ}، فتراه قد فرض على العين حجابًا، كما فرض على الجسد ثوبًا. وقد أحسن القرآن في هذا، فما أحوج المجتمعات إلى حجاب العيون، قبل حجاب الرؤوس! لأن الفتنة تبدأ من نظرة، والنظرة تنبت خيالًا، والخيال يصير رغبة، والرغبة تصير فعلًا، ثم تقع الفاحشة التي نهت عنها أول السورة. فكأن غض البصر هو سياج النور.

وتمضي السورة، فيزيدها النور بيانًا، فتحدثنا عن دخول المباني غير المسكونة، كالمؤسسات والشركات والوزرات، وتعلمنا كيف نطرق الباب، وكيف نغض الطرف. ثم تزجر من يُكرِهون فتياتهم على البغاء، وتنبهنا أن الله يرى، وأن الأيدي تشهد، والألسنة تنطق، والأرجل تمشي بالحق أو الباطل، وأن الناس صنفان: طيبون للطيبات، وخبيثون للخبيثات.

وما تزال الآيات تتتابع، لا لتزيد في الفقه، وإنما لتزيد في النور. وما تزال تفسر لنا أن النور لا ينحصر في المسجد، ولا في الحجاب، ولا في الحدود، ولكنه شُعاعٌ واحد، يشمل الدين كله، والحياة كلها.

وهكذا تُختتم السورة، والنور قد ملأ المكان، والنفس، والمجتمع، كما تشرق الشمس، فتُبصر العين كل شيء، لا لغموضٍ قد زال، ولكن لنور قد جاء.

كذلك أراد الله أن تكون سورة النور نورًا يهتدي به المؤمنون، ويُكفّ بضيائه أولئك الذين يتخبّطون في ظلمات الكفر والمكر والخداع. ولكن، كيف يتجلى النور، إن لم تُبسط له الظلمة جناحيها؟ وكيف نُبصر شعاع الهدى إن لم نختبر ضياع الحائرين؟

انظر إلى الآية التاسعة والثلاثين، وتأمل كيف صور الله الكافر حين يتكلف العمل، ويجهد نفسه، ويحسب أنه على شيء، فإذا هو بعد طول الجهد، وسعة السعي، وتراكم الأيام، قد بلغ سرابًا لا ماء فيه، وظلاً لا شجر تحته:

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}.

إنه يرى أعماله، فيفرح، ويطمئن، ثم يُفجَع، فإذا هي لا شيء. وأي ظلمة أشد من ظلمة السراب؟ وأي عذاب أوجع من خيبة الأمل بعد طول الرجاء؟

ثم تمضي الآيات، فإذا بالكافر لا يسقط في خيبة واحدة، بل في خيبات، لا في ظلمة واحدة، بل ظلمات بعضها فوق بعض، موج يتراكب على موج، وسحاب يغمر، وظلمة تُظلم فوقها ظلمة:

{أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ}.

أفلا تراه في بحر لُجِّيٍّ قد انقطع فيه النور، وضلّت فيه البصيرة؟ وإذا مدّ يده لم يكد يراها، فقد انطفأ النور من حوله، ثم انطفأ في قلبه، ثم انطفأ فيه كل شيء. هنالك لم يعد الليل مجرد ليل، بل صار الليل قلبًا، وصار القلب قبرًا، وصار القبر صمتًا لا يبعث بعده رجاء.

ثم يجيء النور من حيث لا يحتسب الناس، يجيء من تلك الطيور التي تحلق في السماء، وتغدو وتروح، وتغني وتُسبّح. فهل رأيت، من قبل طيرًا ينافق؟ أو سمكة تكذب؟ أو شجرة تُجادل في أمر ربها؟ ولكن الإنسان وحده هو الذي يلبس النور والظلمة في لحظة واحدة، يتزين بالإيمان ويخفي الكفر، يُظهر الطاعة ويبطن المكر. أما المخلوقات كلها، من

فوقها الطير، ومن تحتها ما يدبّ، فإنها تسبّح بحمد ربها، وتعرف سبيلها، وتمضي على هُداها، وإن لم تفقه تسبيحها:

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُّ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ}.

ثم تأمل، ذلك الماء، الذي يسقي الله به الأرض، ويحيي به الموات، وتنتفع به العقول كما تنتفع به الحقول. إن هذا الماء، في ظاهر أمره، نعمة تنزل من السماء، ولكن، في باطنه، تذكير بأن الله يختار من عباده من يُصيبهم بنوره، كما يُصيب بالمطر من يشاء، ويصرفه عمن يشاء. فليس كل قلب مهيأ لتلقي النور، كما ليس كل وادٍ مهيأ لتلقي السيل:

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ يُزْجِي سَحَابًا، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا، فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ؛ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ}.

وانظر، كيف يُعيد الله تأملنا إلى أصل الحياة، إلى الماء، الذي خلق منه الدواب كلها، ولكنها لم تكن سواء، فمنها من يمشي على بطنه، ومنها من يمشي على رجلين، ومنها على أربع. فهل كان أصل الخلق واحدًا؟ نعم. ولكن الفضل مختلف، والعقل متفاوت، والاستجابة للنور درجات. وهكذا الناس: سمعوا جميعًا القرآن، ولكنهم لم يحملوه على سواء. منهم من استضاء به قلبه، ومنهم من احترقت به شهوته، ومنهم من رآه كأنما هو نار تُضيء لغيره وتُحرقه هو:

{وَاللهُّ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء، فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ اللهُّ مَا يَشَاء إِنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

ثم تجيء الفضيحة الكبرى: نفاق أولئك الذين لا يستقر لهم حال، ولا تثبت لهم قدم، ولا يهدأ لهم ضمير. يأتون إلى النبي، إذا صادفهم الحق، فيتلطفون، ويتقربون، ويلتمسون الحكم. فإذا كان الحق عليهم، انقلبوا، وجحدوا، وظنوا بربهم ظن السوء. فهل النور إلا في التسليم؟ وهل الظلمة إلا في الريبة؟ لقد ظنوا أن الله يظلمهم، وهم الظالمون. ظنوا أن

الشريعة تُفرّق ولا تُنير، وهم الذين طمس الله على قلوبهم، فجعلها كالأبصار التي لا تُبصر، والآذان التي لا تسمع، والقلوب التي لا تفقه:

{وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ. وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ. وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ. أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.

هكذا ما يزال النور ينكشف، وما تزال الظلمات تتقشّع، وما تزال سورة النور تمضي في بيانها، وتقدّم هذا الفرقان بين الصادق والمنافق، بين من استنار قلبه، ومن أظلمت عليه المسالك. فإذا بالكلام، بعد أن كشف ظلمة أولئك الذين مردوا على النفاق، ينتقل في الآية الحادية والخمسين إلى المؤمنين، أولئك الذين لم يجعلوا بين النور وقلوبهم حجابًا، بل جعلوا من أوامر الله موطئًا لأقدامهم، ومن سنة رسوله قِبلةً لقلوبهم:

{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

وهنا، تجد الفرق كما يُرى الفرق بين الليل والنهار، بين من يُجادل في النور، ومن يُسلم له، بين من يُراوغ في الضياء، ومن يُقبل عليه بكليته. لذلك لم يكن عجبًا أن يَعِدَ الله هؤلاء بالاستخلاف في الأرض، وعدًا يجري كما يجري النور في الفجر، خافتًا في البدء، ثم لا يلبث أن يسطع، ويغمر كل شيء:

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}.

ويُمكِّن لهم دينهم، لا كما يُمكَّن للجبابرة بالسيف، ولكن كما يُمكن للمطر حين يُحيي الأرض بعد موتها، وكما يُمكن للنور حين يدخل القلب فلا يعود يخرج. ثم كان من تمام هذا الاستخلاف أن تُقام الصلاة، وتُؤتى الزكاة، لأن التمكين لا يكون بالمال والسلاح، وإنما يكون بالقلوب التي عرفت طريق السجود، والأيدي التي ألفت طريق العطاء:

{وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ، وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.

ثم يمضي البيان، في مشهد دقيق، لا يدركه إلا من أبصر بعين الروح، فينتقل من الحديث عن الأمة إلى الحديث عن البيوت، ومن السياسة إلى الحياء، ومن الاستخلاف إلى انكشاف العورات. فهل ظننت أن النور لا يدخل الغرف؟ أو أن الوحي لا يُنير أوقات الخلوة والراحة؟ إن في الآية الثامنة والخمسين كشفًا جديدًا، ولكن هذه المرة كشف للبدن، لا كشف للقلب، وإن كانا من باب واحد. فثلاثة أوقات، تتخفف فيها الأجساد، وتنكشف فيها العورات، وقد جعلها الله مواقيت للحياء، كما جعل الصلاة مواقيت للذكر:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ: مِن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ، وَمِن بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاء، ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ}.

وهنا، لا بد أن تُدرك ذلك التناسب الدقيق الذي لا يُدركه إلا من آنس حكمة الله في ترتيب الآيات، فآية الاستخلاف (٥٥) تسبق آية دخول المملوك، وكأنها تلمح إلى أن الفتوحات التي تأتي مع التمكين ستُدخِل معها أقوامًا من غير المسلمين في بيوت المؤمنين، فلا بد من نور الهداية أن يُضيء العلاقة بينهم، حتى في لحظة دخول، وحتى في لحظة كشف الثياب.

وليس أمر الاستئذان في تلك الأوقات الثلاثة التي حدّدها القرآن- قبل الفجر، وعند القيلولة، وبعد العشاء- من قبيل العادات أو الآداب المجردة، بل هو أعمق من ذلك وأدق، يدلّ على علم خفيّ بطبيعة النفس الإنسانية وسرّ تكوينها.

فقد جعل الله هذه الساعات مواقيت لاستئذان الصغار والخدم، لأنها ساعات انكشاف لا للجسد وحده، بل للنفس كذلك، إذ هي أوقات تتبدى فيها هشاشة الإنسان، وتنكشف فيها بعض عوراته الخفية، من ضعف أو قلق أو تهيج، أو اضطراب مزاجي أو روحي. في هذه اللحظات يكون القلب أدنى إلى التفتّح للفيوضات أو الفتن، والعقل أقرب إلى الحيرة أو الاستبصار. وهي لحظات تتصل فيها النفس بعالم الغيب كما تتعرض

فيها لهجوم الشهوات والوساوس. ومن ثمّ كانت هذه الأوقات، دون غيرها، هي مواطن الحذر ومواقيت الحياء.

وهذا المعنى الدقيق هو ما أشار إليه بعض الصالحين حين قالوا: إن للصلاة أوقاتًا لم تُفرض جزافًا، وإنما رُتبت على ميزان النفس الباطني، وكأنها مفاتيح لدفع الشر وجلب الرحمة. فكما أن البدن يخضع لإيقاع بيولوجي دقيق، فإن النفس كذلك تسير على وتيرة خفية لا تضبطها إلا السماء. وقد أشار العلماء إلى ما يقابل ذلك في العلم الحديث من دورات في النوم واليقظة، وفي الحرارة والنبض والانفعالات، فكأنّ الإنسان كله، ظاهرًا وباطنًا، يمرّ بأزمات متكررة صغيرة، تتجمع أحيانًا فتغدو أزمات كبرى، وهي ما عبّر عنه القرآن في قوله: {أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ}.

فانكشاف العورات، في جوهره، هو انكشاف داخلي، لا يراه الناس، ولكن يراه الله، وقد يستشعره العبد إذا صفا قلبه أو رقّت بصيرته. ولهذا كان من دعاء النبي، صلى الله عليه وسلم: "اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا".

ثم تأتي الآية الستون، فتنزل بردًا وسلامًا على النساء اللائي عجزن عن الحركة، وخمدت فيهن حرارة الشهوة، فأُذن لهن في وضع بعض الثياب، لا تبرجًا، ولكن تخفيفًا، وما كان ذلك لولا أن الشريعة تعرف سن الإنسان، وتعرف ما يليق به في كل مرحلة من مراحله، ولذلك، قد تكون من لطائف الموافقات أن رقم هذه الآية (٦٠)، كأنما يُشير إلى سن الستين، سِنِّ الرخصة والطمأنينة والسكون:

{وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (النور:٦٠)

ثم يمضي النور ليصل حتى موائد الطعام، فيرفع الله الحرج عن المريض، وعن الأعرج، وعن الأعمى، ويأذن لهم أن يأكلوا من بيوت الأقربين، فلا يكلفهم ما لا طاقة لهم به، ولا يُحرمهم لذة الاجتماع. إن النور لا يترك موضعًا إلا وبلغه، ولا حالة إلا وأنارها. وقد يُخيل

إلى الجاهل أن هذا تفصيل لا حاجة له، ولكنه، في عين المؤمن، لبُّ التنوير، لأن الدين الذي لا يطرق باب المائدة، لن يطرق باب القلب.

ثم تختم السورة، بآيات ثلاث، كأنها الخاتمة بعد النشيد، تبيّن فيها ما بقي من الفرقان بين المؤمنين والمنافقين، وبين من يُطيع في العلن ويعصي في الغيب، وبين من يظن أن الله لا يراه إذا أغلق عليه الباب. فيكشف الله عذر المؤمن، ويردّ على دعوى المنافق، ويُبشّر من صدق، ويحذر من نافق. ثم تختم السورة بتلك الكلمة التي لو عقلها الناس لانكفأت نفوسهم على نفسها، وتطهرت قلوبهم من كل دخن:

{ أَلا إِنَّ للهَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ، وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا، وَاللهَّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} .

هنا المصير، وهنا النور الأكبر، وهنا البيان التام الذي لا يعقبه ظن، ولا تتبعه شبهة.

سـورة الفرقـان

الردّ السماوي على منطق الأرض

إذا أردنا أن ننظر إلى سورة الفرقان نظرةً مجملة، وجدناها من السور القصار في الحجم، إذ لا تتجاوز صفحاتٍ معدودة في المصحف، لكنها على قِصَرها تكاد تعرض خلاصة الدعوة الإسلامية، ودعوات الرسل السابقين، عرضًا موجزًا واضحًا. فمن قرأ هذه السورة قراءة متأنية، رأى فيها تعاليم الإسلام الكبرى، ورأى فيها ما أثاره خصوم الدعوة من الشبهات والاعتراضات، فكأن السورة صورة مكثفة للصراع بين الكفر والإيمان.

تبدأ السورة بتقرير الغاية من نزول القرآن وظهور هذه الدعوة الجديدة، فهو كتاب أُنزل ليكون للعالمين نذيرًا، في زمن اضطربت فيه عقائد الناس وتفرقت مذاهبهم، ففريقٌ نسب إلى الله الولد، وفريقٌ اتخذ من دونه آلهةً يرجو منها النفع ويدفع بها الضر، حتى كأن الناس قد نسوا معنى التوحيد الذي جاءت به الرسالات.

ثم تمضي السورة فتصور موقف الناس من هذا الرسول الذي جاءهم بالحق؛ فإذا بهم مختلفون فيه أشد الاختلاف. فهذا يقول: إنه ساحر، وذاك يزعم أنه مسحور، وآخرون يدّعون أن ما جاء به أساطير الأولين كتبها واستعان عليها بغيره. وبعضهم يعترض قائلًا: لو كان هذا القرآن حقًا فلماذا لم ينزل جملةً واحدة؟

وما كادوا يفرغون من الطعن في الرسالة حتى انتقلوا إلى الطعن في المرسَل، فقالوا: كيف يكون رسولًا وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ ولماذا لم تُرسل معه الملائكة تؤيده وتحرسه؟ ولماذا لا يملك كنوزًا أو جنات يأكل منها فلا يحتاج إلى أن يطلب الرزق في الأسواق كما يطلبه الناس؟

ثم يبلغ بهم العنت حدًّا أبعد، فيقولون: لن نؤمن حتى نرى ربنا، أو نرى الملائكة تنزل أمام أعيننا. وهكذا تتوالى الاعتراضات، لا يجمعها نظام، ولا يقوم أكثرها على حجة، وإنما هي جدل يتكاثر بعضه فوق بعض.

وترد السورة على هذا كله ردًّا موجزًا حاسمًا، فهذه الاعتراضات في حقيقتها لا تنشأ من نقدٍ صادق للرسالة ولا من نظر في شخصية الرسول، إنما تنشأ من أصلٍ واحد: هو إنكارهم للآخرة. وقد عبر القرآن عن ذلك تعبيرًا قاطعًا حين قال: {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ}.

ثم تنقل السورة القارئ إلى مشهد من مشاهد القيامة، حيث يُحشر هؤلاء الذين أشركوا مع ما عبدوا من دون الله، فيتبرأ المعبودون من عابديهم، ويقف الظالم حائرًا نادمًا يعضّ على يديه، متمنيًا لو أنه سلك طريق الرسول ولم يتخذ من أضله خليلاً. وهنا تلمح السورة إلى حقيقة تتكرر في تاريخ الدعوات: فما من نبيٍ يأتي قومه بالحق إلا قام في وجهه مجرمون يخاصمونه ويختلقون عليه التهم.

ومن هنا تنتقل السورة انتقالًا سريعًا إلى صفحات من تاريخ الرسالات السابقة. فتذكر موسى حين أُرسل ومعه أخوه هارون إلى فرعون المتجبر، وتذكر نوحًا حين كذب قومه فكان عاقبتهم الغرق، ثم تشير إشاراتٍ خاطفة إلى عاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط الذين أمطروا بالحجارة، وكأنها تقول إن طريق الرسالة واحد، وإن مصير المكذبين يكاد يكون واحدًا كذلك.

ثم تلتفت السورة إلى الكون وما فيه من آيات الله الظاهرة، فتذكر الظل الذي جعله الله راحة للناس من وهج الشمس، وتذكر الليل الذي يسكن فيه الخلق، والنهار الذي يخرجون فيه لطلب المعاش، وتعاقب الليل والنهار لمن أراد أن الذكر أو الشكر. وتذكر الرياح التي تبشر بالمطر، والماء الطهور الذي يحيي الأرض بعد موتها ويشرب منه الأحياء. وتذكر البحرين، أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج، وبينهما حاجز يمنع أن يطغى أحدهما على الآخر، ليبقى نظام الحياة قائمًا.

وأخيرًا تختم السورة بوصايا كأنها خلاصة السلوك الذي يريده الله لعباده. فتصف عباد الرحمن بصفاتٍ تجمع بين التواضع والعبادة والاستقامة: فهم يمشون على الأرض هينين لا يعرفون الكبر، وإذا خاطبهم الجاهلون أجابوا بقولٍ فيه سلام. وهم يحيون ليلهم في الصلاة والدعاء، ويسألون ربهم أن يقيهم عذاب جهنم. وهم في إنفاقهم وسطٌ بين الإسراف والتقتير، لا يعتدون على الدماء، ولا يقعون في الشرك أو الفواحش كالزنا، ولا

يشهدون الزور، ولا يخوضون في مجالس اللغو. وإذا ذُكِّروا بآيات ربهم أصغوا إليها بقلوب واعية، وهم كذلك يكثرون الدعاء أن يصلح الله لهم أزواجهم وذرياتهم.

وهكذا إذ تقرأ سورة الفرقان تجد نفسك كأنك في مجلس خصومة، خُصومة لا بين أفراد، بل بين منطقين، بين الحق حين يصفو، والباطل حين يتزين. تَرى فيها الضلالةَ وهي تتزين بأمثلة تظنها لوهلة محكمة، فإذا هي، عند التفكر والتدبر، عارية من الحجة، خاوية من الدليل، تتهاوى تحت نور الفرقان كما يتهاوى السراب حين تمسّه اليد.

إنها سورةٌ تُجلي الحقيقة بمنطق قويٍّ وحجة بالغة، كما تُظهر ضلال أولئك الذين أعموا أبصارهم عن آيات الله، فلم يروا فيها إلا أساطير الأولين وأوهام الضالين.

سـورة الشـعراء

الأمانة مع النفس ومع الغير

سورة الشعراء تدور حول صفات الشعراء وصفات الأنبياء، فالأنبياء يتصفون بالصدق والعقلانية والمنطق، بخلاف الشعراء الذين يتصفون بالكذب واللعب بالعواطف والابتعاد عن المنطق، وهذا هو الفرق بين الأنبياء وبين الشعراء. وكذلك هذا هو الفرق بين القرآن وبين الشعر، فالقرآن كتاب عقل ومنطق لا يدغدغ العواطف والمشاعر ولا يبعد عن العقل والمنطق، إنما هو كتاب صدق يخاطب العقل والضمير.

كذلك نجد أن ردود جميع الأنبياء على أقوامهم في هذه السورة كانت: {إني لكم رسول أمين}، يعني أمين في قولي، وأمين مع نفسي، أقول الحق والصدق ولا يهم إن كان يوافق هواكم أو لا يوافقه. فنجد أن نوحًا قال: {إني لكم رسول أمين}، وهود قال: {إني لكم رسول أمين}، وصالح قال: {إني لكم رسول أمين}، وكذلك لوط قال: {إني لكم رسول أمين}، وشعيب قال: {إني لكم رسول أمين}.

إذن كل الأنبياء في هذه السورة يركزون على اتصافهم بالأمانة والصدق في القول والعمل، وهذا بخلاف الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون، وفي كل وادٍ يهيمون. كذلك فإن الأنبياء لا يتبعهم إلا الصادقون الذين يخلو قلبهم من الغواية، أما الغاوون فإنما يناسبهم كلام الشعراء وليس كلام الأنبياء.

والقرآن كلام أمين فيما يخبر به، وأمين فيما يقول؛ لأنه نزل به الروح الأمين من عند رب العالمين، وهذا خلاف الشعر الذي تنزلت به الشياطين على قلوب الشعراء. فناسب هنا أن يذكر أن جبريل يتصف بالأمانة أيضًا، فقال: {نزل به الروح الأمين} يعني جبريل، وهو مثل كل الأنبياء الذين كانوا يقولون: "إني لكم رسول أمين".

ثم انظر إلى موسى، ذاك النبي الذي لم يختبئ وراء العذر، ولم يتوارَ عن ماضٍ كان فيه ضالًا، بل قالها صريحة أمام ربّه: {ولهم عليّ ذنبٌ}، وقالها أمام فرعون الجبار: {فعلتها إذًا

وأنا من الضالين}، وهل الأمانة إلا هذا؟ أن يعترف الإنسان بخطئه، لا أن يواريه، أو يداريه، ولا أن يجعل من النسيان مخرجًا، ومن الكذب سترًا؟

وانظر إلى سحرة فرعون، كيف كانوا في أول النهار أدوات في يد الطغيان، ثم ما لبثوا أن صاروا شهداء الصدق في آخره. فما إن رأوا الحق بأعينهم حتى سجدوا له، وقالوا: {آمنا برب العالمين}. هؤلاء كانوا أمناء مع أنفسهم، فلما عرفوا النور لم يختاروا الظلمة، ولم تؤثر عندهم المناصب والتهديدات.

وانظر إلى إبراهيم – ذلك القلب الموصول بالله – كيف قال: {إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَّ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}. وهل الأمانة إلا هذا الصدق مع النفس، وهذا الطموح إلى مقام يكون فيه الحديث عنك حديث صدق، لا تزييف فيه ولا دعوى؟

وانظر أولئك الذين خانوا الأمانة، قوم صالح حين عقروا الناقة بعد أن تعاهدوا، بأن لها شرب يوم معلوم. وقوم شعيب حين طغوا في الميزان، فعلوا ما فعلوا لأنهم فقدوا الأمانة، فصار الكذب لهم عادة، والغش لهم ديدنًا، والخيانة لهم خلقًا.

وهكذا، نرى أن محور سورة الشعراء هو الأمانة، وليس الأمانة في ظاهر القول فحسب، بل في أعماق النفس، في اختيار الكلمة، في مواجهة النفس، في مقاومة الهوى، في الثبات على الصدق، مهما جرَّ من الندم، ومهما جلب من الألم، فالأمانة هي الحق الذي لا يتلون، والصدق الذي لا يخاف.

وهذا هو الفرق بين نبيٍّ صادقٍ وشاعرٍ كاذب، بين وحيٍ نزل به روحٌ أمين، وهمسٍ تنزلت به الشياطين. لذلك تكررت كلمة {إني لكم رسول أمين}؟

لذلك لو قرأتَ سورة الشعراء بقلبٍ سليم، لوجدتَها تفتح لك بابًا من أعمق أبواب النفس البشرية، وتكشف لك عن خيانةٍ خفيّة، لا يطّلع عليها إلا من أنار الله بصيرته: خيانة الإنسان لنفسه. هؤلاء المشركون لم يُعرضوا عن الحق لأنهم جهلوا، بل أعرضوا عنه لأنهم عرفوه وكرهوه.

ها هو النبي، صلوات الله عليه، يتلو عليهم هذا القرآن بلسانهم الذي يعرفونه، ويُفصّل لهم الآيات تفصيلاً، فما يكون منهم إلا أن يقولوا: "هو من عنده، لأنه عربيٌّ مثلنا، يجيد البيان!"

ولكن لو نزل هذا القرآن على رجلٍ أعجمي، لا يعرف من العربية حرفًا، ثم أُمر أن يقرأه كما هو: عربيًّا مبينًا، ما آمنوا به كذلك: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ؛ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ}.

لا يكفيهم أن يكون الكلام حقًّا، ولا أن يكون الرسول نبيًّا، ولا أن تكون اللغة مفهومة، إنما يريدون أن يفرّوا من التصديق كيفما اتفق. ولو جُعل القرآن بلغة أعجمية، لجعلوا من ذلك سبيلاً إلى الطعن، ولقالوا ساخرين: {لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ؟!}.

فما كان جحودهم عن ضعف حُجّة، بل عن ضعف أمانة. خانوا أنفسهم، لأنهم لم يريدوا أن يصدّقوا مهما وُضّحت لهم الدلائل. وما خيانة مشركي مكة لأنفسهم -وهم يَرَون الحق ويكذبونه- إلا وجهٌ من وجوهٍ كثيرة ظهرت في تاريخ البشر، وقد عرضت سورة الشعراء هذه الوجوه عرضًا معجزًا، يُريك الناس في كل عصرٍ ومصر، كيف يُسلمون قيادهم لأهوائهم، ويُسكتون صوت ضمائرهم، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم لم يُرزقوا آيةً كافية، أو لم يأتهم رسولٌ ببرهانٍ مبين.

فانظر إلى قوم نوح: لبث فيهم نبيّهم ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا، فما نقصهم في البلاغ، ولا قصر في النصح، وما وُجد فيهم رجلٌ أمينٌ مع نفسه يقول: "هذا رجلٌ صادق، لا يريد لنا إلا الخير". بل كذّبوه، وسخروا منه، وأعرضوا عن دعوته، فخانوا أنفسهم كما خانوا نبيّهم.

وانظر إلى عاد، قوم هود: أُعطوا قوةً في الأرض، ورفعة في البنيان، حتى قالوا: "من أشدّ منا قوة؟" فجاءهم النبي يُذكّرهم بما أنعم الله عليهم، ويأمرهم بالعدل والإيمان، فما زادهم ذلك إلا استكبارًا. لم تكن مشكلتهم في قلة البيان، ولا في خفاء الدعوة، وإنما كانت في النفوس الخائنة، التي تأبى أن تصدّق كي لا تلتزم، وتكره أن تؤمن كي لا تُحاسب.

وكذلك ثمود، قوم صالح: جاءهم بالآية العظيمة، الناقة التي لا يدفعها إلا مكابر، فعقروها وتمادوا في الطغيان، لا لأنهم لم يعقلوا، بل لأنهم أبوا أن يُصغوا لما عقلوا. ومن أضلّ من قومٍ يُدركون الحقّ ثم يطوونه تحت أقدامهم؟

ثم لوط، ذاك النبي الطاهر، وقف بينهم يناديهم بالحياء والعفّة، فما وجد منهم إلا نُكرانًا وتهديدًا بالإخراج والتشريد. كأن الحق حين يُزعجهم، يُغريهم أن يطردوه، بدل أن يُصلحوا حالهم على نوره.

وانظر أصحاب الأيكة، قوم شعيب، وما كانوا أقل خيانة من غيرهم. دعاهم نبيّهم إلى القسط في الميزان، والنزاهة في التجارة، وهم يعرفون أن ما يدعو إليه هو الصدق والعدل، لكنهم كرهوا أن يُطالبوا بأمانةٍ ضيّعوها، فاتهموه بالسحر، وطالبوه بآيةٍ من السماء، فإن جاءتهم، كفروا بها أيضًا.

وكل هؤلاء ما نقصهم الدليل، ولا عوَزهم البيان، ولكنهم خانوا أنفسهم، فكذبوا وهم يعلمون، وجحدوا وهم يوقنون. تلك إذًا هي العلّة التي تكشفها سورة الشعراء في كل مشهدٍ من مشاهدها: أن الإنسان، إذا لم يكن أمينًا مع نفسه، فلن ينفعه نبيّ، ولن تهديه آية، ولو تنزّلت عليه من السماء.

وإن أردتَ شاهداً من عصرنا، فانظر فيمن ينكرون هدي الإسلام اليوم، وهم يعلمون أنه الحق، ويكذبون القرآن، وهم في قلوبهم يوقنون أنه لا يُضاهى. تراهم يُدافعون عن القيم المستوردة، ويتّخذون من الحرية شعارًا، فإذا قيل لهم: "هذه قيمكم تُهلك الأسر، وتُبدّد الأخلاق"، رمقوك بازدراء، وقالوا: "أنتم لا تفهمون الحداثة". هم يعلمون فساد ما يُروّجون، ولكنهم يخونون عقولهم كما خان أولئك قلوبهم، ويُعاندون ما عرفوا كما عاند الأولون ما أبصروا.

فهؤلاء مشركو العصر، وإن لبسوا لبوس العقل، وإن ادّعوا أنهم أبناء الفلسفة والتنوير. خيانتهم ليست للشرع وحده، بل لأنفسهم قبل كل شيء. وقد صدق الله إذ قال: (فإنهم لا يُكذّبونك، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون).

لذلك فإن القرآن يخاطب النبيّ نفسه: (لعلّك باخعٌ نفسك ألا يكونوا مؤمنين). كأن الوحي يقول له: "لا تبتئس، فإنك تُخاطب قومًا لم يخونوا ربهم فقط، بل خانوا أنفسهم قبل ذلك، ومن خان نفسه، لم تُجدِ معه النذر، ولا يُرجى له صلاح".

لذلك لا أجد غرابةً في أن تُسمّى هذه السورة بسورة "الشعراء"، فإنّ الشعر كان وما يزال لسان النفوس حين تضطرب، وأداة العقول حين تحتال، وسلاح الأقوياء إذا أرادوا أن يزيّنوا الباطل، أو يطمسوا ملامح الحق. غير أن الشعر، في هذه السورة، ليس سوى وجهٍ من وجوه ثلاثة؛ تتقابل وتتقاطع، ثم تفترق وقد أبانت عن حقيقتها: الشعر، والسحر، والعلم.

ولقد مضت السورة في تصوير هذا الثالوث تصويرًا بديعًا، فبيّنت كيف يكون الشعر فتنةً حين يُسخّر لتزيين الزيف، وكيف يكون السحر خداعًا حين يُستخدم لترويع العقول، وكيف يكون العلم نقمةً إذا نزعت عنه الأمانة، ونُزع منه الخشوع. وكل أولئك، إنما هم صور من فقدان الأمانة.

أرأيت إلى فرعون كيف بدأ حديثه مع موسى؟

لقد كان هادئًا بادئ الرأي، مستعملًا أدوات العقل، متظاهرًا بالإنصاف. فلما أحسّ بالخطر، تنكر للحجة، وجعل من سلطانه سوطًا، ومن حكمه بطشًا، ومن قومه أداة طغيان. فلم يكن أمينًا مع نفسه، ولا مع الناس؛ إذ كذّب من علم، وخوّن من صدق، واستكبر حين ظهرت له البينة.

وكذلك فعل قوم إبراهيم الذين نكسوا على رؤوسهم حين ضاقوا بالحجة الواضحة، فلم يكونوا أمناء مع انفسهم لا حين نقاشهم العقلاني ولا حين ألقوا به في النار. وتلك خيانة للنفس قبل أن تكون خيانة للحق.

وسورة الشعراء، ما أرادت إلا أن تعرض هذا الصراع الأزليّ بين من استُؤمن على الكلمة فصدَق، ومن جعلها مطيةً لهواه، ومركبًا إلى غايته. فالشعر، إن خالف الحق، فهو

زخرف، وإن وافقه، فهو بيان. والسحر، إن استُخدم لترويع الناس وإضلالهم، فهو خيانة. والعلم، إن لم يُبنَ على خشية الله، فهو جهل وغرور.

أليس الشعراء الذين تصفهم السورة إلا قومًا فقدوا الأمانة؟ يهيمون في كل واد، لا يستقرون على حق، يَخدمون السلطان حيثما أمر، ويَصوغون الكذب في قوالب الحسن، فيخدعون العامة ويخدعون أنفسهم؟ إنهم لم يكونوا شعراء فحسب، بل كانوا ممثلي كل مَن خان الكلمة، من كاتب يزيّن الاستبداد، ومذيع يُضلِّل العقول، وناطق إعلامي يُلبس الباطل لبوسَ الحق.

وهنا تظهر منزلة الأنبياء، أولئك الذين لم يُؤمروا بشيء كما أُمروا بالأمانة. أمناء مع أنفسهم، لا يزيّنونها بما ليس فيها، ولا يتكبرون على الحق إذا ظهر، وأمناء مع الناس، لا يقولون إلا الصدق، ولا يُدلون إلا بالحجة، ولا يسلكون إلا طريق الاستقامة. ما جاءوا بزخرفٍ، ولا بسحر، ولا بعلمٍ يخدم الطغيان. وإنما جاءوا بالقول الفصل، بالحجة البينة، بالرسالة الخالدة التي لا تُخفي وجهها خلف مجاز، ولا تُلبس على السامع أمره.

أرادت السورة أن تضع القارئ أمام الاختيار: بين من يحمل الكلمة على أمانتها، ومن يتخذها بضاعة، يبيع بها ضميره. بين من يتبع النور، ومن يغتر بالبهرج.

فالأنبياء أمناء، لا يخونون الله ولا الناس. والسحرة خائنون، يبيعون عقولهم لمن يدفع أكثر. والشعراء -إن لم يتقوا الله- يصيرون كمن يفتن الناس بالكلام كما يفتنهم السحر بالخدع.

هكذا ترى سورة الشعراء، في جوهرها، ليست عن الشعراء فحسب، بل عن الأمانة كلها: أمانة الكلمة، وأمانة الموقف، وأمانة التبليغ. وهي تدعونا، في كل زمان، أن نتحرّى الصدق، وأن ننأى عن زخرف القول، وأن نكون -قبل كل شيء- أمناء مع أنفسنا.

فمن خان نفسه، خان الناس. ومن خان الناس، خان الله.

كما أن سورة الشعراء تضعنا أمام حقيقة تتكرر في تاريخ الإنسان: أن الهداية لا تكون بمعجزة مادية تُخضع الأعناق قهراً، بل بمعجزة معنوية تلامس القلوب وتوقظ العقول.

إنها آية البيان والحكمة التي تبقى حية نابضة، ما دامت النفوس متعطشة للمعرفة، والعقول متفتحة على النور.

لقد طالب الكفار النبي بآية تثبت صدقه، لكن القرآن رسم منهجًا واضحًا في التعامل مع هذه المطالب. فالمعجزات الحسية وإن أدهشت الأبصار فإنها لا تصل إلى القلوب. أليس الله يقول: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ؟}. لقد شهد الأقدمون آيات بينات كناقة ثمود، فما زادهم ذلك إلا تمردًا، فكانت عاقبتهم عبرة للأجيال.

أما اليوم فأين العقول التي تتأمل آيات الله في الكون؟ {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}؟ أليست الأرض التي تنبت أنواع الثمار معجزة دائمة؟ لكن الإنسان إذا قسا قلبه مرَّ على هذه العجائب وكأنها حجارة لا حياة فيها، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

وتحكي السورة سلسلة من قصص الأنبياء - من نوح إلى موسى، من إبراهيم إلى شعيب - لتكشف عن سنة ثابتة في الصراع بين الحق والباطل. وتبرز قصة موسى مع فرعون كمثال صارخ للطغيان. ألم يكن فرعون يتحكم في وسائل الإعلام، ويستعين بسحرة عصره- وهم علماء ذلك الزمان؟ ألم يتظاهر بالانفتاح الفكري، ثم ما لبث أن ظهر على حقيقته عندما أحس بالخطر؟

عندئذ يلجأ فرعون إلى الحيلة التي طالما استخدمها الطغاة حين تعجزهم الحجة: يتهم موسى بالسحر، وهو الخداع بمنطق العصر الحديث. إنه المنطق الذي يحاول أن يحوّل المعجزة إلى خديعة، فيتهم موسى بأنه مخادع.

إن فرعون لم يكن يبحث عن الحقيقة، بل كان يسعى لإثبات أن موسى ليس إلا ساحرًا، ليبقي على ولاء الشعب له، ويعزز مكانته كحاكم لا يُنازع.

وهنا يظهر بُعدٌ آخر من عبث الساسة والطغاة حين يستغلون الناس ليكونوا شهودًا على باطلهم، يحشدون الجماهير لا بحثًا عن الحق، بل لإثبات الهيمنة والسيطرة. وهكذا

أراد فرعون من يوم الزينة أن يكون يومًا للانتصار السياسي، يجمع فيه الناس ليشهدوا كيف يُذل موسى أمام سحرته.

لكن موسى، الواثق بربه، لم يرفض هذا التحدي، بل قبل به، لأنه يعلم أن النصر للحق، وأن المعجزة الإلهية لن تلبث أن تسطع نورًا يُبطل سحر السحرة. وهنا يتجلى الصراع الحقيقي بين العلم الرباني الذي يهدي ويكشف الحق، والسحر الذي يضل ويخدع الأبصار.

أما السحرة، فقد أتوا مدفوعين بوعد المكافأة من فرعون، فهم يعلمون أن السلطة التي يحملها هذا الملك تفتح لهم أبواب الثروة والجاه. ولم يكن يهمهم أن يكون موسى على حق أو باطل، فما يهمهم هو رضا السلطان.

إنه مشهد من مشاهد التاريخ يتكرر بأشكال شتى: حيث يقف الحق متواضعًا وواثقًا، في وجه الباطل المتكبر المتغطرس. السحرة هنا يمثلون أولئك الذين يسخّرون مهاراتهم لخدمة المستبدين، يتلاعبون بالكلمات والأفعال ليصوغوا وهمًا يعمي الأبصار.

لكن، هنا، نرى أمرًا عجيبًا. فليس السحرة هنا سحرةً كما يفهمهم الناس في ظاهر القول، ولا مشعوذين يتوسّلون بالحيلة إلى المال والسلطان، ولا أولئك المدّعين الذين يتخذون من خداع الأبصار صنعة، ومن التلبيس على العامة وسيلة، بل هم علماء من طراز نادر، أهل فطنة وعقل، يعرفون مواضع الحجة، ويستجيبون إذا لاح لهم الحق ساطعًا، فيؤمنون به إيمان من خبر الزيف وذاق مرارته، ثم عرف الصدق فاطمأن إليه.

فما إن ألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون، وما إن انكشفت لهم المعجزة عن حقيقتها، حتى سقطوا لله ساجدين، لا يبتغون من إيمانهم جزاءً دنيويًا، ولا يطلبون عليه عوضًا، بل علموا، وهم أهل علم، أن ما جاء به موسى ليس من قبيل فنهم ولا من صناعة أيديهم، إنما هو من عند إله موسى وهارون. ولو كانوا دجّالين كما يُظَنُّ بالمشعوذين، لعرفوا كيف يلبّسون الحق بالباطل، وكيف يموّهون أمام الناس، وكيف يلتفّون على الحقيقة ليربحوا السلامة والدنيا معًا. لكنهم لم يفعلوا. بل اختاروا طريقًا آخر، طريقًا لا يسلكه إلا من صدق إيمانه، واطمأن قلبه إلى ما رأى وسمع.

لقد كان في وسعهم أن ينجوا بجلدهم، وأن يخدعوا فرعون كما خدعوا الناس من قبل، لكنهم أبَوا إلا أن يكونوا شهداء. ولقد أذهل هذا الموقفُ فرعونَ، فلم يجد لتفسيره سبيلًا إلا أن يتَّهمهم بالتواطؤ مع موسى، فقال لهم {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}، وليس ذلك إلا حيلة العاجز حين تضيع عليه السلطة، ويتزلزل عرشه من تحت قدميه.

وما أشبه هؤلاء السحرة بأصحاب الأخدود، أولئك الذين آمنوا ثم أوقد لهم الملك النار، فما ارتدوا، وما نافقوا، وما قالوا كلمة تواري إيمانهم لينجوا بها من الحرق. إنما مضوا إلى مصيرهم مطمئنين، كأنما النار لهم حياة، وكأنما الشهادة لهم ميلاد جديد. وكذلك الغلام في قصة الساحر والملك – كما رواها الإمام مسلم – حين لم يفلح الملك في قتله، حتى دلّه الغلام بنفسه على السبيل إلى ذلك، وقال: "خذ سهمًا من كنانتي، ثم قل: باسم رب الغلام"، فما إن فعل حتى آمن الناس، وما إن آمنوا حتى قتِلوا، وكان الغلام قد أراد هذا من أول أمره، أن يُقتل على اسم ربه، لا على اسم الملك، وأن يكون في موته حياةٌ لغيره.

وما الذي يدل عليه هذا كلّه؟ يدل على أن الإيمان في تلك الأمم لم يكن رفاهية تُمارس في الخفاء، ولا تقية تُحفظ بها الأرواح، إنما كان مواجهة، وكان إعلانًا، وكان عزيمة لا تعرف الرخص. ولعلّهم لم يُخيّروا كما خُيّر مَنْ بعدهم، ولم تكن رخصة (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) قد كُشفت لهم، أو لعلّهم علموا بها، ثم آثروا العزيمة على الرخصة، واختاروا المجد في العاقبة على السلامة في العاجلة. والله أعلم بسرائرهم، ولكن آثارهم تدل على أن الإيمان عندهم كان أمرًا جادًا، لا يحتمل المساومة، ولا يعرف النصف بين الحق والباطل.

تلك نماذج من صدق الإيمان في أشد لحظاته، ومن يقينٍ لم تهزّه نار ولا سيف، ولم تفتّ فيه عزيمة سلطان جائر. وفي سورة الشعراء، وفي قصص السحرة، لعبرة لأولي الألباب، ومجال فسيح لمن شاء أن يتأمل، وأن يقيس نفسه على من سلف، فيعرف من أين يؤتى، وإلى أين ينبغي أن يتجه.

سـورة النمل

من معجزات الأنبياء إلى مخترعات الانسان

من يتدبر سورة النمل يجد أنها تفتح له أبوابًا من الفكر لم تكن تخطر له على بال، وتدعوه إلى التأمل: أكانت قصص داود وسليمان مجرد حكايات للتسلية، أم أنّ وراءها معنى أعمق، وإشارة أبعد، لا يبلغها إلا من أعمل عقله وأنار بصيرته؟

فالآيات صرّحت بأن الله قد آتى داود وسليمان علمًا، ولم تقل إنهما أوتيا سحرًا أو خوارق لا يُفسَّر لها وجه. وهنا يحق للقارئ أن يتساءل: أيّ علم هذا الذي خُصّا به؟ وما سرّ هذا التوكيد الذي اختار لفظ "العلم" دون سواه؟ أهو إيذانٌ بأنّ ما جرى لهذين النبيين من معجزات قد كان في جوهره علمًا، وأنّ ما نعدّه اليوم خيالاً سيغدو غدًا من الحقائق المألوفة؟

ويزداد الأمر وضوحًا حين نقرأ قول سليمان: {عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ}. فلو شاء النص لقال "نُطق الطير"، ولكنه عدل إلى "منطق". والفرق بين اللفظين بعيد. فالنطق إنما هو أصوات تتردّد، أما المنطق فهو الفكر، والنظام، والطريقة التي يوجّه بها الكائن حياته ويصوغ بها سلوكه.

وهل لنا أن نتصور أنّ سليمان قد أدرك لغة النمل كما ندرك نحن لغة البشر؟ أم أنّه نفذ إلى أبعد من ذلك، فوقف على سرّ التنظيم العجيب الذي يحكم حياة النمل، وعلى الاستراتيجيات التي يتخذها في مواجهة الخطر؟ تلك النملة التي نادت أصحابها لم تكن تخطب خطبة، ولم تُصدِر صوتًا كالذي نعرفه، إنما كانت تصدر إشارات يفهمها قومها، ويفهمها سليمان بما أوتي من علم.

ثم انظر إلى الهدهد. فقد غاب قليلًا، ثم عاد بخبر عرش بلقيس. وليس المهم هنا أنه اهتدى إلى مملكة بعيدة، بل أن منطقه جاء مشبعًا بهموم طبيعته وغرائزه، فهو يذكر الله الذي {يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، لأن ما يهمّ الهدهد بطبعه هو ما يُخبأ في

باطن الأرض مما يقتات به. وهنا نرى انسجامًا بين طبيعة الكائن ومنطقه، وهو علمٌ ألهمه الله لسليمان ففهمه على وجهه.

أما مشهد العرش الذي نُقل في لحظة، فهو باب واسع للتأمل. أكان انتقالًا حقيقيًا بجملته، أم كان ظهورًا لصورة العرش، كما تُعرض الصور اليوم على الشاشات؟ لقد رأى المفسرون فيه آية خارقة، ورأى فيه بعض المعاصرين رمزًا إلى إمكاناتٍ ستبلغها البشرية يومًا ما: أن تفكّك المادة ويُعاد تركيبها؛ فتُنقل الأجسام كما تُنقل الأصوات والصور.

وإذا كان الناس اليوم قد عرفوا كيف يُنقل الصوت والصورة في لحظة، فإنّ في القصة رمزًا إلى أن الله قادر أن يفتح للبشر أبوابًا أعظم، قد يظنونها اليوم محالًا، ثم تصبح غدًا حقيقة واقعة.

ومهما يكن من أمر، فالمشهد يدلّ على علمٍ فوق ما تعهده العقول، علمٍ يفتح شهية الإنسان للبحث، ويدفعه دفعًا إلى اقتحام المجهول.

ولم يكن ختام القصة بأقل روعة من بدايتها. فالله يصف عقبةً كأداء حالت بين بلقيس والهداية: {وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ}. أجل، إنّ المعتقد القديم إذا استبد بالإنسان سدّ عليه منافذ العقل، وأغلق دونه أبواب النظر. وما أشبه هذا بما نراه في الناس اليوم: تراهم أسرى لما ورثوا من أفكار، لا يحسنون الفكاك منها، ولا يطيقون أن ينظروا إلى العالم بعيون جديدة. إنّها آفة العقل حين يطول أسره بين جدران التقليد.

ثم تنتهي السورة بتلك الآية المهيبة: {سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا}. كأنما الوحي يخاطب الناس جميعًا: ستكشف الأيام عن آيات الله في الكون، وفي العلم، وفي الطبيعة، حتى لا يبقى للجاحد حجة، ولا للغافل عذر.

وبعد أن فرغت السورة من قصة سليمان وما عُهد إليه من إدراك منطق الطير والحيوان، ألمحت إلى نبي الله صالح عليه السلام، لتعرض معجزته الكبرى: الناقة. وكأنها تريد أن تضعنا أمام مشهد آخر من المعجزات الحيوانية، ليقارن السامع بين علم سليمان الذي فهم منطق المخلوقات، ومعجزة صالح التي تجلّت في حيوان مخصوص خرج من الصخر كآية من آيات الله.

وليس ذلك إلا مزيدًا من التناغم في بنية السورة، حتى لتكاد تراها تنتقل من مشهد إلى مشهد على نسق واحد، يعضد بعضه بعضًا.

ومن شدة هذا التناسق أنّ السورة نفسها قد حفلت بعبارات تتردد فيها مادة "طير"، كقوله تعالى: {اطَّيَّرْنَا بِكَ}، وقوله: {طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ}. وكأنها ظلال تتجاوب مع ما تقدّم من ذكر الهدهد، وسليمان الذي عُلِّم منطق الطير، ليظل المعنى حاضرًا في ذهن القارئ.

ومن الموضوعات التي تتكرر في السورة ذكر الغيب، كقوله تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ}، وقوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ}، وقوله: {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

وإنما جاء هذا ليقرر أنّ علم الغيب لله وحده، وأن ما أوتيه سليمان من اطلاع على خفايا الجن والإنس والطير، إنما هو طرف من علم أذن الله أن يُكشف له، لا استقلالًا عن الله، بل تأكيدًا على أن مصدر كل علم هو الله.

ومن مشاهد المستقبل التي تعرضت لها السورة قوله تعالى: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ} [النمل:٨٢].

وقد قرأ ابن عباس "تَكْلِمُهم" بفتح التاء وسكون الكاف، أي تجرحهم. والمعنى أنّ هذه الدابة ستكون سببًا في إصابات الناس وجرحهم.

وهنا مجال رحب للتأمل: فقد شبّه بعض الباحثين هذه الدابة بوسائل النقل الحديثة من سيارات وقطارات وطائرات، فهي دابّة تسير على الأرض، وهي على كثرة منافعها سببٌ في الحوادث والضحايا بأعداد تفوق الحروب. وهكذا تلتقي دلالة اللفظ القرآني مع الواقع المشهود.

ثم ينتقل السياق إلى آية أخرى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} [النمل:٨٨]. وهي آية تحتمل معنيين:

أنها وصف لحركة الأرض نفسها، بما تحمله من جبال، في مدارها.

أو أنها إشارة إلى دورة حياة الجبال كما يقول علماء الجيولوجيا: أنّ للجبال نشأة ونهاية، وأنها تتآكل وتتحرك وتنتقل كما تُساق السحب في الجو.

وفي كلا الوجهين تبقى الآية تقريرًا لحقائق كونية لم يكن للعقل القديم أن يبلغها، ثم صار العلم الحديث يكشف عن بعض ما أودع الله فيها من أسرار.

وتُختتم السورة بالآية الجامعة: {سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا} [النمل:٩٣]. وهو وعد إلهي بأنّ هذه الآيات – سواء في قصص الماضين أو في معالم المستقبل– ستظل تتكشف للبشرية يومًا بعد يوم، حتى يشهد الناس على صدق الوحي بما يرونه بأعينهم ويعيشونه في واقعهم.

ومن لطيف ما انكشف لنا بواسطة العلماء – غير المسلمين– بيان القرآن ودقته أنه اختار اللفظة التي تستقر في موضعها استقرار الشيء في قراره، لا تزيد ولا تنقص. فقد قال: «لا يَحْطِمَنَّكُمْ»، فجاء بالفعل الذي لا يقوم مقامه غيره. ذلك أن النمل على صغره مكسوٌّ بهيكل عظمي من خارجه، لا كهيكل الإنسان المستقر في داخله؛ فإذا أصابه الدوس لم يَلِنْ فيُعصر، ولا يتهرأ فيُهرس، إنما يتكسّر ويتحطّم.

وهنا يتجلّى وجه من وجوه الإعجاز، إذ لم يجرِ على ألسنة الناس، ولا خطر ببالهم يومًا، أن للنمل هذا الغلاف الخارجي الذي يُكسبه تلك الصفة. فلم يقل القرآن: يُفْعَص أو يُهْرَس أو يُفْرَم، بل اختار «يُحَطِّم»، وهي الكلمة التي تُصوِّر الحقيقة أدق تصوير.

وقد جاء في بعض المراجع الحديثة – كالموسوعة الإنجليزية «ويكيبيديا» – ما يؤيد ذلك:

Like other insects, ants have an exoskeleton, an external covering that " "vides a protective casing around the bodypro.

إذ تُذكر حقيقة أن للنمل هيكلًا خارجيًا يكسو جسده ويحميه، فيكون كالغلاف الصلب الذي يحيط به من كل جانب. وهكذا يلتقي العلم الحديث مع دقة التعبير القرآني، بعد أن سبقه القرآن إلى هذه الإشارة البليغة بقرون طويلة.

هكذا تبدو سورة النمل لوحة متكاملة: في علم الحيوان والطير، وعلم قوانين المادة والسرعة، وعلم النفس الإنسانية وبواطنها. فالسورة في نسقها كله، من ذكر سليمان ومنطقه مع الطير، إلى قصة صالح وناقته، إلى دابة الأرض، إلى حركة الجبال، تقيم برهانًا متجددًا: أن العلم الذي يوحي به الله لأنبيائه ليس معجزة منقطعة، بل هو نافذة على علم الله الكوني، وأن البشر سيظلون يرون من تلك الآيات ما يملأ قلوبهم يقينًا، ويجعل القرآن حاضرًا في الماضي والحاضر والمستقبل.

سـورة القصص

المرأة في حياة موسى

ليس من العسير على القارئ أن يمرّ بسورة القصص، فيقرأها قراءةً متتابعة، فيرى فيها قصة موسى منذ مولده إلى شبابه، ثم يمضي دون أن يتوقف عند شيءٍ مما قد يُخفيه هذا النسق من دلالات. لكن القارئ المتأمل، الذي لا يكتفي بظاهر الترتيب، إذ قد يلمح في هذه السورة شيئًا من التناسق الدقيق، أو قل: شيئًا من العناية التي لا تخلو من قصد.

ولعل من اللطيف أن يُقال: إن تسمية السورة بـ"القصص" لا تخلو من إيماءٍ خفي؛ فالقصة هي أول ما يتلقّاه الإنسان في طفولته، وأول ما يتأثر به وجدانه، إذ ينشأ الطفل وهو يصغي إلى ما ترويه له أمه من حكايات، فيتشكل خياله، وتتكون صور العالم في نفسه من خلال هذا السرد البسيط. فكأن القصة – في أصلها – أداة بناءٍ مبكر، تُنشئ الشعور قبل أن تُنشئ الفكرة، وتُهيئ النفس قبل أن تُثقلها بالمعرفة.

فإذا انتقلنا إلى آيات السورة، وجدنا هذا المعنى يتجلى في صورةٍ أعمق.

فالقارئ إذا سار مع آيات سورة القصص، وجد نفسه ينتقل من صورةٍ إلى صورة، ومن موقفٍ إلى موقف، حيث تكون المرأة في كل مرةٍ حاضرة، تؤدي دورًا لا يقلّ خطرًا عن دور الرجل، بل لعله أعمق أثرًا وأبعد غورًا.

ففي مطلع السورة جاء قوله تعالى:

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ}

وهنا نقف أمام أول مشهد...

أمٌّ تواجه الخوف، لا خوفًا على نفسها، ولكن على طفلها. وهي في هذه اللحظة لا تملك قوةً ولا سلطانًا، إنما تملك قلبًا، يملك من إيمان ما يملك. ثم يُلقى إليها الأمر، فتتلقاه لا بعقلٍ يُجادل، بل بقلبٍ يُسلِّم.

وكأن القصة تبدأ من هنا:

من امرأةٍ ضعيفة في ظاهرها، قوية في يقينها.

ثم تمضي القصة:

{وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ}

وهنا صورة أخرى، لا تقلّ عجبًا...

امرأةٌ تعيش في قصر الطغيان، ولكنها لا تخضع له في كل شيء. ترى الطفل، فيقع في قلبها موقع الرحمة، فتقف في وجه القتل، لا بالسلاح، ولكن بالكلمة.

وهنا يتجلّى نوعٌ آخر من القوة: قوة الرحمة حين تُقاوم القسوة، وقوة الكلمة حين تُواجه السلطة.

ثم ننتقل إلى الآيتين التاليتين:

{وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ}

وهنا تظهر الأخت...

لا بوصفها بطلةً عظيمة، ولا صاحبة قرارٍ خطير، ولكن بوصفها عينًا ترقب، وقلبًا يخاف، وخطوةً تتبع الأثر في صمت.

إنها تقوم بدورٍ خفي، ولكنه ضروري؛ فلو غاب، لاختلّ النسق كله. وكأن القصة تقول لنا: إن الحياة لا تقوم بالأبطال وحدهم، بل تقوم أيضًا بهؤلاء الذين يعملون في الظل.

ثم تمضي الآيات، حتى نصل إلى المشهد الأخير من هذه المجموعة:

{وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ}.

وهنا نخرج من جوّ الخوف إلى جوّ الاستقرار، ومن الطفولة إلى الشباب، ومن الحماية إلى الاختيار.

نرى امرأتين، تقفان بعيدًا، لا تقتحمان الزحام، ولا تُزاحمان الرجال. فيسألهما موسى، فتجيبان في حياء. ثم تمضي إحداهما، فتعود:

{فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}

وهنا تبلغ القصة ذروتها الهادئة:

{قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ }

اقتراحٌ بالزواج، يقوم لا على العاطفة وحدها، بل على معيارٍ واضح:

{قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} وكأن المرأة هنا لا تُؤدي دورًا عاطفيًا فحسب، بل تُمارس حكمًا، وتُقدّم معيارًا.

فإذا جمعنا هذه الصور كلها، رأينا أن المرأة في هذه الآيات لم تكن عنصرًا عارضًا، ولا حضورًا ثانويًا، بل كانت في كل موضع:

أمًّا تُنقذ

وامرأةً تُحاجج

وأختًا تترقب

وفتاةً تختار وتُشير

وزوجة تطيع..

وكأن حياة موسى قد نُسجت بخيوطٍ نسائية دقيقة، لا يُرى أثرها لأول وهلة، ولكنها إذا تأملنا كانت أساسًا لما سيأتي بعد ذلك. فقد تكون هذه الأدوار الصامتة هي التي تصنع القصة، ثم تترك لغيرها أن يظهر في الضوء.

واسم "القصص" هو اسم على مسمّى، يدلّ على جوهر المعنى الذي تتكشّف عنه السورة مشهدًا مشهدًا، وكأنما أرادت أن تقول لنا: إن القصص، التي يتلقاها الطفل من المرأة العاقلة إذ أحسن تأمّلها، وأخذ منها العبرة، إنما يُنمّي في نفسه الحكمة في التصرف، وسرعة البديهة، وسداد الفعل عند الخطوب.

فسورة القصص هي سورة الحكمة الممزوجة بسرعة البديهة، وهي، إن شئت الدقة، مَعرضٌ قرآنيٌّ باهر، تجتمع فيه كواكب النُّطق الرشيد، ونجوم الفطنة التي لا تتأخر عن الموقف حين يدعوها، ولا تتلعثم إذا ما فُوجئت بالخطر الداهم.

سـورة العنكبوت

الابتلاءات والفتن

هل حسب الناس، حين نطقوا بالشهادة، أن يُتركوا؟

وهل ظنوا، حين قالوا: "آمنّا"، أن يُصفح عنهم دون تمحيص؟

ما كان هذا في سنة الله، ولا استقام على سننه في خلقه، فإن الإيمان لا يُوزن بالقول، ولا يُمتحن بالتمني، بل يُبتلى كما يُبتلى الذهب في كُور النار، فإن ثبت لهيبها أصبح تبرًا خالصًا، وإلا بانَ زيفه، وظهر غثاؤه.

وقد ابتدأت سورة العنكبوت بهذا السؤال الزاجر:

{أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ؟}

وكأنها تصفع الغافلين الذين ظنوا أن الإيمان زينة يلبسها المرء في المناسبات، لا عقدًا وثيقًا يشدّ به على نفسه في البأساء والضراء.

وما هذه الفتنة التي تحدّثت عنها السورة إلا مقدورة لكل إنسان، سابقة لكل مخلوق، تُصاحبه منذ نعومة أظفاره حتى تنقضي أنفاسه، فهي تتلوّن بألوان شتّى: فتنة في الدين، وفتنة في الأقربين، وفتنة في الخوف والرجاء، وفتنة في الغنى والفقر.

أرأيت كيف تبدأ الفتنة في أول الدرب؟

إنها لا تأتي من الأعداء، ولا من الغرباء، بل من الوالدين، من تلك اليدين اللتين أطعمَتاك وسهرتا عليك في المرض.

{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا...}

لكن لا يلبث أن يشقّ الوصية بشرط:

{وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا... }.

تلك هي المعضلة، أن يُطلَب منك برّهما، لكن لا يُطلب منك اتّباعهما، إن ضلّا السبيل.

وهل أعجب من هذه الفتنة؟ أن يتربّى الإنسان على طاعة والديه، ثم يُقال له: لا تطعهما إذا عارضت طاعتهما طاعة الله!

ثم تدعو السورة إلى الانخراط في سلك الصاحين:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ} [العنكبوت: ٩]

فالناس لا يعيشون أفرادًا متفرقين كما نظن، إنما يعيشون في عوالم خفية، لا تُرى بالعين، لكنها تُدرك بالعقل، وتُحسّ بالأثر. عوالم لها قوانينها، ولها هواؤها الذي يتنفسه الداخل إليها، ولها ألوانها التي تصبغ من يقيم فيها صبغًا لا يكاد ينفك عنه.

ففي هذا الوجود أنماطٌ قائمةٌ بذاتها، أشبه بالمدارات التي تدور فيها الكواكب، أو المدارات التي تدور فيها الإلكترونات حول نواة الذرة. فما إن يدخل الإنسان في أحد هذه المدارات، راضيًا به، مطمئنًا إليه، حتى يبدأ هذا المدار يعمل عمله فيه، فيمنحه من صفاته، ويخلع عليه من خصائصه، حتى يصبح جزءًا من نظامه، وصوتًا من أصواته.

فليس المهم أن يولد المرء من عِرقٍ بعينه، أو يُنسب إلى نسبٍ مخصوص، إنما المهم أن يختار، وأن ينضم، وأن يرضى بالانتماء. فمثلاً ليس اليهودي يهوديًّا لأنه يحمل صفاتٍ أنثروبولوجية مخصوصة، إنما لأنه دخل في عالمٍ له رؤيته للتاريخ، وقراءته للوعد، وطريقته في فهم الاصطفاء. كذلك المسلم، والمسيحي، والبوذي، والصالح، والطالح؛ كل أولئك لا يكتسبون أسماءهم من الدم، بل من المدار الذي ارتضوه لأنفسهم. وقد أشار القرآن إلى أن للصالحين مدارهم: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ}. فما إن يدخل في مدارهم حتى تفيض عليه بركاتهم. وكذلك يحدث في باقي المدارات.

إن المدارات أشبه بالدور الذي ينخرط فيه الممثل. فتجد الممثل إذا أراد تجسيد شخصية لصٍّ أو تاجرٍ أو فاسق، فما عليه إلا أن يخلو مع نفسه، ويعيش في الدور، ثم يبدأ الدور يفيض عليه تلقائيًا بروح الشخصية التي يجسدها. لكن الممثل يلقي بنفسه في المدار راضيًا أو غير راضٍ، أما غير الممثل فإن الدور هو الذي يجذبه ويغمره، ويجبره على الدوران في مداره مع باقي القطيع. وما إن يستقر الإنسان في المدار حتى يبدأ التشكل؛ فتتغير لغته،

وتنتظم مشاعره، وتتبدل أولوياته، ويغدو يرى الأشياء من زاويةٍ لم يكن يراها من قبل. كأن المدار لا يكتفي بأن يضمّه، بل يعيد صياغته، ويدخله في نسق أوسع وأشمل.

وقد يُخيَّل إلى البعض أن في هذا القول شيئًا من الحتمية، كأن الإنسان إذا دخل عالمًا فقد حريته، وأصبح أسير خصائصه. وليس الأمر كذلك. فالإنسان لا يذوب ذوبان الجسيم في مادته، ولا يفقد فرديته فقدًا تامًا. لكنه، مع ذلك، لا يسلم من أثر العالم الذي يسكنه، والفلك الذي يسبح فيه. فهو يؤثر في مداره قليلًا، ويتأثر به كثيرًا، ثم تتعاقب الأجيال فيرسخ النمط، ويغدو كأنه حقيقةٌ قائمةٌ بذاتها.

ثم تمضي السورة، لا لتروي الحكايات، بل لتثبت القاعدة، ولتؤصّل السنة الجارية في الأولين والآخرين.

فهذا نوح، يضرب في الأرض ألف سنة إلا خمسين، ويبني سفينته وسط السخرية، ثم يرى ابنه على الشاطئ يأبى الركوب، فيهلك.

وذاك إبراهيم، يُلقى في النار لا لذنبٍ جناه، بل لأن عقله أبى أن يسجد لصنم، ولسانه نطق بالحق، وقلبه رفض أن يركع لغير الذي خلق.

ولوط، ابتُلي في زوجٍ خانته. وموسى، في قومٍ جحدوا. ومحمدٌ، صلى الله عليه وسلم، في عمٍّ آزره في العشيرة وجحده في الرسالة، وقومٍ آذوه حتى أخرجوه، فكانت الهجرة فتنة أخرى، ومخرَجًا آخر.

وإذ بالقرآن، في ثنايا هذه السورة، لا يكتفي بتسجيل الحوادث، بل يُشير إلى الحكمة، ويرسم الطريق. فالهجرة، ليست خروجًا من أرض، بل انفكاكًا من فتنة، وقطعًا لحبل الذل، وبحثًا عن فضاءٍ يُعبد الله فيه بحرية:

{يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ}.

كأنما الأرض كلها لا تساوي لحظةً من عبادة صادقة. فإذا ضاقت الأرض، واشتدّ البلاء، فالفرار إلى الله هو النجاة. فالعبادة لا تتقيد بمكان، ومن ضاقت به بلاده، فليعلم أن لله أرضًا أوسع، وأن ضيق الأرض لا يبرر ضيق الدين، بل يجب أن يُهاجر إلى حيث يُعبد الله، وهذا معنى الإخلاص في العبادة، لا كما يفهمه المتواكلون الذين يرضون بالذل

ويتذرعون بالعذر. ثم لا تنسَ، ما تناثر من كلمات في ثنايا السورة كحبات اللؤلؤ في ثوب الحرير، مثل: "الركوب، السير، الحَمْل".

فهؤلاء الكفار يقولون للمؤمنين: {اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ...}

والله تعالى يكذّبهم بقوله: {وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ}.

وهنا نوح يُنجى وأصحاب السفينة، فيُركبون في الفلك، رمزًا للنجاة بالإيمان، كما ركبوا فعليًا في السفينة.

وهناك دعوة عامة للسير في الأرض، تأمّلًا في بدء الخلق ونشأته، وإشارة إلى أن المؤمن ليس ساكنًا بل متحركًا: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ...} وفي موضع آخر: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ...} وفي آية أخرى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا...}.

فالإنسان في هذه السورة بين حملٍ ثقيل من الفتنة، وركوبٍ في سفينة الإيمان، وسيرٍ في أرض الله طلبًا للهداية. وليس المقصود بالحركة هنا الحركة الظاهرة فحسب، بل حركة القلب نحو الله، وانخلاع النفس من الشرك إلى التوحيد. وما سُمّيت السورة بالعنكبوت عبثًا، فإن بيت العنكبوت هو رمز للضعف والوهَن، كمن يتخذ من دون الله أولياء:

{مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا...}

وكأنّ هذه السورة كلها تفضح تلك البيوت الواهية التي لا تصمد أمام أول عاصفة، وتردّ على تلك النفوس التي تظن أن النجاة في الكثرة، أو النسب، أو الوطن، وتنسى أن النجاة في الإيمان وحده، ولو كان الإنسان غريبًا طريدًا في الأرض.

فهذه سورة العنكبوت، تفتتح بالفتنة، وتمضي في رسم صورها، وتختم بكشف ضعف من لم يُحسن حملها، ولا ركب سفينة الإيمان فيها، فهي تربية عملية للمؤمنين، وبناء متماسك لمنهج الصبر واليقين.

وليست هذه السورة لعصر دون عصر، بل هي لحال كل إنسان في كل مكان، يُجاهد نفسه وأهله وقومه، حتى يهاجر بقلبه إلى الله، ثم بأقدامه إن استطاع، ليقيم عبودية خالصة لا يشوبها خوف، ولا تعكّرها فتنة.

سـورة الروم

الأوروبِّيون

إنّ ترتيب سور القرآن العظيم ليس شأنًا شكليًّا أو جماليًّا وحسب، إنما هو تركيب بياني وهَدْي ربّاني، يُشير في تضاعيفه إلى ترابط الموضوعات، وامتداد السنن من نفس الإنسان إلى نفس الجماعة، ومن فتن الأفراد إلى فتن الأمم.

وإذا نظرنا في سورة العنكبوت، ثم في سورة الروم التي تأتي بعدها مباشرة، نلحظ هذا الامتداد البديع.

ففي العنكبوت، تسجل السورة فصولًا من الابتلاءات والفتن، تمرّ على الإنسان فردًا ثم أسرة، ثم نبيًّا، حتى تبلغه المحنة الكبرى في دينه ووطنه، فلا يجد بُدًّا من الهجرة.

ثم إذا أُسدل الستار على هذه المحن الفردية، فتحت سورة الروم الستار على صفحة جديدة من التاريخ: فتنة الأمم، وصعود الحضارات وهبوطها، وغرور القوة وغفلة المادية، وغياب البصيرة عن مصائر الشعوب. فسورة العنكبوت قد أشارت إلى ابتلاء المؤمن في أهله وبيئته، في أبيه، في زوجه، في قومه، فإذا لم يصبر على هذه الفتن، فلا ثبات له أمام أعاصير الأمم، وفتنة الغلبة والمدنية والمادية.

ثم جاءت سورة الروم لتتحدث عن أمة من أعظم أمم الزمان، لا من حيث الدين، ولكن من حيث الحضارة والقوة والسلاح، تلك هي الروم، وهم الأوروبيون في زماننا هذا. وقد ابتدأت بذكر هذه الأمة لا بوصفها نموذجًا من الماضي، بل بوصفها مثالًا للغلبة والاندحار، والدوران في سنن القوة والضعف.

{غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ}.

ثم تمضي السورة لتصف الروم بصفات دقيقة، وكأنها تصف حال الأمم الغربية في عصورها الحديثة:

مكان سكناهم: {فِي أَدْنَى الْأَرْضِ}، وهي الأرض البعيدة عن مركز الرسالة في جزيرة العرب.

ثم تصف قوتهم العسكرية: {وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ؛ فِي بِضْعِ سِنِينَ}، أي أن الهزيمة لا تعني الزوال، بل تعقبها عودة ونهوض، كما هو حال دول أوروبا المعاصرة. إذ يتبين للناظر في تاريخ الأوروبيين أن من أبرز صفاتهم سرعة النهوض بعد العثرات، كأنهم لا يلبثون أن يحوّلوا الصدمة إلى وعي، والخراب إلى درس. فما كادت الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها، وقد خلّفت في أوروبا مدنًا مدمَّرة ونفوسًا مثقلة، حتى أسرع الأوروبيون إلى العمل والبناء. فلم يقفوا طويلًا عند فداحة الخسارة، بل جعلوا منها باعثًا على التنظيم، وحافزًا على إحكام العقل وتدبير الشأن العام.

ثم تشير السورة إلى تفوقهم المادي وانحطاطهم الروحي: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}، وهذه من أخصّ سمات المدنية الغربية الحديثة.

وقد جاءت السورة لتحذّرهم من الاغترار بهذا البنيان الظاهري:

{أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا..}.

فليس التفوق في العُدّة والعدد دليلًا على الفلاح، إنما العبرة بمآلات الأمم، ومصير من نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

وفي إشارة موحية إلى سنن الانهيار، ذكرت السورة صفات الذين يُفسدون في الأرض، ويسيئون إلى القيم والشرائع، فإذا جاءهم النذير ازدادوا إصرارًا:

{ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ...}.

وما أكثر هذا النوع من الإفساد في حضارات العصر، في ترويج الفواحش، ونشر الإباحية، وتعظيم الخمر والمخدرات، واستباحة الربا، باسم الحرية والفن. فهي ليست مجرّد أفعالٍ محرّمة اقترفها الناس، فالسيئات معروفة بالفطرة ومستنكرة في أصلها، وإنما السُّوأى هي تلك النهاية التي يبلغها الإنسان حين لا يكتفي بارتكاب القبيح، بل يعمل على تزيينه وتسويغه وقلب معاييره. فتصبح المعصية ترفيهًا، والانحراف قيمة، والزنا فنًّا،

واللواط حرية، وشرب الخمر أسلوب حياة، ويُسوَّق اليأس حتى يبلغ حدّ تمجيد الانتحار. عندها لا يعود الشرّ شرًّا في الوعي، بل يُرى حسنًا، ويُدافَع عنه، ويُسخر من الحق الذي يفضحه. وهنا تتحقق السُّوأى على وجهها الكامل: أن يُطمس نور الفطرة، ويُكذَّب بآيات الله، ويُستهزأ بها، لا عن جهل عابر، بل عن إصرار بعد تزيين، وتلك هي العاقبة الأشدّ سوءًا التي حذّر منها القرآن.

ثم تبرز السورة في نهاياتها سنن الله في الخلق، وفي اختلاف الناس:

{وَمِنْ آيَاتِهِ... اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ...}.

{وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا... فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ...}.

{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...}.

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ...}.

وتُختم هذه الدروس الكبرى بقانون شامل، يصوّر حركة الأمم كحركة الأفراد، من ضعف إلى قوة، ثم من قوة إلى شيخوخة وسقوط:

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ... ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً...}.

وكأنها، من حيث لا تنصّ، تشير إلى نظرية ابن خلدون في أعمار الدول، وتآكل الحضارات من داخلها حين تنقطع عن مقاصدها وتغفل عن ربها.

فالربط بين سورة العنكبوت وسورة الروم هو انتقال من "الفتنة الفردية" إلى "الفتنة الحضارية العالمية"، من ضيق النفس إلى اتساع الزمان، من تربية الإنسان إلى تحذير الجماعة، ومن مصير البيت إلى مصير الحضارة.

ولا عجب، إن رأيت هذا الترتيب المصحفي متأخرًا عن ترتيب النزول، فذلك من إعجاز التنسيق الرباني، ليُبيّن أن الفرد إذا لم يثبت في فتنة الإيمان، فلا قِبَل له بفتنة الحضارة.

وأن العبد إن لم يُهاجر إلى الله بنفسه، فسوف يُجرف مع التيار، كما جرفت الحضارات من قبله.

سـورة لقمان

من الفتنة إلى الحكمة

سورة لقمان، امتداد طبيعي لسورتي العنكبوت والروم، حيث تتابع ما بدأتاه من حديث عن أحوال الأمم وطبائع الناس. فسورة العنكبوت تُصوِّر لنا الفتنة التي تعتري المؤمن في دينه، ثم تدعوه إلى الهجرة فرارًا بدينه، كما يقول تعالى: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ} [العنكبوت: ٥٦]

وأما سورة الروم فإنها تنقلنا إلى عالم الغرب، إلى تلك الأمم التي تقطن أقصى الأرض، أولئك الذين هم بقايا دولة الروم العتيدة.

فإذا قرأنا سورة الروم، شعرنا كأنما نعيش بين ظهراني تلك الأمم غير المسلمة، إذ نرى أقوامًا ينهضون من هزيمتهم كالبرق الخاطف: {وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ}. ونرى أقوامًا أُوتوا من علوم الدنيا ما أُوتوا، ولكنهم عن الآخرة غافلون لاهون: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}. ونرى أقوياءَ مُعجبين بقوتهم، مُغرورين ببطشهم، قد استحسنوا القبيح، فزادوه قبحًا، كما زادوا الزنا فجعلوه فناً يُعرض ويُشاد به، حتى لَيقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُونَ﴾. وكذلك فعلوا بالخمر والمخدرات، فنشروها بين الناس وزينوها حتى صارت كالماء والهواء.

ثم هم مع ذلك يتعاملون بالربا: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾. وهم مختلفو الألسنة والألوان: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾. وهم لا ينامون الليل كله، بل يكدحون فيه كما يكدحون بالنهار: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وتصف السورة بلادهم بأنها أرض الأمطار والرعود والبروق: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ

رَحْمَتِهِ﴾، وقال: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾. وهي أرضٌ فشا فيها الفساد، حتى عم البر والبحر: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾.

ثم تطالعنا سورة لقمان. ولعل أصدق ما يُقال عن هذه السورة الكريمة أنها نزلت من السماء لتكون مرآة للإنسان في أضعف أحواله وأشدها حاجة إلى الرشاد. إنها سورة الحكمة. الحكمة التي لا تدرك بالعقل وحده، بل بالقلب والخبرة وطول التجربة ؛ وكأن هذه السورة حديث طويل بين جيلين: جيل الشباب الذي تضطرب نفسه وتتحرك فيه نوازع التمرد والفضول، وجيل الآباء الذين صقلت الأيام عقولهم ومنحتهم نصيبًا من التجربة والنضوج.

تبدأ السورة بداية هادئة رصينة، فتلفت الأنظار إلى القرآن الكريم بوصفه كتابًا من كتب الحكمة: {تلك آيات الكتاب الحكيم}. وكأنها تريد أن تقول إن هذا الكتاب لم ينزل ليُتلى فحسب، بل ليكون هاديًا للعقول ومقومًا للسلوك.

ثم تمضي الآيات فتلمس جانبًا من طبيعة بعض الشباب، حين يستهويهم اللهو وتغريهم أحاديث العبث والباطل؛ فينصرفون إليها انصرافًا يبعدهم عن طريق الحق. ولهذا جاء التحذير من أولئك الذين يشترون لهو الحديث ليضلوا به عن سبيل الله، فإذا تُليت عليهم آيات الحق أعرضوا عنها في كبرياء كأنهم لم يسمعوها، أو كأن في آذانهم ثقلًا يمنعهم من الإصغاء.

بعد ذلك تلفت السورة النظر إلى حقيقة أخرى، وهي أن الشباب في تلك المرحلة المضطربة من أعمارهم، أحوج ما يكونون إلى أساس ثابت ومرجعية راسخة يطمئنون إليها. فتضرب لهم مثلاً من مشهد الكون الفسيح: ألم يروا إلى السماء كيف رفعت بلا عمد ترى؟ وإلى الأرض كيف أرسيت بالجبال لئلا تميد بهم؟ فكما أن للكون قوانينه التي تحفظ توازنه، فللنفس البشرية قوانينها وأصولها التي إن تخلت عنها تاهت وضاعت:

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ..}.

وفي خضم هذا الحديث، تطل علينا قصة لقمان، ذلك الأب الذي منحته السنون حكمة، فها هو ذا لقمان يجلس إلى ابنه، لا بعصا الترهيب، ولا بصوت التعنيف، بل بروح

الموعظة الحسنة. وما أصعب الصبر على الأب وهو يرى فلذة كبده تسير في طريق لا يرضاه، فيظل يردده ويرشده، لا يمل ولا ييأس، كالزارع الذي يبذر بذوره عاماً بعد عام، مؤمناً بأن الأرض ستحصد يوماً ما. وكانت أولى وصاياه وأعظمها أن يحذره من الشرك بالله، لأنه أصل كل انحراف وأعظم الذنوب:

{وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}

بعد ذلك، لا تنسى السورة أن تذكر الابن بحق الأبوة، فتعود به إلى أيامه الأولى، إلى تلك الأيام التي حملته فيها أمه كرهاً ووضعته كرهاً، وأرضعته عامين كاملين. فإذا كان لا بد من البر والشكر، فالأبوان أولى الناس بذلك. وحتى لو حاولا صرف ابنهما عن دينه، فإن المعاشرة بالمعروف واجبة، فكيف إذا كانا يدعوانه إلى الخير والصلاح؟!

{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.

ثم تبدأ السورة رحلتها الطويلة مع تربية النفس البشرية، فتوصي الشاب الذي يملؤه النشاط والحركة بوصايا لو تأملها الإنسان حقاً لوجد فيها خلاصة كل حكمة:

تذكره بأن الله معه أينما كان، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، حتى لو كان في جوف صخرة أو في ظلمات الأرض، فليتق الله وليعلم أن كل حركاته وسكناته محصاة:

{يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}.

ثم تأمرهم بإقامة الصلاة، تلك العبادة التي قد يستخف بها الشباب في أول شبابهم، مع أنها عماد الحياة الروحية للإنسان. وتدعوهم كذلك إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليكون الشاب عنصرًا فاعلًا في مجتمعه، لا مجرد متفرج على ما يدور حوله من خطأ أو فساد. غير أن هذه المهمة لا تخلو من المشقة، ولذلك جاء التذكير بضرورة الصبر على ما قد يلقاه الإنسان من أذى في سبيل الحق:

{يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}.

كما تحثهم السورة على التحلي بالأخلاق الكريمة؛ فتنهى عن الخيلاء والكبر، وعن المشية المختالة، وعن رفع الصوت بالباطل. فالحياة ليست لهواً ولا لعباً، بل هي جادّ يجب أن يسير فيه الإنسان بقصد وغاية. إنها دعوة صريحة إلى نبذ الفراغ والتسكع، وإلى جعل كل خطوة في الحياة ذات معنى وهدف:

{وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ، وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}.

وتنبههم كذلك إلى طلب العلم الصحيح، وتحذرهم من الجدال بغير علم، ومن التقليد الأعمى للآباء إذا كانوا على ضلال؛ فالتشبث بدين الله أولى من التمسك بعادات بالية أو تقاليد لا تقوم على حق.

ومع هذا كله تذكر السورة الإنسان بأن علمه مهما اتسع يظل محدودًا؛ فلو أن أشجار الأرض تحولت إلى أقلام، والبحار إلى مداد، ما نفدت كلمات الله. وفي هذا دعوة إلى التواضع العلمي، وإلى الاعتراف بحدود المعرفة البشرية:

{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.

ثم تختم السورة بدعوة إلى الصبر وانتظار سنن الله في الكون؛ فالحياة مليئة بالتقلبات. ففي وقت الشدائد، فالصبر فيها هو سمة المؤمنين. في تلك اللحظات التي تتكالب فيها الأمواج على السفينة، ويظن الراكب أنه هالك لا محالة، هناك يخرج الدعاء من الأعماق، خالصاً نقيّاً، يقطع الظلمات، ويرتفع إلى السماء بجد وحرارة. صبر على العبادة، وصبر على الدعاء، وصبر على الأمل في فرج يأتي من حيث لا يحتسب:

{وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ}.

وأخيراً، في مشهد ختامي مهيب، ترد كل غيب إلى عالمه، فتعلمنا أن مفاتح الغيب لا يعلمها إلا الله. وحده يعلم متى تقوم الساعة، وحده يعلم متى ينزل الغيث، وحده يعلم ما في الأرحام، وحده يعلم ما تكسب الأرواح غداً، وحده يعلم أين تموت كل نفس:

{إِنَّ اللهَّ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}.

هكذا تتجلّى سورة لقمان مدرسةً للصبر في صوره كلها: صبر النفس عن الهوى، وصبر المربي على التربية، وصبر الابن على التلقي، وصبر العابد على الطاعة، وصبر الطالب على التعلم، وصبر المصلح على الأذى، وصبر المؤمن في الشدة والرخاء سواء. وكأنها تُعلّم الإنسان أن الحياة لا تستقيم بحماسة عابرة، وإنما تثبت بالعزم الطويل، الذي يمضي في طريقه هادئًا، واثقًا، لا تعصف به الأهواء، ولا تفتنه الأمواج.

سـورة السجدة

الذي أحسن كل شيء خلقه

إذا أردنا أن نتدبر سورة السجدة تدبرًا يجاوز الوقوف عند موضوعاتها المتفرقة إلى البحث عن الفكرة التي تنتظم هذه الموضوعات جميعًا، فقد نستطيع أن نقول إن السورة تدور حول هذه الحقيقة الكبرى التي عبّرت عنها الآية الكريمة: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾.

فليست هذه الآية، مجرد آية عابرة وردت في سياق الحديث عن خلق الإنسان، إنما هي مفتاح من مفاتيح السورة، ومن خلالها يمكن أن نفهم ما سبقها وما لحقها من الآيات.

تبدأ السورة بالحديث عن القرآن، ذلك الكتاب، الذي لا ريب فيه، المنزل من رب العالمين. لكن الناس لم يستقبلوه جميعًا بالتسليم والتصديق، بل قال فريق منهم: إنما افتراه محمد. وهنا تضع السورة القارئ أمام أول مظاهر الإحسان الإلهي؛ فقد أنزل الله الكتاب هداية للناس ورحمة بهم، ثم كان من الناس من جحد هذه النعمة وأعرض عنها.

ثم تنتقل السورة إلى الحديث عن خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وعن استواء الله على العرش، وعن تدبيره الأمر من السماء إلى الأرض، ثم عروج الأمر إليه. وليس المقصود من هذا العرض مجرد الإخبار عن حقائق كونية، إنما المقصود أن يرى الإنسان آثار الحكمة والإحكام في هذا الكون العظيم الذي يسير وفق نظام دقيق لا يختل ولا يضطرب.

ثم تبلغ السورة ذروة هذا المعنى حين تقول: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾. فكأنها تلخص ما مضى وتمهد لما يأتي بعدها. فكل ما في الكون صادر عن إحكام وإتقان، وكل ما في الخلق قائم على الحكمة والتقدير.

ثم تخص الإنسان بحديث مفصل؛ فتذكر أصله من الطين، ثم نسله من ماء مهين، ثم تسويته في أحسن صورة، ثم نفخ الروح فيه، ثم منحه السمع والأبصار والأفئدة. وإذا تأملنا هذه الآيات وجدناها تعرض وجوه الإحسان الإلهي إلى الإنسان مرحلة بعد مرحلة، ونعمة بعد نعمة. ولكن السورة لا تلبث أن تعقب على ذلك بعبارة موجزة تحمل من العتاب ما تحمل: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾.

وهنا يبدأ الوجه الآخر من السورة؛ فبعد أن عرضت إحسان الخالق، أخذت تعرض جحود المخلوق. فهذا الإنسان الذي أُحيط بكل هذه النعم يسأل مستنكرًا: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. وكأن السورة تريد أن تقول: إن الذي أحسن الخلق أول مرة لا يعجز عن إعادته مرة أخرى.

ثم تمضي الآيات فتصور مشهد المجرمين يوم القيامة، وقد نكسوا رؤوسهم بين يدي ربهم، معترفين بما كانوا ينكرون، طالبين الرجعة التي لن تكون. وهنا ينكشف الفرق بين اليقين الذي يأتي في أوانه، واليقين الذي لا ينفع صاحبه بعد فوات أوانه.

وفي مقابل هؤلاء تعرض السورة صورة أخرى؛ صورة المؤمنين الذين إذا ذُكّروا بآيات ربهم خرّوا سجدًا، وسبحوا بحمد ربهم، ولم يحملهم الكِبْر على الإعراض. تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، وينفقون مما رزقهم الله. وهؤلاء هم الذين فهموا الإحسان الإلهي حق الفهم، فقابلوه بالشكر والطاعة والخضوع.

ثم تواصل السورة المقارنة بين المؤمنين والفاسقين، وبين جزاء هؤلاء وجزاء أولئك، وتذكر العذاب الذي يصيب المكذبين في الدنيا قبل عذاب الآخرة، لعلهم يرجعون.

وتنتقل بعد ذلك إلى قصة موسى عليه السلام وإنزال الكتاب عليه، وإلى جعل أئمة من بني إسرائيل يهدون بأمر الله لما صبروا. وكأن السورة تؤكد مرة أخرى أن الهداية نفسها مظهر من مظاهر الإحسان الإلهي إلى البشر.

ثم تذكّر بمصارع الأمم السابقة التي أهلكت بعد أن أعرضت عن الحق، وتلفت الأنظار إلى الماء الذي يسوقه الله إلى الأرض الجرز، فيخرج به الزرع الذي تأكل منه الأنعام والناس. وفي ذلك شاهد متجدد على رحمة الله وإحسانه، وشاهد كذلك على قدرته على الإحياء بعد الموت.

هكذا تمضي السورة في نسق واحد؛ تعرض إحسان الله في الخلق والتدبير والهداية والرزق والجزاء، ثم في المقابل، تعرض جحود الإنسان لهذا الإحسان أو شكره له. ومن هنا يبدو اسم السورة أبلغ ما يكون دلالة؛ فالسجود هو الثمرة الطبيعية لمعرفة هذا الإحسان، وهو الجواب الذي ينبغي أن يقدمه الإنسان لخالقه إذا أدرك حقًا أن الله هو الذي أحسن كل شيء خلقه.

سورة الأحزاب

الثوابت الكونية والمتغيرات الطارئة

تدور سورة الأحزاب حول محور ثابت لا تحيد عنه، ولا تتشعب دونه. ذلك هو الفرق بين الثوابت الكونية التي قضى الله بها في هذا الوجود، وبين الطوارئ التي تعرض للناس عرضًا، ثم لا تلبث أن تزول كما يزول السراب. ولعل من دلائل هذا المحور الثابت أن لفظ "السُّنّة" قد تكرر ثلاث مرات في هذه السورة، بما لم يتكرر مثله في غيرها من السور.

وقد بدأت السورة بنداء كريم إلى النبي صلى الله عليه وسلم:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}.

وما كان هذا النداء أمرا يُطلب من النبي صلى الله عليه وسلم طلبًا؛ فالنبي متقٍ بطبعه، لا يطيع الكافرين ولا المنافقين بطبعه، كما أن الماء لا يصعد إلى أعلى إلا أن يُكره على الصعود إكراها. فهذا إخبار عن حكمٍ أزلي وسُنّة كونية لا تتبدل ولا تتغير؛ حكمٌ قضاه الله على نبيه خاصة، وعلى سائر رسله عامة، مثلما قَضى على النار أن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم، كما قال سبحانه: {يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}.

فلم يكن أمر تكليف، بل أمر تكوين، صدر فكان كما شاء الله أن يكون.

فالسورة كلها إنما تدور حول هذه السنن الإلهية الثابتة التي لا تتبدل، ولا تتغير، ولا تحابي أحدًا. وكلما سار الإنسان معها أحس بالطمأنينة، وكلما خالفها تجرع القلق والألم.

وتمضي السورة تبين أن من السنن الثابتة في الإنسان أن الرجل لا يكون له قلبان في جوفه، كما لا تكون الزوجة أمًّا، ولا يكون الدَعِيُّ ابنًا:

{مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ. وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ. وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ}.

وهذه السنن لا تتطلب إذعانًا من الناس، فهي قائمة في فطرتهم سواء رضوا أم أنكروا. ولكن من قبلها ورضي بها، سعد واطمأن، ومن جحدها وعاندها، عاش في قلقٍ لا ينتهي.

ولذلك قال تعالى:

{ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ}.

فدعاؤهم لآبائهم هو القسط، لا لأن العرف اقتضى ذلك فحسب، بل لأن الحق الإلهي قضى بذلك وقدر.

ثم تمضي الآيات تبين أن هذا القبول للسنن، وهذا الرضا بالحكم الإلهي، قد أخذه الله على أنبيائه ميثاقًا غليظًا لا يمكن أن يخالفوه:

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا}.

فالأنبياء بطبعهم صادقون فيما فطروا عليه، مخلصون فيما عاهدوا الله عليه. وإن هم خالفوا هذا الطبع الكريم، فما أشد قلقهم، وما أعظم اضطرابهم!

ومن أجل ذلك كان لابد أن يُسأل الصادقون عن صدقهم، ويبتلى المخلصون في إخلاصهم:

{لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ}.

وهكذا كان لابد أن تُمحص القلوب، وأن تبتلى النفوس، وأن تتعرض للإعصار والزلازل حتى تظهر معادنها الخفية، وتنكشف حقائقها المستورة. ثم تذكر السورة نموذجا من هذا التمحيص:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ... إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا... وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ... هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}.

وكما سُئل الصادقون عن صدقهم، فقد سُئل المنافقون عن نفاقهم، فإذا هم ينهارون انهيارا، وإذا هم يتعللون، ويختلقون الأعذار، ويطلبون الفرار:

{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا... وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ...}.

فلو أن المدينة قد دخلت عليهم من أقطارها، وطلبت إليهم الفتنة، لأجابوا إلى الفتنة وما لبثوا فيها إلا يسيرًا.

أما المؤمنون، فما أسرع ما يعودون إلى أصلهم الكريم إذا زلزلوا! وما أيسر أن يرتدوا إلى يقينهم إذا هاجت عليهم العواصف! فحين رأوا الأحزاب، قالوا بلسان الإيمان:

{هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ}.

فزادهم هذا الابتلاء إيمانًا وتسليمًا، وأورثهم الطمأنينة العميقة، والسكون العظيم.

ثم تمضي الآيات فتصور نهاية المعركة، وكيف رد الله الذين كفروا بغيظهم، لم ينالوا خيرًا، ولم يبلغوا كيدهم، وكيف كفى الله المؤمنين القتال، وأيدهم بجنوده التي لا تغلب.

ولم يكن هذا الظفر ليكون خاتمة الابتلاء، ولا كان هذا التمكين لينهي سنة الله الماضية مع المؤمنين. فما كادت الغنائم تُفيض والنعيم يُقبل حتى عادت الفتنة تدق الأبواب، تختبر صبر النفوس على الفقر إذا ضاق بها، وثباتها أمام زخرف الدنيا إذا أقبل عليها.

وكان أول من تعرض لهذا الامتحان نساء النبي، صلوات الله عليه، إذ رغبن في نصيب مما أفاء الله على المسلمين. فنزل الأمر الإلهي يحسم الأمر:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا}، فهو يخيرهن بين الحياة الدنيا وزينتها، وبين الله ورسوله والدار الآخرة.

ولم يقف الوحي عند حد التخيير، بل كشف عن حقيقة عميقة من حقائق الزواج: أن السكن والمودة أصل العلاقة الزوجية، لا التنازع على متاع زائل.

فحيث يضعف الحب ويسوء التفاهم، لا يثبت بناء ولا يدوم سكن.

وهذا المعنى يتجلى في الآية التالية، في قصة زواج زيد من زينب، رضي الله عنهما، إذ عانى زيد من اضطراب وحرج حتى انتهى الأمر إلى الفراق:

{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا

زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا}.

فكان زواج النبي من زينب بعد طلاقها ليرفع الله الحرج عن المؤمنين في أزواج أدعيائهم. وهنا يبرز معنى أدق وأعمق: أن الفرق بين ظاهر الإنسان وباطنه مدعاة إلى الغم والقلق، وقد سماه القرآن بالحرج.

والحرج إنما ينشأ حين يعمل الإنسان خلاف ما يعتقد، فإذا عمل بمقتضى اعتقاده الداخلي، زال الحرج وطابت النفس، كما قال تعالى: {مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا}.

فالنبي يفعل ما أُمر به، لا تردد في ضميره، ولا ضعف في عزيمته.

ثم ينشأ سؤال آخر: من أين جاء هذا الكمال؟ من أين للنبي هذا التوفيق الدائم؟

والجواب: ليس التوفيق من صنع الإنسان، ولكنه مدد من عند الله، ورعاية من رحمته التي لا تنقطع.

فالله وملائكته يصلون على النبي وعلى المؤمنين، يدعون لهم بالرعاية، وييسرون لهم سبل الخير.

ولولا هذه الصلاة الخفية، ما اهتدى مهتدٍ ولا ثبت ثابت.

وكثيرًا ما ترى الرجل يُفتح له باب الخير إثر باب، فتسأل: ما سره؟ فيقال لك: دعوات أبويْن صالحين. هكذا يكون الدعاء الصالح كاليد الخفية التي تمهد السبيل وتنير الطريق. لذلك قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}. وهناك فرق بين "الصلاة لله، والصلاة من الله". فالصلاة لله تعني تقديم العبادة لله، أما الصلاة من الله على العبد فهي الدعاء له بالرعاية والحفظ والتوفيق.

ومن هنا نفهم أن الصلاة التي ذكرها الله ليست خاصة بالنبي، وإنما هي عامة للمؤمنين جميعًا، وأن فضل الله ورحمته تحيط بهم كما كانت تحيط برسوله الكريم، ليخرجهم من ظلمات الغفلة والمعصية إلى نور الإيمان والطاعة، وكان الله بالمؤمنين رحيمًا.

وكأن السورة - في هذا الموضع - تمضي بالقارئ في طريق مرسوم، تظهر فيه سنن الله التي لا تتبدل، والثوابت التي لا تتغير، إلى جانب ما يعترض حياة الناس من حوادث طارئة وعلاقات متحركة.

وقد ابتدأت بالحديث عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فجمعت بذلك بين أصل ثابت لا يتغير، هو صلة الله ورسله بالملأ الأعلى، وبين حركة العباد وأمرهم بأن يلتحقوا بهذا النور الواصل بين الأرض والسماء. فالصلاة، في أحد معانيها، دعاء يرفعه العبد لربه، وفي معناها الآخر صلة موصولة لا تنقطع، كتلك التي تجمع بين الرئيس وأقرب الأشخاص إليه.

وهكذا يصور الله تعالى نبيه، وهو متصل اتصالا لا يغيب لحظة بينه وبين ربه وملائكته، لا ينقطع عنه الذكر، ولا يبعد عنه اللطف، ولا تحجبه الغفلة. ثم يدعو المؤمنين إلى أن يجعلوا لهم نصيبًا من هذه الصلة، بصلاتهم عليه وتسليمهم له، كما يتصل المحب بالمحبوب اتصالا لا يقطعه بعد ولا يغلقه حجاب.

وكأنما السورة تمضي في نسقها العجيب بين وصل وفصل، والتئام وانفصال، فإذا نحن بإزاء مشهد جديد، يحكمه ذلك القانون الإلهي الدقيق الذي لا يغفل عن شيء.

يقول الله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا}.

فهذا مشهد الزواج والطلاق، مشهد الالتئام والانفصال. فالنكاح صلة وسكن، واستقرار ومودة، ولكنه إذا انقطع قبل المس، كان انفصالًا لم يترتب عليه ما يترتب على الاتصال من عدة وانتظار. لأجل ذلك أمر الله أن تكون المتعة، وأمر أن يكون السراح جميلًا.

ويمضي السياق في هذا النحو العجيب من الوصل والفصل، حتى ينتقل إلى شخص النبي، صلوات الله عليه، وما أحل الله له من النساء؛ ليرينا كيف يكون الوصل مقيدًا بالحكمة، محوطًا بالرحمة، محكومًا بالمصلحة:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}.

فلا شيء هنا يترك للهوى، ولا للغريزة المنفلتة، وإنما هو التشريع يحدد ويحكم، ويضبط ما أُحل للنبي بما تقتضيه وظيفته من خصوصية، وبما تقتضيه رسالته من رحمة بالناس وتيسير عليهم.

وتمضي الآيات، لا على وجه الجفاء والقطيعة، ولكن في رفق يشبه النسيم، وفي حكمةٍ لا تَجرح ولا تُهين، بل تُمهِّد للفصل كما يُمهَّد للفِطام، وتُقرِّر الانفصال كما يُقرَّر الشفاء، فتُرضي النفوس ولا تُكدِّرها، وتُدني القلوب ولا تُبعِدها، وتقول للنبي في وضوحٍ رقيق:

{ تُرْجِي مَن تَشَاء مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاء وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا}.

فما هذا إلا تصريف دقيق لمقام النبوة، حيث لا ينبغي للقلب أن يثقُل بما لا يُعينه على أداء الرسالة، ولا يجوز للبيت أن يزدحم بما يصرفه عن الناس، وقد خُلق ليكون لهم أبًا ومعلمًا وسراجًا منيرًا. ولقد أُوتي النبي، صلى الله عليه وسلم، حجابًا لطيفًا يصدُّ القرب حين يوشك أن يُؤذي، ويردُّ الوداد حين يشغل عن البلاغ، فيلين ويعدل ولا يظلم.

وأما النساء، وهن القوارير، الرقيقات الطبع، فقد كُتب عليهن أن يَحجبن أنفسهن عن جراءة العيون وسفاهة القلوب، فما أُوتين من ذلك الحجاب اللطيف الذي وُهب للنبي، وإنما كان لزاما أن يضعن حجابًا ماديًا، يُحيطهن بهالة من الوقار والنور، فإذا العين الجريئة ارتدَّت خاسئة، وإذا القلب المريض انكفأ على وجهه.

وما المحجَّبة إلا كالدرة في صدفها، لا تطولها اليد العابثة ولا النظرة الوقحة، أما السافرة فهي كالطعام المكشوف، يتهافت عليه الذباب، وتترامى إليه الحشرات.

ولقد نزل الوحي آمرا النبي أن يُبلّغ النساء أمرًا فيه عزٌّ لهن ورحمة:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}.

فذلك أدنى أن يُعرفن بالطهر فلا يُؤذين، ويُميَّزن بالعفاف فلا يُشتبهن، ويكرمْن فلا يُنتقصْن، فإن الله غفور لما كان، رحيم بما يكون.

وما المقصود بالعورة هنا؟ أهي هذا الجسد الذي نراه بأعيننا، فنتخيل أنه وحده موضع الستر والحجاب؟ أم أن العورة أعمق من ذلك، وأشد غورًا، وأبعد مدى؟ إنك حين تقرأ قول الله جل ثناؤه: {يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين}، تظن بادئ الرأي أن المعرفة هنا هي المعرفة البسيطة، الساذجة، التي تُنسب فيها المرأة إلى بيت، أو تُعرّف باسم، أو تُنسب إلى رجل. ولكن هيهات! ما هكذا تكون دلالة الوحي ولا مقاصد الكتاب.

إنما تُعرف المرأة بمعنى آخر، أعمق من الأسماء والأنساب. تُعرف بطبيعتها، بسرّها، بما تخفيه في قرار نفسها من رغبات تتنازعها، ومن مشاعر تسري فيها كما يسري الدفء في عروق الطفل في حضن أمّه. في نفس كل امرأة، بل في نفس كل إنسان، لحظة لا عهد له بها، ولا سلطان له عليها. لحظة تهوي عليه من غيبٍ لا يراه، وتُسقطه من حيث لا يدري. لحظة تضعف فيها النفس، وتنكشف فيها العورة.

وقد تكون هذه اللحظة عند الرجل عارضة، سريعة، فيتجاوزها بما بقي له من رصيد العزم والحذر. أما المرأة، فهي حين تهجم عليها تلك اللحظة، تُفاجأ بها، فلا تملك منها مهربًا، وتنكفئ إلى داخلها، كما ينكفئ الجنين في رحم أمه، راغبة عن كل شيء، معرضة عن هذا العالم الذي أثقل كاهلها بتكليفاته، وأربك مشاعرها بنداءاته.

في هذه اللحظة الحرجة، التي لا يراها الناس ولا يشعر بها من حولها، تنفتح كوة صغيرة في النفس، تطل منها الشهوات، وتخترق منها نوازع الإغواء، ويترصّدها من لا خلاق لهم من ذوي المكر والدهاء. فهؤلاء لا ينتظرون من المرأة إلا تلك اللحظة العابرة،

فإذا ألّمت بها، وثبوا عليها وثبة الذئب على الطريدة، وأحاطوا بها قبل أن تفيق، وقبل أن تُغلق تلك الكوّة التي لم تكن تُرى.

ومن هنا، لم يكن اللباس حائلًا بين الجسد والعين فحسب، بل كان كذلك ساترًا للعورات النفسية، التي لا يراها الناس، ولكنها قد تنكشف لحظة الضعف، ولحظة الانكسار. فإن الله، إذ يقول: {يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يواري سوآتكم وريشًا، ولباس التقوى ذلك خير}، لا يُشير فقط إلى ثوب يُغطي البدن، بل إلى ما هو أعمق: لباس يُغشي النفس، ويصونها من الانكشاف الداخلي.

لباس التقوى، هو الذي يقي النفس حين يضعف الجسد، ويحمي الوجدان حين تهتز الروح. فإن اجتمع لباس الظاهر ولباس الباطن، أمِن الإنسان من السقوط، ووقِيَ من اقتناص أولئك الذين يتصيّدون نلك اللحظات.

ومعنى قوله تعالى: {ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين}، أن المرأة إذا لبست لباس الاحتشام، وغطّت ما ظهر، وأخفت ما بطن، فقد صارت غامضة على من أراد بها السوء، مستعصية على من أراد لها الانكشاف. فإن لباسها يُعمي عيون الطامعين عن تلك اللحظة، ويحول بينهم وبين الكوّة، فلا يعرفونها، ولا يُدركون ضعفها، ولا ينالون منها شيئًا.

وهكذا ترى أن الستر ليس سترَ الجسد فقط، بل هو سترُ النفس، ووقايةُ الوجدان، وحصانةُ السرّ من أن يُفضح. وهو بهذا، ليس قيدًا يُكبّل، بل سياجًا يُحمي، وحرزًا يُصان فيه الشرف، ويُصان فيه العرض.

هكذا يظهر أن الحجاب في الإسلام ليس قيدًا بل حماية، وليس حجرا بل صيانة، وهو امتداد لتلك السنن الكونية التي تقتضي أن يحفظ الطهر، وأن تصان العفة، وأن لا تنكشف الجوهرة فتكون عرضة لكل يد آثمة أو عين خائنة.

وليس مما يُستغرب أن يجيء ذكر أهل البيت في سياق الثوابت الكونية، فإنّ في لفظ "البيت" ما يدل على الثبات والمكث والاستقرار، وهذه معانٍ لا تفارق ما ثبت في الكون

من سننٍ لا تتبدّل، وقواعد لا تتزعزع. وأهل البيت، من هذه الجهة، لا ينبغي أن يُقصر معناهم على آل النبي وحدهم، وإن كانوا في الذروة والسنام، ولكن اللفظ – كما ورد في القرآن – أوسع من أن يُحصر، وأشمل من أن يُقيد.

ألم تسمع قوله جل ثناؤه يخاطب نساء النبي، وهنّ في بيته، يقول: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}، ثم ينهى عن التبرّج، ويأمر بالصلاة والزكاة والطاعة، ثم يختم هذا التوجيه بقوله: { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}؟ أفترى الخطاب إلا لهن؟ أليس الأمر بالقرار في البيت هو المقدّمة التي تقود إلى التطهير؟ فالبيت في هذا السياق موضع الطهر، ومن قرّ فيه وأقام على هدىً، فقد دخل في أهل البيت الذين أراد الله لهم الرحمة والنقاء.

ولا عجب أن يُقال مثل هذا في زوج إبراهيم عليه السلام، حين بُشّرت ودهشت، فقال الملائكة: {رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ}. فإنّ السكن في البيت، والمقام في حماه، يضفي على أهله معنى الطمأنينة والاصطفاء.

ومن كان من الناس لا يبرح بيته، لمرضٍ أقعده، أو عذرٍ ألجأه، فهو في حكم من لزم المقام الطاهر، وابتعد عن فوضى الخروج ولغَط الأسواق، ولا يُستبعد أن يُدرَج فيمن شملتهم البركة والتطهير.

وكذلك أولئك الذين اتخذوا من بيوتهم محرابًا للعلم والكتابة، لا يخرجون إلا إلى الفكر، ولا يرحلون إلا في الكتب، فإنهم – وإن لم يُسمّوا أهل البيت – فهم في روح البيت، ومقام أهله، مستغرقون في التأمل، منقطعون للمعرفة، قائمون بما يرفع من شأن العقل ويهذّب من طبع الإنسان.

بل المعتكفون في البيت الحرام، أهل ذكر ودعاء، لم يخرجوا منه إلا ليدخلوه، ولم يبرحوا ساحته إلا ليعودوا إليه، فهم أهل بيتٍ آخر، بيتٍ جعله الله قيامًا للناس وأمنًا، وهو أول بيت وضع للناس. {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ}، فمن قصد هذا البيت، واعتكف فيه، فذاك أهل بيتٍ على معنى آخر.

ثم يرتفع الخطاب في السورة، فيحذر المؤمنين أن يقولوا قولًا يؤذي النبي، أو يفعلوا فعلًا يغضبه، إذ ليس بين النبي وأمته مجرد رابطة معلم بتلميذه أو قائد بجنده، بل هي صلة روحية عميقة، صلة قائمة على الثبات الأزلي لعهد الله ورسالاته، تتجدد في قلوب المؤمنين ولكنها في أصلها قديمة قدم العهد الأول بين الله وعباده.

وأما المنافقون والذين في قلوبهم مرض، فهم منعزلون عن هذه الصلة، مطرودون منها، فلا صلاة عليهم في السماء، ولا محبة لهم في الأرض، بل يلاحقهم اللعن والطرد حيثما حلوا، وتدفعهم سنن الكون إلى مصيرهم الذي لا مفر منه:

{لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً. مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً}.

وفي مقابل هذا المصير المخزي، يظهر دفاع الله عن أنبيائه وأوليائه، وثبات وعده لهم بأن يكون معهم، ينصرهم ويحفظهم، كما كان مع موسى عليه السلام حين ناصبه قومه العداء فلم يخذله الله ولم يسلمه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهًا}.

وما ذاك إلا لأن سنّة الله في خلقه جارية لا تتبدل: أن يكرم من اصطفاه، ويدفع عنه أذى المؤذين، وأن يخذل من بغى وافترى.

وهكذا يجري المجرى بين الثابت والمتغير: فالنبوة ثابتة في كرامتها، متحققة في عناية الله بها، وأما أذى الناس فطارئ زائل، لا يلبث أن تدوسه سنة الله الماضية بقدرة قاهرة.

***

ثم عادت السورة، في ختامها، إلى حيث ابتدأت: إلى النفس البشرية، وأسرارها الملتوية، وطرائقها التي تتناقض فيها المعرفة والسلوك، والحق والهوى. فإنك لترى الناس يعرفون، ثم يُعرضون، ويُبصرون، ثم يُنكِرون. يعرفون أن محمدًا صادقٌ أمين، لا يكذب، ولا يبهت، ولا يطأطئ رأسه للهوى، ثم يؤذونه، ويؤذون من حوله من نسائه الطاهرات، إفكًا وبهتانًا، لا لأنهم يجهلون، بل لأنهم يعلمون ويخونون ما علموا.

وما هذا إلا نكثٌ للعهد، وخيانةٌ للأمانة، تلك الأمانة التي لم يُكلَّف بها الجبل الراسي، ولا الأرض الممتدة، ولا السماء المرفوعة، فإنهنّ ـ على عظم خلقهنّ ـ أبيْن أن يحملنها، وأشفقن منها، ورجعن عنها هيبةً وخوفًا. ولكن الإنسان ـ في غفلته وجهله، في طمعه وزهوه ـ تَحَمّلها، ظنًّا منه أنه لها أهل، وهو عنها غافل، وعن عواقبها سادر.

يقول الله جل شأنه، بعد أن ذَكر أولئك الذين آذوا نبيهم كما آذى قومُ موسى نبيهم من قبل، مع علمهم بمكانته وصدقه: { إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً}.

فما هي الأمانة التي أعرضت عنها الكائنات الكبرى، ثم حملها هذا الإنسان الضعيف؟ إنها أمانة التكليف، أمانة العقل والإرادة، أمانة الصدق مع النفس، والصدق مع الخلق، والصدق مع الله.

لكن الإنسان ـ وما أكثر ما يخدع نفسه ـ خان الأمانة، وخان العهد، وكذب وهو يعلم، ونافق وهو يُبصر، فاستحق العذاب الذي أعده الله للمنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، جزاء وفاقًا:

{لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ} و أما الذين صدقوا وآمنوا، واحتملوا الأمانة بحقها، فإن الله يتوب عليهم، ويغفر لهم، وكان الله غفورًا رحيمًا:

{وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}.

هكذا تمضي سورة الأحزاب جلية ناصعة، تقيم الحجة على القلوب والعقول، وتصور لنا صورة باقية للدهر: صورة ثوابت لا تتغير، قامت بها السماوات والأرض، وصورة متغيرات عارضة، تهب بها ريح الفتن كما تهب الرياح بالسحاب.

ولم يكن مقصد السورة أن تسرد ماضياً قد انقضى، ولا أن تحكي أخبار قوم ماتوا، بل أن تضع للناس دستورًا باقياً، يعرفون به كيف يواجهون أهوال الحياة، وكيف يميزون بين ما يُبنى على صخر الحق وما يُبنى على رمل الباطل.

سـورة سبأ

الكفر يحرم الرزق

سورة «سبأ» قطعةٌ من البيان القرآني، تتآلف أجزاؤها على نغمة واحدة، هي نغمة النعمة حين تُشكر فتدوم، وحين تُكفر فتزول، فكأنها تُصوّر الرزق في مدّه وجزره، وبسطه وقبضه، على حسب ما يكون من موقف الإنسان.

تبدأ السورة بالحمد: ﴿الحمد لله﴾، وكأنها تُهيّئ النفس منذ البدء إلى أن النعمة من الله، وأن الشكر هو الموقف الطبيعي منها. ثم تصف الله بالحكمة والخبرة، لتدل على أن هذا العطاء ليس عبثًا، ولا الحرمان اتفاقًا، وإنما هو قائم على علم دقيق وتقدير محكم.

ثم تشير السورة إلى طائفةٍ خاصة من الناس: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾، فكأنها تُقيم صلةً بين العلم والشكر؛ فالعالم الحق أقدر على أن يعرف مصدر النعمة، وأقرب إلى أن يحسن استقبالها، فلا يطغى بها ولا يجحدها.

ثم تمضي السورة فتُجسّد هذا المعنى في نماذج حيّة، فتذكر داود وسليمان عليهما السلام، وقد بُسطت لهما الأرزاق بسطًا عجيبًا. فداود أُلين له الحديد، وسليمان سُخّرت له الريح، تقطع في الغدوّ والرواح ما يقطعه الناس في شهر. ولكن هذه النعمة لم تُفسدهما، بل زادتهما شكرًا، فكأن الرزق هنا مرتبط بموقف النفس منه، لا بمجرد وجوده.

ثم تنتقل السورة إلى قوم سبأ، لا انتقالًا عارضًا، ولكن لوجود صلةٍ خفية بينهم وبين سليمان، إذ كانوا في زمانه، وكانت لملكتهم مع سليمان قصة ورد ذكرها في القرآن. وهنا يظهر الوجه الآخر من القضية: أُوتي هؤلاء القوم رزقًا طيبًا، وجُعلت حياتهم ميسّرة، قريبة الأسفار، متصلة القرى، ولكنهم لم يعرفوا قدر هذه النعمة، بل ضاقوا بها، وقالوا: ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، فكأنهم طلبوا المشقة بدل اليسر، والانقطاع بدل الاتصال.

وهنا يقع التحول: يُحرَمون ما أُعطوا، وتتبدل حالهم، حتى يصبح ما كان يسيرًا عسيرًا، وما كان قريبًا بعيدًا. فإذا قارنتَ بينهم وبين سليمان، رأيت مفارقة لافتة: هذا يُعطى

فيشكر، فتُبسط له الأسباب، وأولئك يُعطَون فيكفرون، فتُقبض عنهم النعم، وكأن المسافة التي كانوا يقطعونها في يوم، صاروا يقطعونها في شهر، بعد أن اختلّ ميزان الشكر.

ثم تمضي السورة بعد ذلك، فتكثر فيها الإشارة إلى الرزق، أخذًا وعطاءً، بسطًا وقدرًا، لتقرر أن الرزق ليس دليل رضاٍ دائم، ولا الحرمان دليل سخطٍ مطلق، وإنما هو ابتلاء، يُنظر فيه إلى موقف الإنسان: أيشكر أم يكفر؟

هكذا تنتهي السورة وقد تركت في النفس هذا المعنى الواضح: أن الرزق مرتبط بالسنن الإلهية، وأن الشكر مفتاح الزيادة، وأن الكفران سبيل إلى الحرمان، وأن الإنسان إنما يُمتحن بما يُعطى، لا بما يُمنع.

تُفتتح السورة بقوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ للهَّ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾، وكأنها تُقرر من أول الأمر أن الرزق كله لله، يعطيه من يشاء، ويمنعه عمّن يشاء، لا عن عبث، بل عن علمٍ وإحاطة. ثم تُبيّن هذه الإحاطة: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾، فكأن الرزق في دخوله وخروجه، في ظهوره وخفائه، خاضع لهذا العلم الدقيق.

ثم يجيء موقف الناس: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾، فهم يُنكرون الحساب، وكأنهم يريدون رزقًا بلا مسؤولية، ونعمةً بلا جزاء. ويقابلهم أهل العلم: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾، فهؤلاء أدركوا الحقيقة، فعرفوا أن الرزق ابتلاء، وأن العطاء مرتبط بالهداية.

ثم تمضي السورة إلى داود عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً﴾، فتُعرض النعمة مقرونةً بالفضل، لا بالاستحقاق المجرد. ويُذكر تسخير الجبال والطير، ثم يُذكر العمل: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾، فكأن الرزق لا يُحفظ إلا بالشكر، وكأن الشكر نفسه عمل، لا مجرد قول.

ثم تنتقل إلى سليمان: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾، فترى الرزق وقد بلغ غايته في البسط، تُختصر له المسافات، وتُذلل له الأسباب. ومع ذلك لا تنفصل النعمة عن الطاعة، ولا يتحول الغنى إلى طغيان، لأن أساسه الشكر.

ثم تنعطف السورة إلى قوم سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ﴾، فتُعرض صورة النعمة في أبهى صورها: جنّتان، ورزق طيب، وأمن ويسر. ويأتي التوجيه واضحًا: ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾، فكأن القضية تُعرض عليهم صريحة: رزق وشكر.

ولكنهم لا يستجيبون: ﴿فأعرضوا﴾، وهنا يقع التحول، فيُبدل الرخاء شدة: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾. ثم تتبدل الجنات، ويتحول الطيب إلى خبيث، وكأن الرزق نفسه ينقلب حين يُقابل بالكفران.

ويبلغ الأمر غايته حين يقولون: ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾، وقد كانت أسفارهم قريبة ميسّرة، فكأنهم ضاقوا بالنعمة، فطلبوا ضدها، فجاءهم ما طلبوا، ولكن في صورة العقوبة لا النعمة. فيتفرقون: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾.

ثم تعود السورة فتقرر القاعدة العامة: أن الرزق بيد الله، يبسطه ويقدره، وأن الناس يُمتحنون فيه، لا يُكرمون به على الإطلاق، ولا يُهانون بفقده على الدوام: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ}. وتُبطل اعتقاد من يظن أن المال دليل القرب: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾.

ثم تمضي إلى مشهد الآخرة، حيث يظهر الحق: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾، فلا ينفع مال ولا جاه، وإنما ينفع الإيمان والعمل، أي الموقف الصحيح من النعمة حين كانت في اليد.

فإذا انتهيت من السورة، رأيت أنك لم تقرأ آياتٍ متفرقة، بل شهدت تجربة إنسانية كاملة: رزق يُعطى، وشكر يُطلب، وكفران يقع، وعقاب يتبع، ثم حساب يفصل. وكأن السورة كلها تقول للإنسان: إنما تُمتحن بما في يدك، لا بما فاتك، فانظر كيف تصنع برزقك قبل أن يُسأل عنك.

وإذا تأملنا قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾، لا ينبغي لنا أن نقف عند ظاهر الصناعة وحدها، وكأن الأمر مقصورٌ على إحكام نسج الدروع، وإنما يُفتح لك بابٌ أوسع، تُرى فيه دقة التقدير مبدأً عامًا، يمتد من العمل إلى القول، ومن الصنعة إلى الحكم.

فالتقدير هنا ليس مجرد ضبطٍ للحديد في حلقاته، بل هو رمزٌ لضبطٍ أدق، ضبط الكلمة في موضعها، والعبارة في حدّها، فلا تزيد فتُثقل، ولا تنقص فتُخلّ. وكأن الكلمة، في هذا السياق، شيءٌ يُصاغ كما تُصاغ الدروع، يحتاج إلى إحكام في النسج، وتناسب في الأجزاء، حتى يؤدي غايته.

جاء في لسان العرب: "السَّرْدُ تَقْدِمَةُ شيء إِلى شيء تأْتي به متَّسقاً بعضُه في أَثر بعض متتابعاً. سَرَد الحديث ونحوه يَسْرُدُه سَرْداً إِذا تابعه، وفلان يَسْرُد الحديث سرداً إِذا كان جَيِّد السياق له. وفي صفة كلامه صلى الله عليه وسلم لم يكن يَسْرُد الحديث سرداً أَي يتابعه ويستعجل فيه".

لهذا لو أنك نظرت إلى الكلام، لرأيته شبيهًا بالطعام في نفعه؛ فكما أن الجسد لا ينتفع إلا بما قُدّر له من غذاء، لا يزاد فيه فيفسد، ولا يُنقص منه فيضعف، كذلك العقل لا ينتفع إلا بكلامٍ موزون، يُعطى بقدر، ويُؤخذ بميزان. فإذا جاوز القول حدّه، ضاع أثره، وإذا قصر عن غايته، لم يبلغ مقصده.

ومن هنا نفهم أن الأمر لداود: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾، إنما هو توجيه إلى هذا الإحكام الشامل، الذي يظهر في القول كما يظهر في العمل. وقد أُوتي داود من هذا الحظ أوفره، إذ يقول الله تعالى في موضعٍ آخر: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾، فكان كلامه قاطعًا، لا لبس فيه ولا اضطراب، كالسيف إذا مضى في موضعه.

وليس ذلك معنى نظريًا يُذكر، بل هو حقيقة عملية نراها حين جاءه الخصمان، فحكم بينهما حكمًا سريعًا، ولكنه لم يكن اندفاعًا، بل كان أثرًا لهذا التقدير الدقيق، الذي يُحسن به الإنسان وضع الكلمة في موضعها، والحكم في زمانه.

ثم يجيء التوجيه الإلهي: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾، ليُبيّن أن هذا التقدير ليس غايةً في ذاته، بل هو وسيلة إلى العدل، وأن الكلمة إذا لم تُضبط بالحق، انقلبت أداةً للهوى، فأضلّت صاحبها ومن تبعه.

هكذا ترى أن الآية، في بساطتها، تفتح أمامك أفقًا واسعًا: تعلمك أن الدقة ليست في الصنعة وحدها، بل في الكلمة أيضًا، وأن القول كالفعل لا يبلغ كماله إلا إذا أُحكم تقديره، واستقام على ميزان الحق.

سـورة فاطر

أنتم الفقراء إلى الله

إذا أصغى المرء إلى سورة «فاطر» إصغاء المتأمل المتدبّر، وجدها تُنشِئ في نفسه شعورًا عميقًا لا يكاد يفارقه، هو شعور الفقر المطلق إلى الله، والغنى المطلق لله وحده؛ ذلك المعنى الذي تلخّصه الآية الجليلة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}..

تفتتح السورة بتمجيد الخالق، ثم تمضي فتحدثنا عن الملائكة الذين جعلهم الله رسلاً، وهم مع قربهم منه متفاوتون في القوة والمنزلة: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ...}. ثم تمضي السورة في إيقاظ الحسّ الإنساني، فتُقرّر حقيقةً لا تقبل جدالًا: أن رحمة الله إذا فُتحت للناس فلا ممسك لها، وإذا أُمسكت فلا مرسل لها. وهنا يقف الإنسان حائرًا بين الرجاء والخشية، يعلم أن أمره كله بيد الله، لا يملك منه شيئًا.

وتأخذ السورة في تذكير الناس بنعم الله التي لا تُحصى، من رزقٍ ينزل من السماء ويخرج من الأرض، فتُقيم بذلك الحجة على القلوب التي غفلت أو تغافلت. ثم لا تلبث أن تُحذّر من عدو خفيٍّ ظاهر، هو الشيطان، الذي يُزيّن للإنسان وهم الاستغناء، ويُغريه أن يتوهّم القوة والغنى، مع أنه لا يدعو إلا إلى الهلاك.

ويعود الخطاب في لطف وقوة، فيُذكّر الإنسان بأصله ومصيره، ويُريه دلائل فقره في الكون من حوله؛ فالرياح التي تُسيّر السحاب، والمطر الذي يُحيي الأرض بعد موتها، كلها شواهد ناطقة بأن الحياة لا تقوم إلا بإرادة الله. وكذلك العزة التي يطلبها الناس، فهي عند الله وحده، لا تُنال بغيره.

ويمضي البيان، فيُصوّر خلق الإنسان تصويرًا يبعث على التأمل: من تراب، ثم من نطفة، ثم حياة تتكاثر وتتنوع، لا يقع فيها شيء إلا بعلم الله وإرادته. ثم يعرض مشاهد البحرين، العذب والملح، وما فيهما من زينة ورزق، وكأن الكون كله كتاب مفتوح يدل على خالقه.

ثم ينتقل السياق إلى عرض سلطان الله في تعاقب الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر، ليُثبّت في النفس أن هذا النظام الدقيق لا يمكن أن يكون إلا من تدبير إله غني عن خلقه، محتاج إليه كل خلقه. وفي مقابل ذلك، يُبيّن عجز ما يُعبد من دون الله، فلا يملكون نفعًا ولا ضرًا، ولا يسمعون دعاءً، ولا يُجيبون رجاءً.

وفي قلب السورة، تتلألأ الحقيقة الكبرى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}، كأنها محور تدور حوله المعاني كلها، وتعود إليه الإشارات جميعها.

ثم تُبيّن السورة أن هذا الفقر ليس أمرًا يُدرك بالقول فحسب، بل يظهر في المواقف والاختيارات؛ فالإنسان لا يجد من يحمل عنه أوزاره، ولو كان أقرب الناس إليه. وتُقرّر التفاوت بين الناس في الهداية والضلال بضرب الأمثال: فليس الأعمى كالبصير، ولا الظلمات كالنور، ولا الأحياء كالأموات.

وتستأنف السورة عرض دلائل القدرة في تنوع الخلق: في الثمرات، والجبال، والناس، والدواب، اختلافًا في الألوان والطبائع، وكل ذلك يشهد بوحدة الخالق وكمال قدرته. ومن هنا تُوجّه الإنسان إلى ما يُصلح حاله: تلاوة الكتاب، وإقامة الصلاة، والإنفاق، رجاء أجر لا ينقطع وفضل لا يُحد.

ثم تُقسّم الناس في موقفهم من هذا الكتاب إلى طبقات ثلاث: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، في تصوير دقيق لحقيقة النفس البشرية وتفاوتها.

وتُطلّ السورة من بعد ذلك على مشهد الآخرة، حيث يدرك المؤمنون معنى الغنى الحق، حين يدخلون الجنة فيحمدون الله أن أذهب عنهم الحزن، ويجدون دارًا لا تعب فيها ولا نصب، كأنها الغنى الذي طالما افتقدوه في الدنيا. وفي المقابل، تُصوّر حال الذين توهّموا الغنى والاستغناء، فإذا هم في الآخرة أشد الناس فقرًا، يصرخون ويستغيثون، فلا يُجاب لهم طلب ولا يُقبل لهم رجاء.

وتختم السورة بتذكيرٍ رقيقٍ عميق: أن هذا الكون قائم بإمساك الله له، ولو شاء لزالت السماوات والأرض، وأن حلم الله بالناس هو الذي يُمهلهم ولا يُعاجلهم بالعقاب، ولو فعل ما ترك على ظهرها من دابة.

هكذا تمضي السورة من أولها إلى آخرها، تُربّي في النفس شعورًا واحدًا لا يزول: أن الإنسان، مهما ظنّ بنفسه القوة والغنى، فهو فقيرٌ إلى الله في كل لحظة، وأن الله وحده هو الغني، المحمود في عطائه ومنعه، في حلمه وعدله، وفي كل ما يُقدّره ويقضي به..

سـورة يـس

الديناميكية والحركة المستمرة

كأنما سورة {يس} حركة دائمة، لا تعرف السكون، وديناميكية مستمرة، لا تستقر على حال. ولِمَ لا؟ وقد سماها النبي صلى الله عليه وسلم "قلب القرآن"، وهل القلب إلا آلة الحركة في الجسد؟ وهل الجسد إلا صورة هذه الحركة؟ فإن وقف القلب مات الجسد، وإن تحرك دبت فيه الحياة. فكذلك هذه السورة، لا تبدأ إلا بالحركة، ولا تنتهي إلا بالحركة، وكل آية فيها نبضة، وكل نبضة إشارة إلى أن الحياة في هذا الكتاب لا تقف، ولا تسكن، ولا تركن إلى قرار.

افتتحت السورة بحرفين:

{يس}، ولا نعلم معناهما علم اليقين، ولكنهما يأتيان كما يأتي صوتٌ في الظلام يدلّ على حياة. ثم يأتي القَسَم: {وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ}، وهل يُقسم بالحكيم إلا على ما سيأتي من فعلٍ محكم؟

ثم يُنادَى الرسول: {إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.

فالحركة تبدأ من هنا: رسالة تسير، ونبيّ يمضي، وناسٌ ينتظرون، ودعوة لا تعرف القعود.

وفي مشهد المدينة، لا رسول واحد، بل اثنان. ثم يقول تعالى:{فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ}، لم يُمهلهم الزمن حتى يتفاعلوا، بل زيد عليهم دعمًا وتثبيتًا.

هكذا ترى أن الدعوة لا تتوقف، بل تتعزز وتتراكم وتتوالى. ثم يخرج {رجلٌ يسعى}، من أقصى المدينة. يسعى، لا يمشي. يسعى في إيقاع اللغة كما في إيقاع الجسد، وكأنما الإيمان إذا تمكّن من القلب، دفع الإنسان إلى الجري.

ثم تُقتَل الدعوة، ويُقتل الداعي، ويقال له: "ادخل الجنة".

لكنه لا يسكت، لا يهدأ، بل يقول من عالم آخر:

{يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ}

إنه صوت مَن عبر إلى الجهة الأخرى، لكنه لا يزال يرسل الأصداء.

فحتى بعد الموت، الكلمة تتحرك، والنية تتحرك، والدعاء يتحرك.

ثم تتسع السورة لتُخرجنا من المدينة، ومن المشهد البشري، إلى مشهد كوني.

فالشمس لا تقف: {تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا}.

والقمر لا يسكن: {قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}.

والفلك لا يتباطأ: {لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ، وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}.

كل شيء يتحرك: الزمن، الضوء، الفلك، المدارات، الجداول، العيون، الليل، النهار.

كأن الكون في سورة يس آلة عظيمة لا تعرف التوقف.

وفي ختام مشاهد الكون، يُذكر الناس بنار تُخرج من الشجر الأخضر. فهذا النبات الحي، إذا جفّ، صار نارًا.

وما هذا الفحم إلا شجر ميت، لكنه ما زال يُسيِّر القطارات، ويُدير الآلات، ويشعل المواقد. حتى الموت، فيه حركة. حتى الجماد، فيه حياة دفينة تنتظر الاشتعال.

وتتحول الآيات إلى مشاهد من يوم القيامة: الأجساد تُبعث، الألسنة تُنطق، الجلود تشهد، القبور تبعثر..

{فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ}،ينسلون، كأنهم يفرّون من قيد، كأنهم يُجبرون على الجري، لا مشي، لا تباطؤ.

لكن، هل مات الإنسان حين مات؟ هل سكنت جوارحه فخمد أثره؟ كلا.

وتأتي الآية العجيبة، المزلزلة:

{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ}.

فما كانوا قدّموه من خير أو شر، لا يزال يسير. وما تركوه من آثار، سواء أكان علمًا، عملًا، أثرًا، ظُلما أو عدلًا - كله يكتب، يسجّل، يجري كأنه حي.

حتى آثار الموتى تبقى فاعلة ومتحركة بعد موتهم. كأننا أمام حياة ثانية، لا تعيشها الأجساد، بل تعيشها الأعمال. فمن زرع فكرة، بقيت تنمو. ومن نشر كلمة، ظلت تسير على الألسنة.

ومن ظلم، فإن ظله لا يزال يتقلّب على وجوه الناس، كالسحاب الثقيل.

هكذا... يموت الجسد، لكن الأثر لا يموت. إنه امتداد للحركة بعد انقطاع النفس، واستمرارٌ في الزمن لمن غاب عن الأنظار. إنها صورة مهيبة لحساب لا يُبنى على اللحظة، بل على كل ما تفرّع من اللحظة من أثر، كأمواج صغيرة تنطلق من قطرة في بحر لا ساحل له.

{الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ}

حتى الموت، في هذا الكون الذي رسمتْه سورة يس، ليس ضدّ الحياة، بل خادم لها.

وما الجمر إلا لهبٌ نائم، وما الفحم إلا شجرة أخرى تمشي على سكة الحديد، وما اليباس إلا لون آخر من ألوان الطاقة! وهذا هو المعنى العظيم في سورة يس: أن الكون كلّه لا يسكن، ولا يهدأ، ولا يفنى، بل يتحوّل، ويتبدّل، ويدور:

من أخضر إلى نار،

ومن ماء إلى نبات،

ومن موت إلى بعث،

ومن جهل إلى وعي،

ومن كفر إلى إيمان.

فليست الحركة في سورة يس حركة المعنى وحده، بل حركة الكلمة أيضًا.

فالأفعال قصيرة، قاطعة، كأنها طلقات:

"فعززنا"، "لنرجمنكم"، "يسعى"، "نسلخ"، "نُفِخ"، "ينسلون"، "فَجَّرْنَا"...

كلها كلمات كأنّها تُطلق، لا تُلفظ فقط.

ثم تَسَارُع الشمس والقمر، وجريان السفن، وتتابع الفصول، يُملي على السورة إيقاعًا سريعًا لاهثًا.

حتى التهديدات، تأتي كطلقات في الهواء:

"لنرجمنكم"، "مُخْضَرون"، "فإذا هم خامدون".

وتلك الأخيرة وحدها -"خامدون" - توقف كل هذا السيل.

كأنها زر الإطفاء بعد اشتعال طويل.

وفي النهاية، كل من لم يدخل في الحركة الإلهية، يُخمد.

هكذا، من أول آية إلى آخرها، ترسم السورة صورة هائلة للحركة:

حركة الأنبياء، وحركة الناس، وحركة الزمن، وحركة الأجرام، وحركة البعث، بل وحركة الأعمال بعد موت أصحابها... فهي ليست سورة عن المعجزة فقط، ولا عن البعث وحده، بل عن الانخراط في التيار الإلهي للحياة.

عن أن تبقى في المسير، أن لا تقف. وإن وقفت، فإنك تخرج من النص، وتُلقى في قاع "خامدون".

سـورة الصافات

التمرد والاستسلام

لو نظرنا في سورة الصافات نظرا متصلاً، لا يقف عند الآيات منفردة ولا عند القصص متفرقة، لوجدنا أن السورة كلها تكاد تدور حول محور واحد يتكرر في صور مختلفة "محور التمرد والاستسلام". فكأن السورة تعرض على القارئ تاريخ الخليقة بين هذين الموقفين: موقف من يذعن للحق ويخضع له، وموقف من يعاند ويتمرد عليه.

وتبدأ السورة بقسم عجيب يلفت النظر:

{وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا . فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا}

وهنا نشهد طوائف من الملائكة مصطفة في طاعة لا اضطراب فيها ولا اختلاف، صفوفًا منتظمة تؤدي ما أمرت به. فمنهم من يزجر ويردع، ومنهم من يتلو ذكر الله. فكأن السورة تضع منذ بدايتها صورة للعالم الأعلى: عالم النظام والطاعة الكاملة، في مقابل عالم آخر سيظهر بعد قليل، عالم التمرد والعصيان.

هكذا تضعنا السورة منذ اللحظة الأولى أمام هذه الثنائية الأبدية: استسلام الخاشعين، وتمرد العاتين، ولكل من هذين صنف من الملائكة يتولاه.

ثم تنتقل السورة إلى ذكر الشياطين، فتحدثنا عن تمردهم ومحاولتهم اقتحام ذلك النظام السماوي، إذ يسترقون السمع من الملإ الأعلى. ولكنهم لا يظفرون بما يريدون، بل يقذفون بالشهب ويطردون طردًا. فكأن السماء نفسها تأبى أن تسمح للتمرد أن يشاركها نظامها:

{وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ .لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى، وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ}.

وبعد هذا المشهد العلوي تهبط السورة إلى الأرض، حيث يظهر التمرد في صورة أخرى، صورة الكافرين الذين يسخرون من الإيمان وينكرون البعث:

{أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ}؟!

وهنا يبلغ التمرد ذروته، إذ لا يكتفي الإنسان بالشك، بل يتخذ من السخرية وسيلة لإنكار الحق.

ثم تعرض السورة مشهدا من مشاهد الآخرة، بين صديقين كانا في الدنيا. أحدهما آمن واستسلم لله، والآخر تمرد وكذب. فيسأل المؤمن عن صاحبه، حتى إذا رآه في سواء الجحيم دار بينهما حديث قصير فيه شيء من العتاب وشيء من الحسرة. وهو مشهد سريع، لكنه يكشف مصير الطريقين: طريق الاستسلام الذي يقود إلى النجاة، وطريق التمرد الذي يقود إلى الهلاك:

{قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ. قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ. فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ}.

ثم تمضي السورة في تصوير التمرد تصويرًا رمزيًا حين تتحدث عن شجرة الزقوم:

{إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ}

تلك الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم، وكأنها نبات نَبَتَ من التمرد والعصيان، حتى إن طلعها يُشبه رؤوس الشياطين. فكأن جهنم لا ينبت فيها إلا ما يشبه أهلها.

ومن هنا تنتقل السورة إلى تاريخ الرسل، لتعرض الصراع القديم بين الدعوة إلى الله وتمرد الناس عليها. فكل رسول يأتي قومه بالحق، فيستجيب له بعضهم ويعاند أكثرهم.

فهذا إبراهيم جاء ربه بقلب سليم، قلب خالص من الشرك والكبر. ولكنه وجد قومه قد تمردوا على الحق، فأرادوا قتله وألقوه في النار. ومع ذلك لم يتراجع عن استسلامه لله.

ثم نرى أعجب صور الاستسلام في قصة ابنه إسماعيل، حين أخبره أبوه أنه رأى في المنام أنه يذبحه. فلم يتمرد الابن ولم يعترض، بل قال لأبيه:{يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}. وهنا يبلغ الاستسلام لله غايته، حتى يرفع الله البلاء ويجعل الفداء: {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ. سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ}

ونرى موسى وهارون يدعوان قومهما، لكن القوم يتمردون في غياب موسى ويتخذون العجل إلهًا.

ونرى إلياس وقومه المتمردين الذين اتخذوا "البعل" إلهاً: {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ. أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ}؟

وتذكر لوطًا وقومه، الذين لم يكتفوا برفض دعوته، بل تمادوا في عنادهم حتى هلكوا، وكانت امرأته نفسها من الذين بقوا مع المتمردين.

وأخيراً تذكر يونس، الذي ضاق بتمرد قومه فانصرف مغاضبًا، حتى أدركه ما أدركه، ثم نجا حين استغفر وتاب: {فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}

ثم تختم السورة بتقرير الحقيقة الكبرى: أن الغلبة في النهاية لعباد الله المخلصين، وأن التمرد مهما طال لا يستطيع أن يقف أمام الحق:

{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ. وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}

فكأن السورة كلها، بهذه اللوحات المتعاقبة، تريد أن تقول لنا: إنها قصة واحدة تتكرر على مر العصور والأجيال. قصة الإنسانية كلها: قصة الذين يستسلمون لله فيسعدون، والذين يتمردون عليه فيشقون.

سـورة ص

الخصومة

المحور الذي تنتظم حوله سورة «ص» هو الخصومة، كأنما هي خيط دقيق يمتد في آياتها جميعًا، فيجمع أطرافها ويؤلف بين مشاهدها المختلفة.

ولعلّ القارئ لا يخطئ إذا وقف عند اسم السورة، حيث هذا الحرف المفرد: ﴿ص﴾، فيتساءل عن سرّه، ويُحاول أن يلتمس له صلةً بما يشيع في السورة من معانٍ. وليس من سبيلٍ إلى القطع في تأويل هذه الحروف، فقد وقف عندها القدماء، وردّوا علمها إلى الله، ولكن ذلك لا يمنع أن يجد الذوق فيها ما يُؤنسه، وأن يلمح بينها وبين سياق السورة شيئًا من التناسب.

فهذا الصوت، بما فيه من جهرٍ وقوة، يكاد يقع في السمع وقوعًا شديدًا، كأنه طرقٌ أو صدم، ثم تمضي السورة، فإذا الخصومة تتردد في آياتها ترددًا لا يكاد ينقطع: خصومة بين الكافرين والحق، وخصومة بين الأمم ورسُلها، وخصومةٌ تُعرض على داود، ثم جدلٌ في النار، ثم تلك الخصومة الأولى بين إبليس وأمر ربه.

فكأن هذا الحرف في مطلع السورة يُلقي في النفس منذ البدء نغمةً من نغماتها، ويهيئها لهذا الجوّ من الشدّة والجدل. ولا يكاد يخفى أن حرف الصاد يشيع في ألفاظٍ تدور حول معنى الخصومة: كالخصام، والصراع، وما إليها، وهذا قد يبعث في النفس خاطرًا يوهم بوجود صلةٍ صوتية بين مطلع السورة ومحورها الذي يقوم على التخاصم.

والسورة تُستفتح بهذا الإيقاع الصارم: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}، فتضع القارئ منذ البدء في جوّ من التنازع والعناد، حين تقرر أن الكافرين ليسوا في شكٍّ بريء، وإنما هم في عزةٍ وشقاق، أي في كِبرٍ يدفعهم إلى الخصومة، لا إلى البحث عن الحق. ومن هنا ينشأ الموقف كله: إنهم لا يجادلون ليهتدوا، بل ليغلبوا، ولا يعارضون ليصلوا، بل ليُبقوا على ما ألفوا.

ثم تمضي السورة، فتستحضر التاريخ، لا لترويه، ولكن لتحتجّ به، فتُري القارئ أن هذه الخصومة قديمة، وأنها لم تكن يومًا مقصورة على قوم دون قوم. فقوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، وسائر الأمم، كلهم خاصموا رسلهم، وكلهم انتهوا إلى المصير نفسه، وكأن في ذلك قانونًا لا يتخلف: أن الخصومة إذا قامت على الباطل، انتهت إلى الهلاك.

لكن السورة لا تقف عند هذا الحد، بل تنفذ إلى أعماق النفس الإنسانية، فتُصور الخصومة في أدقّ صورها، حين تعرض قصة داود عليه السلام مع الخصمين. وهنا لا يكون الصراع بين كفر وإيمان، بل بين حقين يلتبسان، فيحتاجان إلى قضاء عادل، لا يتعجل ولا ينخدع بالظاهر. فكأن السورة تُعلم الإنسان كيف يخاصم، لا كيف يتجنب الخصومة فحسب.

ثم تعرض نماذج من الأنبياء، كداود وسليمان وأيوب، لا لتقصّ أخبارهم على وجه الحكاية، ولكن لتُظهر كيف يكون الموقف من الابتلاء، وكيف يُضبط الغضب، وكيف تُردّ الخصومة إلى ميزان العدل والرحمة. ففي هذه النماذج نرى الإنسان حين يسمو، فلا تدفعه الخصومة إلى الظلم، ولا يخرجه الألم عن الصبر.

ثم ترتفع السورة فجأة إلى مشهد الآخرة، حيث تتجرد الحقائق، ويقف الناس في مواجهة أعمالهم، فيتخاصم أهل النار، ويتلاومون، ولكن خصومتهم هناك لا تُغني عنهم شيئًا، لأنها جاءت بعد فوات الأوان. وكأن السورة تلمّح إلى أن الخصومة النافعة هي ما كان في الدنيا، حيث يكون الاختيار والعمل.

وأخيرًا، تعود السورة إلى الأصل الأول لهذا الصراع كله، فتذكر قصة خلق آدم، وأمر الملائكة بالسجود، وامتناع إبليس. وهنا تتجلى الخصومة في صورتها الكبرى: خصومة بين الكِبر والطاعة، بين الهوى والأمر الإلهي. ومن هذه اللحظة يبدأ تاريخ طويل من الصراع، يتكرر في كل نفس، وفي كل جيل.

فإذا انتهيت من السورة، شعرتَ أنك لم تقرأ قصصًا متفرقة، ولا مواعظ متباعدة، بل شهدتَ رحلة متصلة، تبدأ من السماء، وتمرّ بالأرض، وتنتهي إلى الآخرة، محورُها جميعًا موقف الإنسان من الحق حين يواجهه: أيخضع له، أم يخاصمه؟

تُفتتح السورة بالحرف المفرد: ﴿ص﴾، كأنما هو تنبيه واستدعاء للسمع والقلب، ثم يعقبه القسم: ﴿والقرآنِ ذي الذكر﴾، ليُهيّئ النفس لتلقي قضية كبرى. وما تلبث الحقيقة أن تنكشف: ﴿بل الذين كفروا في عزةٍ وشقاق﴾، وهنا تبدأ الخصومة، خصومة أساسها الكِبر، لا البحث عن الحق.

ثم تذكّر السورة بمصير من سبق: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، وكأنها تقول إن الخصومة إذا جاوزت حدها انتهت إلى الهلاك. ويستمر العجب: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، فتعجبهم ليس إلا وجهًا من وجوه الخصام، ثم يبلغ الاتهام غايته: ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

ويشتد الجدل: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾، فهي خصومة فكرية في ظاهرها، ولكنها في حقيقتها دفاع عن مألوفٍ ألفوه. ثم نرى زعماءهم يحرض بعضهم بعضًا: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾، فيتحول الخلاف إلى تحزب، والتحزب إلى صراع منظم.

ثم تنتقل السورة إلى مشهد آخر من الخصومة، أوسع نطاقًا: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ﴾، فتتوالى الأمم، وكلها تخاصم رسلها، وكلها تنتهي إلى المصير نفسه، حتى يجيء الحكم القاطع: ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾.

وبعد هذا العرض التاريخي، تخفّ حدّة السياق قليلًا، لنجد قصة داود عليه السلام: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾. هنا خصومة بشرية خالصة، فيها الدعوى والجواب، وفيها استعجال الحكم، وفيها تنبيه إلى أن العدل لا يقوم إلا على التثبت. وكأن السورة تقول إن الخصومة لا تُذم لذاتها، وإنما تُذم إذا غلب عليها الهوى.

ثم تمضي إلى سليمان، فترينا خصومته مع نفسه وما تشتهيه: ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾.

ثم إلى أيوب وخصومته مع زوجته: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ﴾، وفي هذا إشارة دقيقة إلى خصومة خفيفة عارضة، عُولجت بالرحمة، لا بالشدة. فكأن السورة توازن بين العدل والرفق، حتى في أدقّ صور النزاع.

ثم تعود فترفعنا إلى مشهد الآخرة: ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾، فيبدأ تخاصم أهل النار، يتلاومون، ويتبادلون التهم: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

وفي النهاية تنتقل السورة إلى خصومة الملأ الأعلى: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

وأخيرًا تبلغ السورة ذروة الخصومة وأصلها الأول، وهي الخصومة بين الله عز وجل وبين إبليس: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ﴾، ثم الأمر بالسجود، ثم الاعتراض: ﴿قال أنا خيرٌ منه﴾. هنا خصومة إبليس، خصومة قائمة على القياس الفاسد والكِبر، ومنها نشأ الصراع الأكبر في الوجود.

ويُطرد إبليس، لا لأنه جادل، بل لأنه جادل استكبارًا، وتستمر خصومته في صورة أخرى:﴿لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فكأن السورة تختم بما بدأت به: خصومة بين الحق والباطل، بين الهداية والضلال، تمتد من السماء إلى الأرض، ومن بدء الخلق إلى يوم الحساب.

وهكذا إذا قرأت السورة متصلة، رأيتها وحدة واحدة، تنتظمها فكرة الخصام: في النفس، وفي المجتمع، وفي التاريخ، وفي المصير، حتى لكأنها تقول إن الإنسان لا يُمتحن بشيء كما يُمتحن بموقفه من الخصومة: أيتخذها سبيلًا إلى الحق، أم يجعلها أداة للباطل؟

سـورة الزمر

حُجُب من وراء حجب

لعل من أمتع ما يلقاه القارئ في سورة الزمر أن يقرأها على أنها رحلة بين الحجب، أو أنها حديث متصل عن حجاب يعقبه حجاب، حتى إذا انتهت السورة انكشفت الحجب كلها، ووقف الناس أمام الحقيقة العظمى لا يسترها ستر ولا يحول دونها حائل.

تبدأ السورة بقوم أحاطت بهم حجب الفكر، وغلبت عليهم أوهام التقليد، فزعموا أن ما يعبدون من دون الله إنما يقربهم إلى الله زلفى، ثم لم يقف بهم الأمر عند هذا الحد، بل مضوا في أوهامهم حتى نسبوا إلى الله الولد، سبحانه وتعالى عما يقولون. فكانت هذه أول الحجب التي تعرضها السورة: حجب العقل إذا أظلم، وحجب القلب إذا انصرف عن الهدى.

ثم تنتقل السورة إلى هذا الكون الفسيح، فإذا الليل يتكور على النهار فيحجب ضياءه، وإذا النهار يتكور على الليل فيحجب ظلمته، فكأن الحياة كلها قائمة على تعاقب الظهور والخفاء، وعلى مجيء الحجاب بعد الحجاب.

ثم تنظر السورة إلى الإنسان في أصل خلقه: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ} فإذا هو في بطن أمه، تحيط به الظلمات، وتكتنفه الأستار، وقد جعله الله في قرار مكين تحجبه ثلاثة حجب عن أعين الناس وعن عالمهم الذي يعيشون فيه.

ثم تذكر السورة أن نفسًا لا تحمل عن نفس وزرها، وأن إنسانًا لا يقوم مقام إنسان، ولا يحجب عنه جزاء عمله، فلا يجد المرء يوم الحساب من يتحمل عنه تبعة ما قدمت يداه، ولا من يقف بينه وبين ما استحق من ثواب أو عقاب.

ثم تعرض السورة صورة الإنسان حين يمسه الضر، فإذا الحجب التي صنعها لنفسه تتساقط، وإذا الوسائط التي تعلّق بها تذوب، وإذا قلبه يتجه إلى الله وحده، منيبًا إليه، داعيًا له، ناسياً كل ما كان يتخذه حجابًا بينه وبين ربه: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ}.

ثم تذكر الذين يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، يناجون ربهم في ظلمات الليل وسكونه، فكأنهم بذلك يقيمون بينهم وبين العذاب حجابًا من الإيمان والطاعة، ويجعلون من عبادتهم وقاية تسترهم من سوء المصير: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ}.

ثم إذا انتقلت السورة إلى مشاهد الآخرة رأيت صورة أخرى من الحجب؛ فالكافرون تحيط بهم الظلل من فوقهم ومن تحتهم، فتحجب عنهم الرحمة كما أحاط بهم العذاب: {لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ}

وفي المقابل ترى المؤمنين في غرف عالية، فوقها غرف أخرى، يرتفع بعضها فوق بعض، في مشهد تتوالى فيه الطبقات كما تتوالى الحجب: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}.

ثم تعود السورة إلى الأرض، فتحدثنا عن الماء الذي أنزله الله من السماء، ثم سلكه في الأرض وحجبه فيها، وجعله ينابيع تخرج منها الثمرات المختلفة الألوان، ليبقى هذا الماء المستور مصدرًا للحياة والنماء: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ...}.

ثم تعرض السورة فريقين من الناس: فريقًا شرح الله صدره للإسلام، فانقشعت عنه الغشاوات، وزالت من أمامه الحجب، فأبصر الحق واضحًا جليًا؛ وفريقًا آخر قست قلوبهم، فتكاثفت عليها الحجب حتى لم يعد الذكر يجد إليها سبيلًا.

ثم تذكر كتاب الله، هذا الكتاب الذي نزل هدى ونورًا، فمن آياته ما هو واضح بين، لا يكاد يخفى معناه على أحد، ومنها ما يحتاج إلى مزيد من النظر والتدبر، فيبقى دون فهمه الكامل كثير من الناس، وكأن بينه وبين عقولهم حجابًا من قصور الفهم أو ضيق الإدراك: {اللّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ}.

ثم تمضي السورة فتصور قومًا لا يجدون يوم القيامة شيئًا يستترون به من النار، ولا ما يحجب عنهم العذاب، حتى لا يبقى لهم إلا وجوههم يتقون بها سوء المصير، فيبلغ

الضعف والهوان غايته: {أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ}.

ثم تذكر النوم والموت، فتخبرنا أن الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، فكأن الأرواح تغيب وراء حجاب، ثم تعود منه، أو تبقى فيه إلى أن يأذن الله: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى...}.

ثم تبلغ السورة من أمر العذاب مبلغًا عظيمًا، فتخبر أن الذين ظلموا لو ملكوا ما في الأرض جميعًا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب، ولكن لا مال يحجب، ولا فداء يمنع، ولا قوة تدفع ما قدره الله.

ثم تأتي الخاتمة: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ . وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ}.

وهي أروع ما في هذه الرحلة الطويلة من الحجب. فإذا الصور قد نُفخ فيه، وإذا الخلق قد بُعثوا، وإذا الأرض قد أشرقت بنور ربها، وإذا الكتب قد وضعت، وإذا النبيون والشهداء قد جيء بهم، وإذا الحقائق كلها قد ظهرت بعد خفاء.

هنالك تنكشف الحجب التي صحبت الإنسان منذ أول السورة إلى آخرها؛ فلا يبقى ستر على حقيقة، ولا غطاء على شيء، ويرى الناس الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم، ويقضى بين الخلق بالحق، ويوفى كل إنسان جزاء عمله كاملًا غير منقوص.

هكذا تبدأ السورة بحجب تحيط بالعقول والقلوب والأنفس والأكوان، وتنتهي بانكشاف شامل لا يبقى معه خفاء، وكأنها تريد أن تنقل الإنسان من عالم الستر إلى عالم الظهور، ومن ظلمات الحجب المتراكبة إلى نور الحقيقة الكاملة، حتى يختم المشهد كله بذلك المشهد الخالد: {وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

سـورة غـافر

الجدال بالباطل

هذه السورة سُمّيت بـ«غافر»، لا لأن فيها لفظ الغفران فحسب، بل لأنها تُطلِعك على وجهٍ من وجوه الرحمة الإلهية التي لا تكاد تُصدّق: جدالٌ بالباطل، وتكذيبٌ بالحق، وإصرارٌ على الغيّ، ومع ذلك يغفر الله، ويقبل التوبة، ويصبر، ويحلم، كأنّه يُنادي العباد قائلاً: "هم يُجادلونني في ربوبيتي، ويكابرون في ألوهيتي، ويُنكرون بعثي، ولكنني أنا غافرُ الذنب، قابلُ التوب".

فلو أني أردت أن أصف هذه السورة كما يصف الشعراء قصائدهم، لقلت إنها سورة تجلّت فيها المعركة، لا بالسيوف والرماح، بل بالحجج والألسنة، بين الحق الساطع الذي لا عوج فيه، وبين الباطل المموَّه الذي يلبس أثواب البلاغة ويقعد في مجالس الزينة والسلطان.

إنها سورةٌ تبدأ بالغفران والرحمة، وتختم بالحسرة والندامة، وما بين البدء والخاتمة دروسٌ في الجدل، وعِبرٌ في المصير. تُريك السورة كيف أنّ الناس ما زالوا يجادلون بالباطل، لا لأنهم يجهلون، بل لأنهم يستكبرون؛ يجادلون لا ليصلوا إلى الحق، ولكن ليُطفئوا نوره، وما هم ببالغيه.

تُريك السورة، منذ أولها، أن المجادلين في آيات الله مصيرهم خسرانٌ أينما حلّوا، ومآلهم البوار مهما ارتحلوا، وأن من قبلهم من الأمم فعلت مثل ما فعلوا، فجادل قوم نوح، ثم تعاقبت الفرق والأحزاب، وكان كل حزبٍ بما لديهم فرحون، وكل فرحٍ منهم كان بجهلٍ أو هوى، لا بعلمٍ ولا هدى.

فالعصاة، يجادلون لا طلبًا للحق، إنما دفعًا له:

{مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ} .

وهنا بيت المعنى ومحور السورة، فالقوم يجادلون، وهم يعلمون في دخائل أنفسهم أنهم مقصّرون، مذنبون، لكنهم يحبّون أن يظهروا في ثياب الفلاسفة. فالجدال هنا ليس فضيلة،

بل رذيلة، لأنه ليس طلبًا للحق، وإنما هو مكرٌ بالحق، يريد أن يُظهِر أنه عقلٌ، وهو في حقيقته تغطية للهوى والكبر. يجادلون لا لأنهم يطلبون العلم، بل لأنهم يكرهون أن يكون فوقهم من يُطاع.

وإذا كان أهل الباطل يسند بعضهم بعضًا، ويزيِّن بعضهم لبعض ما هم فيه، فإن أهل الإيمان لهم مددٌ من السماء، استغفارٌ من الملائكة، وسكينةٌ في القلوب، ورحمةٌ من ربٍ غفور. وإنّك لتسمع في السورة قولاً تهتزّ له النفوس:

{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}.

أما أهل الباطل فهم يُبغضون أنفسهم يوم يرونها قد أوردتهم المهالك، ولكن مقت الله لهم أشدّ وأسبق:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ}.

ثم تتنقل الآيات إلى مشاهد أخرى من الجدل، فتذكر فرعون وموسى، وتُريك كيف أنّ الطغيان يُغلق القلب عن سماع الحق، حتى وإن جاء على لسان مؤمنٍ من آل فرعون، يكتم إيمانه ولكن لا يكتم بيانه، يُجادل قومه بالحسنى، ويستنهض عقولهم، ولكن القلوب إذا طُبع عليها لم تنفعها حُجّة، ولم تُجدِ فيها موعظة.

وقد جاء مثل فرعون في هذه السورة، لأنه رجل جمع البأس والغرور والقول الكثير. انظر إليه كيف يجادل:

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ}.

{مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ}.

أرأيت كيف يُلبِس القتلَ ثوبَ النصح، ويجعل من الاستبداد رأيًا رشيدًا؟ هذا هو الجدال بالباطل كما تصوّره السورة، لا هو جدال العلماء، ولا هو بحث الحكماء، بل هو كِبرٌ يُجمَّل، وهوى يُزخرف.

ويعود الذكر في الآيات إلى سبب هذا العمى، فيقول الله: {كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}، ويُبيِّن أن الذين يجادلون بغير سلطانٍ ولا حجةٍ إنما يدفعهم الكبر، لا الحق، ويصرفهم الهوى، لا الدليل.

وتُريك السورة أنّ الجدل بالباطل ليس خلافًا عابرًا، بل هو مرضٌ في الصدر، داءٌ أصله الكِبر، وفرعه الاستكبار. تجد فرعون يقول في غرورٍ لا يعرف قدر نفسه:

{ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ}

كأنّه يظن أنّ الحقيقة في السماء لا على الأرض، وأنه إن ارتفع بجسده أدرك سرّ الألوهية بعقله، وما علم أنّ العمى عمى القلوب لا عمى الأبصار.

وما أجمل ما يصوره الله في قصة الرجل المؤمن من آل فرعون، الذي يكاد يكون ضميرًا ناطقًا بالحق في مجلس استحال إلى نادٍ من نوادي الجدل الكاذب. لم يكن ذلك الرجل نبيًّا، ولكنه كان صادقًا، يشبه المؤمن الذي يرى الحريق في دار قومه، وهم يضحكون، فيصرخ: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ}.

ثم تتوالى الآيات، فتحدثنا عن أقوام جاءتهم الرسل بالبينات، فما كان منهم إلا أن قالوا: "سحرٌ، كذب، أساطير الأولين"، وما ذاك إلا لأن الباطل لا يستطيع أن يردّ الحق بالحجة، فيلجأ إلى الشتيمة، ولباس الشتيمة هو السخرية.

ولك أن ترى كيف تختم السورة حديثها عن المجادلين بتهديد رفيق، كأن الله لا ييأس منهم، فيقول: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ}.

فها هو الكبر، عدو الحق، ورفيق الباطل، قد انكشف. الجدال الذي تتحدث عنه السورة ليس عقلاً، بل مرض في القلب، والقلوب المريضة لا تستقيم إلا بالرجوع، لا بالمغالبة.

ويستمر الجدل، حتى يصل إلى يوم القيامة، فإذا المجادلون في النار، وإذا الضعفاء يلومون المستكبرين، وإذا أهل النار يُناشدون خزنتها أن يُخفِّف عنهم يومًا من العذاب، ولكن هيهات! لقد جادلوا فماتوا على الجدل، فلا تُقبل منهم شفاعة، ولا يُجاب لهم دعاء:

{وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ}

ويختم السياق بلمحةٍ عظيمة الدلالة، حين يُبيّن أن القوم فرحوا بما عندهم من العلم، لا علم الآخرة، ولا علم السلوك الحق، بل علمٌ ماديٌّ يظنّون به أنفسهم قد بلغوا الحقيقة، فيسخرون من الغيب، ويكذبون الرسل، فإذا نزل بهم بأس الله، ذاقوا الندم، ولكن لا ينفعهم الندم:

{فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون}

تلك، هي سورة غافر، سورة الجدال والصفح، سورة المكر والكظم، سورة تضعك أمام حقيقتين لا مهرب منهما: أن المجادل بالباطل مأخوذٌ بعقله قبل أن يُؤخذ بفعله، وأنّ الله، مع ذلك، غفورٌ رحيم، لا يعجل بالعقوبة، وإن كانت بيده، ولا يُبادر بالعذاب، وإن كان له، ولكنه يدع للناس فرصة، ويُمهلهم لعلهم يرجعون، فإذا أبَوا الرجوع، فإن أخذه أليمٌ شديد.

إن سورة غافر ليست إلا لوحة من لوحات الصراع بين من يستقوي بالمنطق، وبين من يستقوي بالسلطان. وهي ترينا أن الجدل، حين يكون بالباطل، يصبح ستارًا من دخان يحجب به الناس نور الله.

وهذا هو المحور الذي تلتف حوله السورة كلّها: الجدال بالباطل، لا لنقض الحجة، ولكن لسترها. لذلك كانت الدعوة فيها إلى الإخلاص في السؤال، لا التشدّق في الجواب.

سـورة فصلت

المستقبل والأزل

لعل القارئ إذا تدبر سورة فصلت رأى أنها تمتد بين طرفين متباعدين: طرف يعود به إلى البدايات الأولى، وطرف يمضي به إلى الغايات الأخيرة. فهي لا تكاد تستقر عند لحظة من لحظات الحاضر إلا لتردها إلى أصل قديم أو لتصلها بمستقبل منظور. وكأن السورة كلها حركة متصلة بين ما كان وما سيكون، بين بدء الأمر ومنتهاه.

تبدأ السورة بهذا الكتاب الذي فصلت آياته وجعل عربيًا مبينًا، رحمة للناس وهدى لهم: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}.

ولكن الناس لم يستقبلوه جميعًا استقبال المهتدين، بل وقف فريق منهم دونه موقف المعرضين، فقالوا إن قلوبهم في أكنة مما يدعوهم إليه، وإن في آذانهم وقرًا، وإن بينهم وبينه حجابًا. فكأن الحق قد جاءهم واضحًا، ولكنهم اختاروا أن يجعلوا بين أنفسهم وبينه الحواجز والسدود.

ثم تمضي السورة فتقرر أن هذا الوحي الذي نزل على محمد ﷺ ليس أمرًا جديدًا ابتدأ به الزمان، وإنما هو الامتداد المتصل لرسالات الأنبياء جميعًا، وأول ما قامت عليه تلك الرسالات وآخر ما دعت إليه أن الله إله واحد لا شريك له، وأن الطريق إليه واحد وإن تعددت الأمم وتعاقبت القرون.

ثم تعود السورة بالقارئ إلى أزمنة بعيدة، إلى الأيام الأولى التي خلقت فيها الأرض، وأرست فيها الجبال، وقدرت فيها الأقوات، ثم رفعت السماوات وسويت، وجعل في كل سماء أمرها:

{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا

طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ }.

فكأن السورة تريد أن ترد الإنسان إلى أول المشهد، إلى اللحظة التي بدأ فيها هذا الكون رحلته الطويلة.

ثم تنتقل إلى صفحات من تاريخ الأمم، فتذكر عادًا الذين اغتروا بقوتهم وقالوا من أشد منا قوة، وتذكر ثمود الذين أراهم الله سبيل الهدى فآثروا العمى عليه. وهكذا يرى القارئ أن تكذيب الحق ليس حادثًا جديدًا، وإنما هو داء قديم يتكرر كلما أعرض الناس عن ربهم وغرتهم قوتهم أو سلطانهم.

ثم تنصرف السورة إلى المستقبل، فإذا الخلق قد حشروا إلى جهنم، وإذا الجوارح التي كانت صامتة في الدنيا قد أصبحت شاهدة ناطقة، يشهد السمع والبصر والجلد على أصحابها بما كانوا يعملون. وحين يلوم الإنسان أعضاءه ويعاتبها، يأتيه الجواب الذي لا مرد له: {أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ }.

ثم تعرض السورة صورة أخرى من هذا المستقبل، فترينا القرناء الذين لازموا أصحابهم في الدنيا وزينوا لهم الباطل، فإذا الذين اتبعوهم بالأمس يطلبون الانتقام منهم غدًا، ويتمنون لو جعلوهم تحت أقدامهم ليكونوا من الأسفلين.

وعلى الجانب الآخر تعرض السورة مصير الذين استقاموا على أمر الله، فلم تزل أقدامهم ثابتة وقلوبهم مطمئنة، حتى إذا جاء موعد الرحيل تنزلت عليهم الملائكة تبشرهم، وتدعو عنهم الخوف والحزن، وتفتح أمامهم أبواب الجنة التي وعدوا بها من قبل:

{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}

ثم تعود السورة إلى الحياة التي يعيشها الناس، فتقرر أن الحسنة إذا لقيت السيئة كان من شأنها أن تغير النفوس، وأن تقلب العداوة مودة، والبغضاء صداقة، حتى يصبح العدو الحانق وليًا حميمًا:

{وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}.

وهكذا تذكر السورة الإنسان بأن ما يفعله اليوم قد يثمر غدًا ما لم يكن يتوقعه أو يحسب له حسابًا.

ثم تلفت النظر إلى الشمس والقمر، وهما من آيات الله العظمى، فلا ينبغي أن يكونا موضع عبادة أو تقديس، لأنهما مخلوقان يجريان بأمر الله، كما تجري سائر الأشياء في هذا الكون الفسيح.

ثم تؤكد أن الذين يلحدون في آيات الله لا يخفون عليه، وأن هذا القرآن محفوظ من الباطل، لا يستطيع الباطل أن ينفذ إليه من جهة الماضي ولا من جهة المستقبل، لأنه تنزيل من حكيم حميد.

ثم تذكر رسول الله ﷺ أن ما يسمعه من قومه قد سمعه الرسل من قبله، وأن طريق الدعوة واحد، وأن سنة المكذبين واحدة، فترد الحاضر إلى الماضي مرة أخرى، وتربط بين محمد وموسى، وبين هذه الأمة والأمم التي سبقتها.

ثم تبلغ السورة ميدان الغيب، فتقرر أن علم الساعة عند الله، وأن ما تخرجه الأرحام، وما تحمل الأشجار من ثمراتها، وما يختفي في مستقبل الأيام، كل ذلك مرده إلى علم الله الذي لا يحده زمان ولا مكان.

ثم تعرض طبيعة الإنسان كما هي؛ لا يمل من طلب الخير إذا أقبل عليه، فإذا أصابه الضر ضاق صدره واستبد به اليأس والقنوط. وكأنها تكشف عن النفس البشرية في ضعفها وتقلبها، لتبين للإنسان حقيقة نفسه التي كثيرًا ما يغفل عنها.

ثم تمضي السورة إلى خاتمتها:

{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}.

فإذا الوعد الإلهي يعلن أن الناس سيرون الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، وأن الأيام سوف تكشف لهم من دلائل الحق ما يزيل الشك ويقيم الحجة، حتى يتبين لهم أن هذا الدين هو الحق الذي لا مرية فيه.

وهكذا تبدو السورة كلها رحلة واسعة بين بدايات بعيدة ونهايات منتظرة؛ تعود بالإنسان إلى أول الخلق، وأول الوحي، وأول الأمم، ثم تمضي به إلى الحشر والحساب والجنة والنار، حتى يشعر القارئ أن الزمن كله قد اجتمع بين يديه، وأن الماضي والمستقبل قد التقيا في حقيقة واحدة هي حقيقة الله، الذي أحاط بكل شيء علمًا، وأحاط بكل شيء وجودًا، وأحاط بكل شيء قدرةً وسلطانًا.

سـورة الشـورى

رحمة الله بعباده في الدنيا

إذا أمعن القارئ النظر في سورة الشورى، وجد أن خيطًا دقيقًا ينتظم آياتها جميعًا، وأن معنى واسعًا يشيع في أرجائها من أولها إلى آخرها، وهو رحمة الله بعباده في هذه الحياة الدنيا. فالسورة، على تباين موضوعاتها وتعدد مشاهدها، ترد الناس إلى هذا الأصل الكبير، وتريهم آثار الرحمة الإلهية في الخلق والتدبير، وفي الهداية والرزق، وفي العفو والإمهال.

وقبل النظر في آيات سورة الشورى يحسن الوقوف عند اسمها؛ فإن أسماء السور ليست خالية من الدلالة، بل كثيرًا ما تومئ إلى بعض المعاني التي تبرز في موضوعاتها. ولعل من اللافت أن السورة سميت «الشورى»، والشورى في جوهرها مظهر من مظاهر الرحمة بين الناس؛ إذ لا يتشاور القوم إلا طلبًا للحق وتجنبًا للخطأ، ولا تسود الشورى في مجتمع إلا خف فيه سلطان الأهواء الفردية، وقويت فيه معاني العدل والإنصاف والتعاون.

وعلى الضد من ذلك، فإن الاستبداد بالرأي كثيرًا ما يكون بابًا للظلم والفساد، لأنه يحرم الجماعة من تبادل الخبرات وتكامل العقول، ويجعل مصائر الناس رهينة إرادة فرد أو فئة. ومن هنا يمكن أن يقال إن اسم السورة نفسه يهيئ القارئ لمعنى الرحمة الذي يتردد في آياتها؛ فكما أن الشورى رحمة في حياة الناس، كذلك تعرض السورة صورًا متتابعة من رحمة الله بعباده في الهداية والإمهال والرزق والمغفرة والعفو.

ومن هذا المدخل يمكن أن نفهم أن المحور الذي تدور حوله السورة هو رحمة الله بعباده في الدنيا، وأن آياتها المختلفة تتآزر لإبراز هذا المعنى وتأكيده. بهذه الصورة

يصبح الاسم بمثابة مفتاح تفسيري للسورة، ثم تأتي الآيات بعد ذلك شواهد وتفصيلات لهذا المعنى.

تبدأ السورة بذلك المشهد المهيب: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ}. فكأن الآية تصور للإنسان عظم ما يقع فيه من الكفر والعصيان والشرك، حتى لتكاد السماوات تتصدع لهول هذا الجحود وتريد أن تفتك به وتسقط عليه، لكن رحمة الله تسبق غضبه، فيبقى الناس محفوظين، وتبقى أبواب المغفرة مفتوحة لهم، وتظل الملائكة تستغفر لأهل الأرض، ثم تأتي الخاتمة الحاسمة: {أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}.

ثم تمضي السورة فترينا وجهًا آخر من وجوه الرحمة، هو رحمة الهداية والإرشاد؛ فقد أوحى الله إلى رسوله قرآنًا عربيًا لينذر أم القرى ومن حولها، وليخرج الناس من الحيرة إلى اليقين، ومن الضلال إلى الهدى. وما إرسال الرسل وإنزال الكتب إلا مظهر من أعظم مظاهر الرحمة التي يتفضل الله بها على عباده.

ثم تلفت السورة الأنظار إلى ما بثه الله في حياة الناس من أسباب العمران والبقاء، فجعل لهم من أنفسهم أزواجًا، وجعل لهم من الأنعام أزواجًا، وهيأ لهم بذلك أسباب التكاثر والمعاش والانتفاع. فالحياة الإنسانية نفسها قائمة على رحمة متصلة لا تنقطع، ورحمة تحيط بالإنسان منذ نشأته الأولى إلى آخر أيامه.

ومن معاني الرحمة التي تكررها السورة أن الله لا يعجل العقوبة لعباده، ولا يأخذهم بذنوبهم أخذًا عاجلًا، بل يمهلهم إلى أجل معلوم. ولذلك جاء قوله تعالى: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ}. فالإمهال هنا ليس غفلة عن أعمالهم، وإنما هو رحمة تتيح لهم فرصة الرجوع والتوبة والإصلاح.

وتؤكد السورة هذا المعنى حين تصف الله بأنه أنزل الكتاب بالحق والميزان، فالكون عنده قائم على العدل، وأمر الناس عنده قائم على الحكمة، فلا يقع الجزاء إلا

بعد البيان، ولا تكون المؤاخذة إلا بعد إقامة الحجة. ومن ثم فإن الرحمة ليست مناقضة للعدل، بل هي وجه من وجوهه.

ثم تأتي الآية الجامعة: {اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}. ففيها تتجلى صورة الرب الرحيم الذي يدبر شؤون عباده بلطف، ويرزقهم من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون، مع أنه القوي الذي لا يعجزه شيء والعزيز الذي لا يغلبه أحد.

وتتصل الرحمة كذلك بالسعي والعمل؛ فمن أراد الآخرة زاده الله في سعيه إليها، ومن أراد الدنيا آتاه منها ما شاء الله له. فالناس جميعًا يعيشون في ظل فضل الله وعطائه، وإن اختلفت مقاصدهم وغاياتهم.

وتعود السورة إلى معنى الإمهال مرة أخرى فتقول: {وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ}، وكأنها تريد أن تقرر أن التأخير ليس عجزًا عن العقوبة، وإنما هو رحمة سابقة وحكمة نافذة.

ومن أرق ما تشير إليه السورة أن الحسنة لا تقف عند حدود العمل نفسه، بل يمتد أثرها في النفس، فيزيد الله لصاحبها خيرًا وحُسنًا، فيجد في قلبه انشراحًا وطمأنينة تدعوانه إلى مزيد من البر والطاعة: {وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ شَكُورٌ}. ثم تفتح باب الرجاء لكل مذنب حين تقول: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ}. فليس بين العبد وربه باب مغلق ما دام في القلب ندم وفي النفس رغبة في الإنابة.

ولا تقف الرحمة عند حدود المغفرة، بل تتجاوزها إلى الزيادة من الفضل، كما في قوله تعالى: {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ}. فالله لا يكتفي بمجازاة عباده على أعمالهم، بل يتفضل عليهم فوق ما يستحقون.

ومن دقائق الرحمة الإلهية أن الرزق لا يبسط للناس جميعًا بغير حساب؛ إذ لو حدث ذلك لطغى كثير منهم وبغوا في الأرض، ولكن الله ينزل الأرزاق بقدر، لأنه

أعلم بمصالح عباده وأبصر بما يصلحهم. فالمنع أحيانًا رحمة، كما أن العطاء رحمة: {وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}.

ثم تعرض السورة مشهد الغيث ينزل بعد اليأس والقنوط: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ}، فتذكر الناس بأن رحمة الله لا تنقطع وإن تأخرت، وأن الفرج قد يأتي في اللحظة التي يظن فيها الإنسان أن الأبواب كلها قد أغلقت في وجهه.

وتقرر السورة بأن كثيرًا مما يصيب الناس من مصائب إنما هو من آثار أعمالهم {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}، ومع ذلك فإن الله لا يؤاخذهم بكل ما كسبوا، بل يعفو عن كثير. وهذه الرحمة تظهر كذلك في تسخير البحر والسفن للناس، وفي حفظهم أثناء أسفارهم، وفي تجاوز كثير من أخطائهم وتقصيرهم: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ... أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ}.

وحين تتحدث السورة عن الاعتداء والظلم، فإنها تراعي طبيعة الإنسان وما أودع فيه من مشاعر. فهي لا تلوم المظلوم إذا انتصر لنفسه بعد ظلمه، لكنها ترفع العفو إلى مرتبة أعلى، وتجعل أجره على الله. وهكذا تجمع بين مراعاة الفطرة الإنسانية والدعوة إلى مكارم الأخلاق {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ. وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}.

ثم تمضي السورة فتقرر أن ما يفرح الإنسان من نعم فهو من رحمة الله، وأن ما ينزل به من شدائد إنما يرتبط بأعماله. وتذكره بأن الذكور والإناث هبة من الله، وأن العقم كذلك داخل في دائرة الحكمة الإلهية والعلم المحيط: {يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ. أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}.

وأخيرًا تختم السورة هذا المعنى الكبير بذكر الوحي، ذلك النور الذي يهدي الله به عباده إلى الصراط المستقيم{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}. فكما أن الرحمة تتجلى في الرزق والمغفرة والإمهال، فإن أعظم صورها جميعًا هي الهداية التي تخرج الإنسان من ظلمات الحيرة إلى نور المعرفة والإيمان.

هكذا تبدو سورة الشورى، في هذا الفهم، سورةً تتحدث عن الرحمة الإلهية في صورها المتنوعة؛ رحمةٍ تحفظ، وتهدي، وترزق، وتمهل، وتغفر، وتعفو، وتفتح للناس أبواب الرجاء ما دامت الحياة باقية.

سـورة الزخـرف

الزخارف والزينة

هذه السورة التي سماها الله الزخرف، فقد كفاك اسمها دلالة على موضوعها، وأغناك لفظها عن تفسير طويل؛ فهي حديث عن الزينة، وما فيها من فتنة، وما تكشفه من ضعف النفس، وعبث الهوى، وفساد الفهم.

تبدأ كما تبدأ السور التي فيها مهابة وجلال، بذكر الحروف، ثم تقسم بالكتاب المبين، ذلك الكتاب العربي الذي لا عوج فيه، نزل ليعقلوه، وهو عند الله في أم الكتاب، عليٌّ في منزلته، حكيمٌ في معانيه، لا يُنكر فضله إلا من أعماه الهوى، أو أضله السرف:

{حـم. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ}.

ولكن من الناس من لا يرضى بهذا الجمال العاقل، ولا يأنس بهذه الزينة التي تُزهر في العقل والقلب، وإنما يريد الزينة التي تُلمع في العين، وتخدع الحس، وتُطرب الشهوة. فلما جاءهم الذكر، أعرضوا، وصدّوا، وسخروا، كما سخر الذين من قبلهم، فكان جزاؤهم أن حُرموا من النعمة، كما حُرم منها أولئك المستهزئون:

{أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ. وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ. وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ}.

ويعجب المرء من تناقضهم، فإنك لو سألتهم من خلق السماوات والأرض؟ لقالوا خلقهن العزيز العليم! وإنك لو ذكّرتهم بنعم الله التي تملأ السمع والبصر، لأقرّوا بها بألسنتهم، وإن أنكروها بأفعالهم. ولكنهم مع ذلك يعبدون من دون الله ما لا يضر ولا ينفع، ويجعلون له من عباده جزءًا، والإنسان لَكَفورٌ مبين:

{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}.

وهذه مفارقة أخرى تُدهش العقل السليم: فهم يحبون الزينة، ويحتقرون المرأة لما تتزين به من حليّ وذهب، ثم يزعمون أن لله بناتًا! أفبهذا يحكمون؟ وكيف يرضى الواحد منهم لربه ما لا يرضاه لنفسه؟ وإذا بُشر أحدهم بما جعل لله مثلًا، اسود وجهه، وامتلأ غيظًا وكظمًا! كأنما خُلق العقل فيهم ليُعطل، لا ليُستنار:

{أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ. وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ}.

ثم ينقلبون من هذا الخطل الظاهر إلى أباطيل أعجب، فيتخيلون أن الله يحب الزخارف كما يحبونها هم، وأنه جعل الملائكة إناثًا للزينة! وما شهدوا خلقهم، وما أوتوا من العلم نصيبًا، إن هم إلا يخرصون:

{وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا؛ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ}.

ثم تراهم يلقون تبعة ضلالهم على القضاء والقدر، وما علموا أن الله لا يرضى لعباده الكفر، وأنه ما أنزل كتابًا ولا أرسل رسولًا إلا لهداية، لا لإضلال. وما تمسكوا بحجة من كتاب، ولا عقلوا عن وحي من وعي، وإنما هي العادات، والآباء، والترف، والميل إلى الراحة، والفرار من التكليف:

{وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ. أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ}.

ذلك أن أكثر الناس، إذا وُعظوا، نفروا، وإذا دُعوا إلى ما يخالف ما ألفوه، استكبروا. والمترفون في كل زمان ومكان هم أول المعاندين، لأنهم عبيد الترف والنعيم، وأسرى العادة، وأعداء التغيير. فإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما فيه رشدكم، قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون:

{وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ؛ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}.

ولم تكن الزينة في يومٍ من الأيام غايةً عند الله، ولا كان الذهب والفضة، ولا السقوف المزخرفة، ولا الأبواب المزينة، مما يُقيم له وزنًا في ميزان الحق. بل إن الدنيا بما فيها، وبما زُيّنت به للناس من مالٍ وبنين، لا تزن عند الله جناح بعوضة، ولولا أن قلوب الناس ضعيفة، وأن الفتنة بهم سريعة، لجعل الله للكافر، لا للمؤمن، زينة الأرض وما عليها، وسقوفًا من فضة، ومصاعد من ذهب، وأبوابًا وسررًا، وكل زخرفٍ يخطف الأبصار ويأخذ بالألباب؛ ليُبين لعباده أنها عنده لا تعدل شيئًا، وأنها متاع زائل، لا يُغني عن الحق شيئًا، ولا يدني من الرضا طرفة عين:

{وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ. وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ. وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}.

ولكنّ الله، وهو العليم بخلقه، الحكيم في أمره، لم يفعل ذلك، كي لا تكون الفتنة أبلغ، ولا يكون الناس أمة واحدة في الكفر والجحود. فحذّرهم، ثم حذّرهم، من الشيطان، ومن وساوسه، ومن زينته التي لا تلبث أن تنقلب إلى حسرة. فهو يُحبّب إليهم الدنيا، ويزخرف لهم الباطل، حتى إذا استجابوا له، وإذا هم يظنون أنفسهم مهتدين، وهو ما زال يصرفهم عن الطريق، وهم غافلون:

{وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ. حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ. وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ}.

وما كانت هذه الدعوة بدعًا من الأمر، بل هي دعوة الرسل جميعًا، دعوة موسى حين بعثه الله إلى فرعون الطاغية، الذي ما أن رأى آيات ربه حتى ضحك منها، وسخر منها، كما يسخر الجهال من كل ما لا يفهمونه. وقد ردها فرعون كما ردها قومه، وقال ما قال من كبرٍ وافتخار: أليس لي ملك مصر؟ أليست الأنهار تجري من تحتي؟ أفلا تُبصرون؟ أما أنا خيرٌ أم هذا المهين، الذي لا يُبين؟

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ. وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا

لَمُهْتَدُونَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ. وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ}.

فانظر كيف كانت الموازين عندهم مختلّة! لا يقيسون الفضل بالإيمان، بل بالمُلك! ولا يزنون الحق بالوحي، بل بالزخرف! فلما لم يجدوا في موسى سوارًا من ذهب، ولا ملائكةً تصاحبه، كذبوه، وردوا دعوته، وآثروا عليه الطغيان:

{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ. فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ}.

وكذلك كان أمرهم مع عيسى، عبد الله وابن مريم. لم يؤمنوا به لأنه لم يأتهم بما يرضي شهواتهم، ولأنه لم يكن صاحب زينة، ولا داعيًا إلى زخرف. فجادلوك فيه، وقالوا: أآلهتنا خيرٌ أم هو؟ ولم يقولوا ذلك إلا خصومة وجدلاً، لا بحثًا عن الحق، ولا رغبةً في الهدى. وما كان عيسى إلا عبدًا من عباد الله، أنعم الله عليه، وجعله آية لبني إسرائيل:

{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ. وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ. إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}.

وقد قال لهم ما قاله إخوانه من الرسل: إن الله ربي وربكم فاعبدوه. وما كان ذلك إلا الصراط المستقيم، الذي دعا إليه كل نبي، وتنكب عنه كل طاغية وكل متشيع للباطل. فإن لم يكن فرعون خصمًا، كان الأحزاب. وإن لم يكن الطاغوت عدوًا، كان الشيع والمذاهب:

{وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}.

وهكذا افترق الناس، وضلوا عن سواء السبيل، وجعل كل حزبٍ ما لديهم فرِحين. ولكن ما تلبث الساعة أن تأتيهم بغتة، وما هم عنها غافلون:

{فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ. هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}.

أما الزينة الحقة، فهي تلك التي عرفها الأنبياء والمرسلون، حين عبدوا الله مخلصين، لا يطلبون دنيا، ولا يبتغون جاهًا، ولا يسعون وراء زخرف. وهي التي وعد الله بها عباده المؤمنين في الآخرة، حيث لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وحيث النعيم الباقي، والصحاف من ذهب، والأكواب، وما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين، وهم فيها خالدون:

{الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ. ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ. يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ}.

سـورة الدخان

اللحظات الفاصلة في تاريخ البشرية

إذا كانت الرسالات الإلهية تمثل مفاصل التحول في مسيرة الإنسان، فإن سورة الدخان تعدّ من أظهر النماذج القرآنية التي ترسم مشهد التاريخ من زاوية "اللحظة الفاصلة"، التي يُفصل فيها الحق من الباطل، وتُميّز فيها الآجال، وتُوزَن بها المصائر.

هذه السورة الكريمة، وهي من السور المكية، التي تجيء على نسق تتواشج فيه مشاهد الغيب مع شواهد التاريخ، ويُرسم فيها خط القدر من لدن أول لحظة من نزول الوحي إلى أواخر لحظات يوم الفصل والحساب، مضمَّنة بتصوير دقيق لما يعتري الإنسان من تردد، وما يعقب الحسم من جزاء.

فتبدأ أولاً باللحظة المباركة التي يهتف فيها الحق: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} .

فالقرآن لا يُنزِل اللحظةَ التي نزل فيها منزلةَ الزمان المجرد، بل يُلبِسها ثوب القداسة والغاية. فـ"الليلة المباركة" ليست زمناً عارضاً، إنما ظرف لحركة القدر، حيث يفرق الأمر الحكيم، ويُحكم الفصل بين خير وشر، وهدى وضلال.

وإذا جاز لنا أن نستأنس بقوله تعالى: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}، فإن من تمام النظر أن نلحظ كيف أن لحظات اكتشاف الذرة، والنسبية، والهندسة الوراثية، كانت في عصرنا لحظات فصل تاريخي، تماماً كما كان نزول الوحي لحظة فاصلة في عالم القيم والرسالة.

بعض هذه الاكتشافات – كاختراع المتفجرات والرصاص – عبّرت عن إمكان الإنسان أن يُسيء استخدام اللحظة، فيتحوّل بها من موضع التكريم إلى موقع التدمير. وهو بذلك يخط مصيره بيده.

ثم نشير السورة إلى لحظة الدخان المبين: نذير الساعة، وصدى الحضارة المعاصرة: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ}

وقد اختلف المفسرون في تأويل هذا الدخان: فرأى بعضهم، كابن مسعود، أنه قحط أصاب قريشًا حين دعا عليهم النبي ﷺ، حتى خُيّل إليهم أن بينهم وبين السماء دخانًا من شدة الجوع.

ورأى آخرون، كابن عباس، أنه دخان حقيقي يأتي في آخر الزمان كعلامة من علامات الساعة.

لكن هذه الآية، عند تأملها في ضوء العصر الحديث، تفتح لنا معنى ثالثًا لا يلغي ما قبله، بل يستند إلى المنهج الرمزي في الإشارة القرآنية:

ألا ترى أن السماء قد غشيتها بالفعل سُحُب من الدخان غير سحب الأمطار؟

ألا ترى دخان المصانع، ومحطات الفحم، والقطارات، والطائرات، بل ومخلفات الانفجارات النووية، كيف ملأت جوّ الأرض، وأثّرت على صحة الأحياء، وأخلّت بتوازن الطبيعة؟

إنه الدخان الحضاري الذي صنعته يد الإنسان، فجاء مبينًا في ضرره، صريحًا في تهديده، ظاهرًا في مدنه، لا خيالًا من الجوع، ولا غيبًا من المستقبل، بل حقيقة يومية فَارْتَقبتْهَا البشرية بأعينها.

والعجيب أن القرآن قال: {بِدُخَانٍ مُبِينٍ}، والمُبِين هنا لا تعني الظاهر فقط، بل تعني الواضح في رسالته التحذيرية. وكأننا أمام إنذار ممتد، فيه تلاقٍ بين الغيب والنظام الطبيعي، بين العقوبة والعبث الصناعي.

ومن اللحظات الحاسمة التي تشير إليها السورة: (ليلة الخروج)، وهو انتقال الأمة من الاستضعاف إلى التمكين: {فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا...}.

إنه الليل الذي انتقل فيه بنو إسرائيل من ذلّ العبودية إلى مطلع الحرية. وقد شاء الله أن يجعل النجاة في ليل، والعبور في خفاء، لتكون كل خطوة فيه محسوبة بميزان السماء.

{وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ}

وهكذا، لم تكن نجاتهم مجرّد انفكاك من بطش طاغية، بل لحظة من لحظات التاريخ التي تشهد بأن أقدار الله إذا مضت، رفعت أقواماً وخفّضت آخرين.

في هذه اللحظة تتجلى حكمة التدبير الإلهي في الخفاء، وتُؤذَن حركة التاريخ أن تنتقل من ظلم الطغاة إلى أفق الحرية.

ومن اللحظات الحاسمة التي تشير إليها السورة: خلق السماوات والأرض: لحظة الوجود بالحق: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ}

فالوجود في القرآن ليس مصادفة ولا لهوًا، بل حقٌّ منضبط بالميزان، وكل لحظة فيه تؤدي وظيفة، وكل مرحلة تُحكم بالعدل. فالقرآن يعيد تشكيل وعي الإنسان بالكون، لا باعتباره فضاءً مادياً فحسب، بل تجلياً لحكمة الله وسننه.

فالخلق بالحق يقتضي أن تكون كل لحظة فيه مملوءة بالمغزى، وأن يكون كل حدث فيه محكوماً بحكمة ومآل.

ومن اللحظات الحاسمة: يوم الفصل؛ الحسم الأعظم:

{إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ}.

وهذا اليوم ليس موعداً عادياً، بل هو المفصل الذي تُختَتم به قصة الإنسان، وتُفصل فيه القضايا التي عجزت الدنيا عن البت فيها. فهو الموعد الذي لا يُؤخَّر، ولا تُدفع عنه شفاعة ولا مال، بل تضع فيه الأمم موازين أعمالها بين يدي الحكم العدل.

ومن اللحظات الحاسمة: المقام الأمين:

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ...}

وهنا تتجلى العدالة الإلهية بأوضح صورها: جزاء وفاق. لا مظلمة تُخفى، ولا تقوى تُنسى. فالفريقان يتنازعان مصيرين لا ثالث لهما، ويتفرعان عن لحظات سابقة كانت فرصاً للتوبة أو مواطن للكفر.

فها هو الفصل الأخير، حيث تتبدى عاقبة اللحظات السابقة، بين من أعرض وكذب، ومن آمن واتقى، وبين جحيم لا يخفف، وجنة لا تنفد.

وتختم السورة بلحظة الترقّب المتبادل:

{فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ}.

بهذه الخاتمة المحكمة، يُغلق سياق السورة كما تُغلق صفحة من كتاب القضاء. وكأنما يُخيَّر الإنسان بين أن يكون من المرتقبين لوعد الله، أو من المرتقبين لسخطه، فلكلٍّ مآله.

هكذا تختم السورة بدعوة النبي ﷺ إلى ترقب ما وعد الله به.

وكأن الزمن كله واقف على عتبة الحسم، لا يعلم متى ينقلب، ولا كيف ينقضّ قضاء الله على من أعرض. وهو ترقّب يحمل في طياته إنذارًا عظيمًا؛ بأن اللحظات الفاصلة آتية لا محالة.

إن سورة الدخان ليست سرداً لأحداث، ولا مجرّد مقاطع متفرقة، بل هي حركة واحدة متصلة، تمضي بنا من لحظة الإنذار إلى لحظة الانتصار، ومن مشهد الوحي إلى مشهد الحساب، كلها تجمع تحت راية واحدة: أن اللحظات الحاسمة هي التي تُبنى عليها مصائر البشر.

سـورة الجـاثية

جولة مع الدهريين

تدور آيات هذه السورة حول تلك الفئة التي أنكرت الغيب، وكفرت بأمر الله، واتخذت الدهر ربًّا لها في الخلق والتدبير -هم الدهريون، عُبّاد المادة والصدفة- فأتت السورة لتفنِّد أباطيلهم وتكشف عوار مذاهبهم في سياقٍ إيمانيٍّ عميقٍ يتَّصل بأحداث الخلق والنشأة والبعث.

سميت هذه السورة بـ«الجاثية»، كأنَّ في التسمية إيماءة ضمنية إلى حالة الخضوع والجمود التي عاش على إثرها هؤلاء القوم؛ فقد عطلوا عقولهم بسبب فكرةٍ جامدةٍ أبوا أن يتزحزحوا عنها، فكأن حالهم كحال تلك الكلاب التي تنبح والقافلة تسير في طريق الحق والنور دون أن تبالي بأصوات النفور والجعجعة الفارغة.

وينبعث الصوتُ في بداية سورة الجاثية محمَّلًا بأصداء الوحي الخالد: {حم. تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}. بهذا الافتتاحِ يتأكدُ أنَّ ما يتلو النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يأتِ من محض الخيال ولا التخرّص الذاتيّ، بل كان تنزيلاً محكمًا صادرًا من عند الله القادر على الخلق والبعث والحساب.

وتنبّه السورة في بداية سياقها على أنَّ في السماوات والأرض آياتٍ باهراتٍ لأولي الألباب والنفوس اليقِظة. هؤلاء يتفكّرون في الخلق وفي تنوّع الدواب والنعم التي نشرها الله في هذا الكون الفسيح -تلك التي لم تكن معروفة عند الأوّلين، وبعضُها قد تكشَّف مع مرور الزمن- بالإضافة إلى ظواهر الليل والنهار والنعم التي تنزّل من السماء ضمن قدر محكمٍ وتدبير إلهِيٍّ. هذه التغيرات والنعم ليست محض صدفة عمياء، بل دلائل على حسن الخالق وكمال قدرته.

ثم تتناول السورة حال تلك الفئة التي تتخذ الكذب والباطل أسلوبًا للتضليل والصدّ. فهم يستهزئون بالحق ويتّخذون الجدل والنفور أسلوبًا للتعمية على ضعف موقفهم

وتفكك بنيانهم الداخلي. فينتظرهم، بسبب تكبرهم وعنادهم، عذابٌ مهين في الدنيا والآخرة.

وتردّ السورة على الدهريين بأنَّ الله هو الذي سخّر البحر لتجري فيه الفُلك محملة بأرزاق الخلق، فهو الذي ذلَّل ما في السماوات والأرض لتكون في خدمة الإنسان، ويعمَّ بسببها الخيرات والنعم. لكنَّ هؤلاء خُتِم على عقولهم بسبب تكبرهم، وكفرهم بما أنعم الله عليهم، غير عابئين بأحداث الأقوام الغابرة التي أهلكت بسبب تكذيب الرسل والحق. وتدعو السورة المؤمنين إلى الصبر على هذا الجدل الفارغ ما لم يتطور إلى عدوان على الدماء والنفوس والأموال، عندئذ يجب محاسبة المعتدي حتى تستقرَّ الأحوال ويعمَّ العدل في المجتمع.

ثم تشير السورة إلى بني إسرائيل الذين فضَّلهم الله بالكتاب، والنبوَّة، والحكم، والرزق الحسن، لكنَّهم انحرفوا وتفرقوا واتبعوا الأهواء، فاستخلف الله أمة أخرى، لحمل مشاعل الهداية هم المسلمون، حملة القرآن والنبوَّة الخاتمة. وفي هذا إشارة ضمنية إلى أنَّ الدهريين في عصر التنزيل، وفي كل عصر، هم على شاكلة هؤلاء اليهود في انحرافهم وفي تكبرهم على الحق. ويكفي أنَّ بعض الفلاسفة المعاصرين -مثل ماركس- كان يشبّه الدين بأفيون للشعوب! وهو في الحقيقة عمى أبصارٍ في وسط نورٍ مبين.

وتؤكد السورة أنَّ أصحاب الأهواء يتعاون بعضهم مع بعض على نشر الفساد والضلال: {وَإِنَّ الْظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}. لكنَّ الله يتولّى حماية المتقين ويكون نصيرًا لهم في الدنيا والآخرة.

وتخبر السورة بأنَّ الخلق لم يتمّ بالباطل واللغو، بل بالحق والعدل. والنفوس تجني ما كسبت، ولا يظلم الله أحدًا أبداً: {وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بالحقِّ، ولِتُجزى كُلُّ نَفسٍ بما كَسَبتْ وهُمْ لا يُظلمون}. هكذا يتضح أنَّ الحقَّ سياج الوجود ومحوره. فعندما يجنح الإنسان بسبب غروره وكبره، يضطرب التوازن ويعم الفساد في الأرض؛ لأن الذنب يحمل في طياته أسباب هلاكه، والظلم يقوض عرشه، والنفوس الخاطئة تسقط فيما حفرت بأيديها.

ثم تنبّه السورة أنَّ محيا المؤمنين يختلف أبداً في جوهرِهِ ومعناهِ عمَّا عليه محيا الكافرين. كذلك مماتهم يختلف -والنهاية ليست أبداً متساوية- وهو ما تؤكده الآية: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفسِه، ومَنْ أَسَاءَ فعليها}. يشفع سياق السورة بهذا اليقين أنَّ جزاء الحسنه حسنٌ، وجزاء السيئة مماثل لها، دون بخسٍ ولا ظلم.

وتختم السورة بعرض مقولة الدهريين الجوهرية: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنِيَا نَمُوتُ وَنَحِيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ}. هكذا يظنون أنَّ الدنيا محض صدفةٍ عمياء، ويستهزئون بأمر الله والبعث واللقاء. لكنَّ الله يجزيهم من جنس عملهم: فينساهم يوم القيامة مثلما نسوا وعده في الدنيا. ويظلون في غفلتهم بسبب الغرور بأسباب الحياة المادية دون أن يعبروا أبداً إلى ما وراء الحسّ والعيان، حيث الحقيقة الخالصة والنهاية الحقة.

ثمَّ تسترسل السورةُ في عرض آيات الله في الخلق والنعم التي أسبغها على بني آدم في السماوات والأرض وفي الدواب التي تبثَّت على الأرض وتنتشر في أرجائِها. وفي تقلب الليل والنهار وفي الغيث النازل من السماء ليحيي الأرض بعد موتِها- في كلِّ هذا دلائل على قدرة الله وعِبرٌ لأولي الألبابِ. لكنَّ الدهريّين، تلك الفئة التي تنكر الخالق والبعث والحساب، تتغافل وتعمي أبصارها عما في هذا الخلق المعجز من حسن التقدير والنظام الكامل.

ثمَّ تخاطب السورةُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لتثبت فؤادَه على الحقّ وتواسيه في محنته بسبب تكذيب قومه. وتثيرُ في سياق الحوار نظرتَهم الماديَّة الخالصة التي تنكر ما بعد الموت وتعتبر أنَّ الدنيا محض لهو ولعب: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ}. هذه النظرية الدهريَّة تنبع، في سياق السورة، بسبب الجهل والعمى الداخليّ، بسبب إصرارهم على التعلق بالمحسوس دون الغيب.

وتردُّ السورة على هذا الخلل في التفكير، وتبين أنَّ الخالق لم يخلق السماوات والأرض باطلاً ولا لهوًا، بل بالحقِّ والميزان الدقيق. ويؤكدُ اللهُ أنَّ هناك يومًا آخر يُبعث فيه الخلق ويجازى محسنُهم ويعاقبُ مسيئُهم.

ثمَّ تخبر السورةُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يعفو ويصفح في التعامل مع هؤلاء الدهريّين، ويترك أمرَهم لله الذي يقضِي بالحق ويجزي كلاّ بما عمل: {قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا

يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللهِّ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ}. وتلك إشارة للتسامح في الدعوة والنصح دون إكراه ولا إجبار.

وتؤكد السورة أنَّ التمييز في الآخرة مبنيٌّ على العمل والحق والبرهان الذاتيّ: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا}، حيثُ يستحق التنعم في دار الخلود بسبب حسن عملِه، ويعاقب بسبب سيئِ عملِه. وهكذا يتمُّ تحقيقُ العدالة التامة التي يجهلُها الدهريون في هذه الدنيا بسبب نظرتِهم القاصرة على الحسّ دون الغيب.

ثم تستمر السورة في محاجَّتِها لهؤلاءِ الدهريّين الغافلين عن الحقّ والبعث والجزاء: وتثير في نفوسِهم سياقًا أبعد، في عالم الخلود والحق الكامل.

ثم تستعرض السورة أنَّ بني إسرائيل كان عندهم التوراة والنبوَّة والحكم -تلك النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل- لكنَّهم تنكَّبوا سبيل الحقّ واختلفوا بسبب البغي والحسد والجهل.

حتى وصل الأمر بهذا الخلل في الفهم أن يستبدل الله قوماً آخرين (المسلمين) لكي يحملوا نور الدعوة والحقَّ في الأرض. وفي هذا إشارة ضمنية قوية على سنة الله في التغيير والنقل بسبب التفريط في الأمانات والنعم.

ثمَّ تؤكد السورة أنَّ {وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} أي أنَّ أرباب الباطل يتعاضدون ويتساندون في الخفاء والعلن، في محاربة الحقّ والنور والهدى. لكنَّ الله يتولّى امرَ المتقين ويحفظهم ويؤيدهم.

فمن كان اللهُ له نصيرًا، كانت له الغلبة في الدنيا والآخرة.

ثمَّ تخبر السورة أنَّ هذه الدعوة التِي أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ليست أباطيل ولا أساطير الأوّلين، بل هي (بصائرُ) تنير القلوب وتبصر العقول وتهدي الإنسانية في ظلمة الجهل والضلال.

فحقّ على الخلق أن يتفكروا ويتعظوا بهذا الهدى والنور، بدلاً من الخوض في الترف والجدل الفارغ.

وتنذر السورة في سياق الوعيد على الدهريّين أنَّ يوم الدين آتٍ وهو يوم يقف فيه الخلائق بين يدي الله واحدًا واحدًا: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}. في هذا اليوم تتضح الحقائق وتسقط الأقنعة ويتبرَّأ التابعون من المتبوعين ويعلم كلّ امرئ ما كسبتْ يداه.

هذا الخضوعُ الكامل (الجثوّ) في محضر الحقّ، في محضر الله العليّ العظيم، يشكّل صورة الخزي والمهانة التي تنتظر المعرضين والجاحدين.

ثم تختم السورة بآية الخلود والحقّ في محاسبة الخلائق: {هذا كتابُنَا يَنْطِقُ بالحق...}. حيث تسجل الملائكة كلَّ صغيرة وكبيرة ويجازى كلّ امرئ بما عمل.

ثمَّ فِي رحمة الله يدخل المؤمنون دار الخلود والنعيم، في مقابل (عذاب مهين) يتجرّعُه الجاحدون بسبب إصرارهم على تكذيب الحقّ والنفور منه.

{فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَلَهُ الْكِبْرِيَاء فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، هكذا تُختتم السورة بنشيد التمجيد. حمد وكبرياء وثبات إلهيّ في السماوات والأرض. فمن أراد الاستقرار واليقين، فليطلبه عند العزيز الحكيم.

هكذا تنسج سورةُ الجاثية سياقًا محكمًا للتفكير والنظر في الخالق والبعث والحق والباطل، وتردَّ على أباطيل الدهريّين بقوَّة الحجَّة والبرهان والإنذار والوعد بالثواب والعقاب.

فالقضية الجوهرية التي تنادي بها السورة هي اليقين بالبعث والنشور والحقّ في محاسبة الخلائق على ما قدَّمتْ في الدنيا.

سـورة الأحقـاف

الحضارات المتغطرسة

سورة الأحقاف واحدةٌ من تلك السور التي ما إن تقرأها حتى تستشعر أن القرآن، في عمقه البعيد، ليس إلا خطابًا للحضارات، لا للأفراد وحدهم، وللأمم الطاغية التي توهّمت أنها استغنت بعلمها، وغفلت عن مصيرها، فاستكبرت واستطالت، ثم ما لبثت أن انهارت على رؤوس أصحابها، لا لأنهم جهلوا، ولكن لأنهم علموا ثم تكبّروا.

فـ"الأحقاف"، هذا الاسم الغريب العذب، إن هو إلا رمز لحضارة قامت في قلب الصحراء، وتحصّنت بالرمال، كما تتحصّن الأمم الحديثة بالتقنية والسلاح والمال. وكانت عادٌ هناك، في تلك الرمال المتموجة، تبني لنفسها قلاعًا من القوة، وأسطورة من البأس، حتى حسبت أن الريح مأمورة بأهوائها، وأن السماء لا تمطر إلا إذا أرادت، وأن الأرض لا تهتزّ إلا إذا غضبت هي، لا إذا غضب الله.

وفي مطلع هذه السورة، يلوح لنا ذلك الصوت الذي يعرفه من كان له قلب، صوتٌ كأنما يأتي من وراء الرمال، من خلف قرونٍ ضاعت فيها الأمم، وتاه فيها الذين غرتهم حضارتهم، فمضوا بعيدًا عن الله، يظنون أنهم في غنى عن السماء. وهل تعرف شيئًا أشبه بأحوال هذه الأمم المعاصرة من قوم عاد؟ قومٌ سكنوا الأحقاف، تلك الرمال المترامية، لا تحيط بهم حضارة، بل هم الحضارة، لا يحتاجون إلى عون، بل هم العون لغيرهم، قومٌ قالوا في صمتهم الصاخب: لسنا بحاجة إلى دعوة من خارج، ولسنا في حاجة إلى نبي يذكّرنا.

فمن هم؟ هم أولئك الذين رأوا في العلم المادي نهاية المطاف، وفي القوة الجسدية غاية المجد، وفي اتساع العمران برهان التقدّم، وأعرضوا عن كل صوتٍ قادم من خارج حدودهم الجغرافية أو الثقافية، لأنهم لا يؤمنون إلا بما أنتجته أيديهم، ولا يصدقون إلا ما اختبرته معاملهم.

ألم يقل قائلهم: {لو كان خيرًا ما سبقونا إليه}؟

فأي عجبٍ هذا؟! أن ترى القوم لا ينكرون الحق لأنه باطل، بل لأنهم لم يكونوا أول من نطق به!

ألا تذكّرك هذه الكلمة بما نسمعه في عصرنا: "أين وصلتم أنتم؟ وما الذي أضفتم إلى حضارتنا؟".

كأن الحق لا يُؤخذ إلا من أفواه الأقوياء، وكأن الوحي لا يكون وحيًا إلا إذا نزل على من يسكنون المدن العظمى، أو يلبسون ثيابًا ناعمة، أو يتكلمون بلغة المنتصر!

ومِن أشدّ ما يلفت القلب في هذا السياق: أن من علاماتهم عقوق الوالدين، في مجتمعٍ جعل من العقوق مذهبًا، ومن التحرّر من روابط الأسرة مبدأً، حتى إذا ما شاخ الأب، أو كبرت الأم، قال لهم أبناؤهم ـ وقد ظنّوا أنهم فوق آبائهم علمًا ومقامًا: {أفٍّ لكما!}، وقالوها لا استخفافًا فحسب، بل تجسيدًا لعقيدة مادية لا ترى في الإنسان إلا ما ينتج، ولا تعترف بالفضل إلا للراهن النافع، لا للماضي الجميل.

هؤلاء الأبناء- الذين نسوا طفولتهم، وأنكروا طفولة آبائهم- لم يفهموا أن الإنسان لا يُقاس بعطائه المادي، بل بحضوره الأخلاقي، وببصمته في طريق الحق.

وتكشف السورة، بعد ذلك، عن تلك الحضارات التي استفرغت حظوظها من الدنيا، وركنت إلى الرخاء، وتفيأت ظلال النعيم، حتى حسبت أنها خُلقت لتتنعم، وأن الأرض مفروشة تحت أقدامها إلى الأبد، فقامت فلسفتهم على اللذة والمتعة فقط:

{وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا}

وتأتي نهاية القصة كما يجب أن تأتي نهاية كل حضارة نسيت ربها: ريحٌ عقيم، لا تذر من شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرميم.

وما أبقى الله لهم إلا مساكن خاوية، كأنها عبرة صامتة تقول: ها هنا كانت حضارة.

والعجيب أنهم حين رأوا السحاب مقبلاً، لم يروا فيه إلا المطر، ولم يتخيّلوا أن تحت هذا الظلّ الجميل، يكمن الهلاك.

وهكذا هي الحضارات، ترى في رفاهيتها بركة، وتنسى أنها قد تكون مقدّمة الطوفان.

وفي ثنايا هذه السورة المباركة، تتراءى لنا صورٌ من أولئك الذين آمنوا في وسط هذا الجحود، فثبتوا، ولم تزلزلهم الحضارة، ولم تبهرهم أنوار العلم الدنيوي. هؤلاء هم الذين {قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ}.

ثم تتجلّى حكمة السورة، في رهط من الجنّ. أولئك الذين زادهم الله قدرةً على خوارق الأشياء، وآتاهم من الإدراك ما لا يدركه البشر، هؤلاء ما إن سمعوا القرآن، حتى قالوا: {إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ}.

فآمنوا، ولم يتكبروا.

وهنا، نبلغ ذروة المفارقة: أن الجن، بكل ما أوتوا من قوة، آمنوا، وأن البشر، وهم أضعف، استكبروا!

فهل بعد ذلك من عِبرة؟ وهل بعد ذلك من حجّة؟

ثم تختم السورة حديثها بالصبر.

فكأنها تقول للنبي، ولكل مؤمن في طريق الحضارة المادية الطاغية: لا تحزن، واصبر كما صبر أولو العزم. فمهما علت الأصوات، وتكاثر الجاحدون، فإن العاقبة للحق.

وإذا جاء اليوم الموعود، علم الذين نسوا أن لهم ربًا، أنهم لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار، ولم يذوقوا من النعيم إلا سرابًا من حلم.

وتختم السورة بالحجّة العقلية البالغة: إن من خلق السماوات والأرض بقادر على أن يعيد الخلق، وإن الذين يكذّبون البعث لا يعجزون الله، ولكنهم يستعجلون نهايتهم وهم لا يشعرون.

هكذا تمضي سورة الأحقاف، لا كقصة عن قوم عاد، بل كمرآة لحضارتنا، وللغد الذي قد ينتظرنا. فهي درسٌ في الغرور حين يستبدّ، وفي العقل حين ينفصل عن الوحي، وفي القوة حين تعلو على الرحمة، وفي الحضارات النائية التي، مهما بعدت، لا تفلت من سنن الله.

سـورة محمـد

الإيمان أو الضياع!

إذا قرأنا هذه السورة قراءة متأنية، تبين لنا أن خيطها الناظم يدور حول معنى واحد واضح، هو المفاضلة بين طريقين متقابلين: طريق الإيمان الذي يقود إلى الهداية والطمأنينة، وطريق الضياع الذي ينتهي بصاحبه إلى التعاسة وحبوط العمل. وكأن السورة منذ أولها إلى آخرها تريد أن تضع الإنسان أمام هذين الطريقين ليختار أيهما يسلك.

تبدأ السورة بتقرير مصير الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِّ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}. وهنا لا يقتصر الأمر على الكفر وحده، بل يتجاوزه إلى صدّ الناس عن طريق الحق، فيكون الجزاء أن تضيع الأعمال كلها، وكأن ما بذله الإنسان من جهد في حياته قد تلاشى ولم يترك أثراً. وفي المقابل تعرض السورة صورة أخرى هادئة مطمئنة، وهي صورة الذين: {آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}. وكأن الإيمان هنا نور يدخل القلب فيجعل النفس مستقرة، والبال مطمئناً.

ثم تمضي السورة فتوضح أن هذا الفرق بين الفريقين إنما سببه موقف كل فريق من الحق؛ {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ}.

هكذا تتبين الطريقان: طريق الحق الذي يهدي، وطريق الباطل الذي يضل.

ومن مظاهر هذا الصراع بين الإيمان والضياع ما تعرضه السورة من أمر القتال في سبيل الله، حيث يُطلب من المؤمنين إذا لقوا الذين كفروا أن يثبتوا ولا يضعفوا. فالحرب هنا ليست مجرد مواجهة عسكرية، وإنما هي صراع بين الحق والباطل، وبين الهداية والضلال. فإذا انتهت المعركة وأُسر الأعداء، فالإسلام لا يدعو إلى الانتقام الأعمى، بل يفتح باب المنّ أو الفداء {حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا}.

والوزر، هو الأثر السلبي للحرب، مثل الأَعْرَاض الجانبية الخطيرة للأدوية القوية، وليس «الوزر» بمعنى الثقل، إنما بمعنى موبقات الحرب وأعراضها السلبية، مثل السرقة

والغلاء والاحتكار، والربا، والزنا، والفواحش، وسوء الأخلاق وغير ذلك. فلا بدّ أن تكون لكل حرب أوزارها، مهما كانت قدسيتها وعدالتها. فالناس أثناء الحروب تكون ضائعة الفكر، مشتتة النفس، لا يمكنها أن تفكر التفكير السوي المستقيم.

ثم تذكر السورة أن الله قادر على أن ينتصر من الكافرين دون حاجة إلى قتال المؤمنين، لكنه يريد أن يبتلي الناس بعضهم ببعض. وهذا الابتلاء هو الذي يميز الصادق من غيره، ويُظهِر حقيقة الإيمان في النفوس.

وفي هذا السياق تشير السورة إلى منزلة الشهداء الذين يقتلون في سبيل الله، فتقرر: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ. وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ}. وهذه صورة بديعة؛ إذ يبدو الشهيد كأنه يدخل داراً يعرفها منذ زمن طويل، لا كالغريب الذي يدخل بلداً غريباً لأول مرة، لا يعرفه ولا يعرف معالمه، فيتخبط ويتحير ويضيع. كلا! إنهم يدخلونها وكأنهم يعرفونها حق المعرفة، وكأنهم هم الذين بنوها بأيديهم، ألفوها وألفتهم. فيها لا يضيعون ولا يتحيرون.

وفي مقابل هذه الصورة المطمئنة الوادعة، تعود السورة إلى تصوير حال الكافرين، فتقول: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}. فحياتهم قائمة على الضياع والتعاسة، لأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم. وكأن الضياع هنا ليس حادثة عابرة، بل هو نتيجة طبيعية لرفض الحق.

ثم تذكّر السورة الناس بالتاريخ، فتدعوهم إلى السير والنظر في مصير الأمم السابقة التي دمرت بسبب كفرها، فهي معالم تهديهم وترشدهم: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا}؟

لكن الكافرين لا يعتبرون، لأنهم فقدوا ولاية الله، {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ}. والفرق بين من له ولي يرعاه ومن لا ولي له فرق عظيم؛ فالأول محفوظ مهتدٍ، والآخر تائه لا سند له ولا ظهير.

وتعرض السورة بعد ذلك مشهداً من مشاهد النعيم للمؤمنين في الجنة، حسبما ألفوها وعرفوها في حياتهم الدنيا؛ فتصف أنهار الماء واللبن والخمر والعسل، وكلها أنهار لا تتغير ولا تفسد.

ثم تعود السورة إلى وصف الضياع الذي يعيشه الكافرون حتى في أبسط مظاهر حياتهم؛ {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ}، إنهم يأكلون ويشربون، ولكنهم لا يأكلون كما يأكل العاقل الرشيد الذي يريد بقوته طاعة الله وشكره، إنما يأكلون كما تأكل الأنعام، همّهم الوحيد هو المتعة العابرة، والنهم الذي لا يشبع.

ومن أظهر مظاهر هذا الضياع أنهم يستمعون إلى القرآن دون أن يفقهوا منه شيئاً. فإذا خرجوا من عند النبي سألوا المؤمنين: ماذا قال آنفاً؟

{وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا؟}، وكأن الكلمات التي سمعوها كانت كلمات أعجمية لم يفهموا منها شيئًا. أما الذين اهتدوا فيزيدهم الله هدى ويمنحهم التقوى.

ثم تأتي علامة أخرى من علامات الضياع والتيه: {فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ}.

لقد ظهرت أشراط الساعة وعلاماتها، ولكنهم لم يفقهوا منها شيئاً. فهم لا يزالون في غفلتهم سادرين، لا يتذكرون ولا يعتبرون. فإذا جاءتهم الساعة بغتة، كيف ينفعهم التذكر حينئذ؟ لقد فات الأوان..

ثم تنتقل السورة إلى الحديث عن المنافقين، وهم صورة أخرى من صور الضياع:

{وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ}

فهؤلاء يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ويخشون القتال، ويتربصون بالمؤمنين. وإذا تولوا أمراً أو ولاية، أفسدوا فيها وقطعوا الأرحام. وكأن السورة تصورهم في حالة من الاضطراب الداخلي الذي يجعلهم عاجزين عن الثبات على موقف واضح.

ولهذا تعجب السورة من حالهم فتقول: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}؟ فالمشكلة ليست في وضوح القرآن، بل في القلوب التي أغلقت أبوابها أمام الهداية.

وتكشف السورة كذلك أن هؤلاء يطيعون الكافرين ويقولون لهم: سنطيعكم في بعض الأمر، وهم يظنون أن أسرارهم خافية، بينما الله يعلم ما يسرون.

وفي ختام السورة يوجَّه الخطاب إلى المؤمنين، فيُطلب منهم الطاعة والثبات وعدم إبطال الأعمال بالمعصية. ثم تحذرهم من مصير الكافرين الذين كرهوا ما أنزل الله، فتكون عاقبتهم إحباط الأعمال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}.

وفي نهاية السورة تدعو المؤمنين إلى عدم الضعف أو الدعوة إلى الصلح بدافع الوهن، لأن العزة مع الإيمان، والله معهم ولن يضيع أعمالهم. ثم تذكرهم بأن الحياة الدنيا لعب ولهو، وأن المال والولد إنما هما ابتلاء، فلا ينبغي أن يشغلهم ذلك عن طاعة الله.

وتختم السورةُ بفضح المنافقين مرة أخرى: تلك الفئة الوقحة التي تبخل بأموالها ولا تنفق في سبيل الله إعلاء لكلمته، وتظن أنَّ هذا التهرب والنكوص يضمن لها حسن الخاتمة: {وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ. إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ..}

فليس في النفس الإنسانية شيءٌ يفسدها مثل الإفراط في الطلب، ولا شيءٌ يُذهب عنها حياءها مثل الإلحاح. وكما أن السكين إذا أُفرط في استعمالها فقدت حدّها فأصبحت حافية، كذلك النفس إذا أُفرطت في السؤال فقدت حياءها. فالحياء هو حدّها الخفي، هو ذلك الحاجز الرقيق الذي يمنعها من أن تتجاوز قدرها. فإذا أُزيل هذا الحاجز بكثرة الطلب، صارت النفس حافيةً من الحياء، مثلما تصير السكين حافيةً من الحدّ والصقل.

وقد لا يكون بين اللفظين- في ميزان الاشتقاق الصارم- نسبٌ قريب، لكن بينهما في ميزان المعنى وشائج خفية تستدعي التأمل. فالله تعالى يقول: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾، أي إن يُلحّ عليكم في الطلب، ويجهدكم فيه، ويستقصي عليكم السؤال، فتضيق

صدوركم وتبخل نفوسكم. فالإلحاح هنا ليس مجرد سؤال، بل ضغطٌ يتراكم حتى يُتعب النفس ويُجهدها.

ومن هذه الصورة يمكن أن ننتقل إلى صورة أخرى في لسان العامة، حين يقولون: "سكين حافية". فالسكين إذا كثر استعمالها، وأُجهدت في القطع، ذهبت حدّتها، وصارت لا تُجدي في القطع. فكأن النفس البشرية، إذا أُلحّ عليها إلحاحًا متتابعًا، وضُغطت ضغطًا متتاليًا، تشبه تلك السكين الحافية، التي فقدت حدّها، وبهت أثرها، وبالتالي يصير الكلام الذي كان يُحرّكها لا يُحرّك منها شيئًا. فالإكثار من السؤال يُميت الاستجابة، كما أن الإكثار من الإجهاد يُميت الحِدّة.

هكذا، وإن اختلف أصل اللفظين في الاشتقاق، فإنهما يلتقيان في صورةٍ واحدة: صورة الشيء الذي أُرهق حتى فقد أثره. فالإلحاح الذي يُجهد النفس يجعلها بليدة، كما أن الإجهاد الذي يُصيب السكين من كثرة الاستعمال يجعلها حافية. وفي الحالين يضيع المقصود؛ فلا يُنال العطاء، ولا يتحقق القطع.

هذه هي سورة محمد، إذا قرأناها في ضوء محورها الكبير: "الإيمان أو الضياع". فالمؤمنون قد هداهم الله، وأصلح بالهم، وثبت أقدامهم، وأدخلهم جنات عرفها لهم. والكافرون أضل أعمالهم، وتاهوا في الدنيا والآخرة، وصاروا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً. وما هذه الدنيا التي يتنافسون عليها، إلا لعب ولهو. وما الآخرة إلا دار القرار. فطوبى لمن آمن واهتدى، وويل لمن كفر وتولى.

هكذا تتجلى لنا روعة هذا القرآن، الذي يجعل من كل سورة لوحة فنية متكاملة، تدور على فكرة واحدة، وتصورها من كل جانب، حتى تترك في النفس أثراً لا يمحى، وتبقى في القلب ذكرى لا تزول.

سـورة الفتح

التدفق

إن من يتأمل سورة الفتح، سرعان ما يدرك أن روحها التي تدور عليها، ونبضها الذي يخفق في كل آية منها، إنما هو شيء واحد لا يتعدد: إنها السكينة التي أنزلها الله في قلوب المؤمنين. تلك السكينة التي هي أصل كل فتح، ومصدر كل نصر، ورأس كل خير. وهي التي عناها الله عز وجل بقوله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}.

فهذا الفتح الذي تتحدث عنه السورة، ليس فتح مكة وحده، ولا هو النصر في المعركة وحدها، إنما هو شيء أعمق وأبقى، شيء يتصل بالقلوب قبل أن يتصل بالأرض والبلاد. إنه ذلك التواصل الإنساني الرفيع، ذلك التدفق العجيب الذي يحدث بين النفوس حين تخلو من الشوائب، وتصفو من الأكدار، فتصبح كأنها نفس واحدة في أجساد شتى.

وما هذا التواصل الذي نحن بصدده؟ إنه في لغة العرب يدل على معنى جميل عميق: هو التقارب والتحابب، وهو نقيض التهاجر والتقاطع. وقد قال الشاعر:

عندي لكم يوم التواصُل فرحةٌ ... يا معشر الجلساء والندماء

فالتواصل إذاً فرحة، فرحة الائتلاف بعد الاختلاف، وفرحة التفاهم بعد سوء الفهم.

وفي اللغة الإنجليزية، كلمة Communication تعني نقل المعلومات وتبادل الآراء، ولكنها تقف عند الظاهر فقط، عند الرسالة الشفهية أو المكتوبة، أو عند الشبكة التليفونية التي تصل بين الناس. وقد عرفه تشارلز هورتن كوبر قائلاً: إنه الميكانيزم الذي بواسطته تنمو العلاقات الإنسانية وتتطور. وهو يعني أن يكون الإنسان على معرفة برموز الذهن الإنساني، وأن يتقن تبليغ هذه الرموز عبر الزمان والمكان، مستعيناً بكل ما أوتي من أدوات كتعابير الوجه، وهيئات الجسد، ونبرات الصوت، وصدق الكلمات. فإذا اجتمعت هذه الوسائل كلها حدث ذلك الانفتاح العجيب، وانزاحت السدود التي كانت تفصل بين الإنسان والآخرين، وتلاقت الأرواح على ما لم تكن تتلاقى عليه من قبل، وتم

التواصل الوجداني والاندماج الإنساني في أبهى صوره وأكمل مظاهره، وسرى التفاهم في النفوس كما تسري الكهرباء في أسلاك النحاس.

لكن هذا التواصل في صورته المثلى، يظل حلماً إنسانياً عزيز المنال، تعترضه عقبات شتى، ومعوقات جمة. إذ ثمة معوقات لغوية، تكمن في صعوبة نقل المعاني بدقة، وفي عجز الألفاظ أحياناً عن الإحاطة بالمشاعر والأحاسيس. وثمة معوقات نفسية، تتصل بطريقة إدراك الناس للأمور، فكثير منا يفهم الكلام ليس كما قيل، ولكن كما يريد المستمع أن يفهمه، وكما يتوقعه من قبل أن يسمعه. كما أن ثمة معوقات اجتماعية وثقافية، تتجلى في عدم مراعاة الأعراف والتقاليد، أو في استخدام ألفاظ خاطئة مربكة، أو في العجز عن صياغة العبارات الهادفة التي تترك أثرها في النفوس.

أما التواصل في معناه التي ترمي إليه سورة الفتح، فهو أبعد من ذلك وأعمق. فالفتح لطف إلهي قبل أن يكون جهداً بشرياً، وهذا هو المعنى العميق الذي أشار إليه القرآن بقوله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}.

فالفتح هنا بمعنى التواصل الذي ييسره الله لعباده، بأن يجعل بين العبد وبين الناس طريقاً للتفاهم، فيفهمهم ويفهمونه، ويوصل إليهم ما يريد من أقصر سبيل وأوضح طريق. وقد روي عن مقاتل بن حيان في تفسير الآية: "يسرنا لك يسراً بيناً". وهذا هو عين ما سأله أصحاب شعيب عليه السلام حين قالوا: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [الأعراف: ٨٩].

أما الإنسان العنيد، متصلب الرأي، جامد الفكر، الذي لا يلين ولا ينثني، فإنه لا يستطيع أن يتواصل مع أحد، ولا يفتح الله بينه وبين الناس سبيلاً. وهذا ما أشار إليه القرآن بقوله: {وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [إبراهيم: ١٥].

والفتح في أصله اللغوي هو "إزالة الغلق عن الباب أو عن الخزانة". ومنه قوله تعالى: {لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ} [الأعراف: ٤٠].

فالفتح القرآني لطف من الله يختص به من يشاء من عباده. لذلك كان من أسمائه الحسنى "الفتاح". وهو الذي يفتح لعباده منافع الدنيا والدين، ويفتح لمن اختصهم بلطفه

وعنايته أقفال القلوب، ويدر عليهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية ما يصلح به أحوالهم، ويقيم على الصراط المستقيم نفوسهم. وهو الذي يقدر للعباد ما يقدر من خير وشر، ونفع وضر، وعطاء ومنع، فيفتح لعباده الطائعين خزائن جوده وكرمه، ويفتح على أعدائه ضد ذلك.

ولقد أصاب الإمام ابن جزي في تفسيره "التسهيل لعلوم التنزيل" حين فسر الفتح بمعنى العطاء، مستشهداً بقوله تعالى: {مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا} [فاطر:٢]. وإذا علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن هذه السورة: {لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس}، ثم قرأ: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}-إذا علمنا ذلك، أدركنا عظم هذا الفتح، وجلال هذه السكينة التي منَّ الله بها على نبيه وعلى المؤمنين.

ومما ينبغي أن ننبه إليه في هذا المقام، أن الفتح أو التواصل قد يكون بالحق، وقد يكون بالباطل. فليس كل اجتماع وتفاهم بين الناس هو خير محض. ألا ترى أن السكارى والخطاة والدجالين إذا اجتمعوا في مكان واحد، يحدث بينهم من التفاهم والانسجام ما لا يحدث بين كثير من الأخيار؟ إنهم يتواصلون منذ النظرة الأولى، قبل أن ينبس أحدهم بكلمة، وكأن بينهم تواطؤاً على الإثم والعدوان.

هذا هو الفتح بالباطل. أما المؤمنون، فإن اجتماعهم وتواصلهم يكون بالحق وعلى الحق. ولذلك قال الله لنبيه: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} فجمع الله للمؤمنين يكون على الحق، وفتحه بينهم يكون بالحق. ومن أجل ذلك كان الأنبياء عليهم السلام يدعون ربهم أن يكون الفتح بينهم وبين أقوامهم بالحق، كما دعا نوح عليه السلام ومن معه: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ}.

***

والآن، بعد هذا البيان الذي أسلفناه في معنى الفتح والتواصل، نفتح سورة الفتح لنرى كيف تجسدت هذه المعاني فيها تجسداً بديعاً، وكيف رسمت لنا صورة المؤمن الذي أنزل الله السكينة في قلبه، فانفتح على الناس وعلى الحياة وعلى الكون كله انفتاحاً عجيباً.

تبدأ السورة بأعظم خبر، وأجل بشارة، تخاطب قلب النبي الكريم: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}.

إنه الفتح الذي اختص الله به نبيه، فجعل قلبه منشرحاً منفسحاً، وجعله يفهم نفسه ويفهم الآخرين، ويتواصل معهم في يسر وسهولة. هذا الفتح الرباني إذا اختص الله به عبداً من عباده، أنزل في قلبه السكينة والرضا. فكثيراً ما يقع من حُرِم هذا الفتح في العنت والخطأ، فيصبح متسرعاً ضيق الصدر، تعس النفس، لا يكاد يتواصل بأحد حتى ينصرف عنه.

ألم تر إلى يونس عليه السلام، حين ترك قومه مغاضباً، وضاق صدره فلم يصبر، فكان ما كان من أمره في بطن الحوت! لقد كان ضيق الصدر سبباً في وقوعه في العنت، لكن الله لطف به ورحمه.

والسكينة حين تنزل في القلب، تكون علامة على غفران الذنب وشرح الصدر. وإلى هذا المعنى تشير سورة الشرح: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ}. إن شرح الصدر هو الذي يجنب الإنسان الوقوع في الخطأ، لأن كل إنسان فيه وزر غريزي، لا يزول إلا بانشراح الصدر واتساعه. وحين ينشرح الصدر، يشعر الإنسان بالانطلاق والانتعاش، وكأنه ولد من جديد.

لذلك، حين اختص الله نبيه بهذا الفتح الرباني، فكأنما غفر له ذنبه بأن شرح صدره، وجنبه أكثر ما يوقع الناس في الزلل، مثل: ضيق الصدر، وقلة الصبر، والعجز عن التواصل. فبهذا الفتح صار النبي صلى الله عليه وسلم في مأمن من الوقوع في الذنب، لأنه صار على بصيرة من أمره، وفي سعة من صدره.

ثم تذكر السورة ثمرات هذا الفتح العظيم: {لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا . وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا}.

إنها ثمرات أربع: المغفرة التي تشمل ما مضى وما سيأتي، وإتمام النعمة الظاهرة والباطنة، والهداية إلى الصراط المستقيم، والنصر العزيز الذي لا يذل معه المؤمنون أبداً.

وهذه السكينة التي أنزلها الله في قلب النبي، لم تكن له وحده، بل كانت نهراً يفيض على أتباعه المؤمنين. لذلك قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}.

هنا إيمان يزداد بإيمان، ونور يتضاعف بنور، وسكينة تتعاقب على القلب فلا تفارقه.

ثم يبين الله جزاء هذا الإيمان وهذه السكينة: {لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا}.

وهنا نلفت إلى دقيق التعبير القرآني. إن الله قال في حق النبي: {لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ}، وقال في حق المؤمنين: {وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}. فما الفرق بين المغفرة وتكفير السيئات؟

الفرق دقيق عميق. إن الكفر في اللغة هو التغطية والستر. فالله يخبر أنه سوف يستر عن المؤمنين سيئاتهم ويحجبها عنهم. لذلك لم يقل "يكفر لهم" إنما قال {وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ}، وهكذا في جميع آيات القرآن بلا استثناء. فلماذا هذا التعبير؟

ذلك لأن الأعمال السيئة التي يعملها الإنسان تطل برأسها بين الحين والآخر، وتوسوس لصاحبها بأن يقترف سيئات أخرى، فتكاد تكون شياطين تغويه وتزين له الشر. فهي عدو كامن في النفس، يتربص بالإنسان ليوقعه في المزيد من الزلات. فإذا كفرها الله وسترها، فقد ستر على الإنسان عدوه اللدود الذي كان يوسوس له ويغريه.

ومن جهة أخرى، فإن هذه السيئات تسبب للإنسان الهم والحزن والقلق. يظل يتوقع نزول العقاب في أي لحظة، كما قال تعالى: {تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ}. وهي كذلك تشعره بالمهانة والذل والصغار أمام نفسه. فإذا تكفل الله بسترها وحجبها، ذهب هذا كله، وعاش الإنسان آمناً مطمئناً، وكأن خطاياه لم تكن.

وفي الجانب الآخر، يقف المنافقون والمشركون، أصحاب الظنون السيئة والوساوس الشيطانية. وهؤلاء لا يجدون في أنفسهم سكينة ولا راحة، إنما يجدون المقت واللعنة والغضب: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [الفتح:٦].

وظن السوء هذا، هو تصور فاسد عن الله وعن دينه ونبيه. إنه ظن أن الله لا ينصر دينه، وأن رسوله سيُغلب، وأن المؤمنين سيهزمون. وهو ظن ينبع من قلوب مريضة، ونفوس خبيثة، لا تعرف الله حق معرفته.

وهذا الظن السيئ هو الذي يجعل الناس يضلون بأهوائهم بغير علم، فيصلون إلى تصورات منحرفة عن الإلوهية والربوبية، وعن الرسل واليوم الآخر، وعن الجنة والنار. وهذا التصور الفاسد هو سبب ضلالهم وهلاكهم.

ومن هنا نفهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم: {لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله}. أي يجب على المسلم أن يجتهد قبل موته ليصل إلى أحسن التصورات عن الله، فينزه ذاته عما لا يليق به من تصورات فاسدة. أو كما قال بعض العلماء: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن تقدير الله حق قدره، فيوفيه حقه ومكانته اللائقة به.

والإنسان بقدر ما يجتهد في معرفة الله حق المعرفة، بقدر ما يجازى على هذا الاجتهاد. وبقدر ما ينزه الله عن التصورات المنحرفة، بقدر ما ينال من الدرجات. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: {أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء}. أي أن الله يعامل عبده على حسب ظنه به: إن ظن خيراً رأى خيراً، وإن ظن شراً رأى شراً. فمن ظن أن الله لا يرزقه حرم، ومن ظن أن الله لا يغفر له لم يغفر له، ومن ظن أن الجنة ليس فيها حوريات ولا خمر حُرِم منها. إن الله عند ظن العبد به، فليظن العبد بربه ما يشاء.

وللمنافقين عذاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة، عذاب يحدث بفعل أشياء كثيرة لا تكاد تُحصى. ذلك أن كل ذرة في هذا الكون بمثابة جنديٍّ من جنود الله، وكلها تستجيب لأمره وتنفذ إرادته. هذه الذرات التي يتألف منها الكون إنما هي رسل الله، بمعنى من المعاني، لأنها تقوم بتنفيذ أمره في كل لحظة.

أليس هي التي تأتي بالليل والنهار، وتجري بهما على نظام دقيق لا يختل؟ أليست هي التي تأتي بالصيف والشتاء، وتقلب الفصول على الأرض تقليباً بديعاً؟ أليست هي التي تأتي بالرعد والبرق والأمطار، فتبعث في النفوس الرجاء والخوف؟ إن هذه الذرات التي يتكون منها الكون هي التي تسبب الحوادث كلها، ولكنها لا تفعل ذلك بإرادتها المستقلة، ولا بعلمها الخاص، إنما هي مأمورة بأمر الله، مسخرة بتسخيره، تفعل ما يشاء حيث يشاء.

فهي بهذا المعنى جند الله التي تقاوم المنافقين وتترصد لهم في كل لحظة. ومن هنا نفهم معنى قوله تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}.

فطعام الكافر وشرابه، والتراب الذي يمشي عليه، والهواء الذي يتنفسه، كل هذه جنود الله التي تقاتل في سبيله صفاً واحداً كأنها بنيان مرصوص. إنها تُدخِل في قلب الكافر ونفسه اللعنةَ والمقت والغضب، فتجعله يعيش في شقاء دائم، وتعاسة لا تنتهي، قبل أن يلقى العذاب الأكبر.

ويومئذٍ لن تقوم لأحد عند الله حجة ولا عذر، ولن يستطيع أحد أن يقول: إني لم أكن أدري، أو لم يبلغني أحد! لأن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليبلغ الناس جميعاً، ويكون شهيداً عليهم، ومبشراً لمن آمن، ونذيراً لمن كفر: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}.

فالرسول صلى الله عليه وسلم هو المبلغ عن الله، وهو صاحب المقام الأسنى، وصاحب الاتصال الحقيقي بالله تبارك وتعالى. ومن أجل ذلك، من يعاهد الرسول فكأنما عاهد الله، ومن يضع يده في يد الرسول فكأنما وضع يده في يد الله. ومن نكث عهده مع الرسول فكأنما نكث عهده مع الله: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}.

هؤلاء المؤمنون الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة، وساروا في طريق الجهاد، قد جاهدوا أنفسهم، وتساموا على شهواتهم من أجل الغاية العظمى التي يرجونها، فأعطاهم الله في النهاية مرادهم، وأنزل عليهم السكينة والرضوان.

أما غير المؤمنين من المنافقين والمخلفين، الذين لا يهمهم إلا تجارتهم وأموالهم وراحتهم الشخصية، فهؤلاء لم يبذلوا في سبيل الوصول إلى اليقين والسكينة أي جهد أو عناء. حتى في الدعاء، لم تكن لهم الهمة في طلب المعونة من الله، بل حاولوا أن يزيحوا عن كواهلهم عبء الدعاء بأن يطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم بدلاً من أن يستغفروا هم لأنفسهم: {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ}.

أما الحقيقة فهي على خلاف ذلك كله. فهم لم تشغلهم تجارتهم ولا أموالهم ولا أهلوهم، إنما هم قوم فقدوا الإيمان واليقين بصدق الرسول ورسالته، وانقطعت صلتهم بالله، وامتلأت نفوسهم بالأهواء الجامحة والظنون الفاسدة. وبالتالي لن يصدر عنهم خير، ولن يكون لهم ثمر ولا خصب، ولن يُقبل لهم دعاء. إنهم كالأرض البور الجرداء الخالية من الماء والزرع: {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا}.

وإذا كانت الأرض البور مكشوفة خالية لكل من ينظر إليها، كذلك المنافقون مكشوفون أمام الجميع، معروفون بصفاقتهم، لا يخجلون من شيء، ولا يتحرجون أن يظهروا بهذا العوار وهذا الانكشاف أمام الناس جميعاً. وبالرغم من أن القرآن قد فضحهم وأخبر بأنهم سيأتون يطلبون الغنائم، فإنهم أتوا يطلبونها ويرددون ما قاله القرآن في حقهم وكأن الأمر لا يعنيهم: {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا}.

وإذا كان هؤلاء المخلفون صادقين في قولهم بأنهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم عن الخروج مع الرسول، فلماذا لم تشغلهم هذه الأموال والأهلون عن الإلحاح في طلب نصيبهم من الغنائم؟ إنها فضائحهم التي تتكشف، وأسرارهم التي تظهر.

ومع هذا كله، فإن رحمة الله واسعة، وأبوابه مفتحة. فإن تاب المخلفون ونصروا الله ورسوله، وانضموا إلى صفوف المجاهدين، فإن الله سيغفر لهم ذنوبهم ويجعلهم مع المؤمنين: {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}.

إنه نداء التوبة، ودعوة العودة، وفتح باب الرجاء أمام من أخطأوا الطريق وضلوا السبيل.

ولا يظن أحد أن هذه السكينة والطمأنينة إنما تنزل في قلوب المجاهدين الذين يخوضون غمار الحروب ويواجهون الموت في ساحات الوغى فحسب. كلا! إن صاحب

النية الصادقة الذي يعجز عن الجهاد بنفسه، لسبب من الأسباب، كالعمى أو العرج أو المرض، سيكون له نصيبه من هذه السكينة والطمأنينة، ومن الأجر العظيم كذلك: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا}.

إن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ويجازي العبد على نيته الصادقة كما يجازي العامل المجتهد.

ودوافع المؤمنين للجهاد لم تكن قط هي الغنيمة والأسلاب، إنما كان همهم الأول رضا الله عز وجل. وهذا هو السبب الحقيقي الذي دفعهم للخروج والقتال. وكثير من الناس يسعى لتبديد القلق الناتج من خشية الفقر بمزيد من جمع الأموال واقتناء الثروات، ولكنهم مع ذلك تبقى نفوسهم قلقة وأرواحهم حائرة. ذلك لأن تبديد القلق وإنزال الرضا في النفس ليس له سبيل إلا سبيل واحد: رضا الله عز وجل.

هذا هو ما كافأ الله به المبايعين بيعة الرضوان تحت الشجرة. لقد رضي عنهم، وعلامات هذا الرضا تجلت في امتلاء نفوسهم بالسكينة والطمأنينة واليقين: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}.

إن السكينة عنصر خلاق عجيب، يجمع شتات النفس، وينقيها من شوائبها، ويسيطر على قواها الداخلية. إنها كالقارورة التي تحرك باليد ثم توضع على الأرض، فيصفو سائلها ويرسب ما فيه من شوائب. كذلك السكينة بالنسبة للطبيعة العكرة والذهن المشوش، تصفي النفس وتهذبها وتجعلها مستقرة هادئة.

ولا يخرج السكينة من النفس إلا أمران: خوف مزعج، أو شوق مقلق. وقد اجتمع هذان الأمران في نفوس المؤمنين في ذلك الوقت العصيب. فقد تمثل الشوق المقلق في حبهم لزيارة بيت الله الحرام، ذلك البيت الذي تهفو إليه قلوبهم وتشتاق إليه أرواحهم. وتمثل الخوف المزعج في عودة الصدام المسلح مع الكفار، وإراقة الدماء من جديد، وما قد يترتب على ذلك من نتائج لا يعلمها إلا الله.

فجاء الكشف الإلهي ليبدد هذا الخوف ويلبي ذلك الشوق. لقد أراهم الله في رؤيا نبيه أنه سيدخل المسجد الحرام آمناً مع المؤمنين، آمنين لا يخافون، محلقين رؤوسهم ومقصرين. وقد تحققت هذه الرؤيا بعد ذلك: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}.

فالسكينة التي تحدثت عنها سورة الفتح ليست سكينة موهومة أو هدوءاً مصطنعاً يشبه ذلك الهدوء الذي يلوذ به بعض المنعزلين في الصوامع والأديرة. وليست هي هروباً من الحياة، ولا استسلاماً سهلاً يشتريه الإنسان بثمن زهيد حين يغلق عينيه عن الواقع وينسحب من ميدان العمل. كلا! إن السكينة الإسلامية شيء آخر غير هذا كله. إنها طمأنينة الأقوياء لا طمأنينة الضعفاء، وسكينة الأبطال لا سكينة الهاربين. والمسلم مع هذه السكينة يضع كل شيء في مكانه الصحيح، فهو شديد مع أعداء الله إذا تطلب الأمر شدة، وهو لين في موضع اللين مع إخوانه المؤمنين. وقد صوّر القرآن هذه الصورة الرائعة للمؤمنين في قوله تعالى:

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}.

إنها صورة متكاملة للإنسان الرباني: شدّة لا تنقلب إلى وحشية، ورحمة لا تنقلب إلى ضعف. شدّة في موضعها، ورحمة في موضعها. وكل ذلك بميزان دقيق، وبصيرة نافذة.

ثم يصف القرآن حالهم مع ربهم: {تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا}. فهم في حركتهم وسكونهم، في شدتهم ولينهم، لا يصدرون عن جموح أو هوى، إنما مقصدهم الأسمى وغايتهم العظمى هي رضا الله وحده. يبتغون فضله ويرجون رضوانه، لا يطلبون جاهاً ولا سلطاناً، ولا يسعون لدنيا زائلة أو متاع فان.

والطمأنينة متى امتلأت بها القلوب، فإنها تفيض على الوجوه، فتظهر آثارها على السمات والملامح. وقد أخبر القرآن عن هذه الظاهرة الجميلة: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ}. إنها وسام العبودية الذي يكتبه الله على وجوه عباده المؤمنين، نور يشرق من أساريرهم، وبهاء يلوح على محيَّاهم، لا يخفى على أحد.

وهذا التوازن بين الشدة والرحمة هو من الخصائص البارزة في تعاليم الإسلام، وهو ما يشير إليه القرآن حين يقول: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ}.

هذه الإشارة إلى التوراة تحمل في طياتها تعريضاً لطيفاً بأهل الكتاب الذين حرفوا دينهم وبدلوا كتابهم. ذلك أن التوراة التي بين أيديهم اليوم، قد جاء فيها من التعاليم القاسية ما لا يتفق مع رحمة الله وحكمته. فقد جاء في سفر التثنية: {حين تقترب من مدينة لكي تحاربها، استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك، بل عملت معك حرباً، فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، وكل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك...}

بل إن النص يذهب إلى أبعد من ذلك في موضع آخر: {فضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتُحرِّمها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف. وتجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك، فتكون تلاً إلى الأبد لا تُبنى بعد}.

هذه تعاليم لا تعرف الرحمة في موضعها، ولا تفرق بين المحارب وغيره، بل تحكم بالإبادة الجماعية لكل من يقف في وجه بني إسرائيل. وفي مقابل هذه التعاليم الجائرة، جاءت تعاليم الإسلام الوضيئة: {مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِّ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}. شدّة على المحاربين المعتدين، ورحمة بالمسالمين والضعفاء، حتى في أثناء الحرب.

ثم يعرض القرآن بمثل آخر من الإنجيل، حيث ابتدع النصارى الرهبنة والانعزال عن الحياة، وأهملوا الحرث والنسل، وظنوا أن الزهد الحقيقي هو الهروب من الدنيا وتركها لمن لا يستحقونها. وقد جاء في إنجيل لوقا: {ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله! لأن دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله}. وهذا الفهم الخاطئ جعل كثيراً من النصارى ينظرون إلى المال والدنيا نظرة تشاؤم، ويفرون من الحياة فرارهم من الموت.

أما أمة الإسلام، فقد ضرب الله لها مثلاً في الإنجيل يصور حيويتها ونماءها وازدهارها: {وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}.

تأمل هذه الصورة البديعية: الزرع يخرج شطأه، أي فراخه الصغيرة، ثم يقويها ويؤازرها، حتى تغلظ وتقوى سوقها، فتصبح زرعاً ناضجاً مكتملاً يثير إعجاب الزراع. هذا هو مثل المؤمنين: يبدأون ضعفاء، ثم ينمون ويتكاثرون ويقوون، حتى يصبحوا أمة عظيمة تثير إعجاب الناس، وتغيظ الكفار الذين يتمنون زوالها وفناءها.

كذلك لا يقول الإسلام إن إنساناً آخر قد حمل خطايا البشر عنهم، فيفعلون ما يشاؤون دون حساب، كما فعل النصارى. إنما كل إنسان مسؤول عن عمله، وكل نفس تحمل تبعة ما كسبت. لهذا يقرر القرآن قاعدة واضحة حين يقول إن الجزاء مرتبط بالإيمان والعمل معاً، لا بالانتساب وحده: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}.

فليس للإنسان إلا ما سعى، فإن وجد خيراً فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. هكذا تختم السورة تصويرها للمؤمنين، وقد جمعت بين السكينة التي تسكن القلوب، والعمل الذي يعمر الحياة، والعدل الذي يوازن بين الشدة والرحمة.

ففي سورة الفتح نرى ذلك النسيج البديع من المعاني المتشابكة: السكينة التي تتنزل على القلوب، والرضا الذي يغمر النفوس، والفتح الذي يأتي من عند الله. إنها سورة تذكرنا بأن النصر الحقيقي ليس هو النصر على الأعداء وحدهم، إنما هو النصر على الخوف والقلق. والفتح الأكبر هو فتح مغاليق النفوس، والتواصل الأعظم هو أن يتصل العبد بربه، فينزل عليه السكينة، ويملأ قلبه رضا ويقيناً.

فطوبى لمن فتح الله قلبه، وأنزل عليه سكينته، وجعله من الراضين المرضيين.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

سـورة الحجرات

امتحان القلوب على طريق التقوى

إنّ سورة الحجرات، على قصرها، تُعدّ من السور القرآنية التي وضعت إطارًا متكاملًا للتربية الإيمانية العملية، لا من جهة العقيدة المجردة، بل من جهة التهذيب النفسي والسلوكي، حيث يُفتَتح الخطاب فيها بـ{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} ثم يُمتحَن هذا الإيمان في سلسلة من الوقائع والمواقف، وكأنّ القرآن يُريد أن يقول:

إن الإيمان دعوى، وإن القلوب لا تُعرف حقيقتها إلا بالامتحان.

هكذا، فإن السورة تمضي مع المؤمن في سلّم التزكية، من حيث التأدب مع الوحي، ثم مع الرسول، ثم مع المؤمنين، ثم مع النفس، حتى ينتهي إلى مقام التقوى، الذي هو عنوان الكرامة، ومناط الاصطفاء..

تبدأ السورة بنداءٍ عظيم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}

وهنا يبدأ الامتحان الأول: هل للمؤمن قلب خاشع يقف بين يدي النص، فلا يتسرع بحكم، ولا يعترض برأي، ولا يُقحم الهوى في مقام الشرع؟

ثم يأتي التوجيه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ...}.

فليس الامتحان فقط في القول والموقف، بل حتى في نبرة الصوت وهيئة المجلس. ومن جاز هذا الموطن، نجا من إحباط العمل دون أن يشعر:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}

وهنا يظهر الخطر: أن الرياء ليس وحده ما يحبط الأعمال، بل قلة الأدب مع مقام النبوة كذلك.

وفي ظل هذا السياق، تأتي آية عظيمة:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}

فالتسرع في الأحكام هو مِعْوَل هدم، لا سيما إذا تعلق الأمر بجماعة المؤمنين. ومن نتائج غياب التثبّت والتأدب، أن تقع الأمة في الاقتتال:

{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا...}.

وفي وصف إصلاح ذات البين، نجد تصعيدًا في التعبير:

أولاً: "فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا"

ثم: {فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا}.

وذلك لأن النفوس بعد القتال تصبح أكثر قابلية للانتقام وأقل استعدادًا للصفح، فلابد من عدالة صارمة.

ثم تنتقل السورة لتصف بعض الآفات الأخلاقية التي تفضح النفس، وتضعف أهليتها لنيل التقوى، منها:

السخرية والتنابز بالألقاب:

{لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ، عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ، وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ، وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ..}

سوء الظن والتجسس والغيبة:

{اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، وَلا تَجَسَّسُوا، وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا}

ومن بديع القرآن أن يقول:

{إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}

ليُفهمك أن أدنى الظن إثم، فكيف بكثيره؟

فكأنما يقال: إن قطرة من السم في الكأس تقتل، فكيف بمن يشرب الكأس كله؟

ثم تنتقل الآيات من التقوى إلى الكرامة: معيار التفاضل الإنساني:

{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ}

وهذا ليس مديحًا شعبيًّا، بل هو نتيجة موضوعية لسلسلة الامتحانات السابقة. فمن تأدب مع الرسول، وتثبّت في الأخبار، وأصلح بين الناس، وسلِم من آفات اللسان... فذلك هو المتقي، وهو الأكرم.

ثم تُظهر السورة نموذجًا آخر:

{قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا..}

لكنّ القرآن يُوقف هذا الادّعاء:

{قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}

فالإسلام هنا بداية الطريق، أما الإيمان فهو غاية السلوك والتزكية.

والسورة تضع فاصلاً واضحًا: من دخل الإسلام لا يُعدّ مؤمنًا حتى ينجح في هذا الامتحان السلوكي القلبي.

ثم تضع السورة تعريفًا للمؤمن الصادق:

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}.

ثم تختم السورة بتوجيه نبوي رفيع:

{قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم. بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}

فلا يحق لأحد أن يجعل من دخوله الإسلام مزيّة يمنّ بها، بل هي نعمة من الله ينعم بها على من يشاء!

إن سورة الحجرات ليست سطورًا من الأحكام، بل هي مرآة صافية تعكس لك ذاتك:

أأنت ممن أدّبهم الإيمان؟ أأنت ممن يسيرون نحو التقوى خطوة خطوة؟ أأنت ممن لم يرتاب، وجاهد نفسه ليبلغ درجة الإحسان؟

فإن نجحت في هذا الامتحان، فأنت مؤمن. وإن أخفقت، فأنت مسلم في بداية الطريق، فامضِ وارتقِ..

سـورة ق

الدقة

إذا أردنا أن نلتمس المحور الذي تنتظم حوله سورة ق، فقد يخيل إلينا لأول وهلة أن السورة تتحدث عن البعث، أو عن القيامة، أو عن مصير الإنسان بعد الموت. وهذا حق لا شك فيه، لكن هذه المعاني جميعًا قد تكون ثمرة لمعنى أعمق وأسبق، يتردد صداه في آيات السورة كلها، ويكاد يسيطر على جوها من أولها إلى آخرها، وهو معنى الإحاطة والدقة التي لا يعتريها نقص ولا يداخلها خلل.

ولعل هذا المعنى الجليل هو ما يومئ إليه اسم السورة؛ إذ تلتفت النفس فلا تجد حرفاً يبرز في كلمة "الدقة" كما يبرز حرف القاف.

تبدأ السورة بتعجب المكذبين من خبر البعث، كأنهم يستبعدون أن يعود الإنسان بعد أن يصير ترابًا وتضيع أجزاؤه في الأرض. ولكن القرآن لا يدخل معهم في جدل طويل، وإنما يرد عليهم ردًا هادئًا حاسمًا: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾.

وكأن الآية تريد أن تقول: إن الذي أحاط علمه بكل ذرة تفرقت من هذا الجسد، لا يعجزه أن يجمعها مرة أخرى. فالقضية ليست قضية قدرة فحسب، إنما هي قضية علم يحيط بالأشياء إحاطة كاملة، لا يضيع معها شيء ولا يغيب عنها شيء.

ثم تنتقل السورة إلى حال أولئك الكفار، فتجدهم مضطربين مشوشين، ليس لهم دقة ولا نظام: {بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ}. والأمر المريج هو الخليط المختلط الذي لا يبين فيه حق من باطل، ولا صواب من خطأ. إنهم في حيرة وتخبط، بينما الكون من حولهم قائم على الدقة والإحكام.

ثم تمضي السورة بعد ذلك، فتعرض على الإنسان صفحات من هذا الكون العظيم؛ فتلفت الأنظار إلى السماء في بنائها المحكم وتزيينها البديع وخلوها من سائر العيوب: {أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ}.

وليس المقصود من هذه المشاهد أن تثير الإعجاب بالجمال وحده، وإنما أن تلفت العقل إلى نظام بالغ الإحكام، لا مكان فيه للعبث ولا موضع فيه للفوضى.

ثم ينتقل إلى دقة الأرض وما أُلقي فيها من جبال رواسي، وما أُخرج من نباتاتها البهيجة، ليكون في ذلك كله تبصرة وذكرى لكل ذي عقل رشيد: {وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ}.

ولا يقف الأمر عند هذا، بل يمتد إلى دقة نظام الغيث؛ إذ ينزل من السماء ماء مبارك، فتنبث به الجنات، وتخرج حَب الحصيد، وتطول النخيل الباسقات بطلعها النضيد المتراكب، رزقاً وفيراً مقدراً للعباد: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ. وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ. رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}.

ثم تزداد الصورة دقة. إن الله يعلم ما توسوس به النفس، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل وريده. ثم يأتي المشهد الدقيق المهيب: ملكان عن اليمين والشمال، يسجلان كل قول وفعل، لا يغادران صغيرة ولا كبيرة. وحين تجيء سكرة الموت بالحق، فإنها تجيء في ميقاتها المعلوم وبدقة تامة، فلا يملك الإنسان مفرّاً مما كان يحذر منه ويداري. ثم تأتي كل نفس في المحشر معها سائق يسوقها، وشهيد يشهد على عملها شهادة دقيقة مفصلة.

وهنالك ترتفع عن عقل الإنسان وبصره الأغطية والحجب التي كانت تحجب عنه حقائق الغيب، فإذا ببصره اليوم ناقد حاد: {لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}. ويتقدم القرين في ذلك الموقف العصيب ليقدم كتاباً عتيداً حافلاً بكل ما سجله عن الإنسان من دقيق وجليل: {وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ}.

وتشير السورة بعد ذلك إلى صفوة العباد الدقيقين، أولئك الذين كانوا يلتزمون جادة الحق ويحاسبون أنفسهم في الدنيا على الصغيرة والكبيرة، وهم الأوابون الحفيظون: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ}.

وفي مقابل ذلك، تعرض السورة مشهد إهلاك القرون السالفة؛ وأولئك قوم كانوا على جانب عظيم من الحذر والدقة والمهارة، ولكن في أمور دنياهم وبنائها وبطشها، لا في أمر

دينهم؛ فنقّبوا في البلاد وفتشوا في أرجائها، فما أغنت عنهم دقتهم الدنيوية شيئاً ولا وجدوا من محيص: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلاَدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}.

وتأتي خاتمة السورة لتؤكد هذا المحور الأصيل، فتشير في دقة بالغة إلى علم الله المحيط بكل ما يقوله المشركون من أراجيف، وتأمر الرسول الكريم بالتذكير بهذا القرآن: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ}..

هكذا تمر سورة (ق) كلها، كأنها سيمفونية محكمة، كل نغمة فيها موضوعة بدقة، وكل آية تشهد أن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن خالقه هو العليم الخبير، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأتقن كل شيء صنعاً.

سـورة الذاريات

الأرزاق مقسومة

تدور سورة الذاريات في فلك واحد، ذلك الفلك هو "الأرزاق المقسومة". والمتأمل لهذه السورة الكريمة يجدها من أولها إلى آخرها تضرب على هذا الوتر، وتكرر هذا اللحن، حتى ليخيل إليه أن الدنيا كلها ما هي إلا مائدةٌ بسطها الله لعباده، وأن هذه المائدة لا تنفد خيراتها، ولا يضيق رزقها، وإنما تجري باليسر لمن كتب الله له أن ينال منها نصيباً.

وقد افتتحت السورة بقوله تعالى: {وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا} ، والذاريات هي الرياح التي تذرو التراب والمطر وغيرهما. ثم قال: {فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا}، وهي السحاب التي تحمل وقراً من الماء. وهذه الرياح وتلك السحاب تجري بيُسر، بلا تكلف ولا عناء. وكما أن الرياح تحمل الماء في السحاب ثم تذروه على الأرض الميتة فتحيا، كذلك الملائكة تحمل الأرزاق من عند الله ثم تذروها على عباد الله. وكما أن الزارع يذر الحب في الأرض فتنبت، كذلك الله يذر الرزق على العباد فيأخذ كل إنسان نصيبه بيسر وسهولة..

ثم تمضي السورة بعد هذا التمهيد فترينا أن الناس أمام هذه الأرزاق المقسومة فريقان: فريق يقنع ويتقبل، وفريق يعترض ويسخط. ثم تصف لنا أحوال المتقين الذين يرضون بما قسم الله لهم، فإذا هم في جنات وعيون، يتمتعون بما آتاهم ربهم، لأنهم كانوا قبل ذلك محسنين: يصلون بالليل، ويستغفرون بالأسحار، ويتصدقون من أموالهم ولا يبخلون، وكل ذلك لأنهم أيقنوا أن الأرزاق مقسومة، وأنها حق يقين يرونه أمام أعينهم في حياتهم الدنيا قبل الآخرة..

ثم تبلغ السورة ذروةَ هذا المعنى في قوله تعالى: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)، فكأنها ترفعُ نظر الإنسان من الأرض التي يكدُّ فيها، إلى السماء التي يُدبَّر منها أمره، ليدرك أنَّ الرزق ليس ثمرة السعي وحده، بل هو قبل ذلك تقدير سابق.

بعد ذلك يضرب الله مثلاً بإبراهيم عليه السلام، ذلك الرجل الذي جاءه الضيوف فما تردد ولا تلكأ، بل بادر فقدم لهم عجلاً سميناً. ولم يخشَ الفقر، ولم يتردد من أن ينفق مما

عنده، لأنه أيقن أن الأرزاق بيد الله مقسومة، وأن ما يقدمه للضيوف لن ينقص من رزقه شيئاً.

ثم يشير إلى قوم لوط، أولئك الذين أرسل الله عليهم حجارة من طين منضود، حجارة مقسومة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه، فكأنها رزقهم من العذاب، لا تخطئهم ولا تحيد عنهم.

ثم تشير إلى ثمود ذلك القوم الذين عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم، وما كان عتوهم إلا أنهم لم يرضوا بقسمة الماء بينهم وبين الناقة، فطلبوا الزيادة على رزقهم الذي قُدّر لهم، فكان جزاؤهم الهلاك. فهؤلاء قوم لم يرضوا برزقهم فحرموا منه..

ثم تتحدث السورة عن السماوات، وكيف أن الله خلقهن في اتساع دائم لا يتوقف، تماماً كالرزق الذي لا ينقطع عن العباد. ثم تذكر أن الله خلق من كل شيء زوجين، ومن هذين الزوجين تتناسل أنواع كثيرة وأرزاق متجددة، فكأن الدنيا كلها أرزاق تجري وتتدفق.

ويختم الله السورة بتذكير عباده أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فلا ينبغي لهم أن يشغلوا أنفسهم بالأرزاق، فإن الله تكفل بها، فهو الرزاق ذو القوة المتين. ثم يشير إلى أن للذين كفروا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم من قبل. والذَنُوبُ هي الدلاء المملوءة بالماء، فهي جاهزة لهم، سوف تأتيهم في الوقت المناسب فتغسلهم عن وجه الأرض غسلاً، كما غسلت أصحابهم من آل فرعون، مصداقاً لقوله تعالى: (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) وحينئذٍ ويل لهم من يومهم الذي يوعدون..

هذا هو منهج السورة، وفق هذا التفسير، يبدأ بالرياح والسحاب، ويمر بالمتقين، ويستشهد بالأنبياء والأمم السابقة، وينتهي بالوعيد الشديد للكافرين، وكل ذلك ليؤكد حقيقة واحدة: أن الأرزاق بيد الله، مكتوبة مقسومة، فمن رضي وجد، ومن سخط خسر.

وهذا تفسير له جماله وقوته في الظاهر، وفيه من روعة النسق واطراد الفكرة ما يأخذ باللب، ولكن يبقى القول– بعد كل شيء – لله ولرسوله، وما نحن إلا بشراً نقرأ ونتأمل ونجتهد.

سـورة الطور

الرقة والنعومة

بإمكاننا أن نستشعر في سورة الطَّور نغمة رقيقة ناعمة، تبدأ من قوله: {وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ. فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ} والرق هنا من الرِّقة لا من الرَّقِّ الذي يُكتب فيه، فيخيّل إلى النفس أن هذا الكتاب ينتشر في الأرض في هدوء وانبساط، لا تصده قوة، ولا يمنعه كيد الكافرين من أن يبلغ الآفاق كلها.

ثم تنتقل السورة إلى أن هؤلاء الذين لم يرتضوا هذه الرقة، لن يُعاملوا بها يوم القيامة، بل يُدَعُّون إلى نار جهنم دعًّا، فيُقال لهم: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ}. وهنا يتغير جرس الألفاظ فجأة؛ فكلمة "يُدَعُّون" فيها دفعٌ وخشونة، كأن السامع يكاد يرى الأجساد تُساق إلى النار سوقًا عنيفًا لا رحمة فيه. ثم يقال لهم في شيء من التهكم المرير: {أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ}؟

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى عالمها الهادئ الرقيق، فتفتح أبواب الجنة للمتقين:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾.

ومنذ هذه اللحظة تكاد الألفاظ نفسها تصبح ناعمة؛ فهناك سرر مصفوفة، وفاكهة، ولحم، وخمر، وحور عين، وغلمان كأنهم اللؤلؤ المكنون. وليس المقصود بهذه الصور مجرد الطعام والشراب، وإنما المقصود هذا الإحساس العميق بالأمن والسكينة والراحة بعد خوف الدنيا واضطرابها. فنحن نكاد نرى المتقين وهم يتنعمون بالثمار واللحم والخمر اللذيذ، ويتكئون على سرر موضونة، ويزوجون بالحور العين، وتلحق بهم ذرياتهم الصالحة، ويخدمهم غلمان كأنهم لؤلؤ مكنون.

ثم تبلغ السورة غاية الرقة الإنسانية حين تصور أهل الجنة يتساءلون فيما بينهم:

{إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ}

فهم لم يبلغوا هذا النعيم بالقوة ولا بالبطش، وإنما بلغوه بالخوف من الله، وبرقة القلب، وبذلك الإشفاق الذي يجعل النفس رقيقة حساسة لا تطمئن إلى الشر ولا تستريح إلى القسوة.

ومن هنا كان الله معهم {الْبَرُّ الرَّحِيمُ}، وهي من أرق أسماء الرحمة واللطف في القرآن.

ثم تمضي السورة فتأمر النبي ﷺ أن يذكر الناس، لا بالعنف، بل بالحكمة والصبر، ثم تتحدث عن كيد الكافرين، والكيد بطبيعته عمل خفي لطيف، لا يواجه صاحبه خصمه مواجهة مباشرة، وإنما يدبر له في الظلام. ولذلك تقول السورة:

{أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ}

وكأن القرآن يريد أن يقول إن هذا التدبير الخفي سوف يرتد عليهم أنفسهم.

ثم تختم السورة بهذا المشهد الهادئ الساحر:

{..فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ. وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}

وهنا يخيل إلى القارئ أن الكون كله قد سكن؛ الليل هادئ، والنجوم تنصرف في بطء، والنبي قائم يناجي ربه في صمت الفجر، بعد أن هدأت الأصوات كلها، ولم يبق إلا تسبيح الروح في حضرة السماء.

سـورة النجـم

النزول

ليس من اليسير على القارئ المتأمل أن يغفل عن أن المحور الذي تدور حوله سورة النجم هو النزول، في معناه الواسع العميق؛ نزولٌ قد يكون انتقالًا من علوّ إلى سفل، كما هو شأن الوحي حين يتنزل من السماء إلى الأرض، وقد يكون كذلك انحدارًا في الفكر والسلوك، حين تهبط النفس عن مقامها الذي يليق بها.

تبدأ السورة بالقسم بالنجم إذا هوى، وكأنها تُلفت النظر منذ أول الأمر إلى هذا المعنى: معنى السقوط من العلو، ولكنها لا تلبث أن ترفع مقام النبي صلى الله عليه وسلم، فتقرر أنه ما ضل وما غوى، وكأنها تنفي عنه كل نزول مذموم، لتُثبت له مقام الثبات والهداية.

ثم تمضي السورة فتُبيّن أن ما جاء به النبي، صلى الله عليه وسلم، ليس من عند نفسه، وإنما هو وحيٌ نزل عليه من علٍ، بواسطة جبريل، في مشهدٍ مهيب، يجمع بين العلو والهيبة، وبين القرب والصفاء. ثم تُعيد هذا المشهد في صورةٍ أخرى، حين رأى النبي جبريل مرةً أخرى عند سدرة المنتهى، حيث يغشى السدرة ما يغشى، في تعبير يوحي بعظمة لا تُحد، وجلال لا يُدرك.

ثم تنصرف السورة من هذا العلو الروحي إلى انحدارٍ آخر، انحدار الفكر الجاهلي، الذي جعل من اللات والعزى ومناة آلهة تُعبد، وجعل الملائكة إناثًا، في خلط بين الحق والباطل، لا يقوم على عقل ولا هدى. وهنا يبدو النزول في أقبح صوره، نزول العقل حين يُسلّم نفسه للوهم، ونزول النفس حين تتبع هواها.

ويمتد هذا المعنى، فإذا بالمشركين غارقون في أهوائهم، وإذا بالكافرين يقفون عند ظاهر العلم، معرضين عن ذكر الله، وكأنهم قد رضوا لأنفسهم أن يهبطوا من أفق الإيمان إلى ضيق المادية.

ثم تفتح السورة باب الرجاء، فتُبيّن أن من شأن الإنسان أن يقع، وأن يسقط في بعض الذنوب، ولكن الله يغفر لمن اجتنب الكبائر، ولم يُصرّ على الفواحش، فكأن هذا السقوط العارض لا يقطع الصلة بالله، ما دام القلب يقظًا، والنفس راجعة.

ثم تمضي السورة فتُشير إلى مشاهد من الحياة، يلتقي فيها الارتفاع والانخفاض: إلى مولد الإنسان حين يخرج من بطن أمه، وإلى الضحك والبكاء، وإلى الموت والحياة، وإلى الغنى والفقر؛ وكأنها تقول إن الوجود كله قائم على هذا التعاقب بين الصعود والهبوط.

ثم تُذكّر بالمؤتفكة التي هوى عليها العذاب، فغشيها ما غشى، في صورة من صور السقوط الحسي والمعنوي معًا، حيث يلتقي الهلاك الجسدي بالانحدار الأخلاقي.

ثم تقترب النهاية، فتُشير إلى الآزفة، ذلك اليوم الذي يقترب شيئًا فشيئًا، وكأن الزمن نفسه في نزول متصل نحو غايته.

وأخيرًا، تختم السورة بأمر حاسم: السجود. والسجود هو أصدق صور النزول، نزول الجسد إلى الأرض، ولكنه في حقيقته أسمى مراتب الارتفاع؛ لأنه خضوع خالص لله، واعتراف بعلوه، وتحرر من كل ما سواه.

هكذا تمضي السورة في نظام بديع، تعرض للنزول في صوره كلها: نزول الوحي، ونزول الفكر، ونزول الإنسان في خطئه، ثم ارتفاعه بتوبته، حتى تنتهي إلى الحقيقة الكبرى: أن الهبوط والعلو ليسا في المكان، إنما في النفس، وأن السجود، على ما فيه من انحناء، هو عين الرفعة والكمال.

والملاحظ أن الله تعالى، في أول السورة، أقسم الله بالنجم إذا هوى، وكأنّه يشير إلى الحقيقة الأبدية التي يتغافل عنها المبهورون بالبريق: أن كل نجم في السماء، مهما أضاء، فإن مصيره الغياب. وكل نجم على الأرض، مهما لمع، سيسقط يومًا ما، ويغيب عن الأعين، وتُطوى صفحته كما تُطوى الصحف القديمة.

فخذ على سبيل المثال "الممثل"، الذي يملأ الأعين زمنًا، وتتسابق إليه الأبصار والقلوب، وتُبنى حوله الهالات، وتُنسج حوله الأساطير. لكن ما أسرع ما يهوى، فيسقط من أعين الناس قبل أن يسقط من عليائه.

فها هو يشيخ وجهه، وتخفت نبرته، ويستبدله الجمهور بوجه أكثر نضارة، وصوت أكثر فتنة. ثم لا يُذكر إلا لمامًا، أو يُسخر منه على شاشات الذاكرة. فكل ممثل، مهما صعد، هو نجم ينتظر لحظة الهُويّ. إلا من نطق عن وحي، لا عن هوى:

{ما ضلّ صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى}

وفي مقابل النجم الذي هوى، هناك "صاحبكم" الذي ثبت. وفي مقابل الذي كان يتكلّم ليرضي الناس، هناك من لا ينطق عن الهوى. وفي مقابل الممثل الذي ضلّ في أدوارٍ لا تمثّله، وغوى في شهرة لا تنفعه، هناك النبيّ، الذي قال الصدق لأنه يُبلّغ، ومشى على نور لأنه يُهتدى به.

فالنبيّ، صلى الله عليه وسلم، ما كان نجمًا بالمعنى الذي أرادته الصحافة في هذا العصر، ولا طلب تصفيقًا، ولا وقف أمام عدسة، ولا لعب دورًا غير دوره، بل قال: {قل إنما أنا بشر مثلكم يُوحى إليَّ}.

فالله أراد أن يُعلّمنا الفرق: بين نجمٌ في أعين الناس، لكنه هوى؛ وبين بشرٍ في عين نفسه، لكنه ثبت وعلا.

سـورة القمر

انتهاء عصر المعجزات

إذا نحن قرأنا سورة القمر أحسسنا أنّ هذه السورة لا تريد أن تقف بالناس عند حدود الدهشة العابرة، ولا أن تحبس عقولهم في انتظار الخارق الذي يبهر الأبصار ساعة ثم يمضي، إنما تريد أن تنقل الإنسان من طور إلى طور، ومن عهد إلى عهد؛ من عهدٍ كانت المعجزة فيه تُرى بالعين فتخضع لها النفوس، إلى عهد أصبح العقل فيه هو الميدان الأكبر للمعرفة، وأصبحت أسرار الكون تُنال بالفكر والبحث والتجربة.

وليس معنى هذا أنّ المعجزات قد انقطعت من الأرض، أو أنّ قدرة الله قد غابت عن خلقه، فذلك ما لا يقوله مؤمن. لكن الناس تغيّروا، والعقل الإنساني تغيّر أيضًا، وأصبحت الأشياء التي كانت تملأ القلوب رهبة وعجبًا، تمرّ اليوم أمام الأبصار فلا تكاد توقظ فيها إحساسًا.

كان القدماء يسهل عليهم التعجب؛ لأن عالمهم كان صغيرًا، وحدود معرفتهم ضيقة. كانوا يعدّون عجائب الدنيا سبعًا، ويرون في بناء عالٍ أو مدينة عظيمة أمرًا يجاوز طاقة البشر. ولو أنّ رجلًا من أهل تلك العصور بُعث اليوم، فرأى هذه المدن التي تعانق السحاب، وهذه الطائرات التي تشق السماء، وهذه الأجهزة الصغيرة التي تحمل أصوات الناس وصورهم من أقصى الأرض إلى أقصاها في اللحظة نفسها، لظنّ أنه أمام ضرب من السحر، أو لون من ألوان المعجزات التي لا يتصورها العقل.

غير أنّ الإنسان الحديث قد ألف هذه الأمور حتى فقد دهشته الأولى. أصبح يرى الطائرة، ويسمع عن غزو الفضاء، ويتابع أخبار القنابل التي تهلك الحرث والنسل، ثم لا يقف طويلًا عند شيء من ذلك؛ لأن العادة تُميت في النفس سلطان العجب، ولأن الإنسان إذا تكرر عليه الخارق، لم يعد يراه خارقًا.

ومن هنا يمكن أن تُفهم سورة القمر على أنها إشعارٌ بانتقال البشرية إلى زمن جديد؛ زمنٍ لا تقوم فيه الحجة على الإنسان بالمعجزة الحسية وحدها، إنما يقوم فيه التكليف على

النظر والتفكر والتدبر. لقد جاء القرآن فخاطب العقل كما لم يُخاطبه من قبل، ودعا الناس إلى التأمل في السماوات والأرض، وفي التاريخ، وفي النفس الإنسانية ذاتها.

لهذا تبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾، وهذه علامة من علامات الساعة، وليس انشقاقه تشققًا في جرمه، بل اقتحامه بسفينة صنعها الإنسان فشق مجالَه وعلم غيبه، كما يُقال: شققتُ الثمرةَ، إذا عرَّفت ما فيها. فالسورة تضع الإنسان منذ اللحظة الأولى أمام حدثٍ جلل، ثم تُتبع ذلك ببيان طبيعة الناس، فهم مهما رأوا من الآيات أعرضوا وقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾. فالإنسان قد يرى العجيب ثم لا يهتدي به، لا لأن الآية ناقصة، ولكن لأن القلب نفسه قد أعرض عن الحق.

ثم تمضي السورة فتستعرض تاريخ الأمم، لا على سبيل القصص المجرد، بل لتقرر سنة ثابتة: أن البشر رأوا الآيات كلها، ثم مضوا في غيّهم. فهذا نوح، تنفتح في زمانه أبواب السماء بالماء، وتتفجر الأرض عيونًا، حتى يلتقي الماء على أمر قد قُدر. وهذه عاد تعصف بها الريح حتى تُلقي الناس كأنهم جذوع نخل مقتلعة. وهذه ثمود تأتيهم الناقة آية ظاهرة، فلا تزيدهم إلا طغيانًا. ثم قوم لوط، ثم فرعون وآله، ثم قريش يوم بدر وقد نصر الله رسوله بالملائكة... وكلهم رأوا النذر والبينات، ولكنهم لم يعتبروا.

والسورة في هذا كله لا تقصّ علينا أخبار الماضي للتسلية، إنما تريد أن تقول إن الإنسان لا تنقصه الآيات، إنما ينقصه الاستعداد للهداية.

ثم تنتهي السورة إلى تقرير الحقيقة الكبرى: أن هذا الكون ليس فوضى، وإنما هو قائم على التقدير والإحكام: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

فكل ما يقع في هذا الوجود يجري وفق نظام دقيق، وعلى الإنسان أن يقرأ هذه الآيات بعقله كما يقرأها بعينه، وأن يعتبر بما جرى للأمم من قبله، لأن التاريخ نفسه يصبح آية من آيات الله لمن أراد أن يتفكر.

سـورة الرحمـن

التوازن

تتبدّى سورة الرحمن في سياق بديع محكم كأنَّها سيمفونية إلهية تنبعث ألحانُها من التوازن والنظام في الخلق والكون والجزاء. في هذا التوازن يتجلّى كمال الخالق وعِبرتُه في الخلق والتدبير.

تستهلُّ السورةُ بخلق الإنسان وتوفير مقوِّمات الحياة له، من بيان وعلم وهدى -وهو القرآن- في إشارة عميقة إلى أنَّ الخالق لم يلقِ بهذا الخلق في عراء أبكم ولا في ظلمة محيرة، بل أمدَّه بأسباب الفهم والنظر في آيات الله:

{الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}

هكذا يبدأ الرحمن، وهو الرحمن في الحقيقة والنعمة، يخبر الخلق بأسباب التوازن في هذا الوجود. يعلِّم القرآنَ، ويخلق الإنسان في حسن تقويم وتقدير، ويهبه البيان والنُطق، حتى يتمكَّن من التفكير في هذا التوازن والنظام الكامل في الخلق.

ثم تمضِي السورةُ في عرض مظاهر التوازن في الخلق:

{الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ. وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ. وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}

فالشَّمس والقمر يجريان ضمن حساب دقيق أبديٍّ، والنجم والشجر يخضعان بأمر الله في سجود أبديٍّ. وفي سياق التوازن هذا، يضع الله الميزان في الخلق ويحثُّ الخلائق على إحقاق الحق وعدم الخسف في الميزان.

ثمَّ تتناغمُ صورة الخلق في الأرض:

{وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ. فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ. وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ}

فالأنعام والنخيل بأكمامها، والحبَّ بعصفه، والريحان بأريجه – كلها تتناغم في لوحة متكاملة تنبع من حسن التقدير والانتظام في الخلق.

ثم يثير الله تساؤل الخلق: {فبأيِ آلاءِ ربكما تكذبان}، في إشارة قوية للتفكر في هذه النعم التي تكوّن التوازن والنظام في الخلق.

وتنتقل السورةُ بعد ذلك إلى التوازن في التكوين الذاتيِّ للمخلوقات:

{خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ. وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ }

فقد خلق الإنسان من صلصال كالفخَّار، والجانَّ من مارج من نار- كلاٌّ ضمن سياقه الخلقيِّ الدقيق.

حتى في المكان والجهات يتبدّى التوازن:

{رَبُّ الْمَشْرِقينِ ورَبُّ الْمَغرِبينِ. فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان. مرجَ الْبَحرينِ يَلتقِيانِ. بينَهُمَا بَرزخٌ ولا يَبغِيَانِ. فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان. يخرُجُ مِنهُمَا اللؤلؤُ والمرجان. فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان}.

ويؤكد أنَّ التوازن يشمل حتى التقاء الماءينِ، العذبِ والملحِ، دون أن يطغى أحدُهما على الآخر بفضلِ برزخٍ يقفُ مانعًا. وينتِج هذا التوازن خيراتٌ مختلفة مثل اللؤلؤِ والمرجانِ التي يقطفُها الخلق بسبب حسن الترتيب والنظام في الخلق.

وتتوالى آيات سورة الرحمن في عرض مظاهر التوازن والنعم التي يتفضل بها على الخلق:

{وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأعْلَامِ. فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان. كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبقَى وَجهُ رَبكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكرَامِ. فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان}.

فحتى الفُلك التي تجري في البحر كالأعلام الشامخة- بسبب التوازن في الماء والرياح- هي في الحقيقة إحدى تلك النعم التي تستحق التفكر في حسن الخالق.

ثم ينبّه الله الخلق على أن الفناء أمرٌ محقق: كلَّ مَنْ على الأرضِ هالكٌ، ولا يبقى إلا وجهُ الله ذِي الجلال والإكرام.

ثمَّ يتناول سياق السورة التوازن في الآخرة والجزاء:

{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}، حيث يبدأُ حساب الخلائق، الجنّ والإنس، في محكمة العدل الكامل، ويخضع كلٌّ لما كسبتْ يداه.

هذا الفناء في سياق التوازن الكامل يشكّل بداية جديدة لحسابٍ أبديٍّ:

{يَسألهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والأَرضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأنٍ. فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان. سنفرغُ لكُم أيها الثقلان. فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان}.

الله في كلّ يومٍ في شأنٍ، يخلق، يرزق، يحيِي، يميت.. ضمن سياق التوازن التام في الخلق.

ثم يثير تساؤل الخلق مرة أخرى: {فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان}، للتفكر في هذه الحقائق والنعم.

ثم ينذر الله الجنَّ والإنسَ بقضائهِ المقبلِ:

{يَا معشر الجنِ والإنسِ إنِ استطعتُم أن تنفذوا مِن أقطارِ السَّمَوَاتِ والأَرضِ فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان. فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان. يرسلُ عليكما شواظٌ مِن نارٍ ونحاسٌ فلا تنتصران. فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان}

فلو كان في استطاعتهم الخروج من أقطار السماوات والأرض، لتفادي حساب الله، ما كان لهم سبيلٌ إلا بسلطان، أي بقوة أبعد ما تكون عما يملكون.

ثم يخبر أنَّ نارًا ونحاسًا محرقًا سيطلق عليهِم إذا حاولوا الخروج.

حتى السماء - تلك القبة الزرقاء في التوازن الكامل- لها أجلٌ محتوم:

{فإذا انشقتِ السماءُ فكانتِ وردَة كالدِهان. فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان. فيومئذٍ لا يسألُ عَنْ ذَنْبِهِ إنسٌ ولا جان}.

فإذا انشقَّت في يوم القيامة كانت مثلَ وردَة في التَّلوين بسبب الذَّوبان والنَّفاذ الكامل.

حتى في هذا التحوُّل الكامل للتوازن الكَوني: "فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان"، تنبع الحقيقة الخالدة: أنَّ الخالقَ له السّلطان الكامل على الخلق والنّهاية.

ثم يخبر الله أنَّ يومَ الحساب آتٍ، وفيه يقف الخلقُ- الجنّ والإنس- ولا يسأل أحدٌ أحدًا بسبب ذنبه، بل تتحدثُ الجوارِحُ وتفضح ما كان في الخفاء.

ثم ينتقل سياق السورة إلى مشهد يوم الدين والحساب الكامل على الخلائق:

{يُعرفُ المُجرمونَ بسيماهُم فيؤخذُ بالنَّوَاصِي والأقدَامِ}.

فالمجرمون يُعرفون بعلامات الذّنب في مِحيَّاهم ويؤخذونَ بأقدامِهم والنَّواصي، في إشارةٍ قويةٍ على انكشافِ الحقائقِ دون أيّ تستّر، ويعاقبون في جهنَّم بسبب تكذيبهم بأمر الله، وكفرهم بالنعم التي أسبغها الله على الخلق.

في هذا اليوم يتعيَّن على الخاطئين أن يطوفوا بين حميم آن في عذاب أبديٍّ: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ}

ثمَّ يقابل هذا المشهدَ صورةٌ مختلفةٌ على النَّقيض: صورةُ المتَّقين الخائفين مقامَ ربِّهم:

{ولِمَن خافَ مقامَ ربِّهِ جنتان. فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان. ذواتا أفنان. فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان}.

هؤلاء لهم جنَّتانِ في الخضَّرة والنَّضارة والنَّعم التي تجري ضمن سياق التوازن الكامل في الخلق.

في هاتين الجنَّتين عيونٌ تجري بالماء العذب، وفواكه مختلفة في الألوان والنَّكهات، بالإضافة إلى أبكار حسنات الخلق لم يطمثهُنَّ إنس ولا جان:

{فيهِما عينان تجريان. فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان. فيهِما مِن كُلِّ فاكِهَةٍ زَوجان. فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان. متكئين على فرشٍ بطائنهَا مِن إِستبرق. وَجنى الْجنتينِ دَان. فبأيِ آلاءِ ربكُمَا تكذبَان. فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرفِ لم يطمثهُنَّ إِنسٌ قبلهُم ولا جان}.

حتى الفُرُش في تلك الجنَّات محلاةٌ بأفخر الأنسجة، وفي متناول الأيدي.

وينبع التوازن في هذهِ النعم وفي حسنِ توزيع الخيرات على الخلق بما يستحقّون.

ثمَّ يشيرُ اللهُ إلى أنَّ هناك جنَّتين دون تلك الجنَّتين السَّابقتين، مدهامتين، أي شديدة الخضَّار والنَّضارة وفيهما عيونٌ نضَّاخَاتٌ بالماء بالإضافة إلى الفاكهة والنَّخيل والرُّمان

والحور المقصورات في الخيام لم يطمثهنَّ أحدٌ أبداً، في حسن أبديٍّ يتنعم به المتَّقون في دار الخلود. متكئين على رفرف أخضر جميل في منظر أبدي يعبر عن التوازن الكامل في الخلق والجزاء.

وفي النهاية تختم السورة بتمجيد الله:

{تباركَ اسمُ ربكِ ذِي الجَلالِ والإِكرام}. أي تنزَّه الخالقُ الكامل في صفاته وفي قدرته على الخلق والرحمة والانتقام والثواب.

هكذا تنسج سورة الرحمن لوحةَ التوازن الكامل في الخلق والنعم والجزاء والنَّهاية الحقَّة التي تستحقها الخلائقُ حسب أعمالها.

وتؤكد على أنَّ التوازن قانون إلهِي أبدي في الخلق والحساب.

سـورة الواقعة

الظاهر والباطن

إذا أردنا أن نلتمس المحور الذي تدور عليه سورة الواقعة، فلن نجده في وصف القيامة وحده، ولا في تصوير النعيم والعذاب فحسب، إنما نجده أعمق من ذلك وأبعد غورًا؛ نجده في تلك الفكرة الكبرى التي تُلقي بظلالها على السورة كلها، وهي أن الوجود الذي نحياه ليس وجودًا بسيطًا واحد الطبقة، بل هو وجود ذو مستويين: مستوى ظاهر تشهده الحواس، ومستوى باطن تقوم عليه الحقيقة وتنبثق منه الظواهر.

وقد جاءت السنة النبوية لتؤكد هذا المعنى تأكيدًا صريحًا، حين قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رُفِعْتُ إِلَى السِّدْرَةِ فَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهَرَانِ ظَاهِرَانِ، وَنَهَرَانِ بَاطِنَانِ؛ فَأَمَّا الظَّاهِرَانِ النِّيلُ وَالْفُرَاتُ، وَأَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهَرَانِ فِي الْجَنَّةِ) (رواه البخاري).

فالحديث لا يريد أن يحدّثنا عن فضل نهرين فحسب، إنما يريد أن يلفت العقل إلى أن ما يجري في الأرض له جذور في السماء، وأن الظاهرة المحسوسة ليست دائمًا مكتفية بذاتها، بل قد تكون امتدادًا لحقيقة أعمق منها وأسبق.

ومن هذا الباب نفسه نفهم ما جاء في الحديث: (العجوة من الجنة وفيها شفاء من السم). فليس المقصود مجرد بيان خاصية غذائية، إنما الإشارة إلى أن بعض ما ينتفع به الإنسان في حياته قد يكون موصولًا بأصل غيبي يمنحه هذه الخاصية.

وكذلك الأشياء الطيبة الرائحة التي تنشط النفس وتبهج القلب، لها أصل في الجنة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إذا أُعْطِيَ أَحَدُكُمُ الرَّيْحانَ فلا يَرُدَّهُ فَإِنَّهُ خَرَجَ مِنَ الجَنَّةِ).

وفي المقابل، هناك أشياء لها أصل من النار، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الْحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ).

وقال في حديث آخر: (الحمى من فيح جهنم وهي نصيب المؤمن من النار).

وكذلك قال صلى الله عليه وسلم: (شدة الحر من فيح جهنم).

وكذلك الريح اللطيفة والهواء العليل لهما اتصال بعالم الغيب، كما قال صلى الله عليه وسلم: (ريح الجنوب من الجنة)

وجاء في حديث آخر: (البَحْرُ مِنْ جَهَنَّمَ)

وكذلك الأخلاق الرديئة أصلها من النار، كما قال صلى الله عليه وسلم:

(الغضب جمرة من النار).

وهذه الأحاديث، إذا نُظر إليها في مجموعها، لا تدعونا إلى قراءة مجازية مجردة، ولا إلى تفسير أسطوري، وإنما تدعونا إلى الاعتراف بأن العلاقة بين الغيب والشهادة علاقة تفاعل وتأثير، وأن الإنسان يعيش في عالم يتأثر بما لا يراه كما يتأثر بما يراه.

فمثلا الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، عندما يقول الله عز وجل:

{إِنَّ اللهَّ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}

فهذه الآية تدلّ على أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم واقعة في عالم الغيب قبل أن تقع في عالم الشهادة؛ فالله عز وجل وملائكته يصلّون عليه في العالم الأعلى، ثم كان من فيوضات هذه الصلاة، وآثارها الممتدة إلى الدنيا، أن صلّى عليه المؤمنون في عالم الشهادة.

ولولا هذه الصلاة الدائمة الواقعة في عالم الغيب، ما وُفِّق المؤمنون إلى الصلاة عليه في الدنيا، ولا جرى ذكره على ألسنتهم على هذا النحو المتصل.

ومن هذا الباب يُفهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا قَالَ الإمام : غَيرِ المَغْضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ؟ فقولوا: آمين ، فإنه من وافق قولُه قولَ الملائكة ، غفر له ما تقدم من ذنبه)

فهذا الحديث يشير إلى أن الصلاة المقامة في الدنيا لها ما يقابلها في عالم الغيب من صلاة الملائكة، وأن الملائكة يشاركون المؤمنين في هذا العمل، لا مشاركة صورة، بل مشاركة أصل؛ إذ إن ما يقع في عالم الشهادة إنما هو انعكاس لما يجري في عالم الغيب.

وبهذا يتبيّن أن أداء الملائكة للصلاة في عالم الغيب هو من جملة الأسباب المعينة للمؤمنين على إقامة الصلاة في عالم الشهادة، فهناك مدد غيبي يسبق العمل الظاهر ويهيئ له.

ونظير ذلك قول الله تعالى:

{ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ} [التوبة : ٣٥]

فهذه الآية تدلّ على أن الأموال التي تُكنَز في الدنيا ولا يُؤدَّى حق الله فيها، يكون لها أثر في عالم الغيب قبل أن يظهر أثرها الكامل في الآخرة؛ إذ تُحمى عليها في نار جهنم، ثم يمتدّ أثر ذلك إلى أصحابها.

ومن يكنز الذهب والفضة في الدنيا، فإن الله يجعل له في عالم الغيب نصيبًا من النار، فتتحول هذه الأموال إلى سبب شقاء وعذاب، ويصل أثر ذلك إلى الدنيا قبل الآخرة؛ فيكون ما يصيب أصحابها من أمراض وآلام وعقوبات إنما هو من آثار ذلك الاتصال الخفي بعالم الغيب.

ولهذا قال الله تعالى بعد ذلك: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة : ٥٥]

ونظير ذلك قوله تعالى: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) [الذاريات: ٢٢]

فالرزق يُقدَّر في السماء أولًا، ثم يكون ظهوره في الأرض تبعًا لذلك التقدير الغيبي، فيكون ما يصل إلى الإنسان في عالم الشهادة أثرًا لما كُتب له في عالم الغيب.

وهكذا يبقى الإنسان في اتصال دائم ما بين عالم الغيب وعالم الشهادة، فلا ينفصل أحدهما عن الآخر انفصالًا تامًّا. فالإنسان حين يوجد في عالم الشهادة، تبقى له صلة بالعالم الذي صدر عنه، وحين ينتقل إلى عالم الغيب، تبقى آثار أعماله التي عملها في الدنيا ممتدة إليه.

ولهذا جاءت الإشارة إلى هذا المعنى في قوله تعالى:

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾

فالمؤمن يبقى على صلة بأعماله الصالحة التي عملها في الدنيا، فيجد آثارها حاضرة في الآخرة، كما أن الكافر يبقى على صلة بأعماله السيئة التي عملها في الدنيا، فيجد نتائجها ماثلة أمامه في العالم الآخر.

وباختصار، فإن المحور الذي تدور حوله سورة الواقعة هو:

أن لكل شيء في عالم الشهادة أصلًا في عالم الغيب. فالأشياء الظاهرة في هذا العالم لها وجود وحقيقة في عالم الغيب، تستمدّ منه الحركة والحياة والصفات.

ثم تبدأ السورة بالحديث عن ثلاثة نماذج من البشر تتفرع منها أصناف الناس: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون. وكل إنسان لا بد أن ينتمي إلى واحد من هذه الأصناف الثلاثة؛ فالإنسان إما تقي، وإما فاجر، وإما متوسط يخلط عملًا صالحًا بعمل سيئ.

ثم تبدأ السورة في بيان هذه الأصناف الثلاثة بيانًا مفصلًا، يوضّح مصير كل صنف بحسب ما استقر في باطنه، لا بمجرد ظاهره.

بعد ذلك تتحدث السورة عن شجرة الزقوم، التي هي أصل المعاصي والخطايا والذنوب، وهي شجرة تنبت في قعر الجحيم، يأكل منها العصاة والخطاة في الدنيا قبل الآخرة.

فالذي يرتكب معصية أو خطيئة، إنما هو – في حقيقة أمره – يتغذّى على هذا الأصل الخبيث، وكلما ازداد إقبالًا على المعصية، ازداد تعلقًا بها، فالمعصية تجر إلى معصية، والذنب يؤدي إلى ذنب.

فهذه الشجرة ليس المقصود بها أنها شجرة يراها العصاة ويأكلون منها يوم القيامة فقط، بل المقصود أن أصل الخطايا والذنوب يعود إلى هذه الشجرة النابتة في عالم الغيب، وهي التي تمد العصاة بالأفكار الفاسدة والأعمال الشيطانية.

وقد جاء بيان ذلك في قوله تعالى:

(إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ. فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ. ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ)

وقال تعالى:

(ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ. فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنْ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ. هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ)

ثم تتحدث السورة عن أصل البشر جميعًا، فتقول:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ. أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ. نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ. وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ).

فهذه الآيات تقرّر أن خلق الإنسان لا يرجع في حقيقته إلى الأسباب الظاهرة التي يشهدها الناس، إنما يرجع إلى تقدير سابق في عالم الغيب. فليس الأب هو الذي يخلق الذكر أو الأنثى على الحقيقة، إنما هو سبب ظاهر، أما الخلق والتقدير والتصوير فكل ذلك من فعل الله عز وجل: {الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}.

فقوله تعالى: (رَكَّبَكَ) يدلّ على أن هناك تقديرًا سابقًا وصورًا معدّة، يُنشأ الإنسان وفقها، فلا يقع خلقه اعتباطًا، ولا يكون وليد المصادفة، بل يجري وفق نظام محكم سابق على وجوده في عالم الشهادة.

ثم تتحدث السورة عن النباتات في هذه الدنيا، فتقول:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ. أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ. لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ)

فهذه الآيات تبيّن أن عمل الإنسان في الزراعة لا يتجاوز حدود السبب الظاهر، أما الإنبات وإحياء البذور وإخراج الثمر، فذلك كله جارٍ بتقدير إلهي سابق، ولو شاء الله لأبطل هذه السنّة فجعل الزرع حطامًا لا ينتفع به الناس.

وكذلك الماء النازل من السماء إلى الأرض، فإن له أصلًا في عالم الغيب، وهو مستمدّ من المزن الذي قدّره الله، كما قال تعالى:

(وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ..)

فالماء ليس مجرّد ظاهرة طبيعية مستقلة، بل هو نعمة نازلة من عالم أعلى، وفق سنن محكمة لا يملك الإنسان التحكم فيها.

ثم تتحدث السورة عن النار التي ينتفع بها الناس في الدنيا، سواء في طهي الطعام أو في المصانع وغير ذلك من وجوه الانتفاع، فتقول:

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ. نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ).

فهذه النار التي ينتفع بها الناس في معاشهم ليست من صنعهم على الحقيقة، وإن توهّموا أنهم يتحكمون فيها؛ إذ إن أصلها راجع إلى شجرة أنشأها الله، ومنها تتفرع صور الانتفاع المختلفة. ويدخل في ذلك كل ما يُستخرج منه الوقود والطاقة، وكل ما يعود إلى هذه الحقيقة من وجوه الاستعمال.

وجعل الله هذه النار تذكرة، لتبقى مذكِّرةً بنارٍ أعظم، ولتدلّ على أن هذه المنفعة الدنيوية مرتبطة بأصل غيبي، وأن ما في الدنيا ليس مقطوع الصلة بالآخرة.

ثم تتحدث السورة عن القرآن العظيم الذي بين أيدينا، وتبيّن أن له حقيقة ثابتة في عالم الغيب، فتقول:

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

فهذه الآيات تدلّ على أن القرآن قبل أن يكون كلمات تُتلى في عالم الشهادة، فهو حقيقة محفوظة في عالم الغيب، لا يصل إليها إلا من طهرت سريرته، واستعدّت روحه لتلقي هذا النور.

فليس الانتفاع بالقرآن مقصورًا على القراءة الظاهرة، بل متعلّق باتصال الأرواح بحقيقته الغيبية، فمن أدرك منه شيئًا في عالم الغيب، أدرك له أثرًا في عالم الشهادة، ومن انقطع عن هذا الاتصال، بقي القرآن عنده ألفاظًا بلا حياة.

ثم تختم السورة رحلتها الوجودية بالعودة إلى النقطة الأولى: الرجوع:

(فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ. وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ. فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ. وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ).

فلا جديد هنا، ولا مفاجأة؛ إنما هو انكشافٌ نهائيّ لما كان خافيًا.

يرجع كل إنسان إلى أصله الذي غذّى روحه في الدنيا: فمن عاش متصلًا بعالم الغيب، عاد إلى روح وريحان. ومن وقف في الوسط، عاد إلى سلام. ومن انقطع، عاد إلى ما كان يتغذّى عليه من سموم المعاني قبل سموم النار. وبهذا تُغلق السورة دائرتها المحكمة:

من الغيب بدأ الخلق، وفي الشهادة جرت الأعمال، وإلى الغيب يعود المصير:

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾

لا ظنّ فيه، ولا مبالغة، ولا مجاز. ومن ثمّ جاء الأمر الأخير جامعًا لكل ما سبق:

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

تسبيحُ معرفةٍ لا تسبيحُ عادة، وتسبيحُ وعيٍ رأى وحدة السنن بين الغيب والشهادة.

سـورة الحديد

القسوة: في المادة، وفي النفس، وفي التاريخ

تتجلى معجزة الحديد في القرآن الكريم تجليًا يبعث على التأمل، ويستدعي النظر الهادئ الذي لا يقف عند ظاهر اللفظ، بل ينفذ إلى ما وراءه من تناسقٍ دقيق بين البيان القرآني وحقائق الكون. فإذا نحن أمام عنصر من عناصر المادة، لا يُذكر في الكتاب العزيز ذكرًا عابرًا، بل يجيء اسمه في موضع مخصوص، وعدد مخصوص، كأنما وُضع في مكانه وضعًا لا يقبل المصادفة.

فسورة الحديد هي السورة "السابعة والخمسون" في ترتيب المصحف، وهو الرقم نفسه الذي يحمله أحد نظائر الحديد المستقرة، إذ إن للحديد نظيرًا عدده الكتلي سبعة وخمسون. وليس العدد الكتلي رقمًا عارضًا، بل هو مجموع ما في النواة من بروتونات ونيوترونات. فإذا التقى رقم السورة مع هذا العدد، بدا للمتأمل أن في الأمر ما يدعوه إلى التفكر.

ثم إن الحديد في الجدول الدوري هو العنصر "السادس والعشرون"، أي أن عدده الذري ستة وعشرون، وهو عدد البروتونات التي تحدد هويته وتميزه من سائر العناصر. فإذا عُدّت البسملة آية، كانت الآية التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ هي الآية السادسة والعشرين، فيلتقي رقم الآية مع العدد الذري. وكأن الترتيب في المصحف يجري على نسق يوازي الترتيب في عالم المادة.

وليس موضع الدلالة في الأرقام وحدها، بل في اللفظ أيضًا. فالقرآن لم يقل: خلقنا الحديد، وإنما قال: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾، وهذا التعبير يفتح بابًا آخر من أبواب التأمل. فقد انتهى العلم الحديث إلى أن الحديد لم يتكوّن في أرضنا ابتداءً، بل نشأ في أعماق النجوم العملاقة، ثم قُذف به إلى الفضاء، حتى استقر جزء منه في هذا الكوكب. فكأن لفظ "أنزلنا" يلتقي مع هذه الحقيقة الكونية التقاءً يثير العجب.

تلك إشاراتٌ مبثوثة في كتابٍ نزل قبل قرون، في زمنٍ لم يكن الإنسان يعرف من أسرار الذرة ولا من نشأة العناصر شيئًا يُذكر. فإذا تلاقت هذه الإشارات مع ما كشفه العلم

الحديث، ازداد المؤمن يقينًا بأن هذا الكتاب ليس من صنع بشر، وإنما هو كلام الخالق الذي أحاط علمه بالخلق، ظاهرِه وباطنه، وأحصى كل شيءٍ عددًا.

وسورة الحديد بناء متماسك، يبدأ بعظمة الله، ويمضي إلى مسؤولية الإنسان، وينتهي إلى مصير الإيمان في التاريخ.

تفتتح السورة بتسبيح الكون كلّه لله؛ ما في السماوات وما في الأرض. وكأنها تضع الإنسان منذ اللحظة الأولى في سياقٍ كونيٍّ واسع، تذكّره بأنه ليس مركز الوجود، بل جزءٌ من نظامٍ أعظم يخضع لملك الله وسلطانه. فيشعر القارئ بأن حياته، مهما بدت عظيمة في عينه، إنما تجري في فلك أكبر منها.

ثم تنتقل السورة من هذا الأفق الواسع إلى خطاب مباشر للناس: آمنوا بالله ورسوله، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه. فالمال ليس ملكًا خالصًا لكم بل أمانة، والإنسان ليس مالكًا مطلقًا، بل خليفة. وهنا تتجلى فكرة الاستخلاف، التي تربط بين علوّ الملك الإلهي وضعف التملك البشري؛ فالإنسان يتحرك بين يدين: يد القدرة الإلهية، ويد الاختبار.

ثم تعرض السورة مشهد النور يوم القيامة، فتفرق بين من امتلأت قلوبهم بالإيمان، فسعى نورهم بين أيديهم، وبين من عاشوا ظاهرًا بلا باطن، فخبا نورهم حين احتاجوا إليه. هذا المشهد ليس تصويرًا أخرويًا فحسب، بل هو كشفٌ لحقيقة كامنة في الحياة الدنيا: أن الإيمان نورٌ داخلي لا يُستعار.

وتقف السورة وقفةً عميقة عند قسوة القلب، فتسأل سؤالًا يوقظ الضمير:

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}

كأنها تخاطب الإنسان في لحظة صدقٍ مع نفسه، وتدعوه إلى مراجعة ما في قلبه قبل أن ينشغل بما في يده.

ثم تخاطب السورة الشهداء، أصحاب النور الأبهى الذين يسطع نورهم في الدنيا والآخرة، ليضيء الطريق للآخرين:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ}.

وفي سياق الحديث عن العدل والقوة، يجيء ذكر الكتاب والميزان والحديد:

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}

فالكتاب هداية، والميزان معيار، والحديد قوة. وكأن الحياة لا تستقيم بواحدٍ منها دون الآخر. إنها ثلاثيةٌ تجمع الفكر والعدل والقدرة، في توازنٍ دقيق.

كما أن السورة لا تقف عند قسوة الحديد، ولا عند قسوة القلوب، ولا عند ما كان من شدّةٍ أو إفراطٍ في تاريخ الرسالات، بل تمضي إلى وجهٍ آخر من وجوه القسوة: قسوة النفس حين تُمسك، وحين تُعطي.

فالسورة تُلحّ إلحاحًا ظاهرًا على الإنفاق: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾. وكأنها تربط الإيمان بالعمل، والاعتقاد بالسلوك، وتذكّر الإنسان بأن ما في يده ليس ملكًا خالصًا، بل أمانةٌ عابرة. فإذا بخل، فكأنما قسا قلبه؛ إذ البخل ليس مجرد امتناعٍ عن العطاء، بل انغلاقٌ داخلي، وتصلّبٌ شعوري.

والبخيل في منطق السورة لا يحبس المال فحسب، بل يحبس نفسه في دائرةٍ ضيقة، يظن أنه يملك، وهو في الحقيقة هو مملوكٌ لبخله. وهذه قسوةٌ خفية؛ لا تُرى كما تُرى صلابة الحديد، ولكن أثرها في المجتمع لا يقلّ شدّة. فالبخل يُقسّي العلاقات، ويُميت روح التضامن، ويجعل القلب أثقل من أن يلين لذكر الله.

غير أن السورة لا تترك الإنفاق بلا ميزان. فهي لا تدعو إلى تبذير أعمى، ولا إلى عطاء متفاخر، بل إلى قرض حسن لله، يُضاعفه الله أضعافًا كثيرة:

{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ}

وهنا يظهر التوازن مرةً أخرى: كما أن الحديد قوةٌ ينبغي أن تُضبط بالعدل، كذلك المال قوةٌ ينبغي أن تُهذَّب بالإنفاق. فالقسوة ليست في الإمساك وحده، ولا اللين في العطاء

وحده، بل في النية التي تسكن القلب. قد يُنفق الإنسان وقلبه قاسٍ، فيكون عطاؤه رياءً لا رحمة فيه. وقد يمسك وهو يخشى الفقر، فيكون إمساكه ضعفًا لا حكمة فيه.

هكذا تتناغم معاني السورة: حديدٌ فيه بأس، قلوبٌ قد تقسو، شرائعُ قد تميل، أموالٌ قد تُمسك أو تُبذل. وكلها تدور حول حقيقةٍ واحدة: أن الإنسان ممتحَنٌ فيما أُعطي، في قوته، وفي ماله، وفي قلبه. فإن لان قلبه للذكر، واعتدل في عطائه، واستعمل قوته في الحق، خرج من دائرة القسوة إلى رحابة النور.

ولو أردنا أن نجمع أطراف سورة الحديد في خيطٍ واحد، لا يتقطع بين أولها وآخرها، لقلنا إنها سورة الانتقال من الصلابة إلى اللين، ومن القسوة إلى النور، في ظل مُلكٍ إلهيٍّ لا يحدّه حدّ، وفضلٍ لا يملكه بشر.

فقد بدأت السورة بعرض القوة المطلقة؛ ملك السماوات والأرض، الأول والآخر، الظاهر والباطن. وفي هذا المطلع يشعر الإنسان بضآلة شأنه أمام سلطانٍ شامل، لا يشاركه فيه أحد. فكل شيء في قبضة قدرته، وكل حركة ضمن إحاطته.

ثم لا تلبث السورة أن تنزل بهذا السلطان إلى ميدان الامتحان البشري، حيث يُختبر الإنسان في صلابته. صلابة القلب حين يطول عليه الأمد فلا يخشع، وصلابة المال حين يُمسك ولا يُنفق، وصلابة الشهداء أصحاب المبدأ، وصلابة القوة حين تُختزل في الحديد ذي البأس الشديد؛ فتتعدد الصور، لكن الجوهر واحد: قوةٌ تحتاج إلى تهذيب، وصلابةٌ لا بدَّ أن تلين.

فإذا لم تُعالج هذه القسوة، ظهرت نتائجها؛ جدارٌ يُضرب بين المؤمنين والمنافقين، ونورٌ يسعى أمام قوم ويخبو عند آخرين، وادعاءٌ بأن الفضل حكرٌ على فئة دون فئة. كأن القسوة إذا تُركت في القلب والفكر، تحولت إلى فاصل لا يُجسر، وإلى ظلمة لا تُضاء.

فليس الحديث في السورة عن الحديد وحده، ولا عن النور وحده، ولا عن الإنفاق وحده، ولا عن الشهداء وحدهم، بل عن حركة مزدوجة لا تهدأ: نزولٍ من علٍ، وصعودٍ من سفل؛ كأنها تعرض للإنسان صورة الكون في أخذٍ وردّ، وفي مدٍّ وجزر، بين السماء والأرض، وبين الغيب والشهادة.

فالله، جلّ شأنه، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها. وليس هذا العلم وصفًا ساكنًا، بل هو إشعارٌ بحركة دائبة، كأنما الوجود كلّه في سير مستمرّ بين العلوّ والسفل. ثم هو سبحانه الذي يُنزّل على عبده آياتٍ بيّنات؛ فالحقّ لا يصعد من الأرض ابتداءً، وإنما ينزل من السماء هدايةً ونورًا.

فإذا انتقلنا من حركة الأشياء إلى حركة الأعمال، رأينا المعنى نفسه يتكرر في صورة أخرى؛ فالذي يُقرض الله قرضًا حسنًا، إنما يعمل عملًا في الأرض، ولكن هذا العمل لا يبقى في حدود التراب، بل يعرج فيصير أجرًا مضاعفًا. كأن الفعل الصالح بذرةٌ تُلقى في الأرض، ثم لا تلبث أن ترتفع ثمرتها إلى السماء.

وتتجلى هذه الحركة في مشهد النور يوم القيامة؛ نور المؤمنين يسعى بين أيديهم، عاليًا مضيئًا، كأنه امتدادٌ لعلوّ قلوبهم وخشوعها، أما نور المنافقين فمضطربٌ واهن، لا يكاد يجاوز أقدامهم. فإذا طلبوا من المؤمنين أن يقتبسوا من نورهم، قيل لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا. كأن النور لا يُستعار، بل يُكتسب في موطنه الأول- في الأرض- في دنيا العمل والاختيار.

ثم تمضي السورة فتذكّر بنزول الحق، وبأنه آن الأوان للقلوب أن تخشع. والنزول هنا ليس نزول كلماتٍ فحسب، بل نزول معنى يهزّ القلب من سباته. وكذلك المطر ينزل من السماء، فيحيي الأرض بعد موتها؛ صورةٌ حسّية لما يكون في القلوب إذا أصابها غيث الهداية.

وحتى المصائب والنوازل التي تنزل بالناس، ليست فوضى عمياء، بل هي مقدّرة في كتابٍ من قبل أن تُبرأ؛ فهي نزولٌ كذلك.

ثم يجيء ذكر الكتاب والميزان والحديد؛ وكلها منزلة من عند الله. فالكتاب هداية، والميزان عدل، والحديد قوة. والحديد على صلابته ليس عنصرًا عاديًا في حياة البشر؛ به بأسٌ شديد، وبه منافع للناس. منه تُصنع أدوات الحرب، ومنه تُقام وسائل العمران. فهو مادة الرفاه كما هو مادة الصراع، يجمع بين البناء والهدم، وبين السلم والحرب. وكأن نزوله إشارةٌ إلى أن القوة نفسها عطية، يُختبر بها الإنسان: أيوظفها في العدل أم في الطغيان؟

ثم تشير السورة إلى تاريخ الرسالات؛ من نوح وإبراهيم وذرياتهما، إلى عيسى ابن مريم الذي أُنزل عليه الإنجيل، فجعل الله في قلوب أتباعه رأفةً ورحمة. غير أنهم جاوزوا الحد، فابتدعوا رهبانية لم يُكتب عليهم أصلها، ولم يرعوها حق رعايتها. فالانحراف هنا أيضًا خروجٌ عن ميزان الاعتدال بين الأرض والسماء.

وتختم السورة بقوله تعالى:

{لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}

وقد يبدو في اللفظ شيءٌ من الشدة؛ إذ يُنفى عن أهل الكتاب أن يملكوا شيئًا من فضل الله. ولكن الشدة هنا ليست قسوةً انتقامية، بل تصحيحٌ لموازين مختلة. فمن توهّم أن الفضل حكرٌ عليه، أو أن النبوة ميراثٌ مقصور، أو أن الهداية امتيازٌ عرقيّ أو تاريخي، كان لا بد أن يُردّ إلى أصل الحقيقة: أن الفضل ليس ملك جماعة، ولا ثمرة نسب، بل عطية إلهية خالصة.

وهذا المعنى يتناغم مع سائر ما عرضته السورة من قسوةٍ ينبغي أن تُكسر. فكما أن القلب إذا قسا احتاج إلى خشوع، وكما أن البخل إذا اشتد احتاج إلى إنفاق، وكما أن ظلمات الكفر إذا اشتدت احتاجت إلى نور الشهداء الذين يضيئون هذه الظلمات بدمائهم، كذلك الامتياز إذا تجمّد احتاج إلى تفكيك. إن احتكار الفضل نوعٌ من القسوة الفكرية، صلابةٌ في التصور، تُشبه صلابة الحديد إذا لم يُلِنها الميزان.

ثم إن السورة لا تقف عند نفي القدرة، بل تُثبت العطاء: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾. فهي لا تُغلق الباب، بل تُحوّل وجهته. الفضل ليس مقصورًا، لكنه ليس مملوكًا. هو متاحٌ لمن يشاء الله، وفق سننه في الإيمان والعمل. وهنا يعود المعنى إلى فكرة النور التي سرت في السورة كلها: نورٌ يُعطى، ولا يُكتسب بالاتباع، ولا يُستمدّ بالانتساب.

فإذا بدا الحكم في ظاهره قاسيًا، فإن في باطنه رحمةً بالتصور الصحيح. إنه يحرر الفضل من أن يكون إرثًا جامدًا، ويجعله عطاءً حيًا متجددًا. وكأن السورة، بعد أن عرضت قسوة

الحديد، وقسوة القلوب، وقسوة الجدار، تُنهي حديثها بقسوةٍ من نوعٍ آخر: قسوة الحقيقة حين تُجرد الامتياز من زخرفه، وتعيد الفضل إلى مصدره الأول.

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، فذهب كلٌّ منهم مذهبًا، وأقام على رأيه من الدليل ما استطاع. غير أني أميل إلى فهمٍ أراه أقرب إلى سنن التشريع في الأمم، وأشد اتصالًا بطبيعة النفس الإنسانية حين تتجاوز حدّها.

فالذي يظهر لي أن قوله: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ لا يعني ابتداء التشريع، إنما يعني إقرارًا لاحقًا لما أحدثوه هم من عند أنفسهم. فالأمة التي تؤمن برسالة من الرسالات، ثم لا تقف عند ما شرعه نبيها، بل تستزيد، وتسأل، وتبتدع، وتُنشئ لنفسها أعمالًا لم يُطلب منها أصلًا. فإذا ألحّت، وكررت، وأرادت أن تُحمّل نفسها ما لم يُفرض عليها، جاءها الأمر بما أرادت، فصار ما اقترحته التزامًا وفرضًا.

وقد رُوي أن رجلًا قال للنبي ﷺ: «أأحج في كل عام؟» فسكت عنه، ثم أعاد السؤال، والنبي يعرض عنه، حتى قال في النهاية: «لو قلت نعم لوجبت، ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك الأمم من قبلكم كثرةُ سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم». في هذا الحديث إشعارٌ بأن السؤال المتكلف، والطلب المتجاوز، قد يفضيان إلى تكليف جديد، ثم لا تلبث النفس أن تعجز عنه وتضيق به.

فالأمم السابقة لم تهلك لأنها أُمرت بما لا تُطيق ابتداءً، بل لأنها سعت إلى التوسع فيما لم يُطلب منها، فكان توسعها سببًا في تضييقٍ لاحق. طلبت ففُرض عليها، وأرادت فالتزمت، ثم لم تحتمل ما أرادت.

وعلى هذا الفهم، إذا رجعنا إلى الآية، رأينا أن الرهبانية لم تكن في أصلها مكتوبةً عليهم، بل ابتدعوها هم، تقرّبًا وزهدًا، وظنًا منهم أن في التشدد زيادة رضى. فلما ألزموها أنفسهم، وصارت نظامًا مستقرًا في جماعتهم، كُتبت عليهم، وأُدرجت في شريعتهم، لا لأن الله ابتدأها عليهم، بل لأنهم هم الذين طلبوها وسعوا إليها.

فقوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ إشارةٌ إلى منشئها البشري، ثم قوله: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ كأنه بيانٌ لوجه إقرارها؛ أي ما أقررناها عليهم إلا لتكون سبيلًا إلى استقامة أرادوها، وطريقًا إلى رضىً طلبوه. غير أنهم، وقد حملوا أنفسهم ما لم يُطلب منهم، لم يرعوها حق رعايتها، فلم يستقيموا عليها، ولم يؤدوا ما التزموه أداءً كاملًا.

وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ } [المائدة: ١٠١]

يعني إذا تم السؤال عنها- وقت نزول الوحي- فسوف يجيبهم الوحي عنها، وعند ذلك تكون في إجابته ما يسيئهم.

هكذا تكشف الآية عن سنّة دقيقة: أن التشدد إذا نشأ من رغبةٍ بشريةٍ متحمسة، قد يتحول إلى عبءٍ ثقيل، وأن ما يُفرض ابتداءً- على غير هوى النفس- أهون مما يُفرض استجابةً لهواها. فالاعتدال في الاتباع أصدق من الإفراط في الابتداع، وأقرب إلى روح الرسالات التي جاءت هدىً ورحمة، لا تضييقًا ومشقة.

المجادلة، الحشر، الممتحنة

الأحاديث الخاصة وراء الأبواب المغلقة

يدور محور السور الثلاث حول الأحاديث الخفية التي يتسارّ بها الناس في الخلوات ووراء الأبواب المغلقة. تلك الأحاديث التي تصدر في الخفاء، وتخترق سياجات المكان والزمان دون أن يراها أكثر الخلق، لكن الله- وهو العليم بأحوال النفوس- محيط بها ومبصر لها.

فـ«النجوى» في سياق القرآن ليست محادثات عابرة على قارعة الطريق، بل هي تلك الأحاديث المكتومة التي يتسارّ بها الناس في الخفاء، فيبوح بعضهم لبعضٍ بأشياء يخشون أن يطّلع عليها الناس. والنَّجِيّ في اللغة- على ما يقول الراغب وغيره- هو الشخص الذي تخلو إليه وتخصّه بأحاديثك دون غيره.

ويدخل ضمن هذا السياق: محادثات «الفيس بوك» والـ«ماسنجر» و«الهاتف» و«الموبايل» وجميع البرامج التقنية الحديثة التي يتسارّ بها الناس في الخلوات الإلكترونية على الشاشات الصغيرة والكبيرة. والخلوات- التي كانت في عصر النبي، صلى الله عليه وسلم، لم تكن بعيدة عن سياق التكوين النفسي والعلائق الإنسانية في عصر التقنية الحديثة.

فالشيطان ينفذ، عبر هذه النجوى، فيثير في النفوس الهم والحزن والشك والريبة، ويفرح بإحزان المؤمنين وإضعاف يقينهم بالله، ليصرفهم عما يقوّي إيمانهم ويشدّ أزرهم. يقول تعالى: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.

ثم يضع الله عز وجل قاعدة للتخاطب الخفي والنَّجوى: (لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ)، ويعد على هذا الفعل بالثواب الجزيل والأجر العظيم. ويؤكد علمه التام بأخبار السِّر والنجوى: (أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ

سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ...) ، {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}.

غير أن النجوى على انفراد قد تقتضيها ظروف الدعوة والنصيحة. لذا، لم يغلق الله عز وجل هذا الباب، إنما قيَّد هذه الخلوات بالإيمان والتقوى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}.

فمن التزم بهذا فقد أبصر الحق واتبع سبيل الهدى، ومن أبى فإنه يخضع للعقوبة والنكير: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ}.

هكذا يضع القرآن حدود التَّنَاجِي في الخلوات، ويؤدّب النفوس على حسن الخُلق والنقاء في القول والعمل، ليؤسس سياجًا إيمانيًّا يقِي الجماعة المؤمنة من التفرق والنميمة والظنون الفاسدة.

وينادي الله تعالى المؤمنين:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً}.

فهذه الآية تنفذ إلى عمق النفس الإنسانية وتضع أيدينا على إحدى نقاط ضعفها الخفية؛ تلك التي تتوارى وراء الأبواب المغلقة وفي الخلوات. فكم من امرئ يتستر بأحاديث جانبية، يتلوها في محضر النبي صلى الله عليه وسلم، يطيل بها الخلوة والنجوى، وهو في الحقيقة يتخذها ذريعة للتباهي بقربه ومحبته، دون أن يجود بدرهم واحد في سبيل الله.

فلو كان محبًا صادقًا لبذل ما يملك في سبيل تلك الخلوات التي يتقرب بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وينبه القرآن بأن على هؤلاء أن يقدموا لتلك الخلوات بصدقة تطهر نفوسهم وتزكى قلوبهم، يدفعونها للفقراء وليست للنبي، صلى الله عليه وسلم. فالنبي لا تحل له الصدقة كما قال: "إِنَّا آلَ مُحَمَّدٍ لاَ تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَة"، بل الغرض أن يتعلم الناس حسن الخلق في المعاملة، ويؤدوا ما عليهم في سياق محادثاتهم الخاصة.

فهذه الآية تكشف الغشاء عما تخفيه النفوس وتثير في النفس تساؤلا عميقًا:

فكم من بخيل يتستر بأحاديث طويلة يتقرب بها ليخفي بها شحه؟

وكم من امرئ يتحدث في محضر النبي، صلى الله عليه وسلم، ويزعم محبته وهو أبخل الناس بما عنده؟

وكم من خطيب بليغ يستثير في الناس مشاعر العطاء وهو أبخل في تطبيق تلك الدعوات على نفسه؟

وكم من زائر يطيل الجلوس في بيتك مدعيًا محبتك، ثم هو يضنُّ بأبسط هدية يتقرب بها إليك؟

هكذا تكشف، هذه التوجيهات الإلهية، النفوسَ على حقيقتها؛ ليعلم المسلم أن الأقوال يجب أن تستند بأفعال، وأن النفوس يجب أن تتطهر بالبرّ والنقاء.

ثم تخبر الآيات في النهاية بأن الله غفور يتغاضى عمن أخطأ، ويعفو عمن تاب وتطهر وعاد إلى الحق في علاقته بأخيه وفي محبته لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

هذا، ومن اللافت أن ثلاث سور متوالية في ترتيب المصحف (المجادلة والحشر والممتحنة) تتلبّس بهذا النمط التعبيري في صور متعددة، وتُبنى فيها الأحكام والخطابات بناءً على ما يُقال في الخفاء أو يُسَرّ في الصدور.

إن القرآن قد ذكر المناجاة مرات، وتحدث عنها في أكثر من موضع، فأشار إلى خطرها حين تكون إثمًا وعدوانًا، وأثنى عليها حينما تكون معروفًا وإصلاحًا.

وليس من المصادفة، أن يجمع المصحف ثلاث سور متتالية: المجادلة، ثم الحشر، ثم الممتحنة؛ كل واحدة منهن تحيط بالمناجاة إحاطة تامة: تلك بالمناجاة الصوتية بين الناس، وهذه بمناجاة القلوب والظنون، وتلك بمناجاة الأعداء وأسرار السياسة، فكأن السور الثلاث تؤلف ثلاثية خافتة، تتحدث عن الهمس الخفي الذي لا يُسمع، ولكنه يؤثر في النفوس والمجتمعات أعظم من الصيحة في الملأ.

أما سورة المجادلة، فقد بدأت بأعجب ما تبدأ به سورة من سور القرآن: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ}.

امرأة لا نعرف لها اسمًا، ولا نعرف في أي ساعة دخلت، ولا كيف استقبلها النبي، صلى الله عليه وسلم، لكنها جاءت تشكو، جاءت تناجي، جاءت تهمس بشكوى لا يسمعها أحد، ولكن الله سمعها. وما أعجب ما تقول عائشة حين سمعت بعض الكلام وغاب عنها بعضه: "تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها". وهل في ذلك شك؟ وهل في قدرة الله ضعف؟ وهل في سمعه نقص؟ لكنه تعبير المؤمن حين يعجب من كمال ربه.

ثم تنتقل الآيات إلى نجوى الزوج الغاضب – الظهار – حيث يُقسم على امرأته بسبب غضبٍ، ويجعلها محرّمة عليه كأمه. وهنا نوع آخر من النجوى: نجوى غاضبة تؤدي إلى ظلم، وهذا قول باطل يخالف الفطرة والشرع. وهنا تتحول المناجاة من طلب العدل إلى قول الإثم والبغي.

ثم تمضي السورة، فتنقلب النجوى إلى لون آخر، إلى نجوى المنافقين، الذين إذا دخلوا مجلسًا تناجوا دون الناس، يسرّون بالكلام، ويلمزون المؤمنين، ويظنون أنهم بذلك أذكى، وأقدر، وأقوى. لكن الله يراهم ويسمعهم ويكشف سترهم، ثم يأمر عباده أن لا يتناجوا إلا بخير، وأن لا يهمسوا إلا بما يرضي الله ورسوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ... }.

فالنجوى عندهم ليست وسيلة محبة، بل أداة تخريب ومعصية. ثم تتحدث الآيات عن المناجاة مع النبي، وهي نجوى عظيمة، لكنها كثرت حتى أرهقت، واستعملت حتى أفسدت، فجعل الله لها صدقة. فمن قدم لها صدقة فقد صدق، ومن بخل فليدع النجوى جانبًا. أفترى كم من الناس كانوا يريدون النجوى، فلما طُلب منهم أن يتصدقوا، أعرضوا؟ وكأن الله يختبر بها القلوب، كما يختبرها بالصلاة والزكاة.

ثم تأتي سورة الحشر، فتبدو وكأنها سورة قلب الإنسان. تقرأها، فلا تسمع فيها صوتًا، إنما تسمع وجدانًا، وتحس إحساسًا، وتستشعر ظنونًا لا تُقال، وأوهامًا لا تُروى. أولئك الذين ظنوا أنهم في حصون منيعة، وأنهم لا يُغلبون: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا.. }.

ثم أولئك الذين وعدوا إخوانهم أن ينصروهم، ثم ولّوا مدبرين: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ...}

ثم أولئك الذين تبوأوا الدار والإيمان، فاستقبلوا المهاجرين بقلوب صافية، ونفوس مطمئنة: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...}.

ثم أولئك الذين جاءوا من بعدهم، فما قالوا في نفوسهم إلا الخير، وما ناجوا ربهم إلا بصدق: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}.

نجوى من قلب إلى قلب، ومن نفس إلى نفس، ومن رب إلى عبد. وما أجملها من نجوى، وما أطهرها من سريرة.

ثم تأتي سورة الممتحنة، فتكون هي الفصل الأخير في ثلاثية المناجاة. هنا لا نجوى بين فردين، ولا بين مؤمن وربه، لكنها بين مسلم وعدوّه: {تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}.

هنا سرٌّ يُسر، ومودة تُخفى، وأحاديث في الخفاء تُدار. هنا الفتنة الكبرى، والمصيبة العظمى: أن يكون في قلبك حبٌّ لمن يُبغض الله ورسوله، وأن تسرّ إليه بما لا يجوز أن يُسر، وأن تُلقي إليه بالمودة خفية، والله يعلم ما تُخفي الصدور والقلوب.

وهنا امتحان نساء هربن، ما ندري من حالهن شيئًا، فلا بد من اختبار، ولا بد من فحص، ولكن الفحص لا يكون بالجلد والسوط، إنما بالحوار الخفي، والكلمات العابرة، بحديث النساء، بفضول المجالس. فإذا نطقت المرأة، ظهر من كلامها ما يَخفى على ظاهرها.

ثم في ختام السورة، بيعة أخرى، بيعة صامتة، لا يُرفع فيها صوت، ولا تُعلَن فيها بنود، إنما تُؤخذ في الخفاء، على ألا يسرقن، ولا يزنين، ولا يشركن، ولا يفترّ، ولا يُدلين بسرّ،

ولا يفترين على عرض. فالإسلام أراد أن يُطهر السريرة قبل أن يُطهر العلانية، وأن يُصلح النجوى قبل أن يُصلح المجاهرة.

فالمناجاة، إذن، في هذه السور الثلاث، ليست مجرد حديث همس، بل هي صورة الإنسان في لحظة صدقه، أو لحظة نفاقه. هي امتحان النفس، في ساعة الضعف، أو في ساعة التوبة. هي مرآة القلب، إذا خلَا من الرياء، أو امتلأ به.

هكذا نرى أن هذه السور الثلاث قد جمعت أطراف "المناجاة":

فهي في المجادلة: همسٌ بين العبد وربه، أو بين الناس والرسول.

وهي في الحشر: حديث النفس والخواطر الباطنة التي لا يُفصح عنها.

وهي في الممتحنة: أحاديث خفية بين المسلم وأعداء الأمة.

وقد أراد القرآن بذلك أن يُرينا أن السر لا يخفى على الله، وأن المناجاة، وإن خفيت على البشر، فإنها مرصودةٌ في علم الله، محصاة في كتابه، شاهدة على صدق المرء أو نفاقه.

وما أحوجنا، في عصر تضج فيه النجوى الرقمية، والهمس الإلكتروني، إلى أن نزن كل كلمة، وكل خاطرة، بميزان النجوى القرآني.

سـورة الحشر

التخلّي

تبدو سورة الحشر كما لو كانت قصة واحدة تتردد فيها نغمة واحدة لا تكاد تخفت، هي نغمة التخلّي؛ وهو معنى يستمد دلالته من اسم السورة ذاته. فليس التخلّي قاصرًا على أحداث الدنيا التي تعرضها السورة، بل يتجاوزها إلى مشهدٍ أعظم، يوم الحشر، حيث تنفصم الروابط، ويتبرأ الخلّ من خليله، فلا تبقى بين الناس وشيجة ولا مودة..

فالسورة تبدأ بصورة قومٍ من أهل الكتاب، كانوا آمنين في ديارهم، مطمئنين إلى حصونهم، فإذا هم يُدفعون عنها دفعًا، ويُكرهون على الرحيل إكراهًا، فيتخلّون عن أرض ألفوها، ومساكنَ عمروها، في أول مشهد من مشاهد الحشر. ثم لا تلبث أن تُرينا المؤمنين وقد تخلّوا عن متابعة الحصار، لا عجزًا ولا ضعفًا، ولكن لأن الأمر قد انقضى، ولأن القوم قد جلوا، فكأن التخلّي هنا طاعة، لا هزيمة.

ثم تمضي السورة، فإذا هي تُعلّم المؤمنين ضربًا آخر من التخلّي، أرقى وأدق؛ إذ يتخلّون عن بعض أموالهم، فلا يجعلونها دولةً بين أغنيائهم، وكأن المال نفسه يُنتزع من شح النفوس انتزاعًا، ليعود حقًا مشاعًا لا حكرًا مصونًا.

ثم ننتقل إلى المهاجرين، فنراهم وقد تخلّوا عن أوطانهم وأموالهم، لا مُكرهين كما تخلّى أولئك، بل مختارين، يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا. ويقابلهم الأنصار، وقد تخلّوا عن شحّ نفوسهم، فآثروا إخوانهم على أنفسهم، وبذلوا ما في أيديهم في سخاء نادر، حتى كأن التخلّي هنا قد صار فضيلة خالصة.

ويمتد معنى التخلي إلى الأجيال اللاحقة، فيتخلّون عن الضغينة، ويطهرون قلوبهم من الغلّ. غير أن السورة لا تقف عند هذا الصفاء، بل تكشف وجهًا آخر قاتمًا من وجوه التخلّي؛ فهؤلاء المنافقون، الذين وعدوا إخوانهم من أهل الكتاب النصر، يتخلّون عنهم ساعة الجد، فلا يخرجون معهم، ولا يقاتلون دونهم، ولا يوفون بما قالوا، فكان التخلّي هنا خيانة بعد وعد.

ثم تبلغ السورة ذروتها، فإذا هي تعرض أفظع صور التخلّي وأقساها: تخلّي الشيطان عن أتباعه، بعد أن زيّن لهم الكفر ودعاهم إليه، فلما استجابوا له، ووقعوا فيما أراد، قال في برودٍ قاسٍ: إني بريء منكم. وهنا يبلغ التخلّي غايته، إذ يتحول إلى تنكّر مطلق، لا يبقي على صلة ولا على عهد.

هكذا تمضي السورة من أولها إلى آخرها، وكأنها تعرض أطياف التخلّي كلها: تخلّي الضعف، وتخلّي الطاعة، وتخلّي الزهد، وتخلّي الكرم، وتخلّي الخيانة، ثم تخلّي الإغواء والغدر. حتى إذا فرغ القارئ منها، أحس أن الروابط بين الناس ليست سواء؛ فمنها ما يقوم على الإيمان فيثبت، ومنها ما يقوم على الهوى فيتبدد، وأن يوم الحشر الأكبر لن يكون إلا امتدادًا لهذه الحقيقة، حيث يتخلّى كل خليل عن خليله، إلا من قامت بينهما رابطة لا تزول.

تُفتتح السورة بتسبيحٍ شاملٍ يعمّ الوجود كله، وكأنّ الكون- في علوه وسفله- قد تخلّى عن إرادته، وخضع خضوعًا كاملًا لله، فلا يملك لنفسه اختيارًا ولا امتناعًا، وإنما هو في طاعة دائمة، وتسليم مطلق:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

وهنا تبدأ أولى صور التخلّي الظاهرة: تخلي أهل الكتاب عن ديارهم، يخرجون منها لا مختارين، بل مدفوعين بقوةٍ لا قبل لهم بها. فقد كانوا يظنون أن حصونهم مانعتهم، فإذا هم يتخلّون عنها، ويتركون ما ألفوه من أمنٍ وسكن:

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا، وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ...﴾

ويشتد المشهد قسوة، فإذا القوم لا يكتفون بترك الديار، بل يُسهمون في خرابها بأيديهم، وكأنّ التخلّي قد بلغ بهم مبلغًا جعلهم ينقضون ما بنوا، ويهدمون ما شيّدوا:

﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ...﴾

ثم اتضح أن التخلّي لم يكن اختيارًا، بل قضاءً محتومًا؛ فإما أن يتخلّوا عن الديار، أو يتلقوا عذابًا أشد. فالتخلّي هنا قدرٌ يفرض نفسه: ﴿ وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ...﴾

ثم ينتقل السياق إلى صورة أخرى: تخلي المؤمنين عن الاستئثار بالمال. فهذا الفيء لا يُتنازع عليه بالسيف، بل يُسلّم أمره لله ورسوله، وكأنّ النفوس قد تخلّت عن شهوة التملك:

﴿مَّا أَفَاء اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾

وهنا يُكشف الغرض: أن يتخلّى المجتمع عن الظلم الاقتصادي، وألا يحتكر الغنى طائفة دون أخرى. إنه تخلٍّ عن الأنانية، وتأسيس لعدالةٍ تقوم على المشاركة:

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾

وتُعرض صورة المهاجرين، الذين تخلّوا عن أوطانهم وأموالهم، لا ضعفًا، بل اختيارًا، طلبًا لرضوان الله:

﴿ لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾

ثم تأتي صورة الأنصار، وهي من أبهى صور التخلّي: يتخلّون عن شحّ النفس، ويؤثرون غيرهم على أنفسهم. ليس التخلّي هنا فقدًا، بل غنىً من نوع آخر، غنى النفس وسعتها:

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾

ويمتد المعنى إلى الأجيال اللاحقة، فيتخلّون عن الضغينة، ويطهرون قلوبهم من الغلّ، فكأنّ التخلّي هنا باطنيّ، لا يُرى بالعين، ولكنه أشد أثرًا:

﴿ وَالَّذِينَ جَاؤُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾

ثم تنقلب الصورة: المنافقون يعدون بالنصرة، لكنهم يتخلّون عند الشدة. وهنا يظهر التخلّي في صورته المذمومة، حيث يخون الإنسان عهده، ويترك من وعدهم بالعون:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

ويزداد هذا المعنى وضوحًا، فالمنافق لا يفي، ولا يثبت، بل يتخلّى عند أول امتحان، وكأنّ التخلّي صار طبعًا فيه، لا موقفًا عارضًا:

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ ..﴾

وهنا يظهر أن هذا التخلّي ناشئ عن ضعفٍ داخلي، عن خوفٍ يملأ القلوب، فلا يقوى صاحبه على الثبات:

﴿ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾

وتبلغ السورة ذروة البيان: فالشيطان نفسه يتخلّى عن أتباعه بعد أن أغواهم. يأمرهم بالكفر، فإذا استجابوا، تبرأ منهم. إنه أقسى صور التخلّي وأشدها خذلانًا:

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

ثم تعود السورة لتوجّه المؤمنين ليتخلّوا عن الغفلة، ولينظر كلّ امرئ ما قدّم. إنه تخلٍّ عن الإهمال، وإقبالٌ على محاسبة النفس.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

ثم يأتي التحذير من النسيان. فالنسيان نوع من التخلّي، ومن تخلّى عن الله، تخلى الله وتركه لنفسه، فضلّ وخسر:

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ..﴾

ثم تميز السورة بين تخلّي عن الدنيا والهوى، وبين من تخلّى عن الحق: ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

ويبلغ التأثير مداه. فالجبل، لو عقل، لتخلّى عن صلابته، وخشع من خشية الله. فكيف بالإنسان؟

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.. ﴾

وتُختم السورة بأسماء الله الحسنى، وكأنها دعوة إلى التخلّي الكامل عن التعلّق بغيره، والتوجه إليه وحده، فهو الباقي، وكل ما سواه زائل.

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾

هكذا نرى أن السورة، في نظامٍ بديع، تعرض التخلّي في صوره كلها:

تخلّي القهر، وتخلّي الإيمان، وتخلّي النفاق، حتى ينتهي الأمر إلى الحقيقة الكبرى: أن الإنسان لا بد أن يتخلّى، ولكن العبرة فيما يتخلّى عنه، ولمن يكون هذا التخلّي.

سـورة الممتحنة

تفكيك العلاقات

إن من أعجب ما تقع عليه عين المتأمل في كتاب الله، ذلك المحور الذي تدور عليه سورة "الممتحنة"؛ إنه محور "تفكيك العلاقات". فما أسرع ما تنشأ بين النفوس البشرية روابط وثيقة، تصنعها الأيام المتطاولة، والجوار القريب، والمصاحبة الدائمة، حتى تصير كالجذور الضاربة في أعماق الأرض، يصبح فصلها عسيرًا، وقلعها من النفس أشبه بقلع الحياة منها. ولكن القرآن يأتي ليعلمنا درسًا قاسيًا، ولكنه ضروري: أن تكون الولاءات لله قبل كل شيء.

تبدأ السورة بأخطر هذه العلاقات وأشدها عنفًا في النفس: العلاقة بين المؤمن والكافر. ليس كل كافر، بل ذاك الذي أعلن العداوة لدين الله. يأمر الله المؤمن أن يتخلى عن مودة من عاداه، حتى لو أوشكت تلك المودة أن تكون عادةً راسخة، أو صحبة قديمة. فنسمع النداء الإلهي: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة}. إنها لفتة صارمة، تريد أن تمحص القلوب، وتميز بين حب الله وحب سواه.

ثم تنتقل السورة فتستشهد بأبي الأنبياء، إبراهيم عليه السلام، ذلك الإنسان الذي جعله الله قدوة، ونموذجًا للتجرد والبراءة من الشرك وأهله. تقول: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ..}. إنه كأنما القرآن يقول: إن تفكيك العلاقة على درجة من الصعوبة، لكنها ليست مستحيلة، فقد فعلها إبراهيم مع قومه، وهو خليل الرحمن.

ثم لا تلبث السورة أن تلتفت إلى جانب آخر من الرحمة؛ إذ تشير إلى أن هذه القطيعة ليست أبدية، فإذا رجع الكافر إلى حظيرة الإيمان، وتاب عن كفره، فإن العلاقة تعود وتلتحم من جديد. هنا تتجلى سماحة الدين، الذي لا يغلق باب الأوبة، ولا يجعل التفكيك عقابًا سرمديًا.

بل إن السورة تمضي فتؤكد أن تفكيك الولاء لا يعني معاداة الإنسان، ولا منع حسن المعاملة. فهناك فرق بين الكافر المحارب، والكافر المسالم الذي لم يقاتل المؤمنين، ولم يخرجهم من ديارهم. مع هؤلاء يمكن البر والقسط، ذلك أن الدين يريد العدل، حتى مع المخالف.

وتتسع دائرة الحديث، فتشير السورة إلى صور أخرى من التفكيك: تفكيك العلاقة بين كافر وزوجته المؤمنة التي هاجرت إلى المدينة، وتفكيك العلاقة بين مؤمن وزوجته الكافرة التي لحقت بالمشركين في مكة. إنها حالات إنسانية دقيقة، تصور صراع النفس بين الحب والعقيدة، وقد حسمها القرآن لصالح العقيدة، ولكن مع إنصاف في الحقوق.

وفي هذا السياق يلفت النظر قوله تعالى: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾، فإنه يلفت النظر إلى أمر دقيق من أمور الحياة الإنسانية، وهو أن الروابط التي تنشأ بين الناس لا تنقضي كلها حين تنقطع أسباب القرب الظاهرة، ولا تزول آثارها بمجرد تباعد الأجساد واختلاف الأمكنة.

فالإنسان لا يعيش مع الناس بجسده فقط، إنما يعيش معهم بذكرياته وعواطفه وآثاره النفسية التي تترسخ في أعماق الشعور مع امتداد الزمن وطول الصحبة. فإذا وقع الفراق بعد الألفة، وانقطعت صلة المكان، لم يكن معنى ذلك أن كل شيء قد انتهى، بل قد يبقى من العلاقة في النفس ما هو أعمق أثرًا وأشد رسوخًا من الحضور المادي نفسه.

ومن هنا يستوقفنا التعبير القرآني: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾، إذ لم يقل: "وإن فاتتكم زوجاتكم". وكأن هذا التعبير يوحي بأن الفوات لم يستوعب الأمر كله، وإنما تناول جانبًا منه. فالغائب هو الصورة المرئية والحضور المادي، أما ما خلّفته المعاشرة من أثر في القلب والعقل والوجدان فليس مما يزول سريعًا، ولا مما تناله المسافات.

إن من شأن الناس أن يظنوا أن الفراق بين زوجين، أو بين حبيبين، إنما ينتهي بانتهاء اللقاء الجسدي وتباعد الأمكنة. ولكن هيهات! فالأرواح لا تعرف المسافات التي تعرفها الأجساد. فإذا طال عهد المودة بين اثنين، ثم اضطرهما القدر إلى الانفصال، فإن أجزاءً منهما تظل معلقة بأجزاءٍ من الآخر لا تقوى على التحرر. وهذا بالضبط ما أشار إليه الكتاب العزيز حين قال:{وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ}. فكأنما الزوجة الكاملة

بحضورها الجسدي وجمالها الصوري ودفء لقائها، إنما تفقدون منها حين تذهب إلى الكفار "شيئًا" يسيرًا هو تلك الصورة المحسوسة وذلك الجسد الحاضر. وأما ما بقي منها في الأعماق، من عِشْرة وذكريات وأثر لا يُمحى؛ فهو الأكثر والأبقى.

فالذي يفوت المؤمنين إذ تذهب زوجاتهم إلى دار الكفر ليس هو الزوجة كلها، بل "شيء منها" – هو الجسد والحضور المباشر. أما روح العلاقة ووهجها ووقعها في الضمير، فإنها تبقى حية تعيش في العقل والقلب، وتتلاقى هناك في أوقات الخلوة والذكرى، على الرغم من تباعد الديار واختلاف الأديان. وهذا هو السر في قوله "شيء من أزواجكم"، لأن الشيء قد يكون جزءًا من الكل، فيذهب الجسد ويبقى الأثر، ويغيب الحضور وتحضر الروح. فالعلاقات الإنسانية كالنار، إذا انطفأ لهيبها ظاهرًا، فإن جمرها يظل متقدًا في أعماق الرماد سنين طوالاً.

ثم تتجه السورة إلى النساء المؤمنات المبايِعات، فتحدث عن تفكيك العلاقة بينهن وبين العادات السيئة التي كن يعشن فيها أيام الجاهلية والإشراك. إنها بيعة تتطهر فيها النفس من أدران الماضي، وتنطلق إلى فضاء جديد من الطهر والفضيلة.

وأخيرًا، تختم السورة هذه الرحلة مع تفكيك أملٍ لا أملَ بعده: تفكيك العلاقة بين الكفار وبين الموتى في القبور. فقد كانوا يظنون أن لأسلافهم من القدرة على نفعهم أو الشفاعة لهم، فأتى القرآن ليقطع هذا الرجاء؛ إذ يئس الكفار من عودة أولئك الموتى إلى الحياة، كما يئسوا من كل أمل زائف كانوا يعلقونه على أصحاب القبور.

تلك هي "الممتحنة": سورة تختبر القلوب في أعمق علاقاتها، وتهذبها على ميزان الإيمان، وتعلمها أن التضحية ببعض ما تحب، قد يكون ثمنًا لازماً لسلامة الروح وطهارة العقيدة..

سـورة الصـف

الانسجام

إنك إن وقفت عند سورة الصف، وتأملتها بعين القلب قبل عين العقل، وسمعتها بأذن البصيرة قبل السمع، وجدتها وحدة متماسكة البناء، متراصة اللبنات، محكمة النسج، كأنها – على الحقيقة لا على المجاز – تجسيد قرآني لفكرة الصف المرصوص، والانسجام العميق الذي يسري في الكون كما يسري الدم في العروق.

فالسورة تفتتح بتمهيد جليل، لا تكاد تقرؤه حتى تحس أن شيئًا من السكينة يهبط على قلبك:

{سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}.

وهل تدري ما معنى أن كل ما في السماوات وما في الأرض يسبّح لله؟

إنه معنى لو تدبره الإنسان حق التدبر، لرأى أن هذا الوجود كله – بكل ما فيه من نجوم وكواكب، وأشجار وجبال، ودواب وطير، بل وسكون وصوت، وظلمة ونور – إنما هو في موكب واحد، يسير إلى الله سيرا متناسقًا، لا يعوقه عائق، ولا يقطعه شذوذ.

فما من شيء إلا وهو في صف منسجم، وما من خلق إلا وهو مسبّح بلسان الحال أو المقال، وكلهم في بناء إلهي، متناسق، كأنهم جند مصطفّ في معسكر سماوي، لا يتقدم أحدهم على الآخر، ولا يتأخر.

ثم، بعد أن رسمت لنا الآية الأولى هذا المشهد الكوني المتناغم، عادت السورة تنزل من السماء إلى الأرض، ومن الجماد إلى الإنسان، لتسأل الإنسان نفسه: هل تراك تكون منسجمًا كما الكون منسجم؟

أفلا يليق بك – وأنت المستخلف في الأرض – أن يكون قولك كعملك، وظاهرك كباطنك، وأن تكون في نفسك صفًّا لا تناقض فيه، ولا شقاق؟

وما أعجب أن تكون السماء أكثر طاعة من الإنسان، والحجر أشد انسجامًا من القلب البشري الذي خُلق ليفهم ويعي!

ثم تنتقل السورة نقلة ثالثة، لا تخرج عن سياقها، بل تتّسق معه كل الاتساق، فتصور لك صفًا من البشر، لا بالكلام ولا بالزينة الظاهرة، بل بالموقف والميدان، فإذا هم يقاتلون في سبيل الله صفًا واحدًا، كأنهم – وما أروع هذا التصوير – بنيان مرصوص، لا ثغرة فيه، ولا خلل يشينه:

{إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ}.

وهكذا ترى أن الانسجام، في هذا الموضع، ليس مجرد سلام داخلي، بل هو قوة فعّالة، تظهر في الجهاد، في الاجتماع، في وحدة الهدف والوسيلة، في اجتماع القلوب قبل السيوف، والنفوس قبل الصفوف.

ثم تعرض السورة لنا صورًا من النشاز، من التناقض، من عدم الانسجام، كأنها تقول: تأمل، لتعرف النقيض، ولتزداد تمسكًا بالحق حين ترى الباطل!

فها هم بنو إسرائيل، الذين عرفوا الحق، ثم آذوا موسى، الذي أيّدوه حينًا، ثم أنكروه حينًا، وما ذاك إلا لأن قلوبهم لم تكن مع أقوالهم، وألسنتهم لم تكن امتدادًا لضمائرهم، فشذّوا عن الصف، وخرجوا عن البنيان، فاختلّ حالهم، وفسد أمرهم.

ثم يجيء النصارى، ويحدثك القرآن عنهم لا بغرض السرد، ولكن ليتم الدرس، وليكتمل المعنى.

فلقد أخبرهم المسيح، عليه السلام، أن رسولًا يأتي من بعده اسمه أحمد.

ولكن، لما جاءهم هذا الرسول، ولما رأوا البنيان قد اكتمل، رفضوا أن يكونوا لبنة فيه، فأنكروا، وكفروا، فكانوا في عزلة عن موكب الوجود المتناغم، وخرجوا عن الصف الذي كانت البشرية مدعوة للوقوف فيه منذ أول النبوات.

ولا تظنّ، أيها القارئ، أن التناقض مقصور على ماضٍ طواه الزمن، فإن السورة تنتقل بك إلى واقع الأمة، فتصور لك المنافقين الذين يتكلمون بلسان الإسلام، ولكن قلوبهم تخالفهم، وتظن بالله غير الحق، وتفترى عليه الكذب.

وما أظلم ممن يُدعى إلى الإسلام، ثم يكذب على الله، فلا يكون منسجمًا لا مع الناس ولا مع نفسه، بل هو شق مائل في بناء مستقيم.

ثم تشرق السورة، في ختامها، بنموذج من الانسجام الكامل، لا في القول فحسب، ولا في القلب وحده، بل في الجهاد، في النصرة، في الإيمان العملي، فتحدثك عن أولئك الذين صدّقوا بعيسى، وآمنوا به، ودعوا إلى الله، فكانوا أنصار الله حقًّا، كما أراد الله لهم أن يكونوا.

وهكذا تنتهي السورة كما بدأت: بصفٍّ منسجم، كما بدأ الكون بتسبيح جماعي، يختم المشهد بإيمان جماعي، كأن السورة كلها تبدأ بـ"الكون المؤمن" وتنتهي بـ"الإنسان المؤمن"، وتعرض فيما بينهما صور الانسجام، وصور التناقض، لتدعونا أن نختار، وأن نسير في الصف الذي لا يزيغ، في البنيان الذي لا ينهار.

ذلك هو الانسجام في سورة الصف... وحدة في الكون، وحدة في الإنسان، وحدة في الهدف، وحدة في الكلمة، ومن شذّ، فقد خالف النظام، ونقض العهد، وخرج من الصف...

{ سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

ها هي ذي السورة تبدأ بتسبيح عام، شامل، لا يقتصر على الإنسان، ولا يخص أهل الإيمان، بل يشمل الكون كله، سماءً وأرضًا، ظاهرًا وباطنًا. أفرأيت كيف يسري الانسجام في الوجود كله؟ الكواكب تدور في أفلاكها لا تصطدم، والماء ينزل من السماء في موعده، والشجر ينبت من الأرض لا يزيغ، بل كل شيء يسبّح، وكل شيء مطواع لأمر خالقه. فالانسجام هنا ليس فكرة طارئة، بل هو ناموس كوني، وسنّة ربانية.

وهل العزيز الحكيم يخلق فوضى؟ كلا. بل يخلق كونًا متماسكًا، وكل خلق فيه موزون، وكل حركة محسوبة، وكل تسبيح في موضعه، لا يزيد ولا ينقص.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}

ثم ينتقل الخطاب، من الوجود الصامت المنسجم، إلى الإنسان المتكلم المختل. أفلا تراه سؤالًا فيه عتاب؟ بل فيه أكثر من العتاب، فيه لوم، فيه كشف للنفاق الخفي، فيه دعوة إلى أن يُعاد ترتيب الصفّ البشري كما هو مرتب الصفّ الكوني.

القول لا ينبغي أن يكون مفصولًا عن الفعل، ولا اللسان مخالفًا للقلب، فذلك تناقض، والتناقض انشقاق في النفس، وتمزيق للصف، وتمييع للنية.

{كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}

وهل تدري ما المقت؟ هو أشدّ البغض. إن الله – وهو الرحمن الرحيم – يمقت ذلك الصنف من الناس الذين يتكلمون كلام الصالحين، وقلوبهم خالية من الصدق، وأفعالهم تصرخ بالتكذيب. فأين الانسجام في هذا؟ أين التوحد بين الجهر والسرّ، بين الظاهر والباطن؟!

هنا تَبرز الفكرة الكبرى: الانسجام ليس اختيارًا أدبيًّا، ولا ذوقًا خُلقيًّا، بل هو قيمة إيمانية، وفرض روحيّ، ومن يخلّ بها يُبغَض، ويُنبَذ، ويخرج من الصفّ.

{إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}

ما أبلغ هذه الآية! وما أشدّها إحكامًا واتساقًا مع ما قبلها! كأنها لبّ السورة، وجوهرها.

إن الله يحب، وأيّ حب هو هذا؟ حبٌّ لا يتجه إلى الضعف، ولا إلى الكلام، بل إلى الفعل المتّحد، إلى القتال في سبيله صفًّا، لا كمجموعة أفراد متفرقين، بل كصفٍّ متراص، كأنهم حجارة صلدة لا فراغ فيها، لا هشاشة.

إنها صورة الانسجام الحيّ: وحدة القصد، وحدة الحركة، وحدة القلب.

وهكذا، يكون المؤمن صورة من صور الكون، لا يشذ، بل يدخل في نظامه، ويشارك الأرض والسماء في نسقها.

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ؟ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}

ثم تأتي هذه الآية تذكّر بما وقع حين انقطع الانسجام، لا بين الناس فقط، بل بين القول والعلم، بين المعرفة والسلوك.

فبنو إسرائيل كانوا يعلمون، ولم يعملوا. كانوا يعرفون أن موسى رسول، ولكنهم آذوه، وعاندوه، وخالفوه.

هنا يظهر نوع من الشذوذ عن الصفّ: شذوذ الإرادة، شذوذ القلب، شذوذ اللسان.

وهذا الشذوذ لا يمرّ بغير أثر، بل يُعاقب بالزيغ، ويُختم بالخذلان:

{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}.

هكذا ترى أن الانسجام ليس نعمة محفوظة، بل هو عطاء مشروط، وهدية لا تدوم لمن لا يحفظها.

{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}

ما أقسى هذا المشهد! وما أبلغ ما فيه من التناقض!

نبيٌّ كريم، عيسى، يخبر قومه بما يتصل بالمستقبل، لا من تلقاء نفسه، بل من أمر الله، فيبشّر برسول يأتي بعده. والناس يسمعون، ويقبلون، ويُقرّون، ثم إذا جاء ذلك الرسول، تنكّروا له، وبهتوه، وكذّبوه.

وهذا، في ميزان السورة، شذوذ بيّن، وتمرد على مقتضى الانسجام بين الوعد والوفاء، بين التبشير والاستجابة.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

ثم تسأل السورة سؤالًا توبيخيًّا، سؤالًا لا يحتاج جوابًا، لأنه يحمل الجواب في ذاته.

فالذي يُدعى إلى الإسلام، دين التوحيد، دين الانسجام بين الفطرة والشرع، بين القلب والجوارح، ثم يُعرض ويفتري، إنما يختار طريق التمزق، ويُخرج نفسه من الصف، ويدخل في الظلم الذي هو غاية التناقض.

{يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}

وهنا ذروة الصراع بين الانسجام والاضطراب، بين النور والظلام.

فأولئك المتناقضون، المتمردون، يريدون إطفاء نور الله، ولكن بأي وسيلة؟

بأفواههم! بالكلام لا بالفعل، بالهوى لا بالحق، وهيهات! فإن النور الإلهي لا يُطفأ بنفخ الصدور، ولا يُطفأ بتهويل الألسن، فهو نور أُريد له الاكتمال، ولو كرهت الظلمات.

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}.

أفترى انسجامًا أبلغ من هذا؟

الرسالة واضحة، الدين حق، الهدى مستقيم، والنتيجة حتمية: الظهور، الغلبة، الاكتمال.

لا عوج فيه، لا شبهة، لا اضطراب.

والكارهون؟ لا سلطان لهم على الحق، مهما كرهوا، لأن الانسجام الحقّ لا يُغلب، ولا يُقهر.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}

{تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}

وهنا، تختم السورة بدعوة إلى نموذج الإنسان المنسجم، لا قوليًّا فقط، بل عمليًّا.

تجارة؟ نعم.

ولكنها ليست بيعًا وشراءً، بل إيمان وجهاد، صدق ووفاء، عطاء بالمال والنفس، وبذلك يتحقق الكمال البشري في صورته المثلى.

الانسجام هنا لا بين كلمات فقط، بل بين الحياة والموت، بين الفرد والجماعة، بين الغيب والشهادة.

{يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } ...

إلى أن يقول:

{كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ...}

ويُختتم المشهد ببشارة للمؤمنين، ودعوة للقيام في صفّ الله، كما قام الحواريون، لا بخطب جوفاء، ولا بنوايا مذبذبة، بل بإيمان صريح، وانسجام حقيقي بين ما آمنوا به وما فعلوه.

سـورة الجمعة

العلم والحكمة

ليس بعجيب أن يلمس القلبُ في سورة الجمعة معنىً شفيفاً يربط أوائلها بأواخرها، ويجعل منها وحدة عضوية لا تتناثر آياتُها، ذلك المعنى هو الثنائية المقدسة: العِلْم والحكمة. أما العلم فهو تلك المعرفة النظرية التي ترتسم في الذهنِ صافية كالآفاق في غداة صيف، وأما الحكمة فهي أن ينزل هذا العلم من علاه إلى الأرض فيتخذَ جسداً من عمل وسلوك، فتسمو الحياة ويزكو الإنسان.

تبدأ السورة بتسبيح الكون كله لله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾. وليس من اليسير أن يمر القارئ بهذه الآية دون أن يلحظ أن السورة تفتتح باسم الله الحكيم، وكأن الحكمة التي سيجري الحديث عنها بعد ذلك إنما تستمد أصلها من حكمة الله التي يقوم عليها هذا الوجود كله.

ثم تنتقل السورة إلى الحديث عن أعظم مظاهر هذه الحكمة الإلهية، وهي بعثة الرسول ﷺ في قوم أميين لم يكونوا أهل كتاب ولا أصحاب علم مدون، فبعث الله فيهم رسولًا منهم: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾. فغاية الرسالة ليست أن يتلقى الناس ألفاظًا تحفظ أو أحكامًا تردد، إنما أن يتعلموا العلم وأن يتخلقوا بالحكمة، حتى يصبح ما يعرفونه جزءًا من حياتهم وواقعهم.

ثم تشير السورة إلى أن هذا الخير لن يقف عند حدود الجيل الأول أو الأمة الأولى، إنما سيمتد إلى آخرين يلحقون بهم، فيتعلمون هم أيضًا الكتاب والحكمة، ويهتدون بهدي الوحي كما اهتدى السابقون.

غير أن السورة لا تكتفي ببيان فضل العلم، بل تحذر من آفة عظيمة قد تصيب أصحابه، وهي أن يحمل الإنسان العلم ثم لا ينتفع به. ولهذا ضربت المثل بالذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها حق حملها، فقالت: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾. فهو يحمل الكتب على ظهره، لكنه لا يدرك ما فيها، ولا ينتفع بشيء من علمها. وهذه صفة اتصف بها

اليهود على مدار تاريخهم. ومن الغريب أن الإنجليزي غلوب باشا في مذكراته يصف اليهود "بأنهم لديهم العلم لكنهم تنقصهم الحكمة".

ثم تمضي السورة فتذكر قومًا زعموا لأنفسهم منزلة خاصة عند الله، وادعوا الولاية والقرب منه دون سائر الناس، لكنهم كانوا يفرون من الموت أشد الفرار. وكأن السورة تريد أن تقول إن العلم الحق لا يظهر في الدعوى، وإنما يظهر في صدق الإيمان وثبات اليقين.

ثم تبلغ السورة ذروتها في الحديث عن يوم الجمعة، فتدعو المؤمنين إذا نودي للصلاة أن يتركوا البيع وأن يسعوا إلى ذكر الله. وهنا يظهر التقاء العلم بالحكمة؛ فالعلم يعلم الإنسان أن ذكر الله خير، والحكمة تحمله على أن يقدم هذا الخير على ما سواه من مصالح الدنيا ومكاسبها.

ثم تختم السورة بذكر قوم انصرفوا إلى التجارة واللهو وتركوا النبي ﷺ قائمًا يخطب. وليس هذا المشهد إلا صورة أخرى للصراع الدائم بين نداء السماء وجاذبية الأرض، وبين ما يعلمه الإنسان من الحق وما تدعوه إليه شهواته ومصالحه العاجلة.

ومن هنا فإن سورة الجمعة كلها تدور حول العلم والحكمة؛ فهي تبدأ بتعليم الكتاب والحكمة، ثم تذم اليهود الذين أوتوا العلم ولم يؤتوا الحكمة، ثم تدعو المؤمنين إلى أن يجعلوا ما تعلموه هاديًا لسلوكهم، حتى يوازنوا بين الدنيا والآخرة، وبين التجارة والصلاة، وبين السعي في الرزق والإقبال على ذكر الله. فالعلم في السورة ليس غاية في ذاته، إنما قيمته فيما يثمر من حكمة، والحكمة ليست كلامًا يقال، وإنما هي علم يتحول إلى سلوك في الحياة.

سـورة المنافقون

التجمل

كأنّ سورةَ المنافقين لا تُعنى بشيء عنايتها بكشف هذا التباين العجيب بين الظاهر المخدوع والباطن المريب؛ فهي تُصوّر لنا أناسًا قد أحسنوا صناعة الأقوال، وأجادوا تمثيل الإيمان، حتى ليحسب السامع أنهم صادقون فيما يقولون، وهم في حقيقة الأمر لا يجاوز قولُهم أطرافَ ألسنتهم. إنهم يشهدون بأن النبيَّ، عليه الصلاة والسلام، رسولُ الله- وهي كلمةُ حقٍّ في ذاتها- لكنها عندهم قشرةٌ لا تستر خواء الداخل، ولا تدل على إيمان مستقرٍّ في القلوب.

ثم تمضي السورة فتُبيّن أنّ هؤلاء لم يتخذوا إيمانهم إلا ستارًا يتقون به، ووسيلةً يصدّون بها عن سبيل الله، فكأنّهم لبسوا الحقَّ ليخدموا به الباطل، وآمنوا برهة ثم كفروا حقبة، غير أنهم آثروا الكتمان، فكان جزاؤهم أن طُبع على قلوبهم، فأصبحت لا تفقه ولا تعقل.

وإذا فرغت السورة من تصوير هذا التزيُّن في الأقوال، انتقلت إلى لون آخر من التزيُّن، هو تزيُّن الأجسام والهيئات؛ فهم يعتنون بمظاهرهم عنايةً تُغري الناظر، وتستميل السامع، حتى إذا رآهم الرائي أعجبته صورهم، وإذا تكلموا أصغى إلى حديثهم. ولكن وراء هذا البريق نفسٌ مضطربة، وقلبٌ خائف، يحسب كلَّ صوتٍ موجّهًا إليه، ويرتعد من كل نذير. فإذا دُعوا إلى التوبة، وأُشير عليهم أن يلتمسوا المغفرة عند الرسول، أعرضوا في كبرياء، ولوَّوا رؤوسهم استخفافًا واستعلاء.

ثم تقطع السورة الرجاء في صلاحهم، وتُعلن أن استغفار الرسول لهم سواء أكان أم لم يكن، فلن يُغني عنهم شيئًا؛ لأن العناد قد استقرّ في نفوسهم، والكذب قد أصبح لهم طبعًا لا ينفكون عنه. وتُبرز السورة دخائلهم حين يوصي بعضهم بعضًا بالبخل، وينهون عن الإنفاق على أصحاب الرسول، ظنًّا منهم أن الفقر سيُفرّقهم، وهم لا يعلمون أن خزائن الرزق ليست بأيدي الناس، إنما هي لله وحده.

ويمضون في غرورهم حتى يزعموا لأنفسهم العزّة، ويتوعدوا المؤمنين بالإخراج والإذلال، وهم غافلون عن الحقيقة التي لا تقبل جدلًا: أنّ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

ثم تختم السورة خطابها بنداء هادئ عميق، كأنّه يُوقظ الغافلين من سُباتهم، فتحذّرهم من أن تستأثر الأموال والأولاد بقلوبهم، فينسوا ذكر الله، فذلك هو أصل الداء، ومنه ينشأ النفاق. وتدعوهم إلى الإنفاق، لا على أنّه عبء، بل على أنّه تطهيرٌ للنفس، وتزكيةٌ للقلب. ثم تُنذر من يُعرض عن هذا الطريق بندم لا يُجدي، حين يجيء الموت فيتمنى المهلة، وقد فات الأوان، فإنّ الله لا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها، ولا يُمهل من أضاع الفرصة حين كانت بين يديه.

ولا تكاد تبدأ سورة المنافقون حتى تحس أنك إزاء مشهد من مشاهد النفاق الإنساني العجيبة، مشهد يُرى فيه الناس على خلاف ما يبطنون، وكأن للوجود وجهين: وجه يعلنونه بالقول، ووجه يخفونه في الصدور:

{إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}:

فهم يشهدون شهادةً هي في ذاتها حق، لكنها عندهم ليست إيمانًا، إنما هي زينةٌ لفظية، يتجملون بها أمام الناس، ليُخفوا ما في قلوبهم من جفاءٍ وإنكار.

ثم لا تلبث السورة أن تكشف هذا القناع، فإذا هذا الإيمان الذي أظهروه ليس إلا جُنّة، يتّقون بها، ويجعلونها وسيلةً للصدّ عن الحق:

{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

فهم لم يكتفوا بالكذب، بل زيّنوا هذا الكذب بثوب الدين، فكأنهم قد أفسدوا المعنى حين أحسنوا المظهر، وذلك لونٌ من أشنع ألوان التجمّل الزائف.

وتُمعن السورة في تصوير الداخل، فتُبيّن أن هؤلاء قد ذاقوا الإيمان لحظةً، ثم أعرضوا عنه، فكأنّ قلوبهم قد أُغلقت، فلا يدخلها نور، ولا تخرج منها هداية:

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ}

وهنا يبلغ التناقض بين الظاهر والباطن غايته: لسانٌ يقول، وقلبٌ لا يعي.

ثم تنتقل السورة إلى مشهدٍ آخر، هو مشهد الأجسام والهيئات:

{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}

تراهم فتُعجبك صورهم، وتسمعهم فتُصغي إلى قولهم، كأنهم قد أتقنوا فنّ التأثير في الناس. ولكن هذا الجمال الظاهر يُخفي ضعفًا شديدًا، فهم كخشبٍ مسندة، لا حياة فيها. ومع هذا الفراغ، يعيشون في خوفٍ دائم، يحسبون كل صوتٍ موجّهًا إليهم، لأن الباطل لا يمنح صاحبه طمأنينة.

وإذا دُعوا إلى أن يُصلحوا ما فسد، وأن يطلبوا المغفرة، لم يزدهم ذلك إلا استكبارًا:

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ}

فهم يُعرضون بأجسامهم، ويلتفون برؤوسهم، كأنّهم يريدون أن يحفظوا لأنفسهم هذا التجمّل الكاذب، فلا يسمحوا لنور الحق أن يكشفه.

ثم تُغلق السورة باب الأمل فيهم، فتُعلن أن الدعاء لهم وعدمه سواء؛ لأن القلوب إذا أصرّت على الزيف، لم يُجدِ معها نداء، ولا تُثمر فيها شفاعة. لقد صار النفاق عندهم طبعًا، لا عرضًا:

{سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}

ثم تكشف السورة جانبًا من سلوكهم الاجتماعي:

{هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ}

فإذا هم يُوصي بعضهم بعضًا بالبخل، وينهون عن الإنفاق، يريدون أن يُفرّقوا حول النبي أصحابه. وهم في هذا أيضًا يتجمّلون بالعقل والحيلة، ولكنهم في الحقيقة يجهلون أن الرزق ليس بأيدي الناس، وإنما هو بيد الله.

ويمضون في غرورهم:

{يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ}

فيزعمون لأنفسهم العزّة، ويتوعدون غيرهم بالذل، كأنهم قد صدّقوا هذا المظهر الذي صنعوه لأنفسهم. ولكن الحقيقة التي تغيب عنهم أن العزة ليست مظهرًا يُصطنع، وإنما هي حقيقةٌ يمنحها الله لمن يشاء.

ثم تلتفت السورة إلى الناس جميعًا، فتحذّرهم من الطريق الذي سار فيه هؤلاء. تُنذرهم من أن تنشغل قلوبهم بالأموال والأولاد، فينشأ هذا التجمّل الزائف، حيث يُفضَّل الظاهر من متاع الدنيا على حقيقة الإيمان:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}

وتدعوهم إلى الإنفاق، لا بوصفه عملًا خارجيًا فحسب، بل بوصفه علاجًا لهذا المرض الخفي، إذ يُطهّر القلب من التعلّق، ويُعيد إليه صدقه. ثم تُصوّر الندم الذي يجيء متأخرًا، حين يتمنى الإنسان فرصةً ليُصلح ما أفسد:

{وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ}

وتختم السورة بحقيقةٍ صارمة، لا مجاملة فيها: أنّ الأجل إذا جاء، لم يُؤخَّر، وأنّ الفرصة إذا ضاعت، لم تُسترد:

{وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}

وهنا ينكشف تمامًا بطلان ذلك التجمّل كله؛ إذ لا ينفع مظهرٌ بلا جوهر، ولا قولٌ بلا إيمان.

وهكذا تمضي السورة، في هدوءٍ وتحليل، تكشف طبقات من الزيف، وتُبيّن أن أخطر ما في النفاق ليس الكذب وحده، بل هذا الحرص على أن يبدو الكذب في صورة الحق.

سـورة التغابن

حسابات خاطئة

ليس من اليسير على الإنسان أن يعترف بخطئه، ولا أن يقر بأن حياته قد بُنيت على وهم، وأنّ ما حسبه نفعًا لم يكن إلا ضرًّا، وما ظنه ذكاءً لم يكن سوى حماقة متوارية في لباس الحذر والاحتياط. فهذا هو الموقف الذي تضعنا فيه سورة التغابن، وتُلزمنا بأن نراجع أنفسنا، لا في القشور، بل في جذور التصورات والموازين.

إنّ لفظ "التغابن" وهو الخسران الكبير في التجارة، لا يأتي هنا بمعناه العابر، ولا يصور خصومة تجارية بين بائع ومشترٍ، بل هو تصوير دقيق لغبن الوجود نفسه، حين يكتشف الإنسان، متأخرًا، أنّه خُدع، لا من غيره، بل من نفسه، ومن ظنونه وأوهامه وموازينه المختلّة التي كان يزن بها الخير والشر، والربح والخسارة.

تفتتح السورة بما لا يدع مجالًا للشك: أن الله خلق السماوات والأرض بالحق، وأنه صوّر الإنسان في أحسن تقويم، وأنه عليم بما في الصدور. ومع ذلك، فإنّ من الناس من يكفر، لا لضعف الدليل، بل لعمى البصيرة. وهذه أولى الحسابات الخاطئة: أن يظنّ الإنسان أن الحياة خلقت عبثًا، وأنّها تسير من غير قصد، وأنه لا بعث ولا نشور. وهذا، لَعَمري، غبنٌ لا يُدانيه غبن، وخسارة لا توازيها خسارة.

ثم تمضي السورة إلى بيان ما هو أعجب: أن الإنسان لا يخطئ في العقيدة وحسب، بل يخطئ أيضًا في العلاقات والمقاييس اليومية. يظنّ أنّ أولاده وأزواجه وأمواله نفعٌ خالص، فإذا به يُفاجأ، عند المحكّ، أنّ بعضهم عدوٌّ له، إذ قد صرفوه عن سبيل الله، وجعلوه يبيع دنياه بآخرته.

وهنا تتجلى فلسفة دقيقة في هذه السورة، فلسفة كان القرآن أسبق من كل فلسفات البشر إلى كشفها: أن الإنسان كثيرًا ما يُخطئ لا في التفاصيل، بل في الأصول، وأن الغبن لا يكون في الأموال وحدها، بل يكون في العقائد، وفي المبادئ، وفي من يظنّهم الإنسان أهله وأنصاره.

ثم تبلغ السورة ذروتها حين تتحدث عن الشحّ، هذا المرض القلبيّ الذي يظنه الإنسان حرصًا وعقلًا، فإذا به سبب هلاكه، لا من جهة المال فقط، بل من جهة النفس والروح. الشحّ لا يُفسد الاقتصاد فحسب، بل يُفسد الأخلاق والدين، ويدفع الإنسان إلى أن يُؤْثِر الدنيا على الآخرة، والفاني على الباقي.

فما الذي بقي؟

بقي أن الإنسان حين يُبعث، ويُعرض على ربه، يدرك فجأة أنّ كل ما اعتقده، وخطّط له، وسعى فيه، إنما كان بناءً على معادلات خاطئة، وأرقام مضلّلة، وموازين منقوصة. حينها، يقع التغابن: يرى المؤمنون أنهم ربحوا، ويعلم الكافرون أنهم خسروا.

وهكذا تكون سورة التغابن مرآة صادقة تُري الإنسان صورته كما هي، بلا تزويق ولا تزييف، وتدعوه دعوة العقلاء: أن يُصحّح حساباته قبل فوات الأوان، أن يراجع ميزانه قبل أن يُوزن، أن يُبصر مواضع الغبن والخداع في قلبه، قبل أن يفتح عينيه على الحقيقة التي لا رجوع عنها.

يبدأ تبارك وتعالى السورة بتسبيح الكائنات له، كل ما في السماوات والأرض، مما يُرى وما لا يُرى، يُعلن خضوعه، بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال:

{يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

فكيف غابت هذه الحقيقة عن الإنسان؟ أليس من الحسابات الخاطئة أن يظن نفسه حرا طليقا، في كون كله خاضع؟ أن يظن أن الملك له، بينما كل شيء يسبح باسم غيره؟

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}

وهنا نُواجه أول مفرق طرق في حياة الإنسان، وأول غفلة في حسابه: الخلط بين الوجود والحق. فبعض الناس يظن أن وجوده يكفي دليلا على صدق اختياره، فإذا كفر، حسب أنه على حق، طالما أنه يتنفس ويعيش. ولكن الله يقول: هو خلق الجميع، مؤمنهم وكافرهم، وهو بصير، لا بغفلة الناس، بل ببواطن أعمالهم.

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}.

أيحسب أحد بعد هذا أن الحياة عبث؟ أن جمال الخلقة، وانتظام الكون، وانتهاء المصير، جاءت صدفة؟ هذه ثلاثيات الوجود: خلق محكم، صورة حسنة، عودة محتومة. فكم أخطأ من ظن أن لا عودة، ولا مساءلة، ولا حساب.

{يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

إن من أفسد الحساب أن يظن الإنسان أن ما يُضمره لن يُعلَم، وأن ما يُخفيه في طيّ نفسه لن يُوزَن. ولكن الله يقول له: حتى ذات الصدور، وما تُخفيه، يعلمه. فكيف يُقيم الإنسان حسابه على خداع الناس، ولا يُقيمه على علم الله؟

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

أليست من الحسابات العمياء أن يُعيد الإنسان سيرة الماضين، ثم يتوقع مصيرا مختلفا؟ لقد ذاق السابقون وبال أمرهم، فما بال الخلف يُكذب، وكأن ما جرى لم يقع، أو أن القَدَر لن يُعيد سيرته؟

{ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}.

هنا تظهر عُقدة الحساب الخاطئ، بل هي أمّ العقد: أن يظن الإنسان أن الهدى لا يصدر إلا من مخلوق فوق البشر، وأن الحقيقة إن لم تأتِ بلباس القوة والسلطان فلا قيمة لها. فأنكروا النبوة لأنها من بشر، وقالوا: أبشر يهدوننا؟ كأنّهم لا يريدون الحق، بل يريدون أن يُملى عليهم من فوق.

{زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}.

هذه هي الخسارة الكبرى: أن يُبني الإنسان عمره كله على ظنٍّ أنه لا بعث، ولا حساب، ولا نشر. وهي من أوضح الحسابات الخاطئة، لأن كل ما في الكون يشير إلى نهاية، فما بالهم يستبعدون النهاية من أنفسهم؟

{فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}.

دعوة إلى تصحيح المسار، إلى إعادة الحسابات، إلى النظر من جديد في النور، في القرآن، الذي لا يُضيء الطرق وحدها، بل يُضيء القلوب أيضًا. والله خبير، لا يغيب عنه شيء سواء أصدقت النية أم فسدت.

{يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

وهنا اسم السورة: التغابن. يوم تظهر فيه حقيقة الصفقات: من ربح، ومن خسر، من أحسن التقدير، ومن أساءه. يوم يتغابن الناس، كأنهم في سوق، ولكن لا بضاعة هنا إلا الأعمال. وهنا يظهر أعمق الفرق بين من آمن وعمل صالحا، وبين من ظن وظنّه خذله.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}.

هذه هي النتيجة الحتمية لتلك الحسابات العرجاء: الكفر، والتكذيب، والخلود في النار. لا لجهل، ولكن لرفض صريح.

{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

من الخطأ أيضًا أن يُفسّر الإنسان المصائب على أنها عبث، أو على أنها انفلات من تدبير الله. بل المصيبة تُختبر بها القلوب، فمن آمن، هُدي قلبه، ومن ضلّ، فحسابه على وهمه.

{وَأَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ}.

الطاعة هنا ليست انقيادًا أعمى، بل هي تصحيح للحسابات، هي إدراك أن البلاغ واضح، لا غموض فيه، وأن من تولى، فإنما تولى عن حقٍّ مبين.

{اللهُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللهِّ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.

التوكل هو توحيد الحساب، فلا يُحسب للمخلوق، ما لا يكون إلا للخالق، ولا يُرجى من الضعيف ما لا يملكه إلا القوي.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

وهنا ينكشف وجه آخر من الحساب الخاطئ: أن الإنسان قد يظن أن قربه من أهله يحميه، فإذا به يُفتن بهم. وبعضهم، لا لعداوة ذاتية، بل لأنهم يجرّونه إلى ما يفسده. ومع ذلك، يبقى باب الصفح مفتوحًا.

{إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُّ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}.

المال والولد، وهما أحب ما يُحسب له الإنسان حسابًا، يُصبحان فتنة. فكم من رجل خسر دينه من أجل رزق، أو خسر آخرته من أجل ولد. وهنا يُراجع الإنسان موازينه من جديد.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

هنا الذروة: أن الشحّ أصل كل فساد في التقدير. الشحّ هو ما يُري الإنسان أن الإمساك خير، وأن العطاء هلاك. ولكن من يوقَ شح نفسه، فقد أُعطي المقياس الصحيح، وعرف كيف يُجري حساباته على نور من ربه.

{إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ}

انظر إلى المعادلة العجيبة: تقرضون من لا يحتاج، فيُضاعف لكم، ويغفر لكم، ويشكركم. أليس هذا هو الميزان الذي لا يُخطئ؟ أين من يُقرض الغني، وهو يظنه مُحتاجا؟

{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

وهكذا تختم السورة بإعلان السيادة المطلقة للذي لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية، وهو وحده من يضع الموازين القسط. فمن أراد ألا يُغبن، فليزن بميزان الله، لا بميزانه هو.

سـورة الطلاق

زوجان متباغضان

إذا وصلنا إلى سورة الطلاق، لم نجد فيها ذلك الصفاء الذي نألفه في حديث الأُسَر المطمئنة، ولا تلك السكينة التي تسكن إليها النفوس حين تتآلف القلوب، إنما نجد أنفسنا بإزاء علاقة قد اضطربت، وزوجين قد دبّ بينهما الشقاق، حتى لم يعد بدٌّ من الفراق.

تفتتح السورة مشهدها الأول بموسيقى هادئة حزينة: تلك اللحظة التي تنفصم فيها عُرى الزوجية. إنها تهمس للمرأة المطلقة ألا تبرح بيتها، وألا يُخرجها زوجها من مأواها، إلا إذا اجترحت فاحشة مكشوفة. ثم تمضي السورة لتقول: إن هذا الأجل، وإن بلغ نهايته، فلا بد من أن يكون الفراق جميلًا، إما إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان، وأن يُشهد على ذلك ذوا عدل، ليكون الطلاق واقعة إنسانية لا ظلم فيها ولا اعتداء. ثم تختم هذه الآية بكلمة عميقة كأنها ومضة نور: {قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}، وكأنما تقول: لكل علاقة عمرها المكتوب، فإذا استنفدت أيامها، جاء الفراق كأنه فجر يوم جديد.

ثم تمضي السورة، فتُبيّن حكمًا آخر، فيه شيءٌ من التخيير المقيّد بالحكمة: إمساكٌ بمعروف، أو تسريحٌ بمعروف. لا عنف، ولا فوضى، إنما هو اختيارٌ محكوم بالأدب والعدل، ثم تُضيف إلى ذلك الإشهاد، ليكون الأمر موثقًا، لا عبث فيه ولا نزاع.

وتتعمق السورة في رحاب النفس الإنسانية، فتحدثنا عن النساء اللواتي يئسن من المحيض، وعن اللواتي لم يحضن بعد. إنها لا تتركهن في حيرة القدر، بل تمنحهن انتظارًا محددًا، ثلاثة أشهر، أو حتى يضعن حملهن، وكأن الزمن نفسه يتوقف رحمة بهن. ثم تنتقل إلى تفاصيل الحياة اليومية بعد الطلاق: السكن، والنفقة، وإرضاع الطفل. إنها تعترف بأن القلوب قد تتعاسر، فتقول في بلاغة عالية: {وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى}، وكأنها تصف مشهدًا إنسانيًا خالصًا: إذا جفت الثدي الأمومي، فستجد الحياة ثديًا آخر يفيض حنانًا، فالطفل لا يجب أن يدفع ثمن شقاء أبويه.

ثم ترفع السورة نظرها من بيت المطلقين إلى أفق أوسع، فتضرب مثلًا بقرية خرجت عن طاعة ربها، كما خرجت الزوجة عن عصمة زوجها، فكان عذابها شديدًا. إنها مقارنة مرعبة، تذكر بأن التمرد على النظام، أي نظام، يؤدي إلى الخراب..

وأخيرًا، تختتم السورة بمشهد كوني مهيب: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}. سبع أرضين، وليست أرضًا واحدة! كأنما تهمس في أذن الزوج الحزين: لا تظن أن الحياة انتهت بانتهاء هذه العلاقة. إن الدنيا واسعة، والنساء كثيرات، والآفاق مفتوحة. فإذا تعاسرت مع امرأة، فهناك أخرى تنتظر في دنيا الله الواسعة، ترضع طفلك، وتعمر بيتك، وتكتب لك قدرًا جديدًا مختلفًا. إنها نهاية تفيض بالأمل، لا باليأس، وتفتح الأبواب، لا تغلقها.

هكذا تنتهي السورة، وقد عرضت هذا الفراق لا بوصفه كارثةً مطلقة، ولا بوصفه عبثًا، وإنما بوصفه مرحلةً من مراحل الحياة، تجري هي الأخرى وفق قدر محكم، وتُدار بأحكام دقيقة، وتُفضي- مهما اشتدّت مرارتها- إلى آفاق أوسع، لا تنغلق عند نهاية واحدة.

إننا إذا أقبلنا على سورة الطلاق، نقرؤها في هذا الضوء الذي يجعلها صورةً لعلاقة زوجية اضطربت حتى انتهت إلى الفراق، رأيناها تسير بنا خطوةً خطوة، لا في هدوء رقيق، بل في نظامٍ صارم، كأنّه يُمسك بهذه العلاقة المتفككة، فيحاول أن يُنهيها على قدر من العدل والاتزان.

تبدأ السورة بنداءٍ مباشر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، فلا حديث هنا عن حبٍّ ولا عن وئام، إنما عن الطلاق في لحظته الأولى. ثم تُقيّد هذه اللحظة، فتجعل لها حسابًا: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، وتُحاط هذه العِدّة بالإحصاء والانضباط. ثم تأمر بما قد يبدو غريبًا في سياق الفراق: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، فكأنّ السورة تُبطئ من اندفاع القطيعة، وتُبقي على بقايا الصلة، إلا إذا انقطعت انقطاعًا تامًّا بوقوع الفاحشة.

ثم يختتم الله هذه الآية بعبارة فيها من الرحمة والأمل ما يليق بقلوب البشر: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. كم من طلاق كان نهاية ظاهرًا، ولكنه كان بداية لصلح خفي لا تراه العيون؟ إنها دعوة إلى التريث، إلى ترك باب خلفي للرجعة، لأن القلوب متقلبة، والأقدار متغيرة.

ثم تمضي إلى الآية الثانية، فإذا هذه العلاقة تقف عند مفترقٍ واضح: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، إمّا إمساكٌ بمعروف، وإمّا فراقٌ بمعروف. لا مكان هنا للخصومة الفجة، بل نظامٌ يُلزم الطرفين بالمعروف حتى في أشدّ لحظات الانفصال. ثم تُضيف الإشهاد: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ﴾، كأنّها تريد أن تُخرج هذا الفراق من دائرة الهوى إلى دائرة الحقّ. ثم تُذكّر بالتقوى، وتَعِد من يتّقي بأن يجد مخرجًا، وكأنّ الأزمة مهما اشتدّت ليست طريقًا مسدودًا.

وفي الآية الثالثة يتعمّق هذا المعنى، فيُبشَّر المتّقي برزقٍ من حيث لا يحتسب، ويُقال له في نبرةٍ فيها سكونٌ عميق: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾. وهذه الآية هي روح السورة، بل هي خلاصة فلسفة الوجود عند المسلم. فلكل علاقة عمرًا، ولكل حب وقتًا، ولكل زواج نهاية أو استمرارًا. فالطلاق ليس فوضى، بل هو قدر محكوم بمواعيد خفية.

والزوجان اللذان تباغضا، ووصلا إلى هذه اللحظة، إنما وصلا إلى نهاية قدرهما المكتوب. وكما كان لاجتماعهما قدر، فللانفصال قدر أيضًا. ولكن المؤمن المتفائل لا يحزن، لأن الآية تقول: {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}. فقد يكون الرزق الذي ينتظره بعد الطلاق هو زوجة أخرى صالحة، أو نفسية مطمئنة، أو فرصة لم تكن في الحسبان.

ثم تأتي الآية الرابعة، فتُفصّل في الأزمنة تفصيلًا دقيقًا: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ﴾، واللائي لم يحضن، والحوامل. لكلٍّ أجلٌ معلوم. وكأنّ الزمن هنا ليس مجرد إطار، بل هو عنصرٌ حاسم في هذه القصة؛ فكلّ شيءٍ ينتظر وقته حتى ينتهي.

ثم تُجدّد السورة وعدها: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، ثم تُعيد تقرير القدر: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾، فكأنّ هذا التنظيم كلّه ليس إلا هدايةً تُنير طريقًا مظلمًا.

ثم تنتقل إلى تفاصيل الحياة بعد الفراق في الآية السادسة: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾، فلا إذلال ولا إهمال، ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ﴾، فلا انتقام ولا تعسّف. ثم تتحدّث عن الحمل والرضاع، فإذا تعاسر الزوجان، لم تتوقّف الحياة: ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾. وكأنّ السورة تُلمح في هدوءٍ إلى أنّ البدائل ممكنة، وأنّ الإنسان لا يقف عند علاقة واحدة.

ثم تُبيّن في الآية السابعة أمر النفقة: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِن سَعَتِهِ﴾، فيكون العدل حتى في أدقّ التفاصيل، ثم تُطمئن النفس: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾، وكأنّها تُخفّف من وطأة هذا الفراق، وتُعيد التوازن إلى النفوس.

ثم، فجأة، تخرج السورة من هذا الإطار الخاص إلى مثال عام في الآية الثامنة: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا}، وكأنّها تقول: إنّ الخروج عن النظام في الأسرة أو في المجتمع له عاقبة. ثم تُتبع ذلك في الآية التاسعة بتذكير بسوء العاقبة، ثم في الآية العاشرة بوعيد صريح.

وأخيرًا، تختم السورة في الآية الثانية عشرة بامتدادٍ كوني: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾. وهنا يخرج القارئ من ضيق العلاقة الفردية إلى سعة الكون. وكأنّ السورة تُشير في عمق خفيّ إلى أنّ الحياة أوسع من هذا الفراق، وأنّ الإنسان، مهما ضاقت به تجربة، فإنّ أمامه آفاقًا أخرى، كما أنّ في الأرض سعةً وتعدّدًا.

وهكذا تنتهي السورة، وقد صوّرت هذا الفراق لا بوصفه انهيارًا، بل بوصفه نظامًا محكومًا بقدر، وعلاقةً انتهت حين بلغَت أجلها، لتترك مكانها لما هو أوسع وأبقى.

سـورة التحريم

زوجان متحابان

سورة التحريم ليست، في جوهرها، إلا صورةٌ إنسانيةٌ خالدة، ترسم لنا مشهدًا زوجيًا عذبًا، لكنه شائك. فنحن أمام زوجٍ يحب، لا كغيره من الأزواج، بل حبًّا يرقّ حتى يحمله على أن يضيّق على نفسه ما وسّع الله له، إرضاءً لزوجاته، وميلًا إلى ما تميل إليه القلوب حين تأسرها المودة. وقد اختلف الناس في هذا الذي حرّمه على نفسه: أكان عسلاً يتلذذ به؟ أم كانت جاريته مارية؟ لكن الأمر، أيًّا كان، لا يقف عند هذا الحدّ الضيق، بل يتجاوزه إلى معنى أعمق وأبعد.

غير أن السورة لا تلبث أن تُذكّرنا، بلطف وعنف معًا، بأن هذا النبي ليس كسائر الرجال. فليست حياته كحياة أي زوج يغضب ثم يرضى، ثم تمر الأيام فيُنسى الأمر. كلا، إنه رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يستجيب لرغباته الشخصية ولا لنزواته، بل يخضع للوحي الذي ينزل عليه من ربه. ومن هنا جاء الخطاب حاسمًا، ليهزّ قلوب زوجاته هزًّا، وليردّهن إلى الجادة ردًّا؛ فإن لم يكن منهن توبة، فإن الله حسبه، ومعه جبريل، وصالح المؤمنين، والملائكة بعد ذلك ظهير.

ثم تمضي السورة فتتجاوز هذا المشهد الخاص إلى قانون عام، لتوجّه خطابها إلى كل الأزواج، فتحذّرهم من أن ينزلقوا وراء أهواء زوجاتهم المحبوبات، مهما يكن الحبّ عميقًا. لأن الخضوع للهوى يؤدي إلى الهلاك والشقاء، بل إلى نار وقودها الناس والحجارة، حيث لا ينفع يومئذ اعتذار ولا تبرير. وفي قلب السورة، تدعوهم إلى "التوبة النصوح"، تلك التوبة التي تغيّر النفس وتطهّرها من أدران الهوى.

ثم تختم السورة تصويرها بأمثلة تهزّ النفس هزًّا عنيفًا: نساءٌ كنّ في بيوت أنبياء، فلم يُغنِ عنهن ذلك شيئًا حين انحرفن، كامرأتي نوح ولوط؛ خانتا، فلم تنفعهما صلة، ولم يدفع عنهما العذاب نسب. وفي المقابل امرأةٌ عاشت في قصر الطغيان، تحت سلطان فرعون، لكنها سمت بروحها، فبرئت من ظلمه، وآمنت بربها، فاستحقت الخلود في

الذكر الحسن. ثم ترتفع السورة إلى ذروتها في مريم، تلك الفتاة العفيفة، التي لم تتزوج، ولكنها بلغت من الطهر والتصديق مبلغًا جعلها مثالًا يُحتذى.

هكذا تنتهي السورة وقد عرضت نماذج شتى: زوجاتٍ خالفن أزواجهن، وأزواجًا خالفوا زوجاتهم، وامرأةً قاومت زوجها، وفتاةً سارت وحدها في طريق الطهر. كأنما تريد أن تقرر حقيقة لا تقبل الجدل: أن الإنسان، رجلًا كان أو امرأة، إنما يُقاس بعمله، ويُجزى بسعيه، لا يغني عنه نسب، ولا تنفعه صلة، وإنما يرفعه إيمانه، أو يرديه انحرافه.

***

إننا نُفاجأ من أول الأمر بنداء فيه عتاب رقيق، لكنه حازم. كأن الحب قد بلغ من قلب النبي، مبلغًا حمله على أن يُضيّق على نفسه ما لم يُضيّقه الله عليه:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}

وهنا نرى تلك الصورة الإنسانية الجميلة: النبي ﷺ يحب زوجاته، ويحرص على رضاهن، حتى إنه يضحي بلذة حلال من أجل إسعادهن. ولقد اختلف المفسرون قديمًا في تحديد هذا الشيء المحرم؛ فقال بعضهم: هو العسل الذي حرّمه على نفسه، وقال آخرون: هو وطء جاريته مارية القبطية. لكن الذي يهمنا هنا ليس التفصيل في العسل أو الجارية، إنما الذي يهمنا هو ذلك القلب النبوي الكبير، الذي يرضى أن يحرم على نفسه بعض المباحات، كي لا يجرح شعور من يحب. وفي نهاية الآية، يذكره ربه برحمته ومغفرته، وكأنه يقول له: لا تقسُ على نفسك، فنحن نعلم أنك تفعل هذا من باب الحب لا من باب المعصية.

{قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}

وكأن النفس البشرية قد تحتاج إلى مخرج مما تُقيّد به نفسها، فجاءت الرخصة الإلهية، لا لتُشجّع على التقييد، بل لتُصحّح الخطأ إذا وقع. فالله هو المولى، لا العاطفة، وهو الأعلم بما يصلح القلوب.

{وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ..}

وهنا ننتقل إلى مشهد درامي رائع، وكأننا في مسرحية إنسانية بليغة. النبي ﷺ يسرّ حديثًا إلى إحدى زوجاته، ربما ليستأمنها على شيء، أو ليشرح لها موقفه. ثم تنبأ بهذا الحديث لزوجة أخرى. فاطّلع اللهُ نبيه على ذلك، فعاتبها بلطف وأعرض عن بعض التفاصيل حياءً أو حكمة. فلما أخبرها أنها أفشت السر، قالت مندهشة: "من أخبرك بهذا؟" فقال النبي بتواضع وجلال: "أخبرني الله العليم الخبير".

إنه مشهد زوجي بامتياز. زوج يثق بزوجته، فتفشي سره، ثم تتفاجأ الزوجة بأنه يعلم، فيذكرها بأن الله يعلم كل شيء. تلك هي طبيعة الحياة الزوجية: أسرار، ثم إفشاء، ثم عتاب، ثم اعتراف بالخطأ، ثم عودة إلى الله. ولكن النبي هنا ليس كأي زوج؛ فهو يتلقى علمه من السماء، ويتعامل مع زوجاته برفق وعلم وحكمة.

{إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ}

ثم يأتي الخطاب المباشر للزوجتين اللتين تظاهرتا على النبي ﷺ. تقول السورة: إن تتوبا إلى الله، فذلك لأن قلوبكما قد مالت وانحرفت عن الصواب، أو قلوبكما قد مالت عن الباطل واتجهت إلى الحق. وإن تعاونا وتواطأتم على إيذائه، فاعلموا أن الله ناصره، وجبريل ناصره، وصالح المؤمنين معه، والملائكة كلهم أعوان له. إنه تحذير شديد، لكنه تحذير رحيم في الوقت نفسه، لأنه يدعوهما إلى التوبة قبل فوات الأوان. وكأن الآية تقول: لقد أحببتما نبيّ الله، وهو يحبكما، لكن لا تتجاوزا الحدود. فالحب شيء، والتعاون على إيذاء المحبوب شيء آخر. والمحبوب هنا ليس رجلاً عادياً، بل هو حبيب الله ورسوله..

{عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا}

وهنا تصل السورة إلى ذروتها في التحذير، ولكن بأسلوب فيه من الرفق بقدر ما فيه من القوة. تقول: {عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ}. فتلك الزوجات الجديدات سيكون مسلمات، مؤمنات، قانتات مطيعات، تائبات راجعات إلى الله، عابدات له، سائحات في طاعته، منهن الثيبات ومنهن الأبكار. إنها صورة مثالية للزوجة الصالحة، التي تشارك زوجها لا تخالفه، وتعينه لا تعانده، وتطيعه لا تتآمر عليه. وهذا لا يعني أن زوجات النبي كن سيئات، كلا، إنما هو أسلوب تربوي عنيف بعض الشيء، كأنه يقول: احذروا أن تفقدوا نعمة الزواج من هذا الرجل العظيم، فإن الله إن شاء أبدلكم بخير منكم، والله على كل شيء قدير..

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}

ثم يخرج الخطاب من الخاص إلى العام، من زوجات النبي إلى كل الأزواج والآباء والمربين. تقول الآية: يا أيها الذين آمنوا، احموا أنفسكم وأهليكم من نار وقودها الناس والحجارة، نار يعذب بها الكفار والظالمون، عليها ملائكة شداد أقوياء، لا يعصون الله أبدًا، وينفذون أوامره دون تردد. إنها دعوة صريحة إلى التربية، وإلى تحمل المسؤولية. فالأزواج ليسوا مجرد عشاق، بل هم مسؤولون أمام الله عن أنفسهم وعن أهليهم. لا يكفي أن يحب الرجل زوجته، بل يجب أن يقودها إلى الخير، وأن يحميها من النار، كما يحمي نفسه. والحب الحقيقي هو الذي يدفع إلى الهدى، لا الذي يغرق في الهوى..

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.

هنا يُسدل الستار على وهم التبرير. فلا فائدة من الاعتذار اليوم، فأنتم تجزون بما كنتم تعملون في الدنيا، لا بما تقولون يوم القيامة. وكأن السورة تريد أن تقول للأزواج العصاة: إذا خضعتم لأهواء زوجاتكم المحبوبات وتركتم دين الله، فستكونون يوم القيامة مثل هؤلاء الكفار، لن ينفعكم اعتذاركم، ولن تسمع حجتكم. فالحذر الحذر.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا..}.

وفي قلب السورة، بعد التحذير الشديد، يأتي هذا النداء الجميل: توبوا إلى الله توبة نصوحًا، توبة صادقة خالصة، توبة تغير القلب وتصلح العمل، لا توبة شكلية، بل رجوع صادق، يطهّر القلب، ويبدّل الحال. وكأن السورة، بعد شدتها، تفتح باب الرحمة على مصراعيه.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}

ثم يخرج الخطاب مرة أخرى إلى النبي، ولكن في اتجاه مختلف. بعد أن تحدث عن زوجاته وأسرته، يأمره الله أن يجاهد الكفار والمنافقين، وأن يغلظ عليهم، لأن مصيرهم جهنم وبئس المصير. وكأن الآية تريد أن تذكّر النبي -والأزواج من بعده- أن هناك أعداء حقيقيين للدين، وأن التحدي الأكبر ليس في الخلافات الزوجية التافهة، بل في مواجهة الكفر والنفاق المستشري من حولكم. لكنها أيضًا تذكّر بأن الحزم مع الأعداء شيء، واللين مع الأهل شيء آخر. فلا خلط بين المقامين..

{ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ}

ثم تأتي نهاية السورة، وكأنها تريد أن تضرب لنا الأمثال الحية من التاريخ. أول مثل: امرأة نوح وامرأة لوط. كانتا تحت رجلين صالحين، نوح ولوط، عليهما السلام. ولكن خانتاهما في الدين والعقيدة. فلم ينفعهما زواجهما من نبيين يوم القيامة، فالقرب الجسدي لا يغني عن البعد الروحي. وقيل لهما: ادخلا النار مع الداخلين. هذا هو المثل الأول: زوجة خالفت زوجها، وكان الزوج متمسكًا بها رغم خلافها العقائدي معه. ولكنه في النهاية لم يستطع أن ينفعها. إنه تحذير للزوجات أن لا يغترن بحب أزواجهن إذا كان الأزواج صالحين، فالحب لا ينفع بدون إيمان. وهو أيضًا تسلية للأزواج الصالحين الذين

تتعبهم زوجاتهم، فليسوا وحدهم في هذا البلاء، بل حتى الأنبياء عانوا من أذى زوجاتهم..

{وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}

ثم يأتي المثل المقابل، ليس للزوجات الخائنات، بل للزوجات المؤمنات اللاتي عشن في قلب الطغيان، لكنهن أفلتن بروحهن منه. إنها امرأة فرعون، التي كانت تحت أشد الناس كفرًا وظلمًا. ولكنها لم تنغمس في أعماله، بل تبرأت منه ومن أعماله، ودعت الله أن يبني لها بيتًا في الجنة، وينجيها من فرعون وقومه. فهذا مثل للأزواج المؤمنين الذين يعيشون مع زوجات كافرات، أو العكس. إنه يقول: لا تيأس، فالحب لا يمنع الهداية، والهداية لا تحتاج إلى موافقة الزوج. يمكن للإنسان أن يكون مؤمنًا قويًا، حتى لو كان من حوله كفار، وحتى لو كان الزوج من الظالمين.

{وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}

ثم ترتفع الصورة إلى الطهر الكامل: فتاة لم ترتبط بزوج، ولكنها بلغت من الصفاء ما جعلها مثالًا خالدًا. صدّقت، وطهرت نفسها، فاستحقت أن تُذكر مع أعظم النماذج. فليس الزواج شرطًا للسعادة، ولا العزوبة شرطًا للتعاسة. المهم هو الإيمان والعمل الصالح، والطاعة لله، وليس مجرد الانتماء إلى زوج أو أب أو قبيلة.

تلك هي سورة التحريم. إنها ليست سورة تشريع جاف، ولا سورة وعيد مخيف. إنها سورة إنسانية بامتياز، ترسم لنا صورة الزوجين المتحابين، اللذين قد يخطئ أحدهما في حقه، وقد يبالغ الآخر في حبه، ولكن يبقى الحب قائماً، وتبقى المسؤولية قائمة، ويبقى الله هو الحكم العدل، وهو الغفور الرحيم. إنها تدعو الزوجات إلى أن يكن عونًا لأزواجهن، وتدعو الأزواج إلى أن لا يخضعوا لأهواء زوجاتهم، وتدعو الجميع إلى التوبة النصوح، وإلى أن يتذكروا أن النار قريبة، والجنة قريبة، والله أقرب إليهم من حبل الوريد. إنها سورة الحب المسؤول، والزواج الواعي، والدين العميق.

سـورة الملك

القوانين الكونية

لعلّ أول ما يقع في نفس القارئ، حين يجيل نظره في آي هذه السورة الكريمة، أنها ما نزلت إلا لتلفت الإنسان إلى عظمة التدبير الإلهي المحكم. فالمحور الذي تدور عليه السورة، وتؤوب إليه آياتها في بيان عذب وجمل متناغمة، إنما هو «القوانين الكونية»؛ تلك السنن الثابتة التي تحكم الوجود وتسيّر الفلك بميزان دقيق لا يتبدل ولا يميل.

تبدأ السورة الكريمة بافتتاح جليل، يشير إلى أن الملك الحقيقي إنما هو لله وحده، فهو الذي بيده مقاليد الأمور، وهو الذي خلق أعظم ناموسين يمر بهما هذا الكائن البشري: الموت والحياة. ولم يكن هذا الخلق عبثاً، بل كان ابتلاءً وامتحاناً للناس، ليرى الخالق أيهم أحسن عملاً، وأيهم يدرك أسرار هذا الوجود.

ثم تنصرف الآيات إلى استعراض هذا الخلق المحكم؛ فترسم صورة للسماوات والأرض وقد خُلقت «طباقاً» متناسقة، وليست مجرد طبقات متراكمة فوق بعضها البعض. ولسنا نجد في عبارة القرآن إلا دعوة صريحة لهذا الإنسان كي يطلق بصره في هذا الكون البديع؛ ولكنه مهما أمعن النظر، ومهما حاول أن يدرك كنه هذا الناموس العظيم، فإن بصره لن يرتد إليه إلا خاسئاً وهو حسير، عاجزاً عن إدراك الغاية، مبهوراً بدقة الصنع.

وتستمر السورة في تجلية مظاهر هذا الكون، فتتحدث عن السماء الدنيا وقد زينت بمصابيح النور المشرق المتألق، وجُعلت في الوقت ذاته رجوماً للشياطين، أولئك الذين تمردوا على سنن الله، فأعد الله لهم عذاب السعير.

ثم نستمع في روع وفزع إلى وصف جهنم؛ إذ تُصور السورة هذا العذاب بأنه نار لها شهيق دافق وهي تفور فوراناً شديداً، وتكاد تتميز وتتقطع من شدة الغيظ على من تمرد على القوانين الإلهية. وهناك، في غيابات ذلك العذاب، لا يملك الكافرون إلا أن يعترفوا بذنوبهم، ولكن ولات حين مندم.

ثم تأخذ السورة في التدرج، فتلفت النفس إلى أن الله عليم بأسرار النفوس وما تخفيه الصدور، تماماً كما هو عليم بأسرار هذا الكون الفسيح ومكنوناته؛ فكيف يخفى عليه شيء وهو الذي أوجد الوجود؟ وتنطق الآية الكريمة بهذا المعنى في أسلوب يفيض حكمة وعذوبة: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}.

ولعلنا لا نجد برهاناً ألطف ولا أظهر على هذه القوانين المحكمة مما ضربته السورة من مثل الطير؛ وهي تسبح في جو السماء، تبسط أجنحتها وتقبضها. فما كان لها أن تطير في هذا الهواء، متوازنة هادئة، لا تسقط على الأرض، بل تطير بحرية حيث شاءت، لأن الله قد خلق لها قوانين دقيقة تحفظ حركتها وتدبر أمرها.

ثم تشير الآيات إلى نعم الله العظمى على هذا الإنسان، إذ وهبه أدوات المعرفة والنظر: السمع والبصر والأفئدة، وجعل له هذه الحواس ليتدبر بها سنن الكون، وليشكر ربه على تلك المنن، ولكن الإنسان، قليلاً ما يشكر، ويغفل عن حقيقة أن مرجع الناس جميعاً إلى الله.

وتُختم السورة الكريمة بهذا المثل المائي المؤثر، لتبين عجز الإنسان المطلق أمام السنن الإلهية؛ فالله هو الذي جعل في الأرض هذا الماء العذب المعين الذي به حياة كل شيء. ولو أن الله أذهب هذا الماء في غيابات الأرض وغار في أعماقها، فهل يملك إنسان على وجه البسيطة – مهما بلغ علمه أو عظم سلطانه – أن يسترد هذا الماء أو يأتي به؟

حقاً، إن السورة من مطلعها إلى ختامها إنما هي دعوة للاستسلام لقوانين الخالق، والاعتراف بعجز المخلوق.

سـورة القلم

المكر الخفي

إنك لتقرأ سورة القلم، فلا تكاد تمضي في آياتها قليلًا حتى تشعر أنك بإزاء قضية خفية، ولكنها عميقة القرار، تدور حولها السورة دوران الكواكب حول الشمس؛ تلك هي قضية المكر، وما يتصل بها من استدراج الله لعباده، وما يقابله من مكر الناس بعضهم لبعض.

فأما مكر الناس، فليس صريحًا ظاهرًا، وإنما هو خفيٌّ متستر، يندس في القلوب كما يندس السم في العروق. انظر إلى قوله تعالى: {هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ}، تجد إنسانًا لا يواجه خصمه، ولا يجهر بعداوته، ولكنه يسعى بين الناس بالوشاية، يفسد ذات بينهم، ويهدم ما بين القلوب من مودة، لا لشيء إلا لحسد يأكله، أو حقد يستبد به.

ثم انظر إلى أصحاب الجنة، وقد تواطؤوا في جنح الليل، وأجمعوا أمرهم على أن يجنوا ثمارهم في خفية من الفقراء والمساكين: {إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ}. كانوا يظنون أنهم إن أخفوا أمرهم عن الناس فقد نجوا، ونسوا أن أمرهم لا يخفى على الله، وأن ما يبيّتون في الظلام مكشوف في علم السماء.

وهنا ينتقل بك السياق انتقالًا هادئًا ولكنه حاسم، من مكر البشر إلى مكر الله؛ فإذا هو ليس كمكرهم، ولا هو من جنس حيلهم الضعيفة، إنما هو عدل متين، وتدبير لا يفلت منه أحد. تصبح الجنة التي دبروا أمرها: {كَالصَّرِيمِ}، كأن لم تكن بالأمس عامرةً مثمرة. كأنما أراد الله أن يقول لهم: إن مكرَكم وإن خفي عن الناس، فلن يعجزني، بل سأحيط به، وأردّه عليكم في حين لا تشعرون.

ثم يبلغ هذا المعنى غايته في قوله تعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}. وهذا الاستدراج لونٌ من ألوان المكر الإلهي، لكنه مكر لا ظلم فيه، بل هو إمهالٌ يفضي إلى استحقاق، ونِعمٌ تؤول إلى نقم، حتى إذا أخذ الله الظالم أخذه بغتةً، وهو يظن أنه ناجٍ، وما هو بناجٍ.

ثم تقف السورة بالقارئ موقف الحكم العادل، فتسأله سؤالًا لا ينتظر جوابًا: {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ}؟ وكأنها تنكر على العقل أن يقبل التسوية بين الفريقين؛ فليس من العدل، ولا من الحكمة، أن يستوي من آمن واتقى، ومن بغى وتكبر. لكلٍ جزاؤه، ولكل عاقبته التي تليق به.

وإذا كان هذا شأن المكر، وتلك عاقبته، فإن السورة لا تترك المؤمن حائرًا، بل تهديه إلى خُلُق هو عدته في هذه الحياة: الصبر. {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ}، فلا تعجل، ولا تضق ذرعًا بما ترى من انتفاش الباطل؛ فإن له أجلًا لا يتجاوزه. ثم تحذره أن يكون كصاحب الحوت، إذ ضاق صدره فاستعجل، فنادى وهو مكظوم.

هكذا تنتهي السورة، وقد أقامت في نفس قارئها ميزانًا دقيقًا: مكرٌ بشري ضعيف، ومكرٌ إلهي متين، وبينهما نفسٌ مؤمنة مطالبة بالصبر، واثقةً أن العاقبة لا تكون إلا للمتقين.

وثمة سؤال عن علاقة قصة الجنتين بقريش؟

إننا إذا تجاوزنا ظاهر القصة، وأمعنّا النظر، وجدنا لها صلةً وثيقةً بما كان من أمر كفار قريش. فإن الكعبة، التي رفع قواعدها إبراهيم عليه السلام، لم تُبنَ لقوم دون قوم، ولا جُعلت لقبيلة دون أخرى، إنما جُعلت للناس جميعًا، يُؤذَّن فيهم بالحج، فيأتون من كل فجٍّ عميق.

لكن قريشًا ضيَّقتْ ما وسّعه الله، وأرادت أن تجعل من هذا البيت الذي أُقيم للعالمين ملكًا خاصًا لها، تتحكم فيه، وتمنع عنه من تشاء، كما أراد أصحاب الجنة أن يمنعوا الفقراء نصيبهم.

وهنا يلتقي المشهدان: بستانٌ أُريد له أن يكون رحمة، فصار موضع بخل ومنع؛ وبيتٌ أُريد له أن يكون مثابةً للناس، فصار موضع احتكار واستعلاء.

ولم تكن العاقبة في الحالين إلا واحدة: زوال النعمة عمّن لم يعرف قدرها. فسُلب أولئك جنتهم، وسُلب هؤلاء شرف القيام على بيت الله، إذ انقطعت حجتهم، وانتهى أمرهم إلى ما انتهى إليه من خذلانٍ في الدنيا، وخسارة في الآخرة.

فالأبُ الصالح – الذي يرمز إلى إبراهيم عليه السلام – كان له ذلك البستان، ولم يكن يرى فيه ملكًا خالصًا له، إنما كان يراه أمانةً يؤدي بها حقّ الله، ويجعل للفقراء فيها نصيبًا معلومًا. فلم يكن الغرس غرسه وحده، ولا الثمر ثمره وحده، بل كان فيه للناس حقّ، وكان فيه للضعفاء مكان.

فلما ذهب الأب، وجاء الأبناء، تغيّر النظر، وضاق الأفق، وأرادوا أن يختصّوا بما لم يُخلق ليُختصّ به، وأن يمنعوا ما لم يُجعل ليُمنع. وهنا كان التحول: من الأمانة إلى الاستئثار، ومن السَّعة إلى الضيق، ومن الرحمة إلى القسوة.

فلم يكن عجبًا أن يُسلبوا ما ظنّوا أنه لهم، لأنهم في الحقيقة لم يكونوا أهلاً له، ولا قائمين بحقه.

هكذا تتجاوز القصة حدود الزمان والمكان، لتقول للناس جميعًا: إن ما جعله الله مشاعًا للخلق، فلا ينبغي أن يُستأثر به؛ وإن النعمة إن لم تُؤدَّ حقّها، كانت سببًا في زوالها، لا في دوامها.

سـورة الحاقة

الطغيان

إذا نحن وصلنا إلى سورة الحاقة، وجدنا أنفسنا بإزاء جوٍّ عام يشيع فيه معنى الطغيان، لا طغيانًا واحدًا محدودًا، بل طغيانًا يتعدّد في صوره، ويتضخّم في آثاره، حتى يبلغ غايته، ثم لا يلبث أن يلقى ما يحقّ الحقّ ويقضي عليه قضاءً لا رجعة فيه. فكأنّ اسم السورة نفسه "الحاقة" إعلانٌ بأنّ ساعة ستأتي، لا لتقع فحسب، بل لتُقيم العدل بعد أن استشرى الطغيان وتمادى.

تبدأ السورة بهذا الاسم المهيب التي تُلقيه في النفس إلقاءً، وتُردّده في شيءٍ من الإلحاح، كأنّها تُريد أن تُثبّت هذا المعنى، وأن تُشعر السامع بأنّه أمام أمر عظيم لا يُدرَك كنهه بسهولة. ثم تمضي إلى التاريخ، لا لتقصّه في هدوء، بل لتعرضه عرضًا سريعًا حاسمًا؛ فتذكر ثمود، وقد أهلكهم طغيانهم، وتذكر عادًا، وقد أخذتهم ريحٌ طاغية، عاتية، لم يعرفوا لها مثيلًا، استمرّت عليهم ليالٍ وأيامًا، لم تترك لهم مهلة، ولم تُبقِ لهم قوّة، حتى صاروا كأنهم بقايا نخل يابسة خاوية.

ثم لا تقف عند هؤلاء، بل تنتقل إلى فرعون وقومه، حين تجاوزوا حدودهم، فطغى عليهم الماء، وغمرهم حتى أغرقهم، وتذكر المؤتفكة (قوم لوط)، وقد أُخذت أخذةً شديدة، وتلمح إلى قوم نوح، حين طغا الماء، فكان الهلاك لمن كذّب، والنجاة لمن رُحِم وحُمل في السفينة. وكأنّ السورة تُقدّم هذه النماذج المتتابعة لتُقرّر قانونًا واحدًا: كلّ طغيان لا بدّ أن يعقبه سقوط.

ثم تنتقل من طغيان التاريخ إلى طغيان الكون نفسه يوم القيامة؛ فتُصوّر النفخة، وقد علا صوتها واشتدّ، ثم تُرى الأرض والجبال وقد حُملت وارتفعت، ثم دُكّت دكةً واحدة، لا تدرّج فيها ولا تمهيد. ثم تنشقّ السماء انشقاقًا عظيمًا، حتى تبدو واهية ضعيفة، بعد أن كانت محكمة البناء. وكأنّ الطغيان هنا قد بلغ كلّ شيء، حتى نظام الكون نفسه.

ثم تمضي السورة، فيُذكر العرش في عظمته، فيطغي في وزنه وثقله حتى يُحمله يومئذٍ ثمانية، في مشهدٍ يوحي بالثقل والجلال، ويُشعر النفس بأنّها بإزاء أمر يفوق كل ما عرفت من مقاييس.

ثم تعود السورة إلى الإنسان، ولكنها لا تعرضه عرضًا معتدلًا، بل تُظهر فيه نوعًا آخر من الطغيان: طغيان الفرح. فصاحب اليمين، حين يُؤتى كتابه، لا يملك نفسه من الفرح، فيندفع اندفاعًا، ويدعو الناس جميعًا: {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}، كأنّ الفرح قد فاض عليه حتى تجاوز حدّه.

وفي المقابل، تُصوّر صاحب الشمال، وقد طغى عليه الحزن حتى يكاد يفنيه، فيتمنّى الفناء: {يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ}.

ثم تُشدّد السورة في وصف العذاب، فتذكر السلسلة التي يُسلك فيها هذا الإنسان، وقد امتدّت امتدادًا هائلًا، كأنّها لا تنتهي، ويُذكر فيها العدد سبعون الذي يُراد به المبالغة، ليُشعر بكثرة العذاب وعِظَمه. ثم يُذكر طعامه، فإذا هو من غسلين، هو ما يغسل من الأبدان، صديدهم وقيحهم. كأنه فتات قذر يسيل من الأيدي بعد غسلها. إنه طعام لا يتخيله عقل، قذر لا يوصف. في صورةٍ تُثير في النفس أقصى ما يمكن من القذارة والنفور، وكأنّ الطغيان في الكفر قد قوبل بطغيانٍ في العقاب.

ثم تخفّ حدّة هذا العرض قليلًا، لتنتقل السورة إلى الحديث عن القرآن نفسه، فتُقرّر أنّه قول رسولٍ كريم، لا يقول من عند نفسه، ولا يُنشئ كما يُنشئ الشعراء، ولا يُهوّل كما يُهوّل الكهّان. وكأنّها تُميّز هذا القول عن كلّ قولٍ بشريّ قد يعتريه الإفراط أو المبالغة.
ثم تختم السورة بهذا التحذير الصارم: أنّ هذا الرسول نفسه، لو تجرّأ فأضاف إلى هذا القول ما ليس منه، لأُخذ أخذًا شديدًا عاجلًا، ولانقطع عنه سرّ الحياة في لحظة. وهنا يبلغ الحزم غايته، ويُؤكَّد أنّ هذا الوحي حقٌّ خالص، لا يُزاد فيه ولا يُنقص.

وهكذا نرى سورة الحاقة كلها تدور حول الطغيان. طغيان ثمود وعاد وفرعون وقوم لوط. طغيان الريح والماء. طغيان النفخة ودك الأرض. طغيان الفرح عند المؤمن حتى ينادي الناس. وطغيان الحزن عند الكافر حتى يتمنى القاضية. طغيان السلسلة التي ذراعها سبعون ذراعًا. وطغيان طعام الغسلين القذر..

إنها دعوة للإنسان أن يسبح ربه، أن يعترف بضعفه، أن يترك الطغيان والكبر، وأن يعلم أن الحاقة آتية لا محالة. فمن طغى في الدنيا، سيلقى طغيانًا أشد في الآخرة. ومن تواضع وآمن، فله جنة عالية قطوفها دانية، يدعو فيها جيرانه وخلانه: هاؤم اقرؤوا كتابيه..

تبدأ السورة بهذه الكلمة المزلزلة: ﴿الْحَاقَّةُ﴾، كأنّها تُلقى في النفس إلقاءً، لا شرح فيها ولا تمهيد. ثم تُعاد في صورة سؤالٍ: ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾، ثم يُزاد الأمر غموضًا وتعظيمًا: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾. فكأنّ السورة تُمهّد لشيءٍ عظيم، يتجاوز إدراك الإنسان، وهو ذلك اليوم الذي سيضع حدًّا لكلّ طغيان.

ثم تنتقل إلى التاريخ مباشرة: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾، فالتكذيب هنا هو أول مظاهر الطغيان. ثم تُفصّل: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾، كأنّ الطغيان قد عاد عليهم طغيانًا. ثم ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، ريحٌ عاتية طاغية جاوزت حدّها، كما جاوزوا هم حدودهم.

ثم تُصوّر هذه الريح تصويرًا متتابعًا: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾، لا انقطاع فيها، ﴿حُسُومًا﴾، تستأصلهم استئصالًا وتحسم أمرهم، ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾، ثم تبلغ الصورة غايتها: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾. فلا يبقى من هذا الطغيان إلا فراغٌ ويبس.

ثم يأتي السؤال الحاسم: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾؟ وكأنّ الجواب معلوم: لا شيء.

ثم تمضي السورة: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾، كلّهم في خطٍّ واحد من الطغيان، ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾، فكان الجزاء: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾، أي طاغية متجاوزة للحدّ، كما تجاوزوا هم.

ثم تعود السورة إلى قصة نوح: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾، فحتى الماء يطغى، ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾، فتجعل من هذه الحادثة ذكرى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾، ولكن هل تُصغي الآذان؟

ثم تنتقل فجأة إلى مشهد القيامة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، ولكنها واحدةٌ تهدم كلّ شيء. ثم ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾، ارتفاعٌ عظيم، ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾، سقوطٌ أعظم.

ثم ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، لا مهرب منها، ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾، فإذا هي ﴿وَاهِيَةٌ﴾، بعد قوّتها. ثم ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾، عظمة وثقل.

ثم يبلغ المشهد ذروته: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾، انكشاف كامل، لا ستر فيه ولا خفاء.

ثم ينقسم الناس: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾، فإذا به في اندفاع الفرح: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾، طغيانٌ في السرور، ثم ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾، فيُكافأ: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾، علوّ يقابل ما كان من علوّ الطغيان.

ثم تُفصّل النعيم: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾، يُقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ جزاءً لما سبق. ثم يأتي القسم الآخر: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾، فإذا به في طغيان الحزن: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾، ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾، ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾، يتمنّى الفناء.

ثم يذكر سبب ذلك: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾، طغيان المال والسلطان انتهى إلى لا شيء.

ثم يأتي الأمر بالعقاب: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾، ثم ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾، مبالغة في الإحاطة والعذاب.

ثم يُذكر سبب ذلك بوضوح: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾، ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾، طغيان في الاعتقاد والسلوك. ثم يُذكر طعامه: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾، ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾، أقصى ما يُتصوّر من القذارة.

ثم تنتقل السورة إلى تقريرٍ آخر: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾، ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾، لتُقرّر: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾. ثم تنفي عنه الطغيان البلاغي: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾.

ثم تبلغ السورة أقصى درجات الحزم: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾، ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾، لا تساهل حتى مع الرسول، فكيف بغيره؟

ثم تختم: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾، ثم الحكم الأخير: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾.

وهكذا تنتهي السورة، وقد عرضت الطغيان في كلّ صوره: طغيان الأمم، وطغيان الطبيعة، وطغيان الشعور، ثم انتهت إلى هذه الحقيقة القاطعة: أنّ كلّ طغيانٍ مصيره أن يُمحى، وأنّ الحاقة آتية، لا لتُهدّد فحسب، بل لتُحقّ الحقّ حقًّا لا يقبل الجدل.

سـورة المعارج

الهروب في جميع الاتجاهات

لو أردنا أن نلتمس لسورة المعارج محورًا تدور حوله معانيها وصورها، لوجدناه في هذا الاضطراب الإنساني العنيف، وفي هذا الفرار الذي يتفرق بأصحابه في كل وجهة، حتى كأن الناس يومئذٍ قد فقدوا مراكزهم، فلم يبق لهم إلا الهرب في كل اتجاه. في هذا المحور تتجلى حقيقة الإنسان الجازعة، وتلك الفزعة الكونية التي تدفع الخلائق إلى التشتت والانهيار، كأنما هي الهروب في كل اتجاه، والفرار من أمرٍ قد نزل بهم لا يدفع، وهو من الله ذي المعارج، الذي ينزل العذاب طُرُقاً شتى، وألواناً متباينة، فلا مردَّ له ولا كاشف.

تبدأ السورة بذكر العذاب الواقع الذي لا يستطيع أحد أن يرده أو يدفعه، فهو صادر عن الله ذي المعارج، حيث تعرج الملائكة والروح إلى بارئها في يوم يُقدَّر بخمسين ألف سنة، ولكنه عند الله ليس بالبعيد. ثم ينكشف الأفق في ذلك اليوم فإذا السماء كالمُهلِ تضطرم، والجبال كالعهن المنفوش تذوب وتتناثر، وحينئذٍ تنقطع الأسباب، فلا يسأل حميمٌ حميماً، ولا يلتفت قريبٌ إلى قريب، ولا صديقٌ إلى صديق، ولا أخٌ إلى أخيه، ولا زوجٌ إلى زوجه؛ بل كل امرئٍ يحاول أن ينجو بجلده، ويفرُّ بنفسه من ذلك اليوم العصيب، والنار تلحقه حيثما تولّى، تشوي الجسد وتلذع الجلد، ولا تقبل منه فداءً ولا عدلاً.

ومن هنا تصف السورة الإنسان بأنه هلوع. والهلع ليس مجرد الخوف، إنما هو اضطراب النفس وتفرق قواها وتشتتها. فإذا أصابه الشر جزع وتخبط، يبحث عن النجاة في كل سبيل، وإذا أصابه الخير أمسكه وشح به، كأنما يخشى أن يفلت من يده. فهو في الحالتين أسير التشتت والاضطراب.

وهنا تصف السورة الإنسان بأنه خُلق هلوعاً، والهلع ليس مجرد خوف، بل هو تشتُّت قوى النفس وتوزُّعها في كل وادٍ، فإذا مسَّه الشرُّ كان جزوعاً يدفعه بأيِّ سبيل، وإذا مسَّه الخيرُ كان منوعاً يبخل به على الناس الذين أتوا إليه من جهات شتى. إلا أن السورة تستثني فئةً قامت على غير ما يقوم عليه الهالكون، وهم المصلون الذين وقفوا في وجه هذه

الفوضى الكونية بالثبات والانتظام، فهم على صلاتهم دائمون، وفي أموالهم حقٌّ معلوم للسائل والمحروم، وهم يصدقون بيوم الدين، ومن عذاب ربهم مشفقون، وهم لفروجهم حافظون، لا يمدون أيديهم إلى الحرام، ولا ينطلقون في كل سبيل، إنما يقتصرون على أزواجهم وما ملكت أيمانهم، فهم في شهواتهم ضابطون، وفي أماناتهم وعهدهم راعون لا يفرطون، وبشهاداتهم قائمون لا يحيدون، وعلى صلاتهم محافظون لا يشتتون.

ثم تعرض السورة صورة مضادة لهؤلاء المؤمنين، فتصف الكافرين بأنهم مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين؛ جماعات متفرقة، وحركات مضطربة، لا يجمعها مقصد واحد ولا تهديها غاية مستقرة.

ولهذا يجيء القسم برب المشارق والمغارب، وكأن السورة تستحضر جميع الجهات التي يتفرق فيها الناس، وجميع الآفاق التي يحاولون أن يفروا إليها، لتقرر أن سلطان الله محيط بها كلها. ثم يتركهم القرآن يخوضون ويلعبون حتى يلقوا يومهم الموعود.

وفي خاتمة السورة يعود مشهد الحركة السريعة المتفرقة مرة أخرى؛ فالناس يخرجون من قبورهم مسرعين، كأنهم يندفعون إلى غاية كانوا يسعون إليها، ولكنهم هذه المرة يخرجون خاشعة أبصارهم، تغشاهم الذلة، وقد أدركوا أن الهرب في كل اتجاه لم يكن يغني عنهم شيئًا في ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون..

سـورة نوح

الإصرار

إذا أردنا أن نلتمس الخيط الذي تنتظم به معاني سورة نوح، فلعلنا نجده في هذا الإصرار الذي يكاد يبلغ حد العناد؛ إصرارٍ من نبيٍّ لا يملّ الدعوة، وإصرارٍ من قوم لا يملّون الإعراض، حتى تمضي القرون والمعركة بين الطرفين لا تعرف فتورًا ولا نهاية.

لقد أُرسل نوح إلى قومه، فمكث بينهم زمنًا طويلًا يكاد يعجز الخيال عن تصوره: ألف سنة إلا خمسين عامًا. ولم يكن هذا المقام الطويل انتظارًا ساكنًا، إنما كان جهدًا متصلًا ودعوة لا تنقطع. دعاهم ليلًا ونهارًا، وجهر لهم حين ينفع الجهر، وأسرّ إليهم حين يكون السر أقرب إلى القلوب. وانتقل بين الترغيب والترهيب، وبين الوعد والوعيد، لا يترك بابًا من أبواب الهداية إلا طرقه، ولا وسيلة من وسائل الإقناع إلا سلكها.

لكن القوم كانوا على إصرار لا يقل عن إصراره. كلما دعاهم إلى الحق ازدادوا نفورًا، وكلما فتح لهم بابًا أغلقوه على أنفسهم. جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وأقاموا على ما هم عليه إقامة من عقد العزم ألا يسمعوا وألا يفكروا وألا يراجعوا أنفسهم.

ثم نرى نوحًا يغير أسلوبه، لا ييأس ولا يضجر، فيدعوهم من طريق آخر. فيقول لهم: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾. ثم يلفت أنظارهم إلى ما حولهم وما في أنفسهم من آيات الخلق؛ خلق الإنسان أطوارًا ينتقل من حال إلى حال، وخلق السماوات طباقًا بعضها فوق بعض، وأنبت الناس من الأرض إنباتًا هادئًا متدرجًا، كما تنبت البذرة الصغيرة فتشق التراب في صبر ومثابرة حتى تكتمل حياتها.

وكأن هذا الإنبات البطيء نفسه صورة من صور الإصرار؛ فالنبات لا يبلغ غايته دفعة واحدة، إنما يواصل نموه مرحلة بعد مرحلة، حتى يحقق ما قُدِّر له. وكذلك كانت دعوة نوح، تمضي في صبر لا يعرف الانقطاع.

غير أن القوم ظلوا أوفياء لما ألفوه من عبادة الآباء والأجداد. تمسكوا بأصنامهم القديمة: ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر. ولم يكن تمسكهم بها مجرد اعتقاد، بل كان نوعًا من العناد الذي يرفض كل جديد، ويؤثر الموروث ولو ظهر بطلانه.

وعندئذٍ يبلغ الصراع نهايته. فنوح الذي أصر على الدعوة قرونًا طويلة، يوقن أخيرًا أن القلوب قد أغلقت أبوابها، وأن الرجاء قد انقطع. فيدعو ربه أن يهلك هؤلاء القوم؛ لأنهم لم يعودوا مصدر خير، ولا يُرتجى من ورائهم صلاح. بل لقد بلغ فسادهم حدًّا جعله يرى أن أبناءهم سيشبّون على ما شبّ عليه آباؤهم من الكفر والعناد، فكأن الإصرار قد أصبح ميراثًا تتناقله الأجيال.

ثم تختم السورة بنغمة تجمع بين الرحمة والحسم؛ رحمة للمؤمنين الذين استجابوا للحق، إذ يدعو لهم نوح بالمغفرة، ولمن دخل بيته مؤمنًا، وللمؤمنين والمؤمنات جميعًا. وحسمًا في شأن الظالمين، إذ لا يسأل لهم إلا زيادة الهلاك والخسران.

وهكذا تبدو السورة كلها قصة إرادتين متقابلتين: إرادة نبيٍّ أصر على الهداية حتى استنفد كل سبيل، وإرادة قومٍ أصروا على الضلال حتى أغلقوا على أنفسهم أبواب النجاة. وبين هذين الإصرارين تمضي السورة، حتى تنتهي إلى الحكم الذي لا مردّ له، حين يفصل الله بين الحق والباطل، وبين الإيمان والعناد.

سـورة الجـن

الاستثنائيون

سورة الجن تعرض لنا عالمًا استثنائيًا يظنه الناس غريبًا عنهم، لكنه في حقيقته أقرب إليهم مما يظنون. إنها تفتح نافذة على تلك المخلوقات الاستثنائية، لتبين ما خفي عن العيون، وما أحاطته المهابة، وما استعصى على العقول.

فالناس في قديم الزمان، حين لم يكونوا يعرفون كيف تنتقل العدوى، نسبوا الداء إلى الأرواح الخفية، وقالوا: إن للجن يدًا فيه. وما كانت الميكروبات عندهم سوى جنٍّ من نوع خاص، يسطو خفية، فلا يترك ضحيته إلا حين يشفى أو يهلك. ثم لما عرفوا الميكروسكوب، وظنوا أنهم كشفوا كل خفي، ظهر لهم خفاءٌ جديد، وتجلّى لهم جنٌّ آخر، أشدّ غموضًا وأدهى أثرًا، لا يسكن الجبال، ولا يسكن الوديان، بل يسكن الشرائح الإلكترونية، والدوائر الرقمية، وأقبية التكنولوجيا العالية.

ولستُ أدري أكان الجنُّ يتغير عبر الزمان، أم كان الزمان هو الذي يتغير، فتتغير معه دلالة الجن؟ فالذي كان يُسمّى جِنًّا في زمن، يُدعى علمًا في زمن آخر، والذي كان يُخشى منه في الزمن القديم، يُستأنَس به في العصر الحديث، حتى لكأن الإنسان لا يزال يطارد شبحًا، كلما قبض عليه، أفلت منه، وظهر له في ثوب جديد.

وقد بلغ الناس من الخيال مبلغًا جعلهم يُطلقون لفظ الجنِّ على الأكراد، لا لأنهم من نارٍ خُلِقوا، ولكن لأنهم، كانوا يختفون في الجبال، ويُباغتون كأنهم لا يسيرون على الأرض. وقد قال الإمام الصادق: {الأكراد حيٌّ من أحياء الجنّ}.

والجنُّ عند قوم كلُّ عاتٍ متمرّدٍ، إذا سكن القصر، أو احتجب عن الناس، أو أتى بأفعال شبه خارقة. لكن هؤلاء المتمردون إذا جاؤوا الأنبياء، هدأت طبائعهم، وخمدت نيرانهم، كأنما القرآن يُطْفئ نارهم، ويُحوّل جِبِلّتهم من الثورة إلى السكينة.

وليس غريبًا أن يقول النبي- صلى الله عليه وسلم- عن الإبل إنها خُلِقت من الشياطين؛ فالإبل، عند العرب، كانت تنفر، وتستعصي، وتُبدي ما لا يُفهم من الطباع، حتى قال ابن الكلبي: {إن جِمال بني أقيش كانت تُنسب إلى حيٍّ من الجنّ}.

وفي عصر سليمان صار البنّاؤون والنجّارون، والحفارون والمهندسون، يُدعَون جنًّا، لا لأنهم لا يُرَون، ولكن لأنهم يعملون ما لا يُقدَر عليه، وينجزون ما يُبهِر.

أما في زماننا هذا، فقد تغيّرت صورة الجنِّ مرة أخرى. فلم يعودوا يسكنون المغارات، ولا يُصيبون الناس بالصرع، إنما يسكنون مراكز الأبحاث، ومخابر الذكاء الصناعي، وشركات التجسس الإلكتروني. هؤلاء هم الجنّ الجدد، يركبون سفن الفضاء والطائرات، يراقبون الناس من عل، ويتنصّتون على الأسرار، ويعرفون ما لا نحبّ أن يُعرَف. وقد قال الله عنهم: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا}.

وإنك لتقرأ سورة الجن، فتخال أن الخطاب ليس إلى كائنات خفية تُحلّق في الهواء، إنما إلى رجال استثنائيين من الإنس، خُفيت نواياهم، واشتدّ سلاحهم، وملكوا من وسائل التقنية ما يُحيّر الألباب. لكنهم، مع ذلك، حين استمعوا إلى القرآن، رقّت قلوبهم، وقالوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ}. فكأن الرسالة الإلهية أقوى من كل تجسس، وأسمى من كل علم، وأبقى من كل اختراق.

وسورة الجن تُصرّح بأن منهم المؤمن ومنهم القاسط، منهم من يُسخّر علمه للخير، ومنهم من يُضلّ به. وكأن الله يُحدّثنا عن فئةٍ استثنائية تملك قدرات خارقة، لكنها حين تواجه الوحي، تُصاب بالدهشة، وتُذعن، وتدرك أن وراء القوة قوة، ووراء العلم علمًا، ووراء الجنّ ربًّا يُحيط بكل شيءٍ علمًا.

إذن، فليس من اليسير على القارئ المعاصر أن يقرأ سورة الجن قراءةً تقليدية خالصة، ثم ينصرف عنها وكأنها حديث عن عالمٍ بعيد لا يمسّه. ذلك أن الزمان قد تغيّر، وتبدّلت

الصور، واتّسعت معاني الألفاظ، حتى غدا الجن، في وعي الإنسان الحديث، رمزًا لكل قوة خفية، ولكل عقلٍ يعمل في الظل، ولكل يدٍ تمتدّ إلى ما وراء الحواس.

ولعلنا، إذا شئنا أن نُحسن الفهم، لم نُخطئ إن قرأنا هذه السورة على أنها خطابٌ موجّه إلى طائفة من البشر، لا تقلّ غموضًا عن الجن، ولا تقلّ خطرًا عنهم؛ طائفةٍ تملك من أدوات المعرفة ما لم يكن لغيرها، وتستطيع من الرصد ما يعجز عنه سواها، حتى لكأنها تُشرف على العالم من علٍ، وتُدرك من خفاياه ما لا يُدرَك.

تبدأ السورة بقول الله تعالى:

{قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ}

وكأننا أمام مشهدٍ مقلوب؛ فهؤلاء الذين اعتادوا أن يكونوا رُقباء، قد صاروا فجأةً مستمعين. كانوا هم الذين يتقصّون الأخبار، ويتتبعون الأسرار، فإذا بهم يقفون موقف التلقي، لا يملكون إلا أن يُنصتوا.

وهنا تكمن أولى المفارقات:

إن من يملك أدوات السيطرة، قد يُسلبها حين يواجه ما لا تُدركه تلك الأدوات.

ثم يقولون:

{إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ}

وهنا تبدأ الدهشة...

إنها دهشة العقل حين يصطدم بما يتجاوزه. هؤلاء الذين عرفوا كثيرًا، وأحاطوا بأشياء كثيرة، يقفون أمام القرآن وقفة المتحيّر، لا لأنهم يجهلونه، ولكن لأنهم لا يستطيعون أن يُحيطوا به.

فالقرآن، في هذه اللحظة، لا يُخاطب جهلهم، بل يُخاطب حدود علمهم.

ويمضي الخطاب، فإذا بهم يعترفون:

{وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا}

وهنا يتحول الإدراك من المعرفة إلى الإيمان؛ من التحليل إلى التسليم. كأن العقل، وقد بلغ أقصى مداه، لم يجد بُدًّا من أن يقرّ بأن وراءه علمًا أعلى، وسلطانًا أعظم.

غير أن السورة لا تُغفل طبيعة هذه الفئة، فتقول:

{ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا }

وهذا اعترافٌ بأن العلم، مهما ارتفع، لا يعصم صاحبه من الضلال. ففي هذه الطائفة من يُحسن استخدام ما يملك، وفيها من يسيء. فيها من يهتدي، وفيها من يطغى. وكأن السورة تُقيم ميزانًا دقيقًا:

ليس الخطر في القدرة، بل فيمن يحملها.

ثم نصل إلى الآية التي تكاد تُجسّد روح العصر:

{وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ}

هؤلاء كانوا يتنصّتون، يرصدون، يحاولون الوصول إلى ما وراء الحجب. وهو مشهدٌ لا يبعد كثيرًا عما نراه اليوم، حيث تتسع أدوات المراقبة، وتضيق مساحات الخفاء.

لكن الآية تُتبع ذلك بقولها:

{فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا}

وهنا توضع الحدود.

فمهما اتّسعت القدرة، ومهما تقدّمت الوسائل، فإن للغيب حراسةً لا تُخترق، وللأسرار حدودًا لا تُنال. كأن السماء، في هذا التصوير، تُعلن أن ليس كل ما يُراد يُدرَك، وليس كل ما يُطلب يُنال.

ويمضي الاعتراف:

{ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا }؟

وهذا هو العجز الصريح.

فبعد كل ما بلغوه من معرفة، لا يزالون يجهلون الغيب. لا يستطيعون أن يقطعوا بحكم، ولا أن يجزموا بمصير. وكأن العلم، حين يبلغ حدّه، يُفضي إلى التواضع.

ثم تأتي القسمة الحاسمة:

{وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ}

وهنا تُرفع التهمة عن القدرة ذاتها، وتُلقى على الإنسان.

فالقدرة واحدة، لكن: من الناس من يجعلها نورًا، ومنهم من يجعلها ظلامًا. وهكذا لا يعود السؤال: ماذا نملك؟

بل: كيف نستخدم ما نملك؟

وتنتهي الرحلة بهذا الإدراك:

{ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا }

وهو إدراكٌ متأخر، ولكنه حاسم.

إنهم - بعد أن ظنوا أنهم قادرون، وأنهم ممسكون بخيوط المعرفة - يكتشفون أنهم لا يُعجزون الله، ولا يخرجون عن سلطانه، ولا يُحيطون بعلمه.

هكذا، إذا أعدنا قراءة السورة في ضوء هذا المعنى، لم تعد حديثًا عن كائناتٍ خفية بعيدة، بل غدت حديثًا عن الإنسان حين يقترب من حدود الغيب، ثم يقف عاجزًا أمامها.

إنها تُحدّثنا عن: العلم حين يتضخم، والقدرة حين تغترّ، ثم عن اللحظة التي يكتشف فيها الإنسان أن:

وراء العلم علمًا،

ووراء القدرة قدرة،

ووراء كل ذلك ربًّا يُحيط بكل شيءٍ علمًا.

سـورة المزمل

الضيق

لعلّ أول ما يقع في نفس القارئ، حين يجيل نظره في آي هذه السورة الكريمة، أنها ما نزلت إلا لتصور حالاً من مكابدة المشقة ومناجاة الروح الشاكية. فالمحور الذي تدور عليه السورة، وتؤوب إليه آياتها في بيان عذب وجمل متناغمة، إنما هو «الضيق»؛ ذلك الضيق الذي يحيط بالإنسان من كل جانب، فتارة يكون ضيقاً في الوقت، وتارة يكون ضيقاً في النفس، وتارة أخرى يكون ضيقاً في النشاط والطاقة والوسع.

فالنبي صلوات الله وسلامه عليه، وقد تدثر في ثيابه التماساً للدفء، فجاءه هذا النداء الإلهي المؤنس الجليل: {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}، ليأمره بأن يقوم الليل إلا قليلاً، سواء قام نصفه، أو نقص منه شيئاً قليلًا، أو زاد عليه؛ وما ذاك التخيير والمراوحة في التقدير إلا التفاتاً لضيق وقت الإنسان، ورعايتها لما يقع فيه من انشغال وضيق في الطاقة والوسع البشري.

ثم تلتفت السورة لتعلل هذا القيام بذاك التمهيد العظيم: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا}؛ وهل هناك أثقل من وحي الله؟ وهل هناك أعظم من أعباء الرسالة التي قد تضيق النفوس البشرية عن احتمالها وتهيب ببلوغ غايتها؟

وتنصرف الآيات إلى تجلية ضيق آخر يواجهه الإنسان في معاشه؛ إذ تشير السورة إلى أن نهار المرء ليس فيه متسع من فراغ أو دعة، بل هو ضيق ممتد تملؤه شواغل الحياة وكد العيش: {إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا}.

وأمام هذا الضيق المشتبك، لا يجد الإنسان مفراً من أن يضيق على نفسه وشهواتها في سبيل مرضاة ربه، فيؤمر بأن يتبتل إلى الله تبتيلاً؛ وهو انقطاع تام بالقلب والروح لمن بيده ملكوت كل شيء.

وليس هذا الذي نذهب إليه ببدع من القول، بل إن السورة لتأمر النبي صلى الله عليه وسلم، بالصبر على الأذى، وتحمّل جفوة الجاهلين، وهجرهم «هجراً جميلاً»؛ وهو الهجر الذي تضيق به عواطف النفس البشرية لكنها تترفع عنه رغبة فيما عند الله.

ثم تنعطف السورة انعطافة حاسمة، لتصور عذاب يوم القيامة؛ فإذا هو عذاب يتجسد فيه الضيق بأبشع صوره وأقساها: أنكال وجحيم، وقيود تأخذ بالأنفاس، وطعام ذا غصة، يغص به الحلق، وتضيق النفس عن احتماله أو تجرعه.

وفي هذا اليوم الهائل العبوس، ترجف الأرض وتتحرك الجبال الراسيات كأنها رمل مهيل، عاجزة عن الاستقرار والوقوف. ثم تضرب السورة مثلاً بطاغية التاريخ «فرعون»؛ ذلك الذي ضاق صدره عن احتمال الإيمان، وعصى الرسول الذي أرسل إليه، فأخذه الله أخذاً وبيلاً.

ويمضي السياق في تصوير ذاك الهول الذي يفوق الطاقة، فإذا هو هول يشيب منه الولدان من فرط الضيق والفزع، وتضيق به أجرام السماء العظيمة فتكون منفطرة به متشققة لشدته.

وتُختم السورة الكريمة بالعفو اللطيف الذي يرفع هذا الضيق ويخفف من تلك المشقة؛ فالله علم أن طائفة من الذين آمنوا يقومون ثلثي الليل ونصفه وثلثه، فتاب عليهم وخفف عنهم، لعلمه بما يحيط بالبشر من عوارض الضيق والضعف:

فالمرضى، الذين ضاقت بهم أجسادهم وصحتهم عن مغالبة السهر وطول القيام. والمسافرون الضاربون في الأرض يبتغون الرزق والفضل، فضاق وقتهم. والمجاهدون، الذين يقاتلون في سبيل الله، فضاق نشاطهم وانصرف إلى كفاح الأعداء.

فكأن السورة من مطلعها إلى ختامها بدأت بالدعوة إلى مغالبة الضيق الإنساني بالقيام والتبتل، وختمت بالتيسير والرحمة حين يبلغ الضيق غايته، فتقول في وداعة وإيناس: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}.

سـورة المدثر

التفاصيل الشخصية

المحور الذي تستدير حوله سورة المدثر، لا أجد له اسمًا أدق من {التفاصيل الشخصية}. وهو محور عجيب، يأخذ بيديك إلى أعماق النفس الإنسانية حيث لا ترى غير نفسك وحدك مع صوت الآيات.

تفتح السورة بابها على مشهد خاص جدًا: النبي عليه الصلاة والسلام في فراشه، يُنادى فينهض، كأنه رجل بيننا، يأمره النداء أن يتطهّر ويغسل ثيابه، ثم ينطلق إلى الناس، ليس ليملي عليهم أوامر، بل لينذرهم ويذكّرهم ويدعوهم إلى كلمة التوحيد.

ثم تغوص السورة إلى ما هو أعمق من ذلك بكثير، إلى ذلك المختبر الخفي الذي لا يراه أحد: القلب البشري. فتقول له: "لا تمنن تستكثر"، أي لا تظن أن لعملك وزنًا فتنظر إليه بعين الرضا والإعجاب، فإن العجب آفة العابد، والرياء قاتل الإخلاص. وكأن السورة تريد أن تقول: إن الطريق إلى الله يحتاج إلى ثلاثة أنواع من الصبر: الصبر على العبادة، والصبر على إخفائها، ثم الصبر على دعوة الناس إليها.

ثم تنتقل بك السورة إلى مشهد آخر، مشهد ليس من الأرض هذه المرة، بل من هناك، من حيث لا يراه أحد: "النقر في الناقور"، ذلك الصوت الذي سيقلب الكون رأسًا على عقب، والذي نسميه نحن "الصور" الذي ينفخ فيه، فيخرّ الموتى أحياء.

ثم تعود السورة إلى التفاصيل الشخصية، ولكن هذه المرة ليس مع نبي، بل مع رجل كافر، اسمه الوليد بن المغيرة. تقول السورة: دعني وهذا الذي خلقته وحيدًا، ثم مددت له من المال ما شاء، وأعطيته من الأبناء الحاضرين ما شاء، ومع كل هذا يطمع أن أزيده! أزيده وهو على غيّه؟ لا، بل سأجعله يسعى ويكدح ويتعب، لا لشيء إلا ليجمع المال، فيتحول المال عنده من وسيلة إلى غاية، يبذل صحته في جمعه، ويذهِب عمره في الحرص عليه، فلا ينتفع به حين يجمعه، ولا ينتفع به حين يطلبه.

ثم تمر السورة على مشهد آخر من شخصية هذا الرجل: إنه إذا سمع القرآن لم يحاول أن يفهمه أو يصده بصدق، بل أخذ يبحث عن كلمات يسمّم بها أسماع الناس، فيصف القرآن بأنه سحر، ولكن ليس كأي سحر، بل سحر يؤثر ويفوق غيره! وكأنه بهذا يقرّ بأن هذا القرآن له قوة، ولكنه قوة شيطانية في زعمه.

ثم فجأة، تقفز السورة إلى مشهد النار، وإلى هذا العدد الغريب: تسعة عشر ملكًا. لماذا تسعة عشر؟ لا ندري، ولكن السورة تقول إن هذا العدد سيكون فتنة للكافرين، وكأن العدد نفسه يصبح حجر عثرة في طريق القلوب المريضة.

ثم يأتي المشهد الأغرب، حين تنتقل السورة من التفاصيل الشخصية إلى التفاصيل الكونية، فترى الليل وقد أدبر واختفى، ليس لأنه انقضى، ولكن لأن النور الكهربائي جاء ليبعثره، فيقلب حياة الناس: يصير الليل نهارًا، ويعملون فيه كما يعملون في النهار، وهذا التحول، على ما فيه من تقدم عظيم، لا يخلو من نذير. وكأن السورة تهمس: هذا الذي ترونه من تبديد الظلمة ليس مجرد اختراع، بل هو آية من آيات الله، ونذير من نذر الساعة، وعلامة من علاماتها الكبرى الشاهدة: {إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ}.

ثم تسأل السورة: ماذا قال المشركون حين سألوا عن السبب الذي أرداهم في النار؟ قالوا بكل ألم وصدق: لم نكن من المصلين، ولم نُطعم المسكين، وكنا نخوض في الباطل مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين، وكنا نهرب ممن يدعونا إلى ربنا، كأننا حمر متوحشة تفرّ مذعورة من أسد يطاردها. نعم، هكذا كانوا: لا تفكير، لا تأمل، لا وقفة مع النفس، بل خوف وهروب.

وفي النهاية، يبقى ذلك الطابع الشخصي الذي لا يغادر السورة: كل واحد من أولئك المشركين كان يتمنى لو أن له كتابًا خاصًا به، ينزل عليه من السماء، مكتوبًا فيه اسمه وحده وتفاصيل حياته وحده، كأنه يريد أن يكون نبيًا وحيدًا، لا يشاركه أحد في رسالته. وهذا هو قوله تعالى: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً}. وكأن كل إنسان يحب أن يكون محور الكون، وأن يكون له نداء من السماء باسمه وحده.

وهكذا تسير سورة المدثر: بين تفاصيل صغيرة عن نبي، وتفاصيل صغيرة عن كافر، ثم إلى تفاصيل أكبر: نار، وصور، وناقور، وكهرباء... ثم تعود إلى التفاصيل الأولى: صلاة، وطعام، وخوض مع الخائضين، وهروب من الدعاة. إنها سورة الإنسان كله.

سـورة القيامة

التقابل والمزاوجة

تدور سورة القيامة حول لون دقيق من التناسق والمزاوجة، حتى ليخيل إلى القارئ أنه يستمع إلى نغم يتردد في السورة كلها، أو يقرأ قصيدة يقوم بناؤها على شطرين متقابلين، يتجاوب أحدهما مع الآخر في نظام عجيب.

فالسورة تبدأ بالقسم بيوم القيامة، ثم تعقبه بالقسم بالنفس اللوامة، وكأنها تجمع بين القيامة الكبرى في الكون، والقيامة الصغرى في أعماق النفس الإنسانية؛ هناك اضطراب العالم، وهنا اضطراب الضمير.

ثم تنتقل إلى الحديث عن جمع العظام وتسوية البنان، فتزاوج بين ما يراه الإنسان عظيمًا وما يراه دقيقًا صغيرًا، لتقرر أن القدرة التي تعيد العظام قادرة كذلك على أن تسوي أدق التفاصيل وأخفاها.

ثم تصور السورة انقلاب الكون: خسوف القمر، وجمع الشمس والقمر، فإذا بهذا المشهد الهائل يقابله مشهد الإنسان القلق المضطرب وهو يقول: أين المفر؟ فيأتيه الجواب القاطع: {كَلاَّ لا وَزَرَ}. فكأن خوف الإنسان يقابل حتمية المصير.

ويمضي هذا الإيقاع في السورة كلها؛ فالإنسان ينبأ بما قدم وأخر، ولكنه- في الوقت نفسه- على نفسه بصيرة، ولو حاول أن يعتذر أو يتعلل. ثم تأتي الإشارة إلى جمع القرآن وبيانه، وكأن الحفظ يقابله الكشف، والجمع يقابله البيان.

ثم تتقابل صورتان متباعدتان أشد التباعد: وجوه ناضرة مشرقة بالرضا، ووجوه باسرة قد أثقلها الخوف والرهبة. وكأن السورة تجعل النعيم بإزاء العذاب، والطمأنينة بإزاء الفزع.

حتى لحظة الموت نفسها تأتي في صورة مزدوجة: فإذا بلغت التراقي، ارتفع صوت الناس من حول المحتضر: {مَنْ رَاقٍ}؟ وكأن ضعف الجسد يقابله عجز البشر.

ثم تبلغ السورة ذروة هذا التقابل حين تقول: فلا صدق ولا صلى، ولكن كذب وتولى. فالحق بإزاء الباطل، والطاعة بإزاء الإعراض.

وتختم السورة حديثها بأصل الإنسان: من نطفة تمنى، ثم علقة، ثم خلق فسوى، حتى تنتهي إلى المزاوجة الكبرى التي يقوم عليها الوجود الإنساني كله: {فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى}.

وعلى هذا النحو تبدو السورة كلها قائمة على التقابل والمزاوجة؛ بين الحياة والموت، والخوف والرجاء، والإيمان والجحود، والضعف الإنساني والقدرة الإلهية. ومن هذا التوازن العجيب تستمد السورة قوتها وإيقاعها وأثرها في النفس.

ويزيد هذا المعنى وضوحا أن السورة نفسها تقوم على نوع من الترادف والتتابع الذي يشبه الأمواج المتلاحقة، حتى كأن الآيات يرد بعضها على بعض في إيقاع متصل لا ينقطع. وهذا اللون من التزاوج والترادف يبدو أوضح ما يكون في مشاهد القيامة خاصة، حيث لا يقع الحدث منفردًا، بل يتبعه ما يضاعف أثره ويؤكد هوله.

ومن أظهر ذلك قوله تعالى: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ}. فليست الرجفة وحدها هي التي تهز الكون والنفوس، بل تعقبها رجفة أخرى، كأن الفزع لا يكتمل من أول صدمة، وإنما تتلاحق أسبابه تلاحقا. فالراجفة والرادفة صورتان متعاقبتان، بينهما من التجاوب ما يجعل السامع يحس بالحركة المتتابعة، وكأن الكون كله يدخل في اضطراب لا يهدأ.

وهذا الأسلوب نفسه نجده سائرا في سورة القيامة؛ فالمشهد يعقبه مشهد، والصورة تردفها صورة، والخوف يتلوه خوف، حتى لا يترك السياق للنفس فرصة إلى السكون أو الاطمئنان. فكأن السورة تريد أن تنقل إلى السامع إحساس ذلك اليوم المضطرب، الذي تتتابع فيه الأحداث كما تتتابع الصواعق، وكما تتلاحق الأمواج في بحر هائج لا قرار له.

ونستطيع أن نرى هذا المعنى نفسه في مواضع كثيرة من القرآن حين يُذكر يوم القيامة؛ فكأن ذلك اليوم قائم في طبيعته على الازدواج والتقابل، لا يكاد يظهر فيه شيء منفردًا. يقول تعالى: {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ}[ق:٢١]، فالنفس لا تأتي وحدها، إنما

يحيط بها اثنان: سائق يدفعها إلى موقف الحساب، وشهيد يشهد عليها بما عملت. وكأن الإنسان في ذلك اليوم محصور بين الحركة إلى المصير، وبين انكشاف الحقيقة التي لا يستطيع إنكارها.

وكذلك قوله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا..} [البقرة: ١٦٦]، حيث تقوم الصورة كلها على طرفين متقابلين: تابع ومتبوَع، قائد ومقلِّد، ثم ينقلب ما كان بينهما من اتصال في الدنيا إلى قطيعة وبراءة. فكأن القيامة تكشف الأشياء في صورتها النهائية، وترد كل علاقة إلى حقيقتها.

ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا جاءت سورة القيامة نفسها قائمة على هذا اللون من البناء؛ فهي لا تعرض المعاني عرضا متفرقًا، إنما تبنيها على التقابل والمزاوجة. صورة بإزاء صورة، وحال بإزاء حال، وإنسان بإزاء مصيره. حتى الإيقاع في السورة يوحي بهذا التعاقب المتوازن، كأن الآيات تتجاوب كما تتجاوب الأصداء.

وهذا البناء لم يجئ مصادفة، إنما جاء موافقًا لطبيعة يوم القيامة نفسه؛ ذلك اليوم الذي تنقسم فيه الوجوه إلى ناضرة وباسرة، والناس إلى سعداء وأشقياء، والكتب إلى يمين وشمال، والاعتقاد إلى إيمان وجحود. فكأن السورة في تركيبها تحاكي حقيقة اليوم الذي تتحدث عنه، حتى يصبح الأسلوب نفسه جزءًا من المعنى.

سـورة الإنسان

نشأة الإنسان

إذا نحن تأملنا سورة الإنسان وجدنا أن المحور الذي تدور حوله السورة كلها هو هذا الكائن العجيب الذي يسمى الإنسان؛ هذا المخلوق الذي لم يكن يومًا شيئًا يُذكر، ثم أصبح بعد ضعف وخفاء موضع عناية الله وتكريمه.

فالسورة تبدأ بهذا السؤال العميق الذي يهز النفس هزًّا:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾.

وكأن القرآن يريد أن يرد الإنسان إلى بدايته الأولى؛ إلى ذلك الزمن الغابر البعيد الذي لم يكن له فيه اسم، ولا أثر، ولا وجود يشعر به أحد. ثم لا يلبث أن يكشف أن هذا الإنسان، منذ اللحظة الأولى لخلقه، لم يُترك هملاً، ولم يُلقَ في الوجود إلقاءً عابرًا، وإنما أحاطته عناية الله منذ كان نطفة خفية لا تُرى.

ثم تشير السورة إلى هذا الأصل الأول:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾.

وهذه النطفة المختلطة الضعيفة كانت بداية الرحلة الإنسانية كلها. ثم أخذت العناية الإلهية ترعى هذا الكائن في أطواره المختلفة، حتى نُفخ فيه من الروح، ووُهب السمع والبصر والعقل، وأصبح قادرًا على أن يختار طريقه بنفسه: {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}.

ومن هنا يبدأ الامتحان الحقيقي للإنسان. فالسورة لا ترى الإنسان مجرد جسدٍ ينمو، وإنما تراه روحًا تُختبر، وإرادةً تُبتلى، وقلبًا يُمتحن في اختياراته.

ثم تمضي السورة فتصف المصيرين المختلفين اللذين ينتهيان إلى هذين الطريقين:

مصير الذين اختاروا الكفر والجحود، وما ينتظرهم من العذاب والسلاسل والسعير، ثم مصير الأبرار الذين اختاروا الرحمة والخير.

وهؤلاء الأبرار لا يصفهم القرآن بالعبادة المجردة وحدها، إنما يصف رقة قلوبهم وإنسانيتهم. فهم يطعمون الطعام، لا تكلفًا ولا رياءً، بل حبًا ورحمةً، يعطونه للمسكين واليتيم والأسير، ثم يقولون في صفاء النفس:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾.

فهم لا ينتظرون من الناس جزاءً ولا شكرًا، وإنما يخافون يومًا عظيمًا، يومًا تعبس فيه الوجوه وتشتد فيه الأهوال.

ومن أجل هذا الخوف الصادق، وهذا الصبر الهادئ، {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا}. وليس النعيم الذي تصفه السورة بعد ذلك مجرد نعيم حسّي، وإنما هو نعيم الراحة الكاملة بعد تعب الدنيا وخوفها.

فهؤلاء يجلسون على الأرائك في سكينة، لا تؤذيهم شمس، ولا يمسهم زمهرير. والأغصان تميل فوقهم بالثمار، والأكواب تُقدّر لهم تقديرًا، كأن الجنة نفسها تعرف مزاجهم ورغباتهم، فتمنحهم كل شيء في لطفٍ واعتدال.

ثم تمضي السورة في هذا الجو المترف الهادئ، فتحدثنا عن عينٍ تسمى "سلسبيلا"، وعن غلمان يطوفون كأنهم اللؤلؤ المنثور، وعن ثياب من سندس وإستبرق، وعن شراب طهور يطهّر النفوس من كل نقص أو ألم.

غير أن السورة لا تقف عند هذا النعيم وحده، بل تنتقل إلى مرحلة أخرى، هي أرقى مراحل تطور الإنسان: مرحلة الوحي والقرآن.

فالإنسان لا يبلغ كماله الحقيقي بالجسد ولا بالنعيم، إنما يبلغ كماله حين يتصل بالله، وحين يسمع النداء الإلهي الذي يهذب روحه ويرفعه فوق شهوات الأرض.

ومن هنا تأمر السورة النبي ﷺ بالصبر، وبكثرة ذكر الله، وبالتسبيح في الليل، والسجود في السكون، كأن العبادة هي الغذاء الأعلى للروح الإنسانية بعد أن اكتمل خلق الجسد.

ثم تختم السورة بالكشف عن طبيعة الكافرين؛ فهم متعلقون بالحياة العاجلة، مأخوذون بثقل المادة ولذاتها، لا يؤمنون باليوم الثقيل الذي ينتظرهم، ولا يدركون أن إرادتهم نفسها

لا تخرج عن إرادة الله، وأن الإنسان، مهما ظن بنفسه الحرية المطلقة، يبقى داخل سلطان القدرة الإلهية التي تحيط بكل شيء.

أما قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، فيشير إلى صراع خفيّ لا ينقطع؛ فالجسد منذ يولد يبدأ في التغيّر، ثم يأخذ الزمن من قوته شيئًا فشيئًا، حتى تضعف الخلايا، ويعتريها الوهن، وتتراكم فيها أسباب الفساد والموت. وقد كشف العلم الحديث للناس أن في داخل الإنسان عوامل دقيقة تظل تعمل في صمت، تنقص من حيويته كما ينقص الصدأ من الحديد، حتى يبلغ الكائن أجله المحتوم.

فإذا انتقلنا من هذا المعنى إلى صورة الجنة كما يعرضها القرآن، أمكن أن نتخيّل أن {الشراب الطهور} ليس شرابًا للذة وحدها، وإنما هو شراب يطهّر الكائن تطهيرًا كاملًا، يزيل عنه كل أسباب النقص والفناء، ويمنع عنه هذا التآكل الخفي الذي يلازم أحياء الدنيا.

ومن هنا قد يخطر للذهن أن من أسباب خلود أهل الجنة؛ أنهم قد نُزعت منهم أسباب الذبول والهرم، وسُقوا من هذا الشراب الإلهي الذي طهّر ذواتهم من كل ما يقود إلى الفساد أو الموت. فهم لا يشيخون، ولا تتغير صورهم، ولا تنال منهم السنون؛ لأن عناصر الفناء نفسها قد مُحيت من طبيعتهم.

وليس المقصود بهذا أن نحمل الآية على تفسيرٍ علميّ ضيق، فالقرآن أوسع من أن يُحبس في نظرية من نظريات البشر، لكن المقصود أن النص القرآني يفتح للنفس أبواب التأمل، ويجعل الإنسان قادرًا على أن يرى في ألفاظه معاني تتجدد كلما اتسعت معارفه واتسع فهمه للحياة والكون.

هكذا يصبح "الشراب الطهور" رمزًا للكمال المطلق؛ الكمال الذي لا يبقى معه ضعف، ولا مرض، ولا تحلل، ولا موت.

سـورة المرسلات

الغضب العاصف

كأنّك عندما تقرأ هذه السورة تسمع فيها صوتًا هادرًا لا يهدأ، وعاصفةً لا تسكن، تمضي في طريقها لا تلين ولا تفتر. فهي تدور حول محور واحد واضح جليّ: غضبٌ عاصف، يبتدئ منذ اللحظة الأولى، حين يُقسم الحقّ جلّ شأنه {فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا}، فكأنّ الألفاظ نفسها ريحٌ تعصف، وكأنّ الحروف صريرُ هذه الريح وهي تمضي في شدّتها.

ثم لا تلبث السورة أن تُلقي إلى السامع حقائقها إلقاءً، في شيءٍ من السرعة والحِدّة؛ فتذكر إلقاء الذكر عذرًا أو نذرًا، وتُقرّر في نبرة لا تحتمل الشكّ أنّ ما وُعِد الناس به حقٌّ لا مرية فيه: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ}. ثم تمضي هذه العاصفة، فلا تُبقي شيئًا على حاله؛ فالنجوم تُطمس، والجبال تُنسف، والرسل يُوقَّتون، ويقوم يوم الفصل ليفصل بين الحقّ والباطل فصلًا لا رجعة بعده.

وفي أثناء ذلك كلّه، تتردّد نغمةٌ واحدة، كأنّها لازمةٌ موسيقية لا تفارق هذا اللحن العنيف: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}. تتكرّر مرةً بعد مرة، حتى يخال السامع أنّه بإزاء عاصفة تدور، وتبتلع في جوفها ما تلقاه، ثم تعود فتدور من جديد، لتنتهي دائمًا إلى هذه الكلمة القاسية الحاسمة، ثم لا تلبث أن تستأنف دورتها من جديد.

ثم تُلقي السورة إشارات سريعة خاطفة، كأنّها ومضات برق أو طلقات رصاص؛ فتُذكّر بهلاك الأولين، ثم الآخرين. ثم فجأة، وكأن السورة تهمس في أذن الإنسان تسأله: من أين جئت: {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}. ولم تقل "ماء دافق" كما في موضع آخر، بل قالت "مهين"- كلمة تحمل ذلّ الضعف وهوان البداية. وكأنها تريد أن تقول للإنسان المتكبر: "أنت من ماء يُهان، فلماذا تجبر وتتكبر على الحق؟".

ثم تشتدّ آيات السورة غضبًا، فتُرى النار في شُعَبها الثلاث، ويُرى شررها يتطاير كالقصور، ويُحرم الناس يومئذٍ حتى من الكلام: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ}، ويُحرمون من

الاعتذار: {وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُوا}. فكأنّ العاصفة قد بلغت غايتها، فلم تُبقِ لهم مخرجًا ولا منفذًا.

على أنّ السورة، في خضمّ هذا العنف كلّه، تفتح نافذةً من السكون والطمأنينة، فتستثني المتقين، وتُخرجهم من هذا الجوّ المخيف، كأنّها تُطمئنهم وتُبعدهم عن هذا الوعيد: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ . وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}. وهنا يهدأ الصوت لحظة، وتلين النبرة برهة، ويكاد القارئ يلتقط أنفاسه. كأنك تقف أمام نافذة في يوم عاصف، ترى الدمار في الخارج، وفجأة تشاهد غرفة هادئة مطمئنة، ليس لأن العاصفة ضعفت، بل لأن أصحابها في منأى عنها. إنها لفتة إنسانية عميقة، تقول لك: هذا الغضب ليس موجّهًا إليك إن كنت من المتقين.

لكن هذا الهدوء لا يدوم؛ فما هي إلا لحظة حتى تعود العاصفة تدوي من جديد بأشدّ مما كانت، ويعود ذلك الصوت القاسي الصارم: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ}، فكأنّ السورة لا تريد أن تدع السامع يطمئن طويلًا، بل تُعيده إلى جوّها الأول، جوّ الغضب العاصف الذي بدأت به، وتظلّ فيه حتى تبلغ منتهاها.

ثم تنتهي السورة بهذا السؤال القاطع: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}، وكأنّها قد أفرغت كل ما في جعبتها من حجج وصور وعواصف، فلم تُبقِ بعد ذلك مجالًا لشكّ، ولا موضعًا لتردّد.

سـورة النبأ

كل شيء محسوب ومضبوط

إن النفس وهي تتنسم سورة النبأ، لا تلبث أن تشعر بأنها تقف على مشارف كون عظيم، ليس كوناً عابثاً تلعب به الصدف أو تتخبط فيه العشوائية، بل كوناً أشبه بكتاب محكم الإغلاق، أو معبد قديم أقيمت أركانه بميزان لا يخطئ.

نحن في هذه السورة الكريمة، كأنما ننتقل من مشهد إلى مشهد، والله يفتح أعيننا على حقيقة هائلة: أن كل شيء في هذا الوجود مضبوط ومحسوب على أكمل وجه. فالأرض جعلها الله لنا مهادا، وطأناها بأقدامنا، ثم الجبال جعلها أوتاداً، كأنما تخيط الأرض إلى صميم الكون فلا تزول. ثم يذكرنا الله بأنه خلقنا أزواجاً، وجعل نومنا سباتاً لينقطع الإنسان قليلاً عن صخب الحياة، ثم النهار معاشاً لنسعى ونجتهد. كل هذا في إطار من الإحكام الشديد، لا خلل فيه ولا اضطراب.

ثم يصعد بنا السياق قليلاً، فيرفع بصرنا إلى السماء: سبع سماوات مبنية بإتقان، والشمس سراجاً وهاجاً يضيء هذا العالم. ثم الماء، ذلك السر العذب، ينزل من السماء فيخرج الله به الحب والجنات والطعام الذي به قوام أرواحنا قبل أجسادنا. أترى في هذا كله ثغرة؟ أترى شيئاً يخرج عن هذا النظام البديع؟

كلا، إن الكون يسير إلى غاية، ويتحرك كما يتحرك الجيش المنظم إلى موعده المضروب، أو كما يسير العابد الخاشع إلى محرابه. فإذا كان هذا هو حال الدنيا، فمن البين أن يكون يوم القيامة أيضاً ذاك الميقات المضبوط، ذاك اليوم الذي لا يعلم وقته إلا الله، حين ينفخ في الصور. وحينئذ، تأتي جهنم لا مجرد عذاب، بل "مرصاداً"؛ كَلِمة تحمل في طياتها معنى الانتظار الطويل، والترصد الدقيق، والتعقب لكل طاغٍ وأثيم. ثم يُختم المشهد بقوله: {وكل شيء أحصيناه كتاباً} كأن الكون كله أصبح ورقةً مسطورة، لا يغيب عن القلم فيها حرف، ولا نقطة، ولا إعجام.

وهنا يلمس القلب ذلك الانقسام العجيب في السورة؛ فكأنها تتألف من كفتي ميزان لا تعلو إحداهما على الأخرى: الأولى عن الخلق والإتقان، والثانية عن الجزاء والوفاء. إنها آلة كونية عدل، لا تظلم مثقال ذرة.

وفي الفصل الثاني، يتحول الحديث من هذه الدقة الرهيبة في الخلق إلى الدقة الرهيبة في الجزاء. فالمتقون لهم جنات وأعناب ونساء أتراب، وكأنه عوض ما لقوه من نصب في الدنيا. ثم تعود القلوب إلى الخشية والرهبة، حين تصف الآياتُ الملائكةَ وهم صامتون لا يتكلمون، يتقدمون إلى الله في خشوع، لا يشفعون إلا لمن أذن له، ولا يقولون إلا الصواب. إنهم خلق من الإحكام والتقدير أيضاً.

ويبقى الكافر في مشهد السورة الأخير يتمنى لو أنه تراب. يتمنى لو كان شيئاً لا يحاسب، لا يُسأل، لا يقف بين يدي ذلك الملك الجبار الذي أحصى كل شيء كتاباً. فيا للهول الموقف، ويا لروعة اللفظ القرآني الذي يردد إلينا كلمات الإحكام كالجرس: "لا يرجون حساباً"، "أحصيناه كتاباً"، "جزاء وفاقاً"، "مرصاداً". كلها ألفاظ تدق في الأسماع كأنها الساعة تعلن أن الأمر قد حُسم، وأنه لا سبيل إلى الفرار من هذا الملكوت الذي كل شيء فيه محسوب ومضبوط ومرصود. ذلك هو اليوم الحق، فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا.

سـورة النازعات

انطفاء الصخب

لست أبالغ إن قلت إن السورة التي نحن بصددها، سورة النازعات، إنما هي لوحة كونية مرعبة في جمالها، تدور حول محور واحد، هو "انطفاء الصخب" الذي نعيش فيه. إنها رحلة من الضجيج إلى السكون، من الغفلة إلى الدهشة، من حياة نعدو فيها كالوحوش إلى حياة نقف فيها لنسمع.

تفتتح السورة مشهدها بتلك الريح العاتية من الملائكة، "النازعات غرقًا"، كأنها أرواح شرسة حنون في آن، تنزع أرواحنا من أعماق هذه الجلبة التي نسميها حياة. إنها تنقلنا في طرفة عين من دنيا نغرق في شؤونها إلى عالم آخر، لا نعرف عنه إلا أن كل شيء هناك مختلف. هذه الملائكة، كما تصفها السورة، ليست جامدة، بل هي في سباحة دائمة في أرجاء الكون، وفي سبق دائم إلى كل أمر، وفي تدبير حكيم لا نكاد ندرك أسراره.

ثم تنتقل بنا السورة إلى ذلك اليوم الذي ترجف فيه الأرض رجفةً تجعل القلوب واجفة، متشوفة إلى ما سيأتي بعد هذه الرجفة. إنه يوم تترك فيه القلوب صخبها الكاذب، لتتطلع إلى تلك "الرادفة" التي تتبع "الراجفة". هناك، في تلك اللحظة، ينتهي كل ضجيج، ويسود الصمت المطلق.

وهنا يقف الإنسان حائرًا، يكذب بفكرة عودة روحه إلى جسده البالي الذي تحول إلى تراب. يظن أن النهاية هي تلك العظام النخرة، وهو مخطئ، فالسورة تأتي بقصة موسى عليه السلام لتوقظه من سباته. موسى الذي خرج يبحث عن نار يتدفأ بها، فإذا به يسمع نداء ربه في الوادي المقدس طوى! فتسكن جوارحه كلها، ويقف كالتمثال ليتلقى الأمر بالذهاب إلى فرعون، ذلك الطاغية الذي استغرق في صخبه وطغيانه. إنها دعوة للخروج من الضجيج إلى نور الوحي، ومن عبادة الذات إلى طاعة الخالق.

ثم تأتي اللوحة التالية، وهي أروع ما في السورة، حين تنتقل بنا إلى خلق السماوات والأرض. إنها تريد أن تقول لنا إن هذا الكون لم يُخلق عبثًا، بل أُتيح له أمر الله "ائتيا طوعًا

أو كرهًا"، فكان الجواب في أدب كوني مهيب: "أتينا طائعين". حتى السماوات والأرض أدركت أن الصخب ينتهي بالطاعة، وأن السكون هو أصل الوجود.

ثم، كأن كل شيء كان مقدمة، تأتي "الطامة الكبرى". وهنا ينتهي كل شيء في لحظة. يتذكر الإنسان ما قدمت يداه، وترى العيون الجحيم بارزة أمام الكافرين الذين آثروا فتنة الدنيا على هدوء الآخرة. إنها الجحيم التي ستكون حظ الطاغين. أما الذين كبحوا أنفسهم عن الهوى، ونهوها عن ذلك الصخب المزعج، فهم في جنة هي المأوى، جنة لا صخب فيها ولا لغو.

ويسألونك عن الساعة، متى هي؟ وكأن السؤال هنا ليس عن التوقيت، بل عن معنى الزمن كله. فيجيء الجواب الحاسم: إنها ستأتي بغتة، وستكون أقرب مما تتصور. وعندما تأتي، لن يشعر الإنسان بأنه عاش في هذه الدنيا إلا عشية أو ضحاها. فما أسرع انطفاء الصخب! وما أقصر عمره في ميزان الأبدية!

تلك هي سورة النازعات، ليس مجرد سورة، بل هي مأساة إنسانية كبرى، تعلمنا كيف نموت قبل أن نموت، وكيف نطفئ صخبنا بأيدينا قبل أن تطفئه يد القدر.

سـورة عبس

السعي نحو الأهم فالأهم

ليس أعمق ولا أشد إيلاماً في هذه الحياة من أن ينشغل الإنسان بظاهر الأمر فيفوته جوهره، أو أن يلهث وراء صاحب الجاه والسلطان فيضيع أواصر القلوب التي تخشى الله في السر والعلن. هذه هي القضية الكبرى التي تتردد في أعماق سورة "عبس" كأنها لحن حزين يعزفه كون قريب من قلوبنا، بعيد عن أبصارنا.

تبدأ السورة بدايةً تُثير النفس وتوقظها: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾. وليس في هذا اللفظ قسوة بقدر ما فيه من رفقٍ خفي، يُعاتب ولا يُجَرِّح، ويُوجِّه ولا يُدين. والمشهد الذي تشير إليه السورة معروف: جاء عبد الله بن أم مكتوم، ذلك الرجل الأعمى، يلتمس العلم، ويُقبل بقلبه قبل سمعه، بينما كان النبي ﷺ مشغولًا برجال من سادة قريش، يحدّثهم ويُرجّي إسلامهم، كأنّه يرى في هدايتهم نفعًا عظيمًا للدعوة.

ولم يكن هذا الظنّ بعيدًا عن العقل، ولا خارجًا عن مقتضى السياسة في الدعوة، ولكنّ السماء أرادت أن تُقيم ميزانًا أدقّ، وأن تُصحّح هذا التقدير. فالذي جاء يسعى، وهو يخشى، أولى بالرعاية من أولئك الذين استغنوا، وأعرضوا، ولم يُبدوا رغبةً صادقة في الهداية.

وهنا تلمع العبرة: ذلك الرجل الأعمى لم يرَ العبوس، ولكنه شعَّ به في هواء المجلس، ولو استطاع لذاب خجلاً. لكن الله، الذي لا يخفى عليه خافية، أراد أن يصوِّب البوصلة، وأن يعلّم عباده أن لا يُجرح مؤمن مهما كان وضعه، ولا يُرضى كافر مهما كان سلطانه.

ثم تمضي السورة في تأنيب لطيف، أو بالأحرى في درس قاسٍ للطبيعة البشرية: لماذا نلهث وراء من استغنى وتولى؟ لماذا نضيع الوقت الثمين في جدال من يعرف الحق ويعرض عنه عناداً؟ إن علم الغيب عند الله وحده، وهو يعلم أن أولئك لن يؤمنوا، ولن يزيدوا الإسلام إلا خسارة، ولن يزيدوا النبي إلا تعباً.

وتأتي بعد ذلك تلك اللفتة القرائية الجميلة التي تشبه همسة في أذن القلب: إن هذا الدين ليس بحاجة إلى كل هذه المعارك والجدالات. إنه "تذكرة". فمن كان في قلبه قبس من حب الهدى، كفاه أن يسمع الآية فينخلع قلبه. القرآن ليس كتاب حجاج، إنه صحف مكرمة، رفيعة القدر، بأيدي ملائكة أطهار. إنه ينادي القلوب الطاهرة، لا يجادل الألسنة الفاجرة.

ثم ينقلنا السياق فجأة من هذا الصراع الأرضي التافه، إلى غذاء الجسد، وإلى المسكون اليومي للإنسان الذي يسعى وراء خيرات الأرض من فاكهة وعنب وحدائق غناء. هذا الإنسان يختار الأفضل من الطعام وينتقي الأرغد من العيش، فكيف به يوم القيامة، حين ينسى كل هذه التفاصيل، وكل هذه الملذات، وكل هؤلاء الناس؟

في ذلك اليوم، يسعى الإنسان إلى "الأهم فالأهم"، إلى خلاص روحه من لهيب جهنم. حينها يفر من أخيه الذي لطالما سانده، ومن أمه التي أرضعته، ومن أبيه الذي رباه وكفله، ومن رفيقة عمره، ومن بنيه الذين كانوا فلذة كبده. لا جرم، فلكل إنسان منهم شأن يومئذ يشغله عن كل شيء، فكيف لا تشغله نفسه عنهم؟

إنها سورة تقول لنا، بأسلوب لا يخلو من حسرة، أن البشر يضحكون بأفواههم على أنفسهم: يبحثون عن الكنز في الطرقات المزدحمة بالأبالسة، ويتركونه في المحراب حيث تمد الملائكة أجنحتها. وما أجمل أن نتعلم أخيراً أن القيمة ليست في الجاه، بل في التذكرة. وأن الهدى ليس قهراً، بل هو همسة في قلب نقى..

هكذا تنتهي السورة وقد رسمت للإنسان طريقًا واضحًا: أن يُحسن ترتيب أولوياته، فيدع ما لا ينفع، ويُقبل على ما ينفع، وأن يُؤثر القلوب الحيّة على القلوب الغافلة، وأن يعلم أن الحياة- في بدايتها ونهايتها- إنما تُدار على هذا الميزان الدقيق: السعي إلى الأهم فالأهم.

سـورة التكوير

قيامة مماثلة

سورةَ التكويرِ لا تقوم على ذكر القيامة وحدَها كما يتبادرُ إلى الذهن بادئ الرأي، بل تُوحي، في رفقٍ وخفاء، إلى قيامتين: إحداهما تلك التي تَفجأُ الكون فتقلب نظامَه، وأخرى تُشبهها في هذه الحياة الدنيا، يراها الإنسان ولا يكاد يلتفت إليها.

فإذا قرأنا قوله تعالى: (إذا الشمس كُوِّرَتْ) انصرفَ الذهنُ إلى ما قاله القدماء من ذهابِ ضوئها وانطماس نورها. غير أنَّ العلم الحديث يُحدِّثنا حديثًا آخرَ، فيه من الرهبة ما فيه؛ إذ يُصوِّر لنا شمسًا تَفقد من مادتها شيئًا فشيئًا، حتى تَخبو نارُها، وتبردُ جذوتُها، ويضيق حجمُها بعد اتساع. فكأنَّ هذا التكوير ليس إلا انطواء القوة بعد امتداد الحرارة..

وإذا مضينا إلى قوله: (وإذا النجوم انكدرت) وجدنا المعنى القديم لا يجاوز ذهاب الضوء. لكنَّ العلم يكشف لنا عن حياة للنجوم، تبدأُ مولدًا، ثم شبابًا، ثم شيخوخةً، ثم فناء، حتى إذا بلغت منتهاها انطفأت كما تنطفئ السُّرُج. فكأنَّ انكدارها صورة من صور الموت الذي يعقب الحياة.

ثم نقرأ قوله: (وإذا الجبال سُيِّرَتْ) فنرى في ظاهر اللفظ زوالًا وهيبة. غير أنَّ الإنسان في عصره هذا قد استطاع أن يُزحزح الجبال عن مواضعها، وأن يشقَّها ويُزيلَها بما اخترع من أدواتٍ وآلات ومتفجرات، حتى كأنَّ الثابتَ قد صار متحركًا..

وقوله: (وإذا العُشار عُطِّلَتْ) فقد كانَتْ العشار أعزَّ ما يملك العربيُّ من الإبل، فإذا بها تُتركُ وتُهمَل. ونحن اليوم نرى نظير ذلك في استغناء الناس عن وسائلهم القديمة، وقد حلَّت محلَّها وسائلُ حديثةٌ أسرع وأقوى، كأنما الزمن نفسه يُعطِّل ما كان يومًا عزيزًا.

وقوله: (وإذا الوحوش حُشِرَتْ) أي جُمِعَت في أقفاص وسياجات ليراها الناس في السيرك وحدائق الحيوان. فنجدُ في عصرنا حشدًا من نوع آخر، حيث تُجمَع هذه الوحوش وتُروَّض، وتُعرض للناس في أماكن مخصوصة، كأنما الفطرة قد خضعت لإرادة الإنسان.

ويأتي قوله: (وإذا البحار سُجِّرَتْ) فيوحي بالامتلاء والاضطرام. فيرى الناظر في امتلاء البحار بالسفن والأساطيل صورةً من هذا السَّجْر، حيث لم تعد البحار خلاء كما كانت، بل غدت مسرحًا دائم الحركة.

وقوله: (وإذا النفوس زُوِّجَتْ) والتزويجُ في لغة العرب يعني ضمًّا وجمعًا، فنرى اليوم الوسائل التي تُقَرِّب البعيد، وتجمع بين المتباعدين، حتى كأنَّ النفوس قد اتصلتْ وإن تباعدت الأجساد..

وقوله: (وإذا الموؤودة سُئِلَتْ) إشارة إلى علم البصمة الوراثية والتشريح الجنائي الذي يجعلنا كأننا نسأل القتيل عن قاتله فيجيبنا.

وقوله تعالى: (وإذا الصحف نُشِرَتْ) يعنى ما نراه اليوم في المطابع الضخمة التي تنشر الكتب والمجلات بملايين النسخ في ساعة واحدة، وهو أمر لم يكن ليخطر على بال أحد منذ قرون.

وقوله تعالى: (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ) فإن "كشط الشيء" في لغة العرب هو أن تزيل عنه غطاء كان مستوراً به، يقال: كشطت الغطاء عن الإناء، وكُشِط البعير إذا سلخ جلده فبدت أحشاؤه. فكأن الآية الكريمة تريد أن تخبرنا أن للسماء غطاءً أو قناعاً مستوراً، وأنه أتى اليوم الذي رُفِع فيه هذا الغطاء، فبدت السماء على حقيقتها عاريةً مكشوفة.

غير أن بعض المفسرين في هذا العصر يذهبون إلى تأويل بعيد، وإن كان فيه شيء من طرافة البيان، إذ يرون أن السماء كانت كالهدية الثمينة أو كالآلة الحديثة – كالتلفون أو الحاسوب – تخرج من المصنع مغلفة لا تمسها يد، فلا يكشف غطاؤها إلا حين تصل إلى مالكها فيفتحها ويستعملها. هكذا السماء، كانت على مر العصور مغلقةً غامضةً، لم يصعد إليها إنسان، ولم تعرف الطائرات ولا سفن الفضاء سبيلاً إلى اختراقها، ولا عرف الناس من أمرها شيئاً يذكر. فجاء العصر الحديث فاخترع الإنسان الطائرات، وسفن الفضاء، والأقمار الصناعية، والتلسكوبات، والرادارات، فإذا به يخترق السماء، ويجوب آفاقها، ويكشف عما فيها من كواكب ونجوم ومجرات، وإذا به يعبث بها ويفحصها ويقلبها كيف شاء.

وكأن السماء على هذا التأويل قد كُشِطت كشط الغطاء عن شيء ثمين، فأصبحت مباحةً للجميع، مكشوفةً لكل ناظر، لا حجاب دونها ولا ستر.

وهكذا تمضي السورة، لا تقتصر على تصوير القيامة الكبرى، بل تُلقي في رُوعنا أنَّ للكون في حياتنا اليومية صورًا من التبدُّل والانقلاب، تُشبهُ- في بعضِ وجوهها- تلك القيامة العظمى، وإن اختلفت الغاية والمآل.

سـورة الانفطار

القيامة المباشرة

تدور سورة الانفطار حول مشهد صريح جليل، لا تورية فيه ولا خفاء، هو مشهد القيامة حين تقع وقوعا مباشرا لا يمهل ولا يؤخر. فالسماء تنفطر، وكأن هذا البناء العظيم الذي ألفناه ثابتا قد تصدع، والكواكب تنتثر بعد انتظام، والبحار تنفجر بعد سكون، والقبور تبعثر فيخرج ما كان مستورا فيها. عندئذ تقف النفس أمام عملها، لا يخفى عليها شيء مما قدمت أو أخرت.

ثم تقبل السورة على الإنسان تخاطبه خطابا فيه عتاب لطيف، ولكنه نافذ: ما الذي خدعك بربك الكريم؟ كيف اغتررت، وقد خلقت في أحسن تقويم، وسويت وعدلت، وأعطيت من النعمة ما يدعو إلى الشكر لا إلى الغفلة؟

ويمضي السياق فيكشف للإنسان أنه ليس متروكا لنفسه، بل عليه رقباء يلازمونه، يكتبون أعماله، لا يغفلون ولا ينسون، كأنما تحصى عليه أنفاسه عدا.

ثم تنقسم الطريق بعد ذلك قسمين واضحين: فهؤلاء الأبرار لهم نعيم يليق بما قدموا من إحسان، وأولئك الفجار لهم جحيم يوافق ما اقترفوا من إساءة. فلا اختلاط هنا ولا التباس، بل جزاء يقابل العمل مقابلة دقيقة.

وتنتهي السورة إلى حقيقة قاطعة، تسقط كل ما كان يعتد به الإنسان في دنياه: يوم لا تملك نفس لنفس شيئا، ولا يكون الأمر إلا لله وحده. وهنا يسكن الجدل، وينقطع الرجاء في غيره، ويثبت اليقين الذي لا يقبل الشك..

سـورة المطففين

اختلال الموازين واستقامتها

لعل القارئ إذا تدبر سورة المطففين لم ير فيها مجرد حديث عن قوم ينقصون الكيل أو يبخسون الناس أشياءهم، وإنما يرى وراء ذلك خُلُقًا أعمق وأبعد أثرًا؛ يرى نفوسًا اختل توازنها، فاختلت معها نظرتها إلى الحق وإلى الناس وإلى الحياة كلها. ولعل السورة من أولها إلى آخرها تعرض صورتين متقابلتين: صورة الطيش والخفة والاضطراب، وصورة الوقار والاتزان والسمو.

تبدأ السورة بالمطففين الذين إذا أخذوا من الناس استوفوا حقوقهم كاملة غير منقوصة، وإذا أعطوا غيرهم نقصوا وبخسوا: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ}.

فهم لا يقيمون للأمور ميزانًا مستقيمًا، ولا ينظرون إليها بعين العدل والإنصاف، وإنما يجعلون لأنفسهم مكيالًا ولغيرهم مكيالًا آخر. ومن هنا كان التطفيف أكثر من نقص في الكيل، بل هو اضطراب في الروح واختلال في النظر إلى الأشياء.

ثم تمضي السورة فتكشف عن أصل هذا الاضطراب، فإذا هؤلاء يكذبون بيوم الدين، ولا يقدرون لعاقبة الأمور قدرها، فكأنهم يعيشون للحظة الحاضرة وحدها، لا يرفعون أبصارهم إلى ما وراءها، ولا يزنون أعمالهم بميزان المستقبل.

ثم تراهم إذا سمعوا آيات الله أعرضوا عنها، وإذا ذكرت لهم الحقائق الكبرى قابلوها بالسخرية والاستهزاء. فهم لا يقفون موقف المتأمل الهادئ، ولا موقف الباحث عن الحق، وإنما يقفون موقف العابث الذي يجد في السخرية لهوًا، وفي الاستهزاء متعة.

ثم تبلغ هذه الصورة ذروتها حين تعرض السورة المجرمين وهم يضحكون من المؤمنين. تراهم يرمقونهم بأبصار السخرية، ويتغامزون إذا مروا بهم، ويشير بعضهم إلى بعض في خفة واستخفاف. فإذا عادوا إلى أهليهم عادوا فاكهين، يروون ما صنعوا، ويتندرون بما قالوا، ويجدون في ذلك كله ما يملأ مجالسهم ضحكًا ولهوًا.

وكأن السورة تريد أن تصور نفوسًا فقدت وقارها، فلم يبق فيها إلا العبث والاستهانة والضحك من كل شيء، حتى من الحق نفسه.

ثم إذا انتقلت السورة إلى الأبرار تغير المشهد كله. فإذا نحن أمام وجوه أخرى، ونفوس أخرى، وحياة أخرى. لا ضجيج فيها ولا عبث، ولا سخرية فيها ولا استخفاف. وإنما سكينة وطمأنينة ورفعة.

فالأبرار في عليين، في مقام رفيع سامٍ، قد علت نفوسهم عن سفاسف الأمور، وارتفعت هممهم عن مواضع اللهو والعبث. وإذا نظرت إلى وجوههم رأيت فيها أثر النعيم، ورأيت فيها نور الطمأنينة وجلال الرضا.

ثم يسقيهم ربهم من الرحيق المختوم، ذلك الشراب الطاهر الذي لم تمسه كدورات الدنيا ولا شوائبها، فكأن صفاء الشراب صورة لصفاء النفوس، وكأن طهارته أثر من آثار تلك الحياة التي قامت على الاستقامة والاعتدال.

هكذا تمضي السورة بين هذين النموذجين المتقابلين: قوم خفّت عقولهم فعبثوا بالحقوق، واستخفوا بالناس، وسخروا من المؤمنين، وقوم سمت نفوسهم فاستقامت موازينهم، وهدأت قلوبهم، وارتفعت أرواحهم إلى مراتب الكرامة والرضوان.

فإذا انتهت السورة انقلب الموقف كله؛ أولئك الذين كانوا يضحكون بالأمس أصبحوا موضع الخسران، وهؤلاء الذين كانوا موضع السخرية أصبحوا أهل الكرامة والنعيم. وعندئذ يستقيم الميزان الذي عبث به المطففون في الدنيا، ويظهر الفرق بين خفة الطيش التي تزول بزوال أسبابها، وبين الوقار الذي يبقى أثره في الدنيا والآخرة.

سـورة الانشقاق

الإبحار عبر الفضاء

المحور الذي تدور حوله سورة الانشقاق فهو الإبحار عبر الفضاء، حيث تبدأ السورة بقوله تعالى: {إذا السماء انشقت}، أي بدأ الإنسان يشق الغلاف الجوي ويصعد فيه، حيث أنه لم يسبق لبشر أن صعد إلى السماء وتجاوز الغلاف الجوي إلى الكواكب الأخرى إلا من خلال العصر الحديث حين اخترع فيه سفن الفضاء وهذه الصواريخ العجيبة. ثم تشير السورة إلى كدح الإنسان وإعمال الذهن والتفكير والجد، وهذا سوف يلاقيه ولن يضيع أبدًا، فمن جد وجد ومن زرع حصد. كما تشير السورة إلى أن الإنسان يجب أن يعمل الخير والصلاح حتى يؤتى كتابه بيمينه، ولا يؤتى كتابه بشماله أو من وراء ظهره، وعندها سوف يدعو على نفسه بالهلاك والثبور لأنه كان في أهله مسرورًا لا يحسب حسابًا لهذا اليوم الذي سيحاسب فيه على كل شيء، ثم تشير السورة إلى انتقال الإنسان من كوكب إلى كوكب.

و قوله تعالى: (وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ. لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ): معناها أن الذهاب إلى كون آخر سيكون عندما يتسق القمر. ومن معاني الاتساق الانتظام والاستقامة كما تقول التفاسير؛ يقول الإمام الرازي: {والقمر إِذَا اتسق } أصل الكلمة من الاجتماع يقال: وسقته فاتسق كما يقال: وصلته فاتصل، أي جمعته فاجتمع ويقال: أمور فلان متسقة أي مجتمعة على الصلاح يعني منتظمة..

أما الاتساق من وجهة نظر علماء الفلك المعاصرين فهو عندما يكون القمر والأرض والشمس على خط واحد مستقيم. وهذا لا يكون إلا في بداية الشهر القمري أو في نهايته، كما يقول: سيرل أيدن مؤلف كتاب "فضولية العلم" ص٢٢.

لذلك وجدنا- وهنا الشاهد- أن أول صعود للإنسان إلى القمر كان في: ٢١ ديسمبر ١٩٦٨م وهو يوافق ٣٠ رمضان ١٣٨٨هـ. وهذا التاريخ هو تاريخ انطلاق مركبة أبولو٨ الفضائية؛ حيث دخلت أبولو٨ في مدار حول القمر وأصبح "بورمان ولوفل واندرس"

هم أول بشر على الإطلاق يحلقون حول القمر وأول بشر يشاهدون الجانب الخلفي البعيد من القمر بشكل مباشر والذي لا يظهر أبدا من الأرض.

والمدهش أننا إذا تتبعنا معظم رحلات الإنسان إلى القمر سوف نجدها إما في نهايات الشهر القمري أو في بداياته، يعني عندما يتسق القمر مع الأرض ومع الشمس، كما ذكر القرآن العظيم، يعني يكون القمر والأرض والشمس على خط واحد مستقيم، وهذا مصداق قوله تعالى: (وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ. لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ. فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ)؟

سـورة البروج

ثكنات عسكرية

إن القارئ لسورة البروج لا يكاد يفرغ من تلاوتها حتى يخيل إليه أنه أمام مشهدٍ رهيب من مشاهد الصراع بين القوة العارية والإنسان الأعزل؛ بين سلطانٍ يملك البطش والنار، وجماعةٍ لا تملك إلا إيمانها.

فالسورة منذ مطلعها تهيئ النفس لهذا الجو المملوء رهبةً واضطرابًا:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾.

وكلمة "البروج" نفسها تثير في الخيال صورة الحصون المرتفعة، والثكنات العسكرية، والأبراج التي يعتليها الحراس والجنود يرقبون الناس من علوّ، كأن الأرض كلها واقعة تحت عين السلطة وهيبتها.

ثم لا يلبث هذا الإحساس أن يتحول إلى صورة أشد قسوة وعنفًا، حين تنتقل السورة إلى الحديث عن أصحاب الأخدود؛ أولئك الذين حفروا في الأرض خنادق عظيمة، وأشعلوا فيها النيران، ثم أخذوا يلقون فيها المؤمنين إلقاءً، لا لجرمٍ ارتكبوه، ولا لعدوان اقترفوه، وإنما لأنهم أرادوا أن يتحرروا من عبادة البشر إلى عبادة الله.

وهنا يبلغ التصوير القرآني غايةً من العمق النفسي؛ لأن الجريمة ليست في القتل وحده، بل في هذا البرود الوحشي الذي يصاحب القتل. فالقرآن لا يقول إنهم قتلوا وانصرفوا، وإنما يقول:

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾.

كأن هؤلاء الجالسين حول النار لم يعودوا بشرًا تحركهم الرحمة أو الشفقة، إنما أصبحوا آلات صلبة، تتفرج على احتراق الأجساد كما يتفرج الناس على مشهد من مشاهد اللهو. وللقارئ أن يتخيل في ضوء هذا المعنى جنودًا مدججين بالسلاح، يحيطون بالمدن

والشوارع، يطلقون النار على الأبرياء تحت سمع العالم وبصره، بينما يقف الناس موقف المتفرج الذي يرى ولا يتحرك.

والعجيب أن السورة تختصر سبب هذا العذاب كله في آية واحدة قصيرة:

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

فلم يكن ذنب هؤلاء أنهم طلبوا ملكًا أو مالًا أو سلطانًا، إنما ذنبهم أنهم أرادوا حرية الروح، وأرادوا أن يخرجوا من سلطان الأرض إلى سلطان السماء، ومن عبودية البشر إلى عبودية الله وحده.

ثم تمضي السورة بعد ذلك فتكشف زيف القوة التي يتكئ عليها الطغاة. فهؤلاء الذين يملكون الأبراج والجند والنيران، يظنون أن الأمر قد استقر لهم، وأن البطش بأيديهم، ولكن القرآن يفاجئهم بالحقيقة الكبرى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

فهناك قوة أعلى من كل قوة، وسلطان أوسع من كل سلطان. والله الذي يبدئ الخلق ويعيده، قادر على أن يقلب الموازين كلها في لحظة؛ فيجعل الجالس على العرش أسيرًا، ويجعل المستضعف الذي كان يُساق إلى النار وارثًا للأرض والخلود.

ومن هنا تذكر السورة فرعون وثمود، لا على سبيل الحكاية التاريخية، بل لتقرر أن الطغيان يتكرر، وأن نهايته تتكرر أيضًا. فما أكثر ما امتلأت قصور الملوك بالكهنة والسحرة والشعراء الذين يصنعون الأكاذيب للناس، ويزينون للظالم ظلمه، حتى يخيل إليه أنه خالد لا يُقهر.

ولكن القرآن يقطع هذا الوهم كله بقوله:

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾.

أي أن الحقيقة ليست فيما تصنعه الدعاية، ولا فيما تكتبه السلطة، إنما الحقيقة ثابتة عند الله، محفوظة من التبديل والزوال. وما يقع للطغاة ليس حادثة عابرة، بل سنة من سنن التاريخ، تتكرر كلما ظن الإنسان أن النار أقوى من الإيمان.

سـورة الطارق

الاختراق

إذا تدبّرنا سورة «الطارق» في سياقها العام، لاح لنا أنها تسير بالقارئ في نسقٍ بديع، تنتظم فيه مشاهد الكون والإنسان والآخرة، تحت معنى جامع، هو نفاذ القدرة الإلهية إلى ما خفي واستتَر، وإخراج ما في الحجب إلى حيّز الظهور..

تبدأ السورة بهذا السؤال الذي يثير العقل ويوقظ الحس: ﴿وما أدراك ما الطارق﴾، ثم تجيب: ﴿النجم الثاقب﴾. وليس هذا النجم في تصويره مجرد ضوءٍ يلمع، بل هو ثاقب، نافذ، كأنما يخترق الظلام اختراقًا، فيشقّه شقًّا، ويصل إلى ما وراءه. فكأن أول مشهد في السورة هو اختراق كوني، يقع في أعالي السماء.

ثم لا تلبث السورة أن تنتقل من هذا الاختراق الخارجي إلى اختراقٍ أعمق وأدق، حين تقول: ﴿إن كل نفسٍ لما عليها حافظ﴾. فليس في الإنسان سرٌّ مستور، ولا خاطرٌ خفي، إلا وهو مكشوف، محفوظ، كأنما تُخترق سرائره اختراقًا، فلا يبقى فيها شيءٌ محجوب.

ثم تدعو السورة الإنسان إلى أن ينظر في أصل خلقه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾، فإذا هو مخلوق من ماءٍ دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، ثم تجد حيواناً منويًا يخترق البويضة. وهنا صورة أخرى من صور النفاذ، كأن هذا الحيوان المنوي يندفع اندفاعًا، ويشق طريقه شقًّا حتى يبلغ غايته، فيكون منه الخلق. فهي ليست حركةً ساكنة، وإنما هي قوةٌ دافعة، تخترق لتُنشئ حياة.

ثم ترتفع السورة إلى مشهدٍ آخر، أشد رهبة وأعمق أثرًا: ﴿إنه على رجعه لقادر . يوم تُبلى السرائر﴾. فإذا كان الإنسان قد خرج أول مرة، فإنه سيخرج مرةً أخرى، ويخترق حجب الموت، ويشق جدار القبور، ليظهر ما كان خافيًا من أمره. وهنا يبلغ الاختراق غايته، إذ لا يبقى سرٌّ مستور، ولا باطنٌ مكتوم.

ثم تعود السورة إلى السماء: ﴿والسماء ذات الرجع﴾، فتُوحي بسماءٍ تردّ ما يُصعد إليها وتمنع الاختراق، وكأنها حدٌّ لا يُتجاوز، أو نظامٌ لا يُخترق إلا بقدر.

وتختم السورة بالقسم بالأرض: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾، فإذا هي تنشقّ، ويخترقها النبات، كأنما تنفذ الحياة من باطنها إلى ظاهرها، في صورةٍ من أبلغ صور الاختراق، حيث يخرج الضعيف من الصلب، والحيّ من الجماد.

هكذا، إذا مضيت مع السورة من أولها إلى آخرها، رأيت سلسلة من الصور المتتابعة: نجمٌ يخترق الظلام، وسرائر تُخترق فتُكشف، وماءٌ يندفع فينشئ الحياة، وإنسانٌ يخترق القبر فيُبعث، وأرضٌ تنشقّ فيخرج نباتها. فكأن السورة كلها حديثٌ عن هذا النفاذ المستمر، الذي يُخرج الخفيّ إلى العلن، ويُظهر المستور بعد أن كان محجوبًا.

سـورة الأعلى

الذكر والتذكر

المحور الذي تدور عليه سورة الأعلى هو الذِّكر والتذكُّر؛ فهي سورة توقظ القلب من غفلته، وتردُّ الإنسان إلى ربه ردًّا رفيقًا هادئًا، كأنها نداء يأتي من السماء ليوقظ الضمير النائم، ويذكّر النفس بما نسيت من حق الله عليها.

تبدأ السورة بهذا الأمر الجليل: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، وكأن القرآن منذ اللحظة الأولى يدعو الإنسان إلى الذكر؛ إلى أن يلهج القلب واللسان بعظمة الله وتنزيهه. وليس هذا التسبيح لفظًا يقال فحسب، بل هو شعور يملأ النفس هيبةً وخشوعًا، حين تتأمل قدرة الله وآثار صنعه في الكون.

ثم تمضي الآيات بعد ذلك تبيّن لماذا يستحق الله هذا الذكر وهذا التسبيح، فتقول: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾. فهي تعرض للإنسان مشاهد الخلق والحياة والموت، ومظاهر القدرة التي يراها كل يوم ثم يمر بها غافلًا كأنه لم ير شيئًا. فهو يخرج المرعى أخضر ناضرًا، ثم لا يلبث أن يصير أسود يابسًا، وفي هذا التبدل تذكرة للإنسان بحاله وحال الدنيا جميعًا.

ثم تنتقل السورة من الذكر إلى التذكُّر، فتقول للنبي ﷺ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى﴾، وكأن حفظ الوحي نفسه صورة من صور التذكير الإلهي؛ فالله لا يترك رسالته تضيع، ولا يترك الحق يُنسى. ثم يجيء الأمر الصريح بعد ذلك: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾، لأن مهمة الرسالات كلها أن توقظ القلوب من غفلتها، وأن تعيد الإنسان إلى فطرته الأولى قبل أن تفسدها الدنيا والشهوات.

ثم تبين السورة أن الناس ليسوا سواءً في تلقي الذكرى؛ فهناك قلب يخشع إذا ذُكِّر، ونفس تلين إذا سمعت الحق، ولهذا قالت: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾. أما الذي قسى قلبه واستغرق في غروره، فإنه يفر من الذكر كما يفر المريض من الدواء.

وفي خاتمة السورة تبلغ هذه المعاني ذروتها، حين تربط الفلاح كله بالتذكُّر، فتقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾. فكأن النجاة الحقيقية ليست في المال ولا في القوة ولا في متاع الدنيا، وإنما في قلب يذكر الله، ونفس تتطهر من غفلتها، وإنسان كلما دعته الحياة إلى النسيان أعاد نفسه إلى الذكر، وكلما أبعدته الدنيا عن ربه عاد إليه منيبًا خاشعًا.

ذلك هو محور السورة في كلمتين: الذكر والتذكر. أولهما ينير الطريق، وآخرهما يوصلك إلى النهاية المطمئنة.

سـورة الغاشـية

زمن التفاهة

من اللافت في سورة «الغاشية» أنها تدور حول ما يمكن أن نسميه بـ«زمن التفاهة»؛ ذلك الزمن الذي تسود فيه الأفكار الهزيلة، وتتقافز على سطح الحياة كالرغوة، زاعمة أنها الحقائق الكبرى. وهي من أوائل ما نزل بمكة، وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، يتعهدها في الجمعة والعيدين، كأنما كان يريد أن يذكر المؤمنين بأن هذه القضايا ليست عارضة، بل هي نابعة من صميم حياة الإنسان في كل حين.

وتفتتح السورة بسؤال مهيب: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ؟﴾. والغاشية - في أصل اللغة- ما يغشي الناس ويغطيهم. وقد أُطلق هذا الاسم على يوم القيامة لأنه يغشى الخلق بأهواله. غير أن اللفظ، بما فيه من سعة وإيحاء، يدعونا إلى تأمل كل حادثة كبرى أو فكرة جارفة أو تيار عظيم يستولي على الجماعات، فيملأ عقولها ويصرفها إلى وجهة بعينها، حتى كأنه غطاء يحيط بها من كل جانب.

ولعل تاريخ الإنسانية كله سلسلة من هذه الغواشي؛ تظهر فكرة فتجذب إليها القلوب، ثم تلبث أن تفسح الطريق لفكرة أخرى. وتقوم عقائد ومذاهب وأنظمة، فيقبل عليها الناس حينًا، ثم ينصرفون عنها حينًا آخر. وقد شهد العالم في عصوره المختلفة موجات فكرية وسياسية واقتصادية كان لها من القوة والنفوذ ما جعلها تؤثر في حياة الملايين، وتطبع سلوكهم بطابعها الخاص. فالغاشية- حسب هذا التأمل- هي كل موجة فكرية كبرى، أو عقيدة دينية، أو ثورة شعبية، أو حرب أهلية، أو حتى فن من الفنون إذا ما استشرى بين الناس فصار له سلطان على نفوسهم وسلوكهم. فهذه الغواشي تَغْشَى البشر، بين الحين والآخر، مثل الشيوعية، والرأسمالية، وغيرها من المذاهب الإلحادية التي تدين بها جماهير البشر في زمن ما. كذلك أفلام هوليود التي تنفق عليها الأموال الطائلة لتضليل الناس، فهي غاشية من غواشي العصر.

وإذا سرنا في هذا المعنى، وجدنا أن شيوع العقائد النصرانية وازدهارها في زماننا هذا غاشية أخرى، لأنها قد غشت أكثر من نصف الكرة الأرضية، وآمن بها كثيرون، فأصبحت عقيدة شيطانية رائجة. وقد أشار ابن عباس، رضي الله عنه، إلى شيء من هذا حين فسر قوله تعالى: «وجوه يومئذ خاشعة» بأنها وجوه اليهود والنصارى، وقيل: هي وجوه الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع.

أما « الوجوه الخاشعة » قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ}؛ فهي الوجوه الجامدة التي تتظاهر بالتقوى والإيمان، كأنها عرفت الحقيقة الإلهية وفاضت قلوبها بالمعارف الصحيحة، ولا حقيقة وراء ذلك الخشوع الزائف. وقد يكون معنى الخشوع هنا هو التصميم على طلب الشر، والسعي الجاد الدؤوب في خدمة الطاغوت والعقائد الفاسدة التي يظنونها حقًا.

ثم تأتي الصفة الثانية: «عاملة ناصبة». أي تعمل ليل نهار في خدمة تلك العقيدة الباطلة، أو في نشر المبادئ الشيطانية، فتحمل النصب والتعب في سبيل هذا الباطل. وإن كان المقصود بهم الأحبار والرهبان - كما روى ابن عباس- فإنهم يعملون ليل نهار في خدمة الصليب، ويتحملون المشقة في الدعوة، وإنفاق الأموال، وتأليف الكتب، وتدبير المكائد. وربما ترهبنوا وانقطعوا عن الزواج وغيره من المباحات، ثم لا يجنون من كل هذا إلا التعب والنصب.

وقد ذهب الماوردي في تفسيره إلى أن هذه إشارة إلى عقيدة النصارى في الاعتراف أمام الكاهن، إذ يظهرون الخشوع والتوبة بعد المعصية. وقال السمرقندي: إنها نزلت في رهبان النصارى، فهم عاملة في الدنيا ناصبة في العبادة، أشقياء في الدارين.

وكلمة «ناصبة» تحتمل معنى آخر، وهو العداوة الظاهرة. فالنواصب هم الذين أظهروا العداء للإسلام، واتفقوا عليه، وأضمرت صدورهم الحقد والضغائن. وعلى هذا، فهم يتآمرون ويكشفون عن عداوتهم بأعمالهم.

ثم يكون مصيرهم: «تصلى نارًا حامية» و «تسقى من عين آنية» أي شديدة الحرارة، وليس لهم طعام إلا من «ضريع». والضريع: نبت تأكله الإبل رطبًا، فإذا يبس صار سمًا لا يُسمن ولا يُغني من جوع. وفي معنى الضريع إيحاء بالمضارعة والمشابهة؛ أي أن هذه

الأفكار في زمن التفاهة لا تكون إلا تافهة متشابهة مقلدة، ليس فيها إبداع ولا عبقرية، إنما هي محاكاة سيئة للماضين. ثم تشير الآية التالية إلى أن هذه الأفكار لا تُسمِن ولا تغني من جوع.

ثم تقارن السورة بين التافهين والجادين، فتصف الوجوه الناعمة الراضية في جنة عالية، لا يسمعون فيها لغوًا، بل في عيون جارية، وسرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وزَرابي مبثوثة. ثم تنتقل إلى التأمل في خلق الإبل والسماء والجبال والأرض، كأنها تشبه التافهين بالابل التي لا هم لها إلا الأكل والسير، وتشبه الجادين بالسماء المرفوعة والجبال الراسيات والأرض المبسوطة التي تريح الخلق وتنفعهم. فالإبل مخلوقة على نمط التفاهة القائمة على التكيف مع الوحشة، والسماء والجبال والأرض على نمط الجدّة والأصالة والثبات.

وتختم السورة بتذكير ونصح: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ}. فليس عليك إلا التذكير، أما حسابهم فعلى الله. هكذا تظل سورة الغاشية نافذة يطل منها المؤمن على صراع الفكر الباطل مع الفكر الحق، في زمن تكثر فيه الغواشي وتتفاقم فيه التفاهة.

سـورة الفجر

تحطيم الأغلال وانقشاع الظلام

تدور سورة الفجر حول التحول العظيم الذي تنتقل فيه الحياة من حال إلى حال، ومن طور إلى طور، كما ينتقل الكون نفسه من ظلمة الليل إلى نور الصباح. فهي سورة تبشر النفوس المكروبة بتبدل الأحوال وانبلاج النور. فالمحور الذي تدور عليه السورة، وتؤوب إليه معانيها في بيان عذب وجمل متناغمة، إنما هو «تحطيم الأغلال وانقشاع الظلام»؛ وهو رمز بليغ يشير إلى الانعتاق من أسر الماضي الكئيب، والتحرر من عهود الطغيان، إيذاناً بابتداء عهد جديد مشرق ينشر الحرية ويبعث الأمل في النفوس..

تبدأ السورة بافتتاح جليل يفيض روعة وجلالاً، إذ تقسم بـ« الفجر»؛ وما الفجر في حقيقة الأمر إلا ذاك الضياء الساطع الذي يمزق سواد الليل الطويل، ويهتك أستار الظلمة الكثيفة، فإذا بالخلق جميعاً يرقبون هذا الفجر الجديد المنتظر الذي يغير الأوضاع ويبدل وجه الأرض. ثم تقسم السورة بـ «ليالٍ عشر»؛ مباركات حاسمات يذهب بفيضهن الليل البهيم ويحل محله النور المشرق، وفي هذا كله قسم بليغ وحجة دامغة لكل ذي عقل يتدبر ويعقل سنن الله في خلقه.

ثم تنعطف الآيات انعطافة حاسمة لتصور تدمير قوى البغي والعتو، والإتيان بذاك العهد الجديد بعد أن تخر عروش الظالمين:

عاد ذات العماد: تلك التي لم يخلق مثلها في البلاد عظمة وبطشاً وشدة، كيف صارت أثراً بعد عين؟

وثمود الذين جابوا الصخر بالواد: وعاثوا في الأرض طغياناً وفساداً.

وفرعون ذو الأوتاد: المستكبر بملكه وجبروته.

أولئك جميعاً طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، فما كان من ربك إلا أن صب عليهم سوط عذاب، فغسل الأرض من رجسهم غسلاً، وطهر الوجود من كبريائهم تطهيرًا.

ثم تنتقل السورة إلى تصوير دخائل النفس الإنسانية وسوء تفكيرها، حين يتقلب المرء بين حال وحال، ويأتيه زمن نقيض لزمن آخر؛ فإذا ما ابتلاه ربه بالإحسان والنعمة بعد فقر وضيق، داخله الكبر وزعم في غرة: «ربي أكرمن»، وإذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه وضيق عليه العيش بعد سعة، سخط وقال في ملامة: «ربي أهانن».

ولكن القرآن الكريم يرد على هذا الوهم فيرده ويبطله، صائحاً بعبارة زاجرة: «كلا»؛ فليست المسألة إكراماً ولا إهانة، إنما هو تقصير الإنسان في حق أخيه الإنسان؛ إذ هو لا يكرم اليتيم المستضعف، ولا يحض على طعام المسكين البائس، ويأكل التراث والأموال أكلاً لماً شديداً، ويحب المال حباً جماً يطغى على فطرته ويقيد روحه بأغلال الطمع.

وتصل السورة إلى ذروة الهول والبيان، حين تشير إلى انقلاب هذا الكون من النقيض إلى النقيض؛ فإذا بالأرض التي كانت مستقرة ممهدة تدك دكاً عنيفاً متتابعاً، وإذا بالرب جل جلاله يجيء والملائكة خاضعون واقفون صفاً صفا، وإذا بجهنم يؤتى بها بارزة للعيان.

وعندئذ، وأمام هذا المشهد الذي يذهل العقول، ينقلب فكر الإنسان، وتنقشع عنه غشاوة الغفلة، فيتذكر كل ما سلف من أمره في حياته الغابرة، ويدخل في طواف من الندم وهو يقول: «يا ليتني قدمت لحياتي». ولكن ما أغنى عنه التذكر؟ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد.

بيد أن السورة لا تختم أحاديثها بذاك الهول المروع، بل تفتح في وسط هذا الاضطراب الكوني العظيم نافذة من السكينة والطمأنينة؛ إذ تبرز تلك «النفس المطمئنة» المستقرة التي حطمت أغلال الهوى في الدنيا، فإذا بالنداء الإلهي العذب ينسكب في روعها إيناساً وتكريماً: {ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}

فتعود إلى بارئها مستبشرة راضية بما نالت، مرضية بما قدمت، لتدخل في حظيرة الصالحين، وتسعد بجنة الخلد مسرورة آمنة..

سـورة البلد

جلبة الأسواق

كأن القارئ حين يقرأ سورة البلد يجد نفسه في قلب سوقٍ صاخب من أسواق مكة؛ يسمع ضجيج الباعة، ويرى الناس يروحون ويجيئون، زرافات ووحدانًا؛ هذا يعرض تجارته، وذاك يساوم على سلعته، وآخر يفاخر بما جمع من مال ومتاع. والسورة كلها تتحرك في هذا الجو المزدحم بالحركة والبيع والشراء والتفاخر والقسوة، حتى ليخيل إلى القارئ أنه يرى مكة القديمة بعينيه، بما فيها من غنى وفقر، ورحمة وقسوة، وكِبر واستضعاف.

ولهذا كان المحور الذي تدور عليه السورة هو حياة الناس في هذا المجتمع الذي غلبت عليه المادة والأسواق، حتى ضعفت فيه الرحمة وغلبت الأنانية.

تبدأ السورة بالقسم بهذا البلد: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، وكأن القرآن يشير إلى تلك المفارقة المؤلمة؛ فمكة بلد الله الحرام، الذي كان ينبغي أن يكون موطن الأمن والتكريم، ومع ذلك يُهان فيه النبي ﷺ، ويُستباح حقه، ويُؤذى في طرقاته وأسواقه. يمشي بين الناس فلا يلقونه بالإجلال، بل يشير إليه بعضهم ساخرين مستهزئين: أهذا الذي بعث الله رسولًا؟! فكأن السورة منذ بدايتها تكشف فساد القيم حين يصبح صاحب الحق غريبًا في وطنه، مستباح الحرمة بين قومه.

ثم تنتقل السورة إلى حقيقة الحياة نفسها، فتقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾. فالإنسان يعيش في تعب دائم؛ يسعى، ويكدح، ويجري وراء رزقه من أول النهار إلى آخره، كأن الحياة كلها سوق لا يهدأ. فإذا أصاب شيئًا من الغنى ظن أنه قد استغنى واستعلى، وتوهم أن قوته وماله سيجعلان له سلطانًا لا يُغلب: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾. ثم لا يلبث أن يتفاخر بما أنفق وما جمع، فيقول مزهوًّا: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾، كأن كثرة المال وحدها دليل المجد والرفعة.

ومن اللطيف الذي يثير التأمل في سورة البلد أن لفظ ﴿كَبَد﴾ لا يقتصر معناه على المشقة والعناء فحسب، بل يحمل في العربية إيحاءً آخر متصلًا بمنتصف الشيء وذروته. فالعرب تقول: كانت الشمس في كبد السماء، أي في وسطها حين يشتد الضياء وتبلغ الحرارة غايتها، وذلك وقت الضحى واحتدام الحركة في الأسواق، حين تضج الطرقات بالناس، ويكثر البيع والشراء، ويعلو نداء الباعة والمساومين.

فكأن السورة، بهذا التعبير الموجز العميق: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾، لا تشير إلى معاناة الإنسان وحدها، بل توحي كذلك بأنه مخلوق في قلب الصراع الإنساني، وفي ذروة الحركة الدائبة التي لا تهدأ؛ حياة تضج بالتنافس والسعي والكسب، كما تضج الأسواق ساعة اشتداد النهار.

لكن السورة ترد الإنسان إلى أصله، وتذكره بأن الوسائل التي يكسب بها رزقه ليست من صنعه، إنما هي عطية من الله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾. فالعين التي يبصر بها، واللسان الذي يتكلم به، والطريق الذي يسلكه إلى الخير أو الشر، كل ذلك فضل من الله لا يملك الإنسان منه شيئًا.

ومن الملاحظ أن قوله تعالى ﴿ألم نجعل له عينين ولسانًا وشفتين﴾ يكتسب دلالة خاصة؛ إذ لم تذكر السورة اليدين مثلًا، مع أن العمل والكسب يكونان بهما أيضًا، وإنما خَصّت اللسان والشفتين، لأن السوق في جوهره قائم على الكلام: على النداء، والمساومة، والإقناع، والترويج للبضائع، والمدح والذم، والوعد والإغراء. فاللسان في السوق أداة كسب لا تقل أثرًا عن اليد، بل قد تكون أشد سلطانًا منها.

ثم تكشف السورة وجهًا آخر من وجوه السوق في ذلك العصر؛ سوق العبيد الذين كانوا يُباعون ويُشترون كما تُباع السلع. وهنا ترتفع السورة بالإنسانية من القسوة إلى الرحمة، ومن الأنانية إلى البذل، فتقول: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ﴾. فكأن العقبة الحقيقية ليست في جمع المال، بل في تحرير الإنسان من الذل والعبودية.

ثم تمضي السورة تدعو إلى إطعام الجائعين في أيام المجاعة، يوم يعجز الناس عن شراء الطعام في الأسواق، وإلى رعاية اليتيم القريب الذي فقد السند، والمسكين الذي لا يملك شيئًا حتى كأنه ملتصق بالتراب من شدة الفقر والحاجة.

ثم تجمع السورة هذه الفضائل كلها في خاتمة رائعة: أن تكون من الذين آمنوا، وتواصوا بالصبر، وتواصوا بالمرحمة. فمن فعل ذلك، فهو من أصحاب الميمنة، الذين يؤتون كتبهم يوم القيامة بأيمانهم، مبشرين بالجنة.

أما الذين قست قلوبهم، وكفروا بآيات الله، واستغرقوا في غرور المال والقوة، فأولئك هم أصحاب المشأمة، الذين تحيط بهم النار إحاطة السجن المغلق، فلا يجدون منها مخرجًا ولا خلاصًا.

سـورة الشمس

المثاني الثانية

سورة الشمس من السور التي يتجلى فيها معنى المثاني في القرآن الكريم، حتى ليخيل إلى القارئ وهو يتلوها أنه أمام بناء فني محكم، قد أقيم على التوازن والتناظر إقامةً تثير الإعجاب وتدعو إلى التأمل. وكأن هذه السورة تصدق أصدق التصديق قول الله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾.

فنحن إذن أمام سورةٍ من تلك السور السبع المثاني التي نوّه بها الذكر الحكيم، ولكنك حين تقرؤها أو تصغي إليها، لا تملك إلا أن تأخذك دهشة عارمة، ويسيطر على نفسك شعور بـالروعة والجمال؛ نظراً لهذا التركيب الثنائي العجيب، والنظم الفريد الذي يكاد يحاكي في هندسته الإيقاعية قصائد الشعر المشطور، حيث تنقسم السورة في فواصلها المتواترة إلى قسمين متعادلين، تجري الألفاظ في شطرها الأول لتلتقي بقافية ثابتة كأنها "اللازمة" الراتبة في النغم، يسلمك أولها إلى آخرها في اتساقٍ بديع وسبك ممتع:

وَالشَّمْسِ ... وَضُحَاهَا

وَالْقَمَرِ إِذَا ... تَلاهَا

وَالنَّهَارِ إِذَا ... جَلاَّهَا

وَاللَّيْلِ إِذَا ... يَغْشَاهَا

وَالسَّمَاء وَمَا ... بَنَاهَا

وَالأَرْضِ وَمَا ... طَحَاهَا

وَنَفْسٍ وَمَا ... سَوَّاهَا

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا ... وَتَقْوَاهَا

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ ... زَكَّاهَا

وَقَدْ خَابَ مَنْ ... دَسَّاهَا

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ... بِطَغْوَاهَا

إِذِ انبَعَثَ ... أَشْقَاهَا

فَقَالَ لَهُمْ ... رَسُولُ اللهَّ

نَاقَةَ اللهَّ ... وَسُقْيَاهَا

فَكَذَّبُوهُ ... فَعَقَرُوهَا

فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ ... رَبُّهُم

بِذَنبِهِمْ ... فَسَوَّاهَا

وَلا يَخَافُ ... عُقْبَاهَا

فهذا الإيقاع العذب، وهذه الهندسة الصوتية والبيانية، هي التي تجعل النفس تذعن لجمال اللفظ ومعنى الإعجاز، شأنها في ذلك شأن النثر الفني الرفيع الذي يملك على الإنسان لبّه ويأخذ بمجامع قلبه.

فها هي السورة تبدأ بالشمس وضحاها، ثم لا تلبث أن تعطف عليها القمر إذا تلاها، ثم النهار إذا جلاها، ثم الليل إذا يغشاها. وكأن الكون كله قد انتظم في أزواج متقابلة: نور يعقبه نور، وضياء يتلوه ظلام، وحركة تتبعها سكون.

ثم ينتقل هذا التناظر من مشاهد الكون إلى مشاهد الخلق، فنقرأ:

{وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا . وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا}

فكأن السماء تقابل الأرض، والعالم الكبير يقابله العالم الصغير الذي أودعه الله في نفس الإنسان.

ثم يبلغ هذا البناء الثنائي ذروته في قوله تعالى:

{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}

فهنا يظهر التقابل في أوضح صوره؛ فجور في كفة، وتقوى في كفة أخرى، وصراع أخلاقي يقوم في أعماق النفس كما يقوم التعاقب بين الليل والنهار في آفاق الكون.

ثم تتوالى هذه الثنائية في نتائج العمل:

{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}

فلاح يقابله خسران، وتزكية تقابلها دسيسة، وكأن السورة تمضي بالقارئ من زوج إلى زوج، ومن مقابلة إلى مقابلة، في نظام لا يكاد يختل.

حتى إذا انتهت الأقسام والتقرير، انتقلت إلى قصة ثمود، فإذا البناء نفسه لا يزال قائمًا:

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا . إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا}

ثم:

{فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللّهِ نَاقَةَ اللّهِ وَسُقْيَاهَا}

ثم:

{فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا}

فالدعوة يقابلها التكذيب، والإنذار يقابله العصيان، والطاعة تقابلها الجريمة.

ثم تنتهي السورة إلى خاتمتها الحاسمة:

{فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا . وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا}

هكذا تبدو السورة كلها وكأنها قطعة واحدة منسوجة على خيط التناظر والمثانية؛ يبدأ فيها التقابل من الشمس والقمر، ثم يمتد إلى السماء والأرض، ثم إلى الفجور والتقوى، ثم إلى الفلاح والخيبة، ثم إلى الطاعة والعصيان، حتى ينتهي إلى الجزاء العادل الذي يسوي بين العمل ونتيجته.

ولعل هذا من أسرار الجمال في هذه السورة القصيرة؛ فهي ليست مجرد معانٍ متتابعة، إنما هي بناء متوازن، تتجاوب أجزاؤه كما تتجاوب نغمات اللحن الواحد، حتى يشعر القارئ أن السورة كلها تسير في إيقاع خفي واحد، يبدأ من أول آية وينتهي عند آخر آية.

سـورة الليل

المثاني الثالثة

إذا أنت جاوزت سورة الشمس وعطفت إلى ما يليها وهي سورة الليل، أدركت أنك لا تخرج من إعجازٍ إلا لتلج في إعجازٍ آخر؛ فإذا بـ "سورة الليل" تتبدى لك كأنها المثاني الثالثة، مكملةً ذلك النغم الآسر والتناظر البديع. وهي في هذا النظم لا تقلّ عن صاحبتها روعةً ولا جمالاً، وإنما تسير معها في مضمارٍ واحد، تتقاسم فيه المعاني كما تتقاسم الألفاظ، وتأخذ بمجامع القلوب والألباب.

أنت إذن أمام هذه السورة، لا تملك إلا أن ترى ذلك التقابل العجيب والتركيب الثنائي الذي يتجلى فيه الليل والنهار، والذكر والأنثى، ثم يتعداهما إلى مصائر البشر وأفعالهم في اتساقٍ بديع ينساب في النفس كما تنساب الأنغام العذبة:

وَاللَّيْلِ إِذَا ... يَغْشَى

وَالنَّهَارِ إِذَا ... تَجَلَّى

وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ ... وَالأُنْثَى

إِنَّ سَعْيَكُمْ ... لَشَتَّى

فَأَمَّا مَن أَعْطَى ... وَاتَّقَى

وَصَدَّقَ ... بِالْحُسْنَى

فَسَنُيَسِّرُهُ ... لِلْيُسْرَى

وَأَمَّا مَن بَخِلَ ... وَاسْتَغْنَى

وَكَذَّبَ ... بِالْحُسْنَى

فَسَنُيَسِّرُهُ ... لِلْعُسْرَى

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا ... تَرَدَّى

إِنَّ عَلَيْنَا ... لَلْهُدَى

وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ ... وَالأُولَى

فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا ... تَلَظَّى

لا يَصْلاهَا إِلاَّ ... الأَشْقَى

الَّذِي كَذَّبَ ... وَتَوَلَّى

وَسَيُجَنَّبُهَا ... الأَتْقَى

الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ ... يَتَزَكَّى

وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ ... تُجْزَى

إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ ... الأَعْلَى

وَلَسَوْفَ ... يَرْضَى

هكذا تبدأ السورة بقسمين متقابلين:

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}

فالليل والنهار، كما في كثير من المواضع القرآنية، ليسا مجرد ظاهرتين كونيتين، وإنما هما رمز لهذا النظام القائم على التعاقب والتقابل والتوازن. ثم يضيف القرآن إلى هذا الزوج زوجًا آخر:

{وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى}

فكأن السورة منذ مطلعها تريد أن تلفت النظر إلى أن الوجود كله قائم على المثانية؛ ليل ونهار، وذكر وأنثى، واختلاف وتكامل، وتنوع يجمعه نظام واحد.

لكن السورة لا تقف عند حدود الكون، بل تنتقل سريعًا إلى الإنسان:

{إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}

وهنا تبدأ المثانية الكبرى التي تدور عليها السورة كلها.

فالبشر ليسوا سواء، كما أن الليل ليس نهارًا، وكما أن الذكر ليس الأنثى. وإنما تتفرق بهم السبل، وتختلف بهم المقاصد، وتتباين بهم الغايات. ومن هنا ينشطر الطريق إلى قسمين واضحين:

{فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}

ثم يقابله على الفور القسم الآخر:

{وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}

وهنا يبلغ البناء الثنائي في السورة غاية الوضوح والدقة. فالعطاء يقابله البخل، والتقوى يقابلها الاستغناء، والتصديق تقابله المكابرة والتكذيب، واليسرى تقابل العسرى. وكأن السورة تريد أن تقول إن الناس، مهما تشعبت بهم الطرق، ينتهون في آخر الأمر إلى أحد سبيلين لا ثالث لهما.

ثم تمضي السورة في هذا النسق نفسه، فتقابل بين مصيرين:

{فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى . لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى}

ثم تعطف عليها مباشرة:

{وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى}

الأشقى في جانب، والأتقى في جانب. هذا يكذب ويتولى، وذاك يعطي ويتزكى. وهذا يسير إلى النار، وذاك ينجو منها.

وحتى حين تصف السورة الأتقى، فإنها تزيد هذا المعنى وضوحًا؛ فهو لا ينفق ماله مكافأة لأحد، ولا يطلب جزاءً من الناس، وإنما:

{إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى}

فإذا خلصت النية، واستقام العمل، وانقطعت النفس عن طلب المكافأة من الخلق، جاءت الخاتمة هادئة مطمئنة بعد ذلك كله:

{وَلَسَوْفَ يَرْضَى}

سـورة الضحى

الاسترخاء

ليس غريباً أن تكون سورة الضحى حديثاً عن ذلك الهدوء الذي يغشى النفس، وعن تلك السكينة التي تعقب الجهد والعناء. وقد روي أن الوحي احتبس عن رسول الله ﷺ زمنًا، فوجد في نفسه من ذلك ما وجد، حتى قال: إن ربي ودعني وقلاني. فجاءت السورة ترد إلى قلبه الأمن، وإلى نفسه الراحة، فقال الله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

تبدأ السورة بالقسم بالضحى والليل إذا سجى. وهاتان صورتان يراهما الناس في كل يوم، فالضحى تتألق فيه الحياة ويشتد فيه الضوء، ثم لا يلبث الليل أن يقبل، فإذا هو سكون وهدوء. وليس أحد يعجب من هذا التعاقب بين الإشراق والخفوت، ولا بين الحركة والسكون. فإذا جاءت فترة يفتر فيها الوحي بعد إشراقه، فما الذي يدعو إلى العجب؟ أليست هذه الفترة شبيهة بالليل الساجي الذي يعقب الضحى المتألق؟

ثم تمضي السورة فتشير إلى أن الآخرة خير من الأولى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾. وفي هذا دعوة إلى ألا يستغرق الإنسان في التكالب على الدنيا، وألا يرهق نفسه في ملاحقة ما يفنى ويزول، فإن الخير الحق فيما هو أبقى وأدوم.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾. والرضا سكون للنفس بعد قلقها، وهدوء للقلب بعد اضطرابه، فإذا أعطي الإنسان ما يحتاج إليه اطمأن واستراح.

ثم تذكر السورة ألوانًا من النعم التي ساقها الله إلى نبيه. فاليتيم إذا وجد المأوى زالت عنه الوحشة وسكنت نفسه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾. والضال إذا اهتدى انقشعت حيرته ووجد الراحة بعد التردد: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾. والعائل إذا أغناه الله تحرر من هم الحاجة واطمأن قلبه: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾.

ثم تنتقل السورة إلى توجيه السلوك الإنساني، فتدعو إلى اللطف والرفق باليتيم: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، وإلى الهدوء في معاملة السائل وعدم زجره أو انتهاره: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾. وكأن السورة تريد أن تنقل ما في النفس من سكينة إلى معاملة الناس.

ثم تختم بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وكأنها تدعو المؤمن إلى أن يستحضر نعم الله عليه، وأن يذكرها بقلب مطمئن ونفس راضية، بعد أن أدرك ما أحاطه الله به من فضل ورعاية.

وعلى هذا يمكن أن تُقرأ السورة كلها بوصفها دعوة إلى السكون بعد القلق، وإلى الطمأنينة بعد الاضطراب، وإلى الاسترخاء الذي ينشأ من الشعور بعناية الله ورحمته وفضله.

سـورة الشرح

ضيق الصدر

ليس أثقل على الإنسان من تلك الأعباء التي لا تُرى بالعين، ولا تُحمل على الكتفين، ومع ذلك قد تبلغ من الثقل ما يعجز الجسد عن احتماله. فقد يعيش المرء وفي نفسه أسئلة لا يجد لها جوابًا، أو هموم لا يعرف منها فكاكًا، أو حيرة تتردد بين قلبه وعقله فلا تدعه يستقر على يقين، أو يقف على صواب. وحينئذٍ يشعر أن شيئًا يجثم على صدره، وأن قوة خفية تشده إلى الأرض وتمنعه من الانطلاق.

وسورة الشرح من أعمق السور القرآنية في تصوير هذا الانتقال من الضيق إلى السعة، ومن الثقل إلى الخفة، ومن الانقباض إلى الانشراح.

فهي تبدأ بهذا الاستفهام الذي يحمل في طياته معنى الامتنان والتذكير:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾

وشرح الصدر ليس مجرد إحساس عابر بالراحة، إنما هو حالة أعمق من ذلك. إنه اتساع النفس بعد ضيقها، وطمأنينة القلب بعد اضطرابه، ووضوح الطريق بعد أن كان يكتنفه الغموض.

فالسورة تشير إلى أن الله قد هيأ لنبيه صلى الله عليه وسلم من السكينة واليقين ما جعله قادرًا على أن يحمل أعباء الرسالة، وأن يواجه الحياة بقلب مطمئن لا تزعزعه الشدائد.

ثم تمضي السورة إلى صورة أخرى من صور هذا الفضل:

﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾

وما أبلغ هذا التصوير!

فالثقل المعنوي يُصور كأنه حمل ثقيل يكاد يكسر الظهر من شدته. والإنسان يعرف من تجربته أن بعض الهموم قد تكون أشد إيلامًا من الأوجاع الجسدية، وأن بعض الحيرة قد تستنزف من القوة أكثر مما تستنزفه الأعمال الشاقة.

ثم تأتي النعمة الثالثة:

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾

وكأن السورة تنتقل من إزالة الأعباء إلى إظهار الثمرة. فبعد أن زال الثقل، واتسع الصدر، أصبح الطريق مهيأً لحياة جديدة، ولرسالة تمتد آثارها في الناس والأجيال.

ثم تقف السورة عند حقيقة إنسانية عظيمة:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

وكثير من الناس يظنون أن اليسر لا يأتي إلا بعد انتهاء العسر، وأن الراحة لا تبدأ إلا إذا زالت المشقة كلها. أما السورة فتقدم معنى أرق وأعمق من ذلك. فهي لا تقول إن اليسر يأتي بعد العسر، إنما تقول إنه يكون معه. وكأن رحمة الله لا تنتظر حتى تنتهي المحنة، بل ترافق الإنسان في أثناء المحنة نفسها. ففي أشد اللحظات قسوة قد يجد المرء بابًا من أبواب التخفيف، أو لمحة من لمحات الأمل، أو يدًا تمتد إليه بالعون، أو نورًا صغيرًا يمنعه من الاستسلام لليأس.

ومن هنا يبدو أن العسر في حياة المؤمن لا يكون ظلمة خالصة، بل تختلط به دائمًا خيوط من اللطف والعناية الإلهية.

ثم تبلغ السورة غايتها في خاتمتها:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾

وهنا تكشف السورة عن نتيجة هذا الانشراح كله.

فليس المقصود من إزالة الأثقال أن يستسلم الإنسان إلى الراحة، وليس الغرض من انشراح الصدر أن ينصرف إلى الدعة والخمول. بل على العكس من ذلك. فإذا خف الحمل، واتسع الصدر، واطمأن القلب، أصبح الإنسان أقدر على العمل، وأقوى على السعي، وأشد استعدادًا لبذل الجهد فيما ينفعه وينفع الناس.

فسورة الشرح تعلم الإنسان أن الفراغ ليس غاية، إنما هو بداية لعمل جديد. وأن الراحة الحقيقية لا تكون في البطالة، بل في الانتقال من عمل نافع إلى عمل أنفع، ومن طاعة إلى طاعة، ومن سعي إلى سعي.

ثم تختم هذا التوجيه بربط القلب بالله وحده:

﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾

فإذا تعددت رغبات الناس وتفرقت مقاصدهم، فلتكن رغبة المؤمن الكبرى متجهة إلى الله، وليكن قصده الأعلى هو رضاه وقربه.

وعلى هذا النحو تبدو سورة الشرح سورةً للتحرر من الأثقال المعنوية التي تعوق الإنسان عن الحركة والانطلاق. فهي تبدأ بشرح الصدر، ورفع الأوزار، وإزالة ما يرهق النفس، ثم تكشف أن رحمة الله ترافق الإنسان حتى في ساعات العسر، ثم تنتهي بتوجيهه إلى أن يجعل من هذا الانشراح قوة للعمل، ومن هذه السعة دافعًا للسعي، ومن هذا اليقين سبيلًا إلى مزيد من القرب من الله.

فكأن السورة كلها حركة صاعدة؛ تبدأ بقلب أثقلته الأعباء، وتنتهي بنفس امتلأت يقينًا ونشاطًا ورغبة في الله، فأصبحت أكثر قدرة على مواصلة الطريق، وأكثر استعدادًا لحمل الرسالة وأداء الواجب.

سـورة التين

المقدسات

المحور الذي تدور حوله سورة التين هو المقدسات؛ فهي سورة تبدأ بالإشارة إلى أمكنة وأشياء اكتسبت قدسيتها مما ارتبط بها من الوحي والنبوة، ثم تنتهي إلى الحديث عن أثر هذا الوحي في حياة الإنسان ومصيره.

تفتتح بالقسم بـ {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ}، وهما طعامان مباركان عرفهما الناس منذ أقدم العصور، غير أن الإشارة إليهما لا تقف عند حدود الطعام وحده، إنما تمتد إلى الأرض المباركة التي اشتهرت بهما، وهي أرض بيت المقدس، الأرض التي بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام، وكانت مهبطًا من مهابط الوحي الإلهي.

ثم يأتي القسم الثاني: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، وهو الجبل الذي كلم الله عنده موسى عليه السلام، فصار موضعًا من أعظم المواضع قداسة في تاريخ الرسالات، إذ شهد لقاءً بين السماء والأرض، وتلقى فيه نبي من أنبياء الله كلمات ربه ووحيه.

ثم يجيء القسم الثالث: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾، وهو مكة المكرمة، البلد الذي اختاره الله لمبعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وجعله موطن الرسالة الخاتمة التي أراد الله لها أن تبلغ الناس كافة.

هكذا تجمع السورة في آياتها الأولى بين المواطن الكبرى التي ارتبطت بالرسالات السماوية الثلاث: بيت المقدس حيث رسالة عيسى، وطور سيناء حيث رسالة موسى، ومكة حيث رسالة محمد عليهم الصلاة والسلام. وكأن السورة تستحضر تاريخ الوحي في أبرز مشاهده ومعالمه.

ولعل هذا المعنى هو الذي يلتقي مع ما ورد في بعض النصوص القديمة من الإشارة إلى هذه المواطن المقدسة، كما في سفر التثنية: «أقبل الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتجلى من جبل فاران». فسيناء هي موضع رسالة موسى، وسعير ترتبط بأرض عيسى، وفاران تشير إلى جبال مكة حيث ظهر الإسلام.

وبعد هذا الاستحضار لمواطن الوحي، تنتقل السورة إلى الحديث عن الإنسان نفسه، فتقرر أنه خُلق في أحسن تقويم. ويمكن أن يُفهم هذا الحسن على أنه الصورة الصافية التي يتلقى بها الإنسان هداية الله ووحيه حين يكون قريبًا من الفطرة السليمة، مستجيبًا للحق الذي جاءت به الرسالات.

غير أن الإنسان لا يلبث في كثير من الأحيان أن يبتعد عن هذه الهداية، فيكذب الوحي أو يحرفه أو ينحرف عنه، فيكون ذلك معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾. فهو هبوط من علو الهداية إلى درك الضلال، ومن صفاء الحق إلى ظلمات التحريف والإنكار.

ثم تستثني السورة فريقًا آخر، هم الذين تمسكوا بالوحي الصحيح وآمنوا به وعملوا بمقتضاه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. فهؤلاء حفظوا الصلة بين أنفسهم وبين تلك المقدسات التي افتتحت بها السورة، وحافظوا على العهد الذي أقامته الرسالات بين الإنسان وربه، فاستحقوا الجزاء الذي لا ينقطع ولا ينفد.

وعلى هذا تبدو سورة التين سورةً تجمع بين قداسة المكان وقداسة الوحي، ثم تنتهي إلى بيان أثر ذلك كله في الإنسان؛ فإما أن يظل وفيًّا للهداية التي نزلت في تلك المواطن المباركة، وإما أن ينحدر عنها إلى أسفل سافلين.

سـورة العلق

وحي القلم

لعل القارئ إذا تدبر سورة العلق وجد أن خيطًا دقيقًا ينتظم آياتها، يبدأ بالقلم وينتهي بالإنسان، أو يبدأ بنعمة التعليم وينتهي بفتنة الاستغناء. وكأن السورة تريد أن تعلم الإنسان أن ما يرفعه قد يكون هو نفسه ما يوقعه إذا نسي مصدره الأول.

تبدأ السورة بالأمر بالقراءة، ثم تذكر الخلق، ثم تنتقل إلى القلم، ذلك الأثر العجيب الذي جعله الله مفتاحًا من مفاتيح المعرفة، ووسيلة من وسائل التعليم، وسببًا من أسباب انتقال العلم من عقل إلى عقل ومن جيل إلى جيل.

وليس القلم مجرد عود يخط به الكاتب السطور، إنما هو باب تفيض منه المعاني، ومجرى تنساب فيه الأفكار. فكثيرًا ما يجلس الإنسان إلى الورقة وليس في نفسه إلا خاطر يسير، ثم لا يلبث أن يمضي مع القلم حتى تتداعى إليه المعاني، وتتولد الأفكار بعضها من بعض، وينكشف له من وجوه النظر ما لم يكن حاضرًا في ذهنه من قبل.

وكأن الله سبحانه يشير إلى هذا السر حين يقول: ﴿الذي علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم﴾. فالقلم ليس أداة لحفظ العلم وحده، بل هو سبيل من السبل التي يفتح الله بها على عباده أبوابًا من الفهم لم تكن مفتوحة لهم من قبل.

لكن السورة لا تقف عند هذا الحد، لأنها تعرف طبيعة الإنسان، وتعلم ما يعرض له إذا نجح وأحسن وأصاب. فما أكثر ما يبدأ الإنسان متواضعًا، شاعرًا بحاجته إلى ربه، معترفًا بفضله عليه، ثم لا يزال يزداد علمًا أو شهرة أو مكانة حتى يخيل إليه أن ما بلغه إنما بلغه بقوته وحدها، وأن ما حصله إنما حصله بعقله وحده.

وهنا يقع التحول الذي تحذر منه السورة أشد التحذير.

﴿كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى﴾.

فإذا كان القلم في أول الأمر بابًا إلى المعرفة، فقد يصبح بعد ذلك بابًا إلى العُجْب. وإذا كان وسيلة للهداية، فقد يتحول في يد صاحبه إلى وسيلة للغرور. وإذا كان طريقًا إلى الحق، فقد يستعمل في تزيين الباطل والدفاع عنه ومخاصمة الحق وأهله.

وعندئذ ينسى الإنسان أن الذي علمه هو الله، وأن الذي فتح له أبواب الفهم هو الله، وأن المعاني التي جرت على قلمه لم تكن لتجري لولا فضل الله وإحسانه.

ثم تعرض السورة صورة من صور هذا الطغيان، فتذكر ذلك الذي وقف في وجه الصلاة، وحاول أن يصد عبدًا من عباد الله عن مناجاة ربه. فكأن الاستغناء إذا تمكن من النفس لم يقف عند حد الكبر الداخلي، بل تجاوز ذلك إلى محاربة الحق نفسه.

ثم تمضي السورة حتى تبلغ خاتمتها، فإذا بهذا المتكبر الذي ظن أنه قادر على كل شيء يوصم بأنه صاحب ناصية كاذبة خاطئة، وإذا بالقوة التي اغتر بها تتبدد، وإذا بالهيبة التي أحاط نفسه بها تتلاشى.

ثم يجيء الختام هادئًا عميقًا، كأنه الجواب عن السورة كلها:

﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾.

فكأن السورة تريد أن تقول إن العلم نعمة، والقلم نعمة، والفتح في الفهم نعمة، ولكن هذه النعم كلها لا تؤتي ثمرتها إلا إذا بقي صاحبها ذاكرًا لمصدرها، معترفًا بفضل ربه عليه. فإذا نسي ذلك طغى، وإذا طغى هلك، وإذا أراد النجاة فليس له إلا أن يعود إلى الموضع الذي بدأ منه كل خير: السجود لله والاقتراب منه.

سـورة القدر

ليلة العمر

ليلةُ القدر، ليست حادثًا عارضًا اتصل بنزول القرآن فحسب، وليست ليلةً استحدثها الإسلام بعد أن لم تكن، إنما هي سرٌّ قديمٌ من أسرار الوجود، مضى مع الإنسان منذ بدأ رحلته على هذه الأرض، واستقر في علم الله وتقديره قبل أن تُنزَّل الكتب، ويُبعث الرسل.

وإذا كان القرآن قد نزل في هذه الليلة المباركة، فليس ذلك إلا لأن أعظم الكلمات الإلهية قد اختير لها أشرف الأوقات وأبركها، فلابست البركةُ البركةَ، واجتمع النور إلى النور، فازداد القرآن فضلًا إلى فضله، وشرفًا إلى شرفه.

كما أن ليلة القدر ليست مقصورة على معنى زماني محدود، أو أنها ليلة تُدرك قيمتها بما يُؤدَّى فيها من العبادات وحدها، إنما هي تلك اللحظة الفاصلة التي تنكشف فيها حقائق نفس الإنسان، وتتحدد فيها وجهته الكبرى، ويستبين له- على نحوٍ مجملٍ أول الأمر- الطريق الذي سيمضي فيه طوال عمره.

فأما الأنبياء، فإن الذي ينزل في قلوبهم وحيٌ خالص، ورسالةٌ واضحة المعالم، لا لبس فيها ولا اضطراب. وأما سائر الناس، فإن الذي ينزل في قلوبهم ليس وحيًا بالمعنى الذي اختص الله به أنبياءه، ولكنه لونٌ من الإلهام، أو قبسٌ من النور، أو قوةٌ باطنة تستيقظ في أعماقهم، فتتشكل بحسب ما أُوتوا من استعداد، وما اكتسبوا من ثقافة، وما هيأت لهم فطرتهم من قابلية للفهم والإدراك.

ولهذا تختلف ثمار هذه الليلة بين الناس اختلافًا بعيدًا. فالمؤمن الصالح قد يجد فيها ما يعينه على فهم دينه وإصلاح دنياه، ويهتدي بها إلى ما يقربه من ربه. وغير المؤمن قد يجد فيها ما يفتح له بابًا من أبواب المعرفة، أو يكشف له سبيلًا من سبل النجاح، أو يمنحه قدرةً على الإبداع والابتكار، فينتفع بها في شؤون حياته، وإن لم ينتفع بها في أمور آخرته.

ومن هنا فإن قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، لا يُراد منه مجرد الموازنة الحسابية بين ليلة واحدة وثلاثة وثمانين عامًا من العبادة، إنما يراد منه ما يُقدَّر للإنسان في

تلك الليلة من المعاني والقوى والإشراقات قد يمتد أثره خلال عمر كامل، وأن الإنسان قد يظل عشرات السنين يقتبس من نور تلك اللحظة الأولى، ويعيش على ما أودعته في نفسه من الأسرار والدوافع والاتجاهات.

فليست قيمة الأيام والسنين في كثرتها، إنما قيمتها فيما يقع فيها من الخير والبركة والعمل. وقد تكون ليلة واحدة أغنى بالحكمة وأبعد أثرًا من عمر طويل تمضي أيامه ولياليه في غير جدوى.

على أن هذه الليلة العظمى لا تتكرر من حيث التأسيس؛ فهي تقع مرة واحدة في حياة الإنسان، ثم تصبح أصلًا لما بعدها. غير أن آثارها لا تنقطع، بل قد تعود إلى النفس في صور مختلفة، فتتجلى لها معانٍ جديدة، وتنكشف لها أسرار لم تكن قد أدركتها من قبل. فكأن التجارب اللاحقة ليست ليلات قدر جديدة، إنما هي شروح وتعليقات وتفصيلات لذلك التنزل الأول الذي وقع في لحظة حاسمة من العمر.

ولعل هذا هو السر في أن الإنسان كثيرًا ما يشعر، بعد سنين طويلة، بأنه لم يفهم بعض أحداث شبابه إلا متأخرًا، وأنه لم يدرك حقيقة بعض الإشراقات التي مرت به إلا بعد أن نضجت نفسه واتسعت تجربته. فالليلة الأولى كانت تحمل المعنى كله، ولكن هذا المعنى كان مجملًا، ثم أخذ الزمن يكشف عنه شيئًا فشيئًا.

لذلك كان رمضان أرجى الأوقات لالتماس هذه الليلة؛ لأن النفوس فيه أصفى، والقلوب فيه أهدأ، والإنسان أقرب إلى نفسه وأبعد عن ضجيج الحياة وشواغلها. فإذا صفا القلب أمكنه أن يستقبل من الفيض ما لا يستقبله في سائر الأيام، وأن يعي من الإشارات ما يعجز عن وعيه حين تتنازعه الأهواء وتستغرقه المشاغل.

هكذا تبدو ليلة القدر، في هذا الفهم، لا مجرد ليلة من ليالي التقويم، بل لحظةً كبرى من لحظات التقدير الإلهي في حياة الإنسان؛ لحظةً يتلقى فيها نصيبه من النور، ثم يقضي بقية عمره يفسر ذلك النور، ويكشف معانيه، ويهتدي به في الطريق.

سـورة البينة

التمايز

إذا جاز لنا أن نلتمس لسورة البينة محورًا تدور حوله آياتها، فإن هذا المحور هو التمايز بعد الاختلاط، والوضوح بعد الإبهام، وانفصال الحق عن الباطل بعد أن كانا قد امتزجا في نفوس الناس امتزاجًا شديدًا.

وليس من قبيل المصادفة أن تجيء سورة البينة بعد سورة القدر؛ فإن بين السورتين من الصلة ما يستوقف المتأمل ويدعوه إلى النظر. فسورة القدر تتحدث عن تلك الليلة المباركة التي يتنزل فيها النور الإلهي، والتي تتحدد فيها معالم الطريق، وتنكشف للإنسان فيها من حقائق نفسه ومن أسرار وجوده أمورٌ قد يظل يعيش على آثارها ما امتد به العمر. فإذا تم هذا التنزل، وإذا حصل هذا الانكشاف، كان لا بد أن يعقبه تمييز بين الأشياء، وفرز بين المواقف، ووضوح للحدود الفاصلة بين الحق والباطل. ومن هنا كانت سورة البينة كأنها الأثر الطبيعي لما سبقها من سورة القدر.

لهذا تبدأ السورة بقول الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

والمراد هنا ليس مجرد بقائهم على ما هم عليه من الكفر، إنما الإشارة إلى حالة من التداخل والاختلاط كانت قائمة بين أهل الكتاب والمشركين قبل مجيء القرآن. فلم تكن الحدود الفاصلة واضحة كل الوضوح، بل كانت العقائد قد دخل بعضها في بعض، واختلطت عند القوم بقايا الحق بكثير من الأوهام والخرافات والتصورات الشركية.

والقرآن نفسه يشير إلى شيء من هذا حين يقول:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾.

فهؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب لم يبقوا على ما تقتضيه أصول كتبهم من صفاء التوحيد، بل تسربت إلى عقولهم وضمائرهم عناصر غريبة عنها، حتى أصبحوا يمدحون

من كان ينبغي أن يخالفوهم، ويؤمنون بما كان الأولى أن ينكروه. فلما جاءت البينة وقع التمايز. وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم يحمل صحفًا مطهرة، لا يشوبها ما شاب العقائد السابقة من اختلاط، ولا يدخلها ما دخل على الأمم قبلها من شوائب الوثنية وتأليه البشر وتعظيم الأساطير. وكانت هذه الصحف المطهرة تحمل في طياتها كتبًا قيمة، مستقيمة في أصولها، واضحة في مقاصدها، لا غموض فيها ولا التواء.

ومن هنا نفهم أن البينة لم تكن مجرد حجة تُلقى إلى الناس، إنما كانت نورًا يكشف الأشياء على حقيقتها، ويفصل بين ما اختلط، ويميز بين ما امتزج.

ثم تمضي السورة بعد ذلك في تأكيد هذا المعنى حين تقول: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

وهذه الآية ذات دلالة عميقة؛ لأن البينة جاءت لتزيل أسباب الاختلاف، ولترد الناس إلى الوضوح، ولكن فريقًا من الناس لم يحتمل هذا الوضوح، ولم يرض أن تنكشف الحقائق على صورتها الناصعة، فآثر البقاء في مناطق الالتباس، واستمسك بما ألفه من الموروثات والمصالح والأهواء، فكان التفرق نتيجةً لمجيء البينة لا لغيابها.

ولم تكن الرسالة الجديدة تحمل للناس من التكاليف ما يرهقهم أو من الأسرار ما يعجزون عن فهمه، إنما كانت تدعوهم إلى أصول ظاهرة بينة، هي إخلاص العبادة لله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وذلك هو الدين القيم الذي لا يقوم المجتمع الإنساني على أساس أصلح منه ولا أوضح.

وعند هذه المرحلة يبلغ التمايز غايته، وتنقسم البشرية إلى قسمين لا ثالث لهما: قسم رأى البينة فأعرض عنها، وقسم رآها فآمن بها. أما الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، فقد انتهى بهم أمرهم إلى أن يكونوا من أهل النار خالدين فيها، لأنهم رفضوا النور بعد ظهوره، وأعرضوا عن الحق بعد بيانه، فكانوا شر البرية. وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقد استجابوا للبينة، وساروا في ضوء ما كشفت لهم من الحقائق، فكانوا خير البرية، رضي الله عنهم ورضوا عنه.

وعلى هذا النحو تبدو سورة البينة سورةً للوضوح بعد الغموض، وللفصل بعد الامتزاج، وللتمايز بعد الاختلاط. فهي تبدأ بأقوام لم تكن الحدود بينهم واضحة كل الوضوح، وتنتهي ببشرية انقسمت قسمين متقابلين لا يلتقيان: فريق في النور، وفريق في الظلمة؛ فريق رضي الله عنه ورضي عنه، وفريق استحق غضب الله وعقابه. وبين البداية والنهاية تقف البينة نفسها، تؤدي دورها في الكشف والتمييز وإظهار الأشياء على حقائقها.

سـورة الزلزلة

انهيار عالم الأسباب والمسببات

المحور الذي تنتظم حوله معاني سورة الزلزلة، فإن هذا المحور انهيار عالم الأسباب والمسببات الذي ألفه الإنسان طوال حياته، وانتقاله فجأة من عالمٍ تسير فيه الأشياء وفق قوانين ثابتة مألوفة، إلى عالمٍ آخر لا تحكمه إلا الإرادة الإلهية المباشرة.

فالإنسان يعيش في هذه الدنيا مطمئنًا إلى نظام كوني راسخ؛ يرى الأجسام تسقط بفعل الجاذبية، ويرى الأرض مستقرة تحت قدميه، ويرى الظواهر تجري وفق سنن مألوفة لا تكاد تتخلف. ومن طول الألفة بهذه السنن يوشك أن يظن أنها قائمة بذاتها، وأنها من طبيعة الأشياء التي لا تتغير ولا تزول.

لكن السورة تأتي لتصور لحظةً هائلة ينقلب فيها هذا التصور كله.

تبدأ السورة بقوله تعالى:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

فالأرض التي كانت رمز الثبات والاستقرار لم تعد مستقرة، إنما أخذها الاضطراب العنيف الذي يخلع القلوب ويزلزل النفوس. ولم يعد الإنسان يجد تحت قدميه ذلك الأساس الراسخ الذي كان يعتمد عليه ويطمئن إليه.

ثم تمضي السورة خطوة أخرى في هذا المشهد المروع:

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

فالأرض التي كانت تخفي أسرارها في أعماقها، وتحفظ ما استودع فيها من أموات وأحداث وآثار، لم تعد قادرة على الكتمان، بل أخرجت ما في جوفها إخراجًا، وكأن القوى التي كانت تحفظ الأشياء في مواضعها قد تعطلت وانتهى سلطانها.

وعند ذلك يفقد الإنسان قدرته على الفهم والتفسير، فيقف مدهوشًا حائرًا، ويسأل:

﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾.

وهذا السؤال ليس سؤال العالم الذي يبحث عن علة ظاهرة أو سبب مألوف، إنما هو سؤال المذهول الذي انهارت أمامه جميع التفسيرات التي كان يعرفها، فلم يعد يدري ما الذي أصاب هذا الكون الذي ألفه وعاش فيه.

وهنا يأتي الجواب الحاسم الذي تنتهي عنده جميع الأسئلة:

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾.

فلم تعد الظواهر محتاجة إلى الأسباب التي كان الناس يعرفونها، ولم تعد الأشياء تجري بالقوانين التي ألفوها، إنما ظهر المصدر الأول الذي كانت تلك الأسباب تستمد منه قوتها وسلطانها. وانكشف للناس أن الإرادة الإلهية كانت دائمًا هي الحقيقة الكبرى وراء كل شيء، وأن الأسباب لم تكن إلا وسائل أجرى الله بها سننه في هذا العالم.

فلما ارتفعت الحجب، وانقطعت الوسائط، وبدا سلطان الله ظاهرًا لا يستره شيء، تهاوت التصورات القديمة التي كان الناس يعيشون في ظلها.

ثم ينتقل السياق من اضطراب الكون إلى اضطراب الإنسان نفسه:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾.

فلم يعد الناس مجتمعين على ما كانوا يجتمعون عليه من مصالح أو أوطان أو أنساب أو مذاهب، وإنما تفرقوا أفرادًا متباعدين، يحمل كل واحد منهم عبء نفسه وحده، ويواجه مصيره منفردًا.

وهنا تنكشف الحقيقة الأخيرة التي كانت مستترة وراء ظواهر الحياة كلها:

﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾.

فبعد أن سقط عالم الأسباب الظاهرة، وبعد أن زال كل ما كان يشغل الإنسان من مظاهر القوة والسلطان، لم يبق إلا العمل نفسه. فلا جاه ينفع، ولا نسب يشفع، ولا قوة تحمي، إنما يقف الإنسان أمام ما قدمت يداه.

ومن هنا تختم السورة بهذا الميزان الدقيق العجيب:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

وكأن السورة كلها تريد أن تقول إن اليوم الذي تنهار فيه الأسباب والمسببات، وتسقط فيه الوسائط التي كانت تحجب الإنسان عن رؤية الحقيقة، هو اليوم الذي لا يبقى فيه إلا العمل المجرد، ولا يظهر فيه إلا العدل الخالص الذي لا يضيع معه خير مهما صغر، ولا يخفى معه شر مهما دق.

وعلى هذا النحو تبدو سورة الزلزلة تصويرًا لانتقال الإنسان من عالم السنن المألوفة إلى عالم الحقيقة المباشرة؛ من عالم يرى فيه الأسباب، إلى عالم لا يرى فيه إلا مسبب الأسباب؛ ومن عالم تختلط فيه النتائج بالعوامل والوسائط، إلى عالم ينكشف فيه كل شيء على حقيقته، ويقف الإنسان فيه أمام عمله مجردًا من كل ما كان يحيط به في الحياة الدنيا..

سـورة العاديات

جحود الانسان

المحور الذي تدور عليه سورة العاديات هو جحود الإنسان، ذلك الجحود الذي يبلغ بصاحبه أن يسخّر العقل في الإفساد والهلاك، لا في الرحمة والإصلاح. ومن هنا جاءت السورة مفتتحةً بهذا القسم المزلزل: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾، وكأن القرآن يصور للناس مشهد القوة حين تنطلق عاتيةً، تثير الشرر والنار، وتبعث الرعب والدمار.

والسورة ترمز إلى تلك الأسلحة الذرية المهلكة التي يبتدعها الإنسان في آخر الزمان. فإذا تأملنا قوله: ﴿فالموريات قدحًا﴾، كأنما نشهد نيران هذه الأسلحة وحريقها، وكيف تنقدح بمجرد إطلاق زنادها. والعرب تقول: «قدح بالزناد» أي أورى النار؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أفرأيتم النار التي تورون﴾. ثم إن «القدح» في لسان العصر يحتمل معنى آخر، هو قدح الذرة بتدمير نواتها، فتنفجر طاقة هائلة من تفاعل متسلسل، حتى كأن الذرات المتفجرة تهدم ما حولها، فتنطلق الطاقة المخزونة في جوفها.

هكذا يتحول العلم، الذي كان ينبغي أن يكون سبيلًا إلى الرحمة، إلى أداة للفناء. فالإنسان يشطر النواة، ويطلق من داخلها قوى هائلة، ثم يفاخر بما صنع، كأنما نسي أن هذه الذرة نفسها نعمة من نعم الله التي كان ينبغي أن تُسخَّر لإحياء الناس لا لإبادتهم.

ثم تأتي الآية بعد ذلك حاسمة صارمة: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾. والكنود هو الجاحد الذي ينسى النعمة، فلا يشكر، ويمنع الخير فلا يبذل. والعرب تصف الأرض التي لا تُنبت بأنها أرض كنود؛ لأنها تمسك الخير في جوفها ولا تعطيه. وكذلك الإنسان في هذا العصر: ينفق الأموال الطائلة على أدوات القتل والهلاك، ثم يبخل على الجائع والمريض والمنكوب، وكأن الرحمة قد نزعت من قلبه نزعًا.

ولو أن بعض ما يُهدر في صناعة أسلحة الدمار ووسائل الفتك صُرف في إغاثة الفقراء، أو في معالجة المرضى، أو في مقاومة المجاعات والكوارث، لتبدلت حال الإنسانية كلها،

ولعاش الملايين في أمن وكرامة. ولكن الإنسان كثيرًا ما يؤثر القوة على الرحمة، والبطش على العدل، ثم يزعم بعد ذلك أنه متحضر ومستنير.

ومن هنا يجيء ذلك التعجيب القرآني الموجع: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾؛ أي ما أشد جحوده، وما أعظم نسيانه لفضل الله عليه. فقد أُعطي العقل ليبني، فإذا به يهدم، وأُعطي العلم ليحيي، فإذا به يقتل، وأُعطي المال ليعين الضعيف، فإذا به يجعله وقودًا لحروب لا تنتهي. ولو أن الإنسان أنفق في سنة واحدة ما ينفقه على تلك الأسلحة الفتاكة، لوسعت تلك النفقة جميع فقراء العالم، وجعلتهم يعيشون في رغد ونعيم مئات السنين.

سـورة القارعة

الصمت الذي يعقب الكارثة

محور هذه السورة ليس القارعة نفسها، إنما ما يعقب القارعة من آثار، وما يراه الإنسان بعد أن يقع الحادث العظيم الذي يبدل نظام الكون ويغير وجه الوجود.

فالإنسان قد يشهد الزلزلة وهي تقع، وقد يسمع دويها ورجفها، لكنه لا يدرك حقيقة ما صنعت إلا بعد أن تسكن الحركة، وينقشع الغبار، وتنكشف أمام عينيه نتائج ما حدث. وحينئذٍ لا ينشغل بما وقع بقدر ما ينشغل بما تركه وقوعه من آثار.

ولعل أقرب صورة إلى ذلك أن يتخيل المرء نفسه داخلًا إلى ميدان حرب هائلة انتهت منذ لحظات قليلة. فهو لا يرى الجيوش وهي تتقاتل، ولا يسمع صليل السيوف أو هدير المدافع، إنما يرى ما بقي بعد ذلك كله. يرى الأرض وقد امتلأت بآثار المعركة، ويرى الخراب حيث كان العمران، ويرى السكون حيث كان الضجيج، ويشعر أن شيئًا عظيمًا قد مر من هنا ثم انصرف، تاركًا وراءه عالمًا غير العالم الذي كان.

هكذا تبدو سورة القارعة.

فهي لا تبدأ بوصف تفصيلي لما جرى، وإنما تبدأ بالحدث نفسه، مجردًا من كل شيء:

﴿الْقَارِعَةُ . مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾.

وكأن اللفظ نفسه يقرع السمع قرعًا، ويهز النفس هزًا، قبل أن يعرف العقل حقيقة ما وقع. ثم يترك القرآن هذا السؤال معلقًا لحظة، لتستشعر النفس ضخامة الأمر وهوله، ثم يكشف بعض ما ترتب عليه. عند ذلك يرى الإنسان الناس: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾.

ولم يعودوا تلك الجماعات المنظمة التي عرفها في الدنيا، ولا تلك الأمم التي كانت تتفاخر بقوتها وسلطانها، بل أصبحوا خلقًا متفرقًا مضطربًا، لا يجمعهم نظام، ولا يربط بينهم رابط، وقد أخذ الفزع منهم كل مأخذ.

ثم تقع العين على الجبال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾.

والجبال هي رمز الثبات الذي لم يكن الناس يشكون فيه، فإذا بها قد فقدت صلابتها وهيبتها، وصارت كالصوف المتطاير الذي تعبث به الرياح. وكأن السورة تريد أن تقول إن كل ما كان الإنسان يراه ثابتًا قد زال ثباته، وكل ما كان يظنه راسخًا قد فقد رسوخه.

وهنا يبلغ المشهد غايته. فالناس مبثوثة، والجبال منفوشة، والنظام الذي عرفه الإنسان قد انقضى، والعالم الذي ألفه قد انحل وتفكك. فلا يبقى بعد ذلك إلا السؤال الذي من أجله وقع كل هذا:

ما مصير الإنسان؟ وما قيمة حياته الماضية؟ وما الذي يبقى له بعد أن ضاعت الأموال، وسقطت المناصب، وتلاشت الفوارق التي كان يتباهى بها في الدنيا؟

عند هذا الموضع تنتقل السورة من مشهد الكون إلى مشهد الإنسان، ومن وصف الكارثة إلى بيان نتيجتها: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾.

فبعد أن سقط كل شيء لم يبق إلا العمل. ولم يعد للإنسان ما يعتد به إلا ما قدمه من خير أو شر. فمن وجد في ميزانه ثقلًا من الأعمال الصالحة نال الرضا والطمأنينة، وصار إلى حياة يرضاها وتقر بها نفسه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾.

وهذا تعبير يثير في النفس رهبة عميقة؛ لأن الأم هي الملجأ الذي يأوي إليه الإنسان، فإذا كان مأواه الهاوية، فقد بلغ الشقاء أقصاه، وانتهى به المصير إلى النار الحامية التي لا يبقى معها أمل ولا نجاة.

وعلى هذا النحو تبدو سورة القارعة كأنها تصور العالم بعد أن انتهت الكارثة الكبرى. فهي لا تشغلنا بكيفية وقوعها بقدر ما تشغلنا بما تركته وراءها. إنها تعرض علينا مشهدًا للوجود وقد تبدلت معالمه، وللإنسان وقد فقد كل ما كان يعتمد عليه، ثم تقوده إلى الحقيقة الأخيرة التي لا تزول بزوال الكون ولا تتغير بتغير الأحوال: حقيقة العمل.

فإذا كانت الجبال قد تهاوت، وإذا كان الناس قد تفرقوا، وإذا كان العالم كله قد تبدل، فإن الميزان وحده يبقى قائمًا، ليظهر لكل إنسان ما صنعته يداه، وليعلم أن ما ظنه عظيمًا في الدنيا كان إلى زوال، وأن ما حسبه صغيرًا من خير أو شر هو الذي سيحدد مصيره في النهاية.

سورة التكاثر

ضياع العمر في مطاردة اللذة

المحور الذي تدور حوله سورة التكاثر، هو انشغال الإنسان بطلب اللذة، واستغراقه في السعي وراء ما يحقق له المتعة والرفاه والرضا العاجل، حتى ينسى نفسه، وينسى مصيره، وينسى الغاية التي من أجلها وُجد.

فالإنسان بطبيعته محب لما يسرّه، ميال إلى ما يجلب له النفع واللذة، وليس في ذلك ما يلام عليه من حيث الأصل. لكن الخطر يبدأ حين تتحول هذه الرغبة إلى شاغل يستولي على القلب، ويستغرق الفكر، ويصرف الإنسان عن النظر فيما وراء هذه الحياة العابرة.

ومن هنا تبدأ السورة بهذا الإعلان الحاسم:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾.

واللهو ليس مجرد الانشغال، وإنما هو ذلك الانشغال الذي يصرف الإنسان عما هو أولى منه وأحق بالاهتمام. فكأن الناس قد اندفعوا يتكاثرون في الأموال، ويتنافسون في المناصب، ويتسابقون إلى أسباب الرفاه والمتعة، حتى أصبحت هذه الأشياء غاية بعد أن كانت وسائل، وأصبحت مقصودة لذاتها بعد أن كانت أدوات للحياة.

ويمضي الإنسان في هذا السباق الطويل، يطلب المزيد كلما ظفر بشيء، ويطمع في الزيادة كلما بلغ منزلة. فإذا حقق رغبةً بحث عن غيرها، وإذا نال لذةً تطلع إلى ما بعدها، حتى تمر الأيام والسنون وهو لا يكاد يشعر بانقضائها.

ثم يأتي المشهد المفاجئ:

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

وما أبلغ هذا التعبير!

فالسورة لا تقول: حتى مِتُّم، إنما تقول: حتى زرتم المقابر. وكأن الحياة كلها كانت رحلة قصيرة انتهت بمحطة لا بد منها، ثم وجد الإنسان نفسه في موضع لم يكن يريد أن يفكر فيه وهو منشغل بملذاته ومتعته ولهوه.

وعند ذلك يبدأ انكشاف الحقيقة:

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

فالأمور التي كانت غامضة تتضح، والأوهام التي كانت تملأ النفس تتبدد، والقيم التي كان الناس يختلفون عليها يظهر مقدارها الحقيقي. ويعلم الإنسان أن كثيرًا مما كان يشغل عمره لم يكن يستحق ذلك القدر من الانشغال.

ثم تمضي السورة إلى معنى أعمق:

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾.

وكأن المشكلة لم تكن في نقص الأدلة، بل في غفلة القلب. فلو بلغ الإنسان في الدنيا درجة من اليقين الصادق، ولو تحرر من سلطان اللهو الذي استغرقه، لأدرك بعين بصيرته حقائق لا يدركها أكثر الناس إلا بعد فوات الأوان. ولرأى أن وراء هذا العالم حسابًا وجزاءً، وأن وراء هذه اللذات العابرة مسؤولية لا مفر منها.

ثم تتكرر الرؤية مرة أخرى في صورة أشد وأوضح:

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾.

فما كان يُدرك بالبصيرة في الدنيا يصبح في الآخرة حقيقة مشاهدة لا مجال معها للشك ولا سبيل إلى الإنكار. وهنا تبلغ السورة غايتها الأخيرة:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

وهذه الخاتمة تأتي على نحو يثير في النفس تفكرًا عميقًا؛ لأن السؤال لا يكون عن المال وحده، ولا عن الجاه وحده، وإنما عن النعيم كله. عن كل ما أُعطيه الإنسان من صحة وقوة ووقت وفراغ ومتعة ولذة وفرصة.

فكأن السورة تريد أن ترد الإنسان إلى حقيقة طالما غفل عنها، وهي أن النعم ليست أشياء يمتلكها الإنسان ثم يمضي بها حيث شاء، إنما هي أمانات أودعت بين يديه، وسوف يُسأل عنها: كيف اكتسبها؟ وكيف انتفع بها؟ وفيما أنفقها؟ وإلى أي غاية وجهها؟

وعلى هذا النحو تبدو سورة التكاثر تصويرًا لمسيرة الإنسان من اللهو إلى اليقظة، ومن الانشغال بالمتع إلى مواجهة الحقيقة. تبدأ بإنسان مستغرق في طلب المزيد، لا يكاد يلتفت إلى ما وراء رغباته العاجلة، وتنتهي بإنسان يقف بين يدي الله ليسأل عن كل نعمة تمتّع بها، وعن كل فرصة مُنحت له، وعن كل لذة مرّت به في هذه الحياة القصيرة.

وبين البداية والنهاية يمتد عمر الإنسان كله؛ عمرٌ يقضيه في طلب ما يظنه سعادة، ثم يكتشف في النهاية أن السعادة لم تكن في كثرة ما جمع، وإنما في معرفة الغاية التي من أجلها كان يجمع، وفي إدراك المسؤولية التي كانت تصاحب كل نعمة من نعم الله عليه..

سـورة العصر

التناقص المستمر

إذا جاز لنا أن نلتمس المحور الذي تدور حوله سورة العصر، فإن هذا المحور هو التناقص المستمر الذي يخضع له الإنسان منذ أن يبدأ رحلته في هذه الحياة إلى أن يبلغ نهايتها. فالسورة كلها قائمة على هذا الشعور العميق بأن الزمن لا يقف، وأن العمر لا يثبت، وأن الإنسان يمضي في طريقه إلى غاية محتومة لا يستطيع أن يتخلف عنها أو يفر منها.

ولهذا تبدأ السورة بالقسم بالعصر:

﴿وَالْعَصْرِ﴾.

وليس العصر هنا مجرد وقت من الأوقات، إنما هو الزمن نفسه في جريانه الدائم، وحركته التي لا تعرف السكون. إنه هذا النهر الخفي الذي يحمل الناس جميعًا معه، سواء أرادوا أم لم يريدوا، ويدفعهم نحو مصائرهم دفعًا لا يملكون له ردًا.

ثم يأتي جواب القسم:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

وهذه الجملة القصيرة تحمل من المعاني ما يطول شرحه. فالخسران هنا ليس حادثة تقع في آخر العمر، ولا مصيبة تفاجئ الإنسان عند الموت، إنما هو حالة ملازمة له ما دام الزمن يجري. فالإنسان يخسر في كل يوم جزءًا من عمره، ويودع في كل ساعة شيئًا من حياته لا يعود إليه أبدًا.

وما أكثر ما يغفل الناس عن هذه الحقيقة!

فهم يرون الأطفال يكبرون، والشباب يشيخون، والأعوام تمضي عامًا بعد عام، لكنهم لا يقفون طويلًا عند ما يعنيه ذلك من تناقص مستمر في رأس المال الذي مُنح لهم منذ

ولادتهم. وكثيرًا ما يفرح الإنسان بإضافة سنة إلى عمره، مع أن هذه السنة نفسها قد أُنقصت من الرصيد الباقي له في هذه الحياة.

وكأن السورة تريد أن تنبه الإنسان إلى أنه يسير في طريق الخسارة منذ اللحظة الأولى، وأن الزمن لا يزيده من الدنيا قربًا بقدر ما يزيده من الآخرة قربًا، ولا يبعده عن مولده إلا ليقربه من أجله.

لكن السورة لا تترك الإنسان أسير هذا المصير دون أمل، ولا تعرض الخسارة عرضًا يبعث على اليأس، وإنما تفتح باب النجاة مباشرة:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

وهنا يظهر الفرق بين فريقين من الناس.

فأما الفريق الأول، فإنه يترك الزمن يمر به مرورًا، وتنقضي أيامه وسنواته دون أن يترك وراءه أثرًا يبقى له، فيكون قد خسر عمره وخسر ثمرة عمره معًا.

وأما الفريق الثاني، فإنه يخضع للزمن كما يخضع له غيره، ويشيخ كما يشيخ غيره، ويدنو من الموت كما يدنو منه غيره، لكنه يحول هذا النقص الظاهر إلى زيادة باطنة. فكل يوم ينقص من عمره يزيد في رصيده عند الله، وكل ساعة تقتطع من حياته تضيف إلى ميزانه عملًا صالحًا، وكل مشقة يصبر عليها تصبح ذخيرة له فيما يستقبل من أمره.

فهو يخسر من جهة، ويربح من جهة أخرى.

يخسر من عمره الفاني، لكنه يربح في عمره الباقي. ويفقد من أيام الدنيا، ولكنه يدخر لآخرة لا تنقضي. ولذلك لا يكون خاضعًا للخسران الذي يشمل عامة الناس، وإن كان يعيش معهم تحت سلطان الزمن نفسه.

ولعل هذا هو السر في اجتماع هذه الصفات الأربع في السورة: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. فالإيمان يهدي الإنسان إلى غايته، والعمل الصالح يحول الزمن إلى قيمة، والتواصي بالحق يحفظ المجتمع من الضياع، والتواصي بالصبر يعين الإنسان على مواصلة الطريق رغم ما فيه من عناء ومشقة.

وعلى هذا النحو تبدو سورة العصر كلها تأملًا عميقًا في الزمن وفي أثره في الإنسان. فهي تبدأ بالعصر الذي يمضي ولا يعود، ثم تعرض الإنسان وهو يتناقص شيئًا فشيئًا تحت سلطان هذا العصر، ثم تكشف الطريق الذي يستطيع به أن يحول هذا التناقص إلى زيادة، وهذه الخسارة إلى ربح.

فإذا كان الزمن يسلب الإنسان عمره سلبًا لا مفر منه، فإن الإيمان والعمل الصالح يمنحانه القدرة على أن يجعل من هذا العمر المحدود حياةً لا يحدها زمن، وأثرًا لا ينتهي بانتهاء الأيام.

هكذا تنتهي السورة وقد بينت أن الخسران هو الأصل في حياة الإنسان، وأن النجاة ليست أمرًا عارضًا أو سهل المنال، إنما هي ثمرة وعيٍ بحقيقة الزمن، وإدراكٍ لقيمة العمر، وعمل متصل يحول الأيام الزائلة إلى خير باقٍ لا يزول.

سـورة الهُمَزة

رفع النفس بتحطيم الغير

ما أكثر الناس الذين يظنون أنهم يستطيعون أن يرفعوا أنفسهم بخفض غيرهم، وأن يبنوا مجدهم على أنقاض الآخرين، وأن يثبتوا مكانتهم في الحياة بإضعاف من حولهم والنيل منهم. وهم ينسون أن هذا الطريق الذي يسلكونه في إيذاء الناس واحتقارهم لا ينتهي في أكثر الأحيان إلى تحطيم الآخرين، بقدر ما ينتهي إلى تحطيم صاحبه نفسه. وسورة الهمزة من أعمق السور التي تصور هذه الحقيقة النفسية والأخلاقية تصويرًا بالغ القوة والتأثير. فالسورة تبدأ بوعيد شديد:

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾

والهمز واللمز ليسا مجرد ألفاظ تقال باللسان، إنما هما موقف من الناس وطريقة في النظر إليهم. فالهمزة اللمزة لا يرضى أن يعيش مع الناس على أساس المودة والاحترام، إنما يجد لذة خاصة في تتبع عيوبهم، والكشف عن نقائصهم، والإشارة إلى ما يكرهون أن يُشار إليه. وهو لا يكاد يرى في الناس فضيلة تستحق الإعجاب، ولكنه يسرع إلى رؤية ما يظنه نقصًا أو عيبًا أو موضعًا للسخرية. وكأن حياته قائمة على تحطيم الآخرين تحطيمًا معنويًا؛ فهو لا يهدم بيوتًا، ولا يكسر أجسادًا، لكنه يحاول أن يكسر النفوس، وأن ينال من الكرامة، وأن يحطم الصورة التي يعيش بها الإنسان بين الناس.

ثم تمضي السورة فتكشف أن هذا الخلق الذميم لا يعيش وحده، بل كثيرًا ما يقترن بالاغترار بالمال: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾

فهذا الإنسان لا يكتفي بأن يحتقر الناس، بل يجد في ماله قوةً تدفعه إلى مزيد من الكبر والاستهانة بالخلق. وهو يظن أن ما جمعه من مال يحميه من تقلبات الحياة، ويمنحه نوعًا من الخلود أو الأمن الدائم، فينسى أنه مخلوق ضعيف، وأنه خاضع لما يخضع له سائر البشر من المرض والهرم والموت.

وهنا تبلغ السورة ذروة قوتها الفنية؛ لأنها تنتقل من وصف الفعل إلى وصف الجزاء، فتقول: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾

وما أبلغ هذا الاسم!

فالحطمة مشتقة من الحطم، وهو الكسر والسحق والتحطيم. وكأن السورة تريد أن تقول إن الذي جعل عمله في الدنيا تحطيم الآخرين، سوف يؤول مصيره هو نفسه إلى التحطيم. والذي عاش يكسر النفوس ويهين الكرامات ويزدري الناس، سوف يشرب من نفس الكأس الذي سقى منها الآخرين.

فليست العقوبة هنا أمرًا غريبًا عن الجريمة، وإنما هي امتداد لها وصورة أخرى من صورها. لقد أراد أن يجعل من الناس حطامًا معنويًا، فإذا به يصبح هو نفسه عرضة للحطمة.

ثم تمضي السورة فتسأل: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾

وكأنها تريد أن تنقل القارئ من المعنى الظاهر إلى حقيقة أعمق وأشد هولًا.

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾

ولم يكن من المصادفة أن يذكر القرآن الأفئدة. فالجريمة بدأت في القلب قبل أن تظهر على اللسان أو في السلوك. ومن ذلك القلب خرج الاحتقار، والحسد، والشماتة، والرغبة في النيل من الآخرين. لهذا كان العذاب نافذًا إلى الموضع الذي بدأ منه الداء.

ولعل المتأمل في أحوال الناس يرى أن هذه الحقيقة تظهر آثارها حتى في الحياة الدنيا. فكثيرًا ما يكون الإنسان الذي يكثر من السخرية والازدراء أشد الناس اضطرابًا في داخله، وأكثرهم معاناة من القلق والمرارة الخفية. فهو يشتغل بالناس لأنه عاجز عن التصالح مع نفسه، ويجد راحته المؤقتة في النيل من غيره لأنه لا يجد الطمأنينة في قلبه.

ومن هنا يبدو كأن نارًا خفية كانت مشتعلة في أعماقه قبل أن يلقى نار الآخرة؛ نار الحسد، أو الحقد، والشعور بالنقص، والرغبة الدائمة في الانتقاص من الآخرين. وهذه النار الباطنة لا تحرق من حوله فحسب، بل تحرقه هو أيضًا، وتجعله يعيش في تعب لا ينتهي وسخط لا ينقضي.

ثم تختم السورة مشهدها المهيب:

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ . فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾

فليس هناك مهرب من المصير الذي صنعه الإنسان لنفسه بيديه. لقد ظن أن قوته في قدرته على تحطيم غيره، فإذا به يكتشف أن هذه القوة الموهومة كانت سبب هلاكه.

وعلى هذا النحو تبدو سورة الهمزة كلها قائمة على حقيقة واحدة: أن الإنسان الذي يجعل حياته قائمة على تحطيم الآخرين إنما يباشر، من حيث لا يشعر، عملية تحطيم ذاته. فهو يبدأ بإيذاء الناس، ثم ينتهي إلى إفساد قلبه، ثم يفضي به هذا الفساد إلى مصير يمثل الصورة الكاملة لما كان يصنعه بغيره.

هكذا تكشف السورة أن العدوان على الآخرين ليس طريقًا إلى العظمة، وأن السخرية ليست دليل قوة، وأن الازدراء لا يرفع صاحبه فوق الناس، بل يهوي به إلى أسفل الدرجات. فالذي أراد أن يجعل من الآخرين حطامًا، لم يفعل في النهاية إلا أن مهد الطريق لتحطيم نفسه.

سـورة الفيل

الفيل في الحجرة

من يتدبر سورة الفيل، يقع في نفسه أول الأمر ذلك المحور الذي تدور عليه السورة "الفيل في الحجرة ". غير أن المرء لن يدرك كنه هذا الأمر، ولن يبلغ منه وجهاً من الفهم الصحيح، إلا إذا تمثّل في خاطره جماعة من الناس قد حُشروا في حجرة ضيقة، وأُقحم معهم فيل عظيم، باطش عاتٍ.

فأنت ترى هؤلاء البائسين يبيتون ويصبحون على شفا هلكة؛ إذ لا يملك هذا الفيل إلا أن يتحرك حركة أو يضرب جداراً، حتى تسقط عليهم السقوف ويتهاوى البنيان، فيكونوا صرعى تحت ركامه. ومع ذلك كله، ترى هؤلاء القوم يعيشون مع هذا الخطر الماحق، ويسيرون في أمرهم سير الطمأنينة والجهالة، ويتعاملون معه كأنه هباء منثور، أو كأنه غير موجود! ولقد جرى اللسان الأعجمي في أوروبا على تسمية هذه الحال بـ "elephant in the room".

ولعل المرء يسأل: ومتى يُضرب هذا المثل؟ والجواب أنه يُضرب حين تجتمع عصبة من أولي الأمر والنهي، يمسكون بأيديهم مصائر البشرية يقلبونها كيف شاؤوا ، ويمكرون بها مكر الليل والنهار. فمنهم علماء في معاملهم، ينفثون من السموم والفيروسات ما يهلك الحرث والنسل ، ومنهم من يطلقون في جو السماء غازاً مسمومًا، ومنهم قادة عظام استأثروا بأسرار الفتك الكبرى، من قنابل ذرية وأسلحة جرثومية. بل إن منهم دولاً لم تكتفِ بهذا، فاستغلت هذه الثورة الرقمية الحديثة لتقيد بها عقول البشر، وتتحكم في مصائرهم بأساليب دقيقة ماكرة لا تخطر للنفس على بال.

ولقد حاولت القواميس والموسوعات الأعجمية أن تحدد هذا اللفظ وتضبط معناه؛ فقاموس "كمبردج" يرى أن "الفيل في الحجرة" إنما هو كناية عن مشكلة جلية، أو موقف عسير تضيق به الصدور، ولكن القوم يأبون الحديث فيه أو الخوض في غماره. ويقترب موقع "جاكوب ماريان" من هذا المعنى، فيرى فيه قضية كبرى يعلمها الداني والقاصي،

ولكنهم يغضون عنها الأبصار عمدًا؛ لأن الحديث فيها يورث النفس مشقة وضيقًا. فوجود هذا الوحش العظيم في الحجرة أمر لا يمكن إغفاله بحال، ولكنهم يتصنعون العمى والجهالة كأنه ليس هناك! وكذلك فعلت موسوعة "بريتانيكا" حين ضربت المثل بالأسلحة النووية، فجعلتها هي ذلك "الفيل" الذي يتحاشى الجميع ذكره حين يتحدثون عن أشد أدوات الفتك دموية في تاريخ الإنسان.

وانظر بعد ذلك إلى واقع هذه الدول الكبرى، تجد عجباً! فالصين تعلم من أسرار أمريكا ومكرها بالبشرية أمراً نكراً ، وأمريكا تطَّلع من أسرار الصين على ما يشيب له الولدان، ومع ذلك تطبق الشفتين ولا تنبس ببنت شفة! وروسيا لا تجهل شيئاً مما تضمره أمريكا والصين وكوريا، ومع ذلك تلزم الصمت المطبق. فالكل يعلم من أمر الكل خطوباً وأسراراً، ولكنهم يتحاشون نشر غسيلهم القذر أمام الأشهاد؛ إلا ما يخرج من ذلك فلتة أو تظهره المقادير بمحض الصدفة.

وما ذاك الصمت إلا لأن بينهم منافع موصولة، ومصالح مشتركة، وعقوداً سرية يطبخونها في الخفاء ؛ ليبسطوا سلطانهم على سائر البشر. ولكن هؤلاء غاب عنهم ما غاب عن أصحاب الفيل الأقدمين؛ غاب عنهم أن فوق كيدهم كيداً، وأن الله جلت قدرته سيجعل تدميرهم في تدبيرهم، وسيرد مكرهم في نحورهم، كما قال في كتابه العزيز: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ}.

ثم تمضي السورة في بيان هذا النبأ العظيم، فتقول: {وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ}. ولعل المرء يسأل نفسه: ما عسى أن تكون هذه "الأبابيل" في لغة العرب المتقدمين؟ والجواب يأتيك من بطون المعاجم؛ إذ تخبرنا أن اللفظ يدور في تقليبه واشتقاقه على معانٍ ثلاثة : فالرجل إذا حذق رعي الإبل وبصر بأمرها قيل فيه "أَبَلَ" ، وإذا اعتزل النساء وتنسّك في محرابه قيل "تأبّل"؛ كما جاء في الأثر من تأبّل آدم على ابنه المقتول أياماً. وإذا توحّشت الإبل ونفرت في القفار قيل "أَبَلَتْ".

فأنت ترى أن اللفظ يجمع ببراعة بين الذكاء والمهارة، والتوحّش الذي لا يعرف الرحمة، ثم العزوف عن الإناث والتكاثر. وإذا كان الفيل في الغابر من الزمان يمثل أعتى قوة هجومية تكتسح ما أمامها، وكان أصحابه يظنون أنهم مانعتهم حصونهم وأفيالهم،

فإن الله أرسل عليهم طيراً أهلكتهم بالحصى القاتل. على أن هذا المعنى قد يتسع في عصرنا هذا ليريك كيداً آخر؛ فقد اخترع أصحاب الأفيال الجدد "دبابة" مصفحة ماردة تفوق قوة الفيل آلاف المرات. غير أن فرحتهم هذه لم تطل؛ إذ أرسل الله عليها طيراً من جنس ما تقدم؛ طائرات "ذكية" تصيب أهدافها بدقة متناهية، و"متوحشة" لا تعرف الشفقة بضحاياها، وهي بعد ذلك من حديد ونار، "متنسكة" لا دم فيها ولا روح، فلا هي تتزاوج ولا هي تنزع إلى شيء من أمر الإناث ، تحمل في بطونها أطناناً من الصواريخ لتدمر بها تلك الأفيال الصناعية المصفحة.

ثم تبلغ بنا السورة مشهداً تضيق به النفوس تروعاً، في قوله عز وجل: {تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ}. وهنا يرى الباحث المدقق أن الباء في الآية إنما تأتي بمعنى "على" ؛ ذلك أن أولئك القوم لما حاق بهم الموت لم يسقطوا في صعيد واحد، بل تفرقوا في البيداء هاربين. ويروي الرواة – ومنهم عكرمة وعطاء وابن إسحاق – أن الوباء والجُدريّ قد تفشى فيهم تفشياً نكراً، فجعلت جثثهم تتساقط في العراء وتتمزق أعضاؤهم عضواً عضواً على كل منهل وطريق ، حتى إن قائد عسكرهم "أبرهة" قد سقطت أنامله أنملة أنملة، وما قدموا به صنعاء إلا وهو في هزال وضعة كأنه فرخ الطائر البائس.

وفي هذا الفضاء الموحش المقفر، انقضّت طيور الجيف من نسور وحدآن وغربان، فجعلت تنهش تلك اللحوم المتناثرة، وتطير بالقطعة منها فترمها "على" صخرة صلبة من حجر السجيل؛ لتلينها أو تنظفها، ثم تأكلها على عادة الطير الجارح. هذا هو المشهد الرهيب الذي رسمه البيان الإلهي: أسراب وجماعات أقبلت من كل صوب، لتقذف بأشلاء القوم فوق الحجارة الصماء.

وماذا عسى أن يكون المآل بعد هذا النهش والتمزيق؟ الجواب تسوقه السورة في ختامها المروع: {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ}. لقد غدوا كقشور سنبلة القمح التي تلاعبت بها الديدان، فأتت على حبوبها وتركتها جوفاء لا غناء فيها. فلم تَبقَ من أولئك الجبابرة إلا جلودٌ خاوية، وعظام نخرة، وشعر متناثر، بعد أن التهمت الطير والسباع لحومهم ؛ ليكون ذلك عبرة لمن اعتبر، ونهاية تليق بكل من تحدى القدرة الإلهية وظن في نفسه القوة والمنعة.

سـورة قريش

النعم التي أفسدتها الألفة

ما أكثر النعم التي تحيط بالإنسان من كل جانب، وما أقل ما يفكر فيها أو يقف عندها وقفة المتأمل الشاكر. ذلك لأن النفس تألف ما يتكرر عليها، حتى يصبح أعظم ما تملكه شيئًا مألوفًا لا يثير فيها عجبًا ولا يدعوها إلى تفكير. فالإنسان قد يعيش في الأمن أعوامًا طويلة فلا يشعر بقيمته، ويتمتع بالصحة فلا يكاد يلتفت إليها، ويجد رزقه حاضرًا بين يديه كل يوم حتى ينسى كم من الناس حُرموا ما أُعطي هو من الخير والطمأنينة.

ولعل سورة قريش من أبدع السور التي تصور هذه الطبيعة الإنسانية تصويرًا دقيقًا؛ فهي لا تتحدث عن نعمة طارئة أدهشت أصحابها، إنما تتحدث عن نعمة طال بها العهد حتى أصبحت جزءًا من الحياة اليومية، لا يكاد أصحابها يشعرون بما فيها من فضل.

ولهذا تبدأ السورة بذكر الإيلاف:

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾

ولفظ الإيلاف نفسه يلفت النظر إلى معنى الألفة والاعتياد. فلم تكن هذه الرحلات أمرًا نادرًا يقع مرة ثم ينقضي، إنما كانت عادة مستقرة توارثتها قريش جيلًا بعد جيل، حتى أصبحت جزءًا من نظام حياتهم، لا يستغربونه ولا يتوقفون عنده طويلًا.

وكانت قريش تخرج في الشتاء إلى الجهات الدافئة، وفي الصيف إلى الجهات الألطف جوًا، فتنتقل بتجارتها بين الأقاليم، وتجني من وراء ذلك أرزاقًا واسعة ومنافع كثيرة. وكانت القوافل تسير في طرقها المألوفة، وتعود محملة بما تحتاج إليه البلاد من خيرات، حتى أصبح هذا كله شيئًا معتادًا تجري به الحياة في هدوء وانتظام.

ومن طبيعة الإنسان أنه إذا اعتاد النعمة كفّ عن التفكير فيها. فهو يلتفت إلى ما يفقده أكثر مما يلتفت إلى ما يملكه، ويتأثر بما ينقصه أكثر مما يتأمل فيما أُعطيه. ولذلك لم تعد هذه الرحلات، بما تحمله من خير وبركة، تثير في نفوس كثير من أهل قريش شعورًا بالشكر أو الامتنان، لأنها تحولت من نعمة ظاهرة إلى أمر مألوف لا يكادون يشعرون به.

ومن هنا يأتي التوجيه القرآني الحاسم: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾

وكأن السورة تريد أن تنقلهم من النظر إلى النعمة إلى النظر إلى مصدرها، ومن الألفة بالخير إلى معرفة من أنعم به. فما قيمة الرحلات إذا نُسي الذي هيأ أسبابها؟ وما قيمة التجارة إذا غفل أصحابها عمن بسط لهم الأمن الذي تقوم عليه تجارتهم؟

ثم تختصر السورة ثمار هذه النعم كلها في نعمتين عظيمتين:

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾

وهاتان النعمتان تمسان أصل الحياة الإنسانية. فالإنسان لا يطلب بعد الطعام شيء إلا الأمن، ولا يستطيع أن ينتفع بما يملك إذا عاش خائفًا مضطربًا. وقد جمع الله لقريش الأمرين جميعًا؛ فوجدوا الرزق بعد الحاجة، ووجدوا الطمأنينة في بيئة كان الخوف فيها يحيط بكثير من القبائل والأمم.

ولم يكن المقصود من هذا التذكير مجرد استعراض ما نالته قريش من خيرات، وإنما كان المقصود أن تقوم الحجة عليهم. فإذا كانوا قد نعموا بكل هذا الفضل، وكان الله قد هيأ لهم أسباب الرزق والاستقرار، فأي شيء يمنعهم من عبادته؟ وأي عذر يبقى لهم في الإعراض عن رسوله حين جاءهم يدعوهم إلى توحيده وشكره؟

وعلى هذا النحو تبدو سورة قريش دعوة إلى استعادة الإحساس بالنعم التي أفسدتها الألفة. فهي تذكر الإنسان بأن ما اعتاده ليس بالضرورة أمرًا عاديًا، وأن ما يجري في حياته كل يوم قد يكون من أعظم أسباب الشكر لو أنه نظر إليه بعين جديدة.

فكثير من الناس لا يعرفون قيمة النعمة إلا إذا فقدوها، ولا يشعرون بفضل الأمن إلا إذا أصابهم الخوف، ولا يدركون نعمة الرزق إلا إذا ذاقوا مرارة الحرمان. أما القرآن فيريد للإنسان أن يعرف فضل النعمة قبل أن تزول، وأن يشكر المنعم قبل أن يفقد ما أُعطي.

هكذا تبدو السورة كلها قائمة على معنى واحد: أن دوام النعمة لا ينبغي أن يؤدي إلى نسيانها، وأن الألفة بها لا ينبغي أن تحجب صاحبها عن رؤية المنعم الذي أفاضها عليه. فإذا اعتاد الإنسان الخير حتى لم يعد يشعر به، كان أحوج ما يكون إلى من يوقظه ليذكره بأن وراء هذه النعم كلها ربًا يستحق الشكر والعبادة والحمد.

سـورة الماعون

الأنانية وحب الذات

ليس من العسير على الإنسان أن يكتشف صور الظلم الصريحة التي تقع أمام عينيه، ولكنه قد يعجز أحيانًا عن رؤية الداء الكامن وراء هذه الصور جميعًا. فقد يرى قسوة على يتيم هنا، وبخلًا على مسكين هناك، ورياءً في العبادة في موضع آخر، ثم لا ينتبه إلى أن هذه المظاهر المختلفة قد تكون فروعًا لشجرة واحدة، وأعراضًا لمرض واحد يضرب بجذوره في أعماق النفس.

ولعل سورة الماعون من السور التي تكشف هذا المرض الخفي كشفًا دقيقًا، وتبين كيف يستطيع حب الذات إذا استولى على الإنسان أن يفسد أخلاقه كلها، وأن يحول الدين نفسه إلى صورة خاوية لا روح فيها.

لهذا تبدأ السورة بسؤال يلفت الانتباه ويثير التفكير:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾

وكان من الممكن أن يظن السامع أن الجواب سيأتي في صورة مناقشة فكرية أو حجة عقلية، أو أن السورة ستحدثه عن قضايا العقيدة وما يتصل بها من جدل ونظر. ولكن القرآن يفاجئه بشيء آخر.

فهو لا ينظر أولًا إلى ما يقوله هذا الإنسان بلسانه، وإنما ينظر إلى ما يفعله في حياته:

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾

فإذا بهذا المكذب بالدين لا يظهر أمره في الكتب ولا في المجالس، بل يظهر في موقفه من أضعف الناس وأشدهم حاجة إلى الرحمة والعطف. إنه لا يكتفي بإهمال اليتيم، بل يدفعه دفعًا ويزجره زجرًا، وكأن وجود هذا الضعيف يثقل عليه ويزعجه.

ثم تمضي السورة خطوة أخرى:

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾

وهنا لا تتحدث الآية عن البخل بالمال وحده، وإنما تتحدث عن ضمور الشعور الإنساني نفسه. فهذا الإنسان لا يطعم، ولا يشجع غيره على الإطعام، ولا يحرك المجتمع نحو الرحمة والتعاون. وكأن دائرة اهتمامه قد انغلقت عليه وحده، فلم يعد يرى من العالم إلا ما يتصل بمصلحته الخاصة.

ومن هنا يبدو أن المشكلة ليست في قلة المال، ولا في ضيق اليد، وإنما في استيلاء الأثرة على القلب حتى أصبح عاجزًا عن الالتفات إلى آلام الآخرين.

ثم تأتي الآيات التي قد تفاجئ القارئ لأول وهلة:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾

وهنا يظن السامع أن الحديث قد انتقل إلى صنف آخر من الناس، لكنه لا يلبث أن يدرك أن السورة ما زالت تتحدث عن المرض نفسه، وإن اختلفت صورته.

فهؤلاء يصلون، ولكن صلاتهم لم تنفذ إلى أعماق نفوسهم، ولم تغير من أخلاقهم، ولم تخرجهم من أسر الذات إلى رحابة الإحساس بالناس.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾

إنهم يؤدون حركاتها، ولكنهم غائبون عن معناها. ويقيمون صورتها، ولكن روحها لا تكاد تجد سبيلًا إلى قلوبهم.

ثم تكشف السورة العلة الكبرى:

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾

وهنا يبلغ حب الذات غايته. فالمرائي لا يجعل الله غاية عمله، إنما يجعل نفسه هي الغاية. إنه لا يعمل ليقترب من ربه، بل ليحسن صورته في أعين الناس، وليسمع الثناء، وينال الإعجاب، ويحظى بالمكانة التي يشتهيها.

فالعبادة التي كان ينبغي أن تحرره من عبودية نفسه أصبحت وسيلة جديدة لخدمة هذه النفس وتعظيم شأنها.

ثم تختم السورة هذا التصوير البديع بقول الله تعالى:

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾

والماعون شيء يسير، قد لا يكلف صاحبه كبير جهد أو خسارة. ومع ذلك فإن هؤلاء يبخلون به، لأن النفس التي اعتادت أن تجعل ذاتها محور كل شيء لا ترى في حاجة الآخرين ما يدعوها إلى البذل والعطاء.

ومن هنا تتكشف الوحدة العميقة التي تجمع السورة كلها. فإن دع اليتيم، وترك المسكين، والرياء في العبادة، ومنع الماعون، ليست أعمالًا متفرقة لا رابط بينها، إنما هي وجوه متعددة لحقيقة واحدة.

إنها حقيقة النفس حين تنغلق على ذاتها، وحين تصبح مصلحتها الخاصة هي المعيار الذي تقيس به كل شيء.

وعلى هذا النحو تبدو سورة الماعون كأنها تحذير من ذلك المرض الخفي الذي قد يفسد الدين والأخلاق معًا. فهي تعلم الإنسان أن الإيمان ليس كلمات تُقال، ولا شعائر تؤدى في ظاهر الأمر، إنما هو رحمة تفيض على الضعفاء، وإحساس بالمسؤولية تجاه المحتاجين، وتحرر من عبادة الذات التي تجعل الإنسان لا يرى في هذا العالم إلا نفسه.

فإذا استولت الأنانية على القلب ضاع اليتيم، وجاع المسكين، وتحولت العبادة إلى مظهر فارغ، وانقطع الخير بين الناس. وإذا تحرر الإنسان من هذه الأنانية عاد الدين إلى حقيقته الأولى: رحمةً وعدلًا وإحسانًا.

سـورة الكوثر

حقيقة البركة

ما أكثر ما يخطئ الناس حين يظنون أن الكثرة هي كثرة المال وحده، أو أن الغنى هو وفرة ما يقع في اليد من متاع الدنيا. فكثيرًا ما يرى الإنسان أناسًا يملكون الكثير، ثم لا يجد في حياتهم أثرًا باقياً ولا خيرًا ممتدًا، ويرى آخرين قد لا يملكون من أسباب الدنيا إلا القليل، ثم تمتد آثارهم في الناس، وتبقى ذكراهم حية بعد أن يغيبوا عن هذه الحياة بسنين طويلة. ومن هنا يبدو أن وراء الكثرة الظاهرة معنى أعمق، وأن وراء الأعداد والحسابات شيئًا آخر هو البركة.

وسورة الكوثر من السور التي تدعو القارئ إلى تأمل هذا المعنى.

فهي تبدأ بهذا الإعلان الإلهي الموجز العجيب:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾

ولفظ الكوثر يوحي منذ الوهلة الأولى بالفيض والزيادة والغنى والكثرة. وكأن السورة تريد أن تنقل النفس إلى عالم الامتلاء بعد أن كانت تفكر في النقص، وإلى عالم العطاء بعد أن كانت تنظر إلى الحرمان.

وليس من الضروري أن يقف القارئ طويلًا عند صور هذا الخير الكثيرة، فحسبه أن يعلم أن الله قد وهب نبيه صلى الله عليه وسلم خيرًا عظيمًا لا يحده حد، وبركة واسعة لا تنفد آثارها، ورحمة امتدت من حياته إلى أمته، ثم من أمته إلى أجيال متعاقبة لا يعلم عددها إلا الله.

غير أن السورة لا تقف عند العطاء وحده، بل تنتقل مباشرة إلى ما ينبغي أن يقابل به هذا العطاء.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾

وكأن القرآن يريد أن يقرر حقيقة جليلة، وهي أن النعمة لا تكتمل إلا بالشكر، وأن البركة لا تدوم إلا إذا عرف الإنسان مصدرها.

فليس المطلوب أن يقف الإنسان عند النعمة نفسها، إنما أن يتجاوزها إلى المنعم. وليس المطلوب أن يعجب بما أُعطي، وإنما أن يتوجه بقلبه إلى الذي أعطى.

ومن هنا جاءت الصلاة والنحر خالصين لله وحده. فلا رياء يفسد العمل، ولا طلب لمحمدة الناس، ولا رغبة في جاه أو سمعة.

ولعل هذا المعنى يزداد وضوحًا إذا نظرنا إلى السورة في ضوء السورة التي سبقتها. ففي سورة الماعون رأينا أناسًا يؤدون بعض الأعمال وهم مشغولون بأنفسهم، حريصون على أن يراهم الناس وأن يثنوا عليهم. أما هنا فإن العمل يتجه إلى الله وحده، ويتحرر من أسر الأنانية ومن طلب المنزلة عند الخلق.

ثم تبلغ السورة ذروتها في خاتمتها القصيرة:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾

وهنا تظهر المقابلة البديعة التي تنتظم السورة كلها.

ففي أولها الكوثر، وهو الخير الكثير الممتد المتدفق.

وفي آخرها الأبتر، وهو المقطوع المنتهي الذي لا امتداد له.

وكأن السورة تضع أمام الإنسان طريقين لا ثالث لهما: طريق البركة وطريق الانقطاع.

وقد ظن بعض خصوم النبي صلى الله عليه وسلم أن القوة فيما يملكون، وأن البقاء فيما يعتمدون عليه من أسباب الدنيا، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو الذي سينقطع أثره ويزول ذكره. ولكن الأيام مضت، ثم مضت القرون بعدها، فإذا محمد صلى الله عليه وسلم فقد بقي ذكره حيًا على ألسنة الملايين، وامتدت رسالته في الآفاق، وتعاقبت الأجيال تتلو كتابه وتقتدي بهديه وتذكره بالصلاة والسلام.

وأما الذين نصبوا له العداء، فما بقي من أمر أكثرهم إلا أسماء تذكر في صفحات التاريخ، أو لا تذكر.

ومن هنا يبدو أن الأبتر ليس بالضرورة من قل ماله أو ضعف سلطانه، وإنما الأبتر حقًا هو من انقطعت عنه البركة، وانفصل عن مصدر الخير، فلم يبق له أثر نافع ولا ذكر حسن.

وعلى هذا النحو تبدو سورة الكوثر كلها قائمة على معنى واحد يجمع أجزاءها جميعًا: أن الخير الحقيقي ليس فيما يملكه الإنسان، وإنما فيما يباركه الله له. وأن البركة هي سر الامتداد والبقاء، كما أن الحرمان منها هو سر الانقطاع والزوال.

فمن اتصل بالله مخلصًا في عبادته وعمله، فُتحت له أبواب من الخير قد لا تحيط بها الحسابات الظاهرة. ومن أعرض عن الله، واعتمد على ما في يده وحده، فقد يبدو للناس قويًا حينًا من الدهر، ولكنه يحمل في داخله بذور الانقطاع الذي تنتهي إليه كل قوة لا تستمد بقاءها من الحق.

هكذا تبدأ السورة بالكوثر، وتنتهي بالأبتر، وبين البداية والنهاية تعرض على الإنسان حقيقة من أعمق حقائق الحياة: أن البركة هي التي تمنح الأشياء قيمتها، وهي التي تجعل القليل كثيرًا، والعمر القصير ممتد الأثر، والعمل المحدود باقي الذكر، وأن من حُرمها فقد حُرم الخير كله وإن ملك من أسباب الدنيا ما ملك.

سـورة الكافرون

القطيعة الأبدية

كثيرًا ما يستطيع الناس أن يتعايشوا مع اختلافاتهم في أمور الحياة المختلفة، وأن يجدوا بين مصالحهم المتعارضة شيئًا من التفاهم أو التسوية أو الاتفاق. لكن هناك أمورًا لا تحتمل المساومة، ولا تقبل أنصاف الحلول، لأنها تتصل بأصل النظرة إلى الوجود، وبالغاية التي يعيش الإنسان من أجلها، وبالجهة التي يتوجه إليها قلبه في العبادة والخضوع.

ولعل سورة الكافرون من أوضح السور القرآنية في تقرير هذه الحقيقة. فهي لا تسعى إلى إقامة جدل طويل، ولا تعرض براهين متعددة، إنما تعلن في قوة ووضوح أن هناك حدودًا لا يجوز أن تختلط، وأن هناك تمايزًا لا يمكن أن يزول بين عقيدتين مختلفتين في أصلها وجوهرها.

لهذا تبدأ السورة بنداء مباشر لا لبس فيه:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾

فالقرآن يريد منذ اللحظة الأولى أن يواجه الواقع كما هو، لا كما يتمنى الناس أن يكون. فهناك إيمان وهناك كفر، وهناك توحيد وهناك شرك، ولا سبيل إلى محو هذه الفوارق بمجرد الرغبة أو المجاملة.

ثم تمضي السورة في تأكيد هذا المعنى تأكيدًا متتابعًا:

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾

وكان يكفي في ظاهر الأمر أن يقال هذا مرة واحدة، ولكن السورة تعود إليه مرة بعد مرة، وكأنها تريد أن تسد كل باب يمكن أن يتسلل منه الوهم أو الالتباس.

فالأمر ليس خلافًا في بعض الفروع أو الجزئيات، إنما هو اختلاف في أصل العبادة نفسها. فالمؤمن يتجه بقلبه كله إلى الله وحده، والكافر يتجه إلى غير هذا الطريق. ومن هنا

لا يكون الخلاف عارضًا يمكن تجاوزه بسهولة، بل يكون متعلقًا بالأساس الذي يقوم عليه البناء كله.

لذلك يتكرر النفي:

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾

وكأن السورة لا تكتفي ببيان الواقع الحاضر، بل تشير كذلك إلى استحالة المزج بين الطريقين ما دامت كل عقيدة قائمة على أصولها الخاصة ومفاهيمها المتميزة.

ومن هنا تبدو السورة كلها كأنها إعلان لاستقلال الهوية العقدية للمؤمن. فهي لا تسمح بذوبان التوحيد في الشرك، ولا بامتزاج العقيدتين امتزاجًا يضيع معالم كل منهما. بل تجعل لكل طريق حدوده الواضحة التي تميزه عن غيره.

وهذا المعنى يزداد وضوحًا إذا نظرنا إلى السورة في ضوء ما سبقها في "سورة البينة" ومحورها الذي تدور حوله هو الوضوح والتمييز بين الحق والباطل. فإذا كانت البينة قد كشفت الحقائق وأظهرت الفوارق، فإن سورة الكافرون تأتي لتقرر هذه الفوارق تقريرًا نهائيًا لا يحتمل الغموض.

فكأن مرحلة الكشف قد انتهت، وجاءت مرحلة الإعلان.

وكأن الحدود التي كانت قد ظهرت أصبحت الآن مرسومة رسمًا واضحًا لا يجوز تجاوزه.

ثم تنتهي السورة بهذه الآية الموجزة العميقة:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

وهذه الخاتمة لا تبدو دعوة إلى نزاع، بقدر ما تبدو تقريرًا لحقيقة قائمة. فلكل فريق منهجه الذي اختاره، وعقيدته التي ارتضاها، والجهة التي يتوجه إليها في عبادته. ولا يكون وضوح هذا التمايز سببًا للاضطراب، بل يكون على العكس سببًا في إزالة الغموض الذي ينشأ حين تختلط الحدود وتتداخل المفاهيم.

وعلى هذا النحو تبدو سورة الكافرون سورةً للوضوح العقدي والحسم الفكري. فهي لا تتحدث عن عداوة شخصية، ولا عن خصومة عابرة، إنما تتحدث عن التمايز الذي لا بد منه بين عقيدتين مختلفتين في الأصل والغاية.

فإذا كانت بعض الأمور في الحياة تقبل المشاركة والتسوية، فإن العقيدة لا تقبل أنصاف المواقف. وإذا كان الناس يستطيعون أن يلتقوا في مصالح كثيرة، فإن العبادة لا تكون إلا لجهة واحدة يخلص لها القلب إخلاصًا كاملًا.

هكذا تقرر السورة، في كلمات قليلة، أن وضوح الهوية ليس لونًا من ألوان التعصب، إنما هو شرط من شروط الصدق. فحين يعرف كل إنسان ما يؤمن به، ويعرف ما يرفضه، ويعلن ذلك في وضوح لا لبس فيه، تصبح العلاقة مع الآخرين قائمة على الحقيقة لا على الوهم، وعلى التمييز لا على الاختلاط، وعلى الصراحة لا على المساومة.

سـورة النصر

عندما تفتح أبواب السماء

ليس أشد خطرًا على الإنسان من تلك اللحظات التي يبلغ فيها غاية ما كان يرجوه ويسعى إليه. فالهزيمة كثيرًا ما ترد المرء إلى نفسه، وتدعوه إلى التأمل والمراجعة، أما النجاح فقد يغريه بأن ينسى ضعفه، وأن يعجب بعمله، وأن يظن أن ما تحقق له إنما تحقق بقوته وحدها وحسن تدبيره.

ولعل سورة النصر من أعمق السور القرآنية في معالجة هذا المعنى. فهي لا تتحدث عن لحظة ضعف أو انكسار، إنما تتحدث عن لحظة اكتمال وظهور وانتصار، ثم تعلم الإنسان كيف يستقبل هذه اللحظة استقبال المؤمن الذي يعرف مصدر النعمة، ولا يغيب عنه المنعم وهو ينظر إلى النعمة.

تبدأ السورة بهذا المشهد العظيم:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

وليس الحديث هنا عن نصر عادي يقع في معركة من المعارك، إنما عن تحول كبير في مسيرة الدعوة كلها. فقد قضى المسلمون سنوات طويلة يدعون إلى دينهم، ويتحملون الأذى والمشقة، ويواجهون المعارضة والعناد، ثم جاء الوقت الذي ظهرت فيه ثمرة هذا الصبر الطويل.

ثم تمضي السورة فتكشف الصورة كاملة:

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾

وهنا يبلغ المشهد ذروته. فالحديث لم يعد عن فتح مدينة أو انتصار جماعة على جماعة، إنما عن فتح القلوب نفسها. فالناس الذين كانوا مترددين أو معارضين أصبحوا يقبلون على هذا الدين جماعات متتابعة، لا أفرادًا متفرقين.

وكأن أبوابًا كانت مغلقة قد فُتحت، وحواجز كانت قائمة قد زالت، وأصبح نور الهداية ينتشر في الآفاق انتشارًا لم يكن يخطر لكثير من الناس على بال.

وفي مثل هذه اللحظات يوشك الإنسان أن ينشغل بالنصر نفسه، وأن يستغرق في الفرح بما تحقق له، وأن يقف طويلًا عند ما بذله من جهد وما قدمه من عمل.

ولكن السورة تفاجئه بما لم يكن يتوقعه:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾

فكأن القرآن يريد أن يرفع نظر المؤمن من الأرض إلى السماء، ومن الحدث إلى مصدر الحدث، ومن النعمة إلى المنعم.

فهذا النصر ليس ملكًا لأحد من الناس، إنما هو نصر الله. وهذا الفتح لم تصنعه القدرة البشرية وحدها، إنما جاء بتوفيق الله وتأييده. وما دام الأمر كذلك، فإن أول ما ينبغي أن يملأ القلب ليس الزهو ولا العجب، وإنما الحمد والتسبيح.

ومن هنا تبدو السورة كلها دعوة إلى التواضع في ساعة النجاح.

فالناس في أوقات الشدة يلجؤون إلى الله بطبيعتهم، أما الامتحان الحقيقي فيكون حين تتيسر الأمور وتتحقق الآمال. عندئذٍ يظهر الفرق بين من يرى نفسه، ومن يرى فضل الله عليه.

ولذلك جمع القرآن بين التسبيح والاستغفار.

أما التسبيح فلأنه تنزيه لله وإقرار بكماله وفضله. وأما الاستغفار فلأن المؤمن، مهما بلغ من النجاح، يعلم أنه لم يؤد حق الله كما ينبغي، وأنه لا يزال محتاجًا إلى رحمته وعفوه.

وهذا من أبدع ما في السورة؛ فإنها تجعل لحظة الانتصار لحظة محاسبة للنفس، وتجعل ساعة الفرح ساعة قرب من الله، وتجعل اكتمال العمل سببًا لمزيد من التواضع لا لمزيد من الكبر.

ثم تختم السورة بقول الله تعالى:

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

وكأنها تفتح باب الرجاء على مصراعيه، وتذكر الإنسان بأن الله الذي منحه النصر هو نفسه الذي يقبل توبته، ويغفر تقصيره، ويرحمه إذا رجع إليه بقلب خاشع.

وعلى هذا النحو تبدو سورة النصر سورةً تتحدث عن لحظة تتجلى فيها رحمة الله في الأرض، حين تنتشر الهداية بين الناس، وتفتح القلوب لاستقبال الحق، ويقبل الخلق على دين الله أفواجًا. ولكنها في الوقت نفسه تعلم المؤمن أن أعظم أوقات النجاح ليست أوقات الغفلة، بل أوقات الذكر، وأن أبهى لحظات النصر ليست لحظات التفاخر، بل لحظات التسبيح والاستغفار.

فإذا رأى الإنسان ثمار عمله قد أينعت، ورأى الخير ينتشر من حوله، ورأى الأبواب التي كانت مغلقة قد فُتحت، فليس أول ما ينبغي أن يقوله: هذا ما صنعت يداي. وإنما أول ما ينبغي أن يقوله: سبحان ربي، والحمد لله، وأستغفر الله.

وهكذا تعلمنا السورة أن النصر الحقيقي لا يكتمل بفتح البلاد وحدها، ولا بدخول الناس في الدين وحده، وإنما يكتمل حين يقود صاحبه إلى مزيد من العبودية لله، ومزيد من الشكر له، ومزيد من التواضع بين يديه.

سـورة المسد

مثيرو الفتن

سورة المسد ليست تاريخاً لشخص بعينه، بل هي صورة مثالية لمثيري الفتنة في كل زمان ومكان. فهم أولئك النفر الذين جعلوا من إيقاد نار الخلافات بين الناس حرفةً لا يبرعون إلا فيها، وصنعةً لا يحسنون غيرها. هم لا يعيشون إلا في ركام الفوضى التي يخلقونها بأيديهم، ويتغذون على الشر الذي يذكونه بين القلوب، كما تتغذى النار على الحطب. بل إنهم ليحولون هذه المأساة الإنسانية إلى تجارة رابحة، يدرون منها الأموال الحرام، ويبذرون البغضاء في سبيل درهم أو منصب.

وإذا كانت السورة قد خصَّت المرأة في آخرها، فإن هذا ليس تهميشاً لدورها، بل هو اعتراف بقوة تأثيرها حين تسير في ركاب الشر؛ فهن أولئك النسوة اللواتي لا يقتصر دورهن على السكون، بل يزدن في الفتنة إضراماً، وينفخن في نار العداوة حتى تبلغ عنان السماء. هن "حمالات الحطب" في معناها المجازي الأعمق، أي حاملات الزناد، وناقلات الإشعاعات السامة، ومروجات الأكاذيب التي تزيد المجتمع اضطراماً.

فالسورة تعرض نموذجًا من هذا اللون من الناس عرضًا بالغ القوة والإيجاز. فهي تبدأ بحكم قاطع لا تردد فيه:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾

وكأن الأمر قد حُسم منذ البداية، فلم يعد الحديث عن احتمال نجاح أو فشل، إنما عن مصير تقرر وانتهى أمره. فالرجل الذي وقف موقف العداء للدعوة، وجعل جهده في محاربتها وإيذائها، قد اختار لنفسه طريقًا ينتهي إلى الخسران والهلاك.

ثم تمضي السورة فتشير إلى ما كان يعتمد عليه من أسباب القوة:

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾

وما أكثر ما يخدع المال أصحابه!

فكم من إنسان ظن أن ما يملكه من ثروة أو نفوذ أو مكانة يكفيه شر العواقب، ويمنحه منعة من تقلبات الزمان. لكن السورة تذكره بأن المال قد يشتري أشياء كثيرة، غير أنه لا يستطيع أن يشتري النجاة من الحق إذا عانده صاحبه، ولا أن يدفع عن الإنسان نتيجة ما اختاره لنفسه من طريق.

ثم يأتي الجزاء:

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾

وفي هذا التعبير ما يلفت النظر. فكأن الرجل الذي اقترن اسمه باللَّهب في الدنيا قد صار مصيره إلى لهب أشد وأعظم في الآخرة. وكأن النار التي كان يسعى إلى إشعالها في حياة الناس قد عادت إليه في صورة أخرى، فوجد نفسه محاطًا بما كان يغذيه ويعمل له.

ثم تلتفت السورة إلى شخصية أخرى لم تكن بعيدة عن هذا المسلك:

﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾

وهنا تتسع الصورة ولا تعود مقصورة على فرد واحد. فالشر الكبير قلما يقوم به شخص منفرد، إنما يحتاج إلى من يؤيده ويعينه ويزيد ناره اشتعالًا.

وما أبلغ هذا الوصف!

فالحطب هو الذي يمد النار بأسباب البقاء والاشتعال. ومن ثم يبدو التعبير كأنه يشير إلى إنسانة لم تكتف بمشاهدة الخصومة، بل كانت تحمل إليها ما يزيدها اضطرامًا، وتسعى بما يغذيها ويطيل عمرها.

وقد يكون الحطب حطبًا حقيقيًا، وقد يكون كلمات تنقل، أو إشاعات تروج، أو سعيًا بين الناس بالفساد والوقيعة. فالنتيجة واحدة في كل الأحوال: زيادة النار اشتعالًا، وزيادة العداوة انتشارًا.

ومن هنا تبدو الصورة النفسية والاجتماعية للسورة في غاية الوضوح. فهي لا تعرض رجلًا وامرأة فحسب، إنما تعرض نموذجًا متكاملًا من نماذج الإفساد: قوة تستند إلى المال، وعداوة تتجه إلى الحق، وألسنة وأعمال تزيد الفتنة اشتعالًا، وتعمل على إفساد ما ينبغي أن يصلح.

ثم تأتي الخاتمة:

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾

وكأن السورة تريد أن تقول إن الذي أمضى حياته يجر الناس إلى الخصومة والنزاع، ويشد بينهم أسباب العداوة، لن يجد في النهاية إلا القيود التي تشده هو إلى مصيره المحتوم.

وعلى هذا النحو تبدو سورة المسد تصويرًا لمصير أولئك الذين يجعلون من أموالهم ونفوذهم وجهودهم وقودًا لمحاربة الحق وإشعال الفتن بين الناس. فهم يظنون أنهم أصحاب قوة وتأثير، وأنهم قادرون على توجيه الأحداث كما يشاؤون، ولكنهم لا يشعرون أنهم يعدّون بأيديهم أسباب هلاكهم.

فكما كانوا يضيفون إلى نار الفتنة ما يزيدها اشتعالًا، ينتهون إلى نار يكونون هم أنفسهم وقودها. وكما سعوا إلى إفساد حياة الناس وإشاعة العداوة بينهم، يجدون أن الشر الذي أطلقوه في الدنيا قد عاد إليهم، وأن ما ظنوه قوة كان في حقيقته طريقًا إلى الضعف والخسران.

وهكذا تكشف السورة أن الفتنة قد تبدو لصاحبها بابًا إلى النفوذ أو المنفعة، ولكنها في حقيقتها نار لا تلبث أن تمتد إلى من أشعلها، وأن أول من يكتوي بلهيبها هو الذي ظن أنه قادر على التحكم فيها وتوجيهها حيث شاء.

سـورة الإخلاص

ليس كمثله شيء

ما أكثر ما يعرف الإنسان الأشياء بالمقارنة بينها وبين غيرها. فهو لا يدرك معنى القوة إلا إذا قارنها بالضعف، ولا يعرف قيمة الغنى إلا إذا رأى الفقر، ولا يتصور كثيرًا من المعاني إلا من خلال ما يشبهها أو يقاربها. ومن هنا نشأت عادة العقل البشري في أن يقيس المجهول على المعلوم، وأن يفهم الأشياء الجديدة بردها إلى ما ألفه وعرفه من قبل.

لكن هذه العادة التي تنفع الإنسان في كثير من شؤون حياته تقف عاجزة حين يتعلق الأمر بالله سبحانه وتعالى. فالله ليس شيئًا من الأشياء التي اعتاد العقل أن يقارن بينها، وليس فردًا من أفراد جنس يمكن أن يقاس على غيره، ولا موجودًا يشبه الموجودات التي تقع تحت الحس أو التجربة.

وسورة الإخلاص من أعمق السور القرآنية في تقرير هذه الحقيقة. فهي لا تنشغل بسرد الأحكام، ولا بعرض القصص، إنما تتجه مباشرة إلى بيان حقيقة التوحيد والتنزيه، وإلى إزالة كل تصور يمكن أن يجعل الخالق شبيهًا بالمخلوق.

ولهذا تبدأ السورة بأقوى إعلان للوحدانية:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾

ولفظ "أحد" هنا لا يبدو مجرد عدد يقابل الاثنين أو الثلاثة، وإنما يوحي بمعنى أعمق من ذلك. فهو يشير إلى وحدة لا تقبل الانقسام، وإلى ذات لا يشاركها غيرها فيما تختص به من الكمال والجلال.

فليس الله واحدًا بين آلهة متعددة، وليس فردًا داخل مجموعة من الأشباه والنظراء، وإنما هو الأحد الذي تنفرد ذاته بما لا يشاركه فيه أحد.

ثم تمضي السورة خطوة أخرى:

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾

وهنا ينتقل الحديث من الوحدانية إلى الكمال.

فالمخلوقات جميعًا محتاجة. يحتاج الإنسان إلى الطعام والشراب، ويحتاج إلى الأمن والطمأنينة، ويحتاج بعض الناس إلى بعض في قضاء حوائجهم. بل إن الوجود الإنساني كله قائم على صور لا تنتهي من الافتقار والاحتياج.

أما الله سبحانه فهو الصمد؛ تتجه إليه الحاجات كلها، ولا يتجه هو إلى أحد. ويفتقر إليه كل شيء، ولا يفتقر هو إلى شيء.

ومن هنا يتأكد الفرق بين الخالق والمخلوق مرة أخرى. فالاحتياج صفة ملازمة للمخلوق، أما الكمال المطلق فصفة للخالق وحده.

ثم تأتي الآية التي تنفي عن الله ما هو من أوضح خصائص الكائنات الحية:

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾

فالناس يولد بعضهم من بعض، وتنتقل الحياة بينهم بالتوالد والتناسل، وتستمر الأنواع بهذه الوسيلة التي جعلها الله قانونًا للمخلوقات.

لكن الله سبحانه ليس خاضعًا لهذا القانون؛ لأنه ليس محتاجًا إلى من يوجده حتى يولد، وليس محتاجًا إلى من يحمل وجوده بعده حتى يلد.

فهو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الباقي الذي لا يحتاج إلى امتداد وجوده في غيره.

هكذا تنفي السورة عن الله كل تصور ينشأ من قياسه على البشر أو على سائر الأحياء.

ثم تبلغ السورة غايتها في الآية الأخيرة:

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

وكأن هذه الآية تلخص ما سبقها كله.

فبعد أن أثبتت السورة وحدانية الله، وكماله، واستغناءه، ونفت عنه الولادة والتولد، انتهت إلى الحقيقة الجامعة التي ترد إليها هذه المعاني جميعًا: أنه لا نظير له، ولا شبيه له، ولا مثيل له.

ومن هنا تبدو السورة كلها قائمة على تنزيه الله عن مشابهة خلقه.

فالإنسان قد يخطئ حين يتصور أن ما يصدق على المخلوق يمكن أن يصدق على الخالق، أو أن ما يعرفه من صفات البشر يمكن أن يكون سبيلًا إلى فهم ذات الله. فتأتي هذه السورة لتقطع الطريق على هذا الوهم من أساسه، وتقرر أن الله متفرد في وحدانيته، متفرد في كماله، متفرد في وجوده، متفرد في صفاته.

وعلى هذا النحو تبدو سورة الإخلاص كأنها بناء متكامل يقوم على حقيقة واحدة تتفرع منها جميع آياتها:

«أن الله ليس كمثله شيء»

فأحديته تشير إلى تفرده، وصمديته تشير إلى كماله واستغنائه، ونفي الولادة والتولد ينفي عنه خصائص المخلوقات، ونفي الكفء والمثيل يقرر أنه لا يوجد في الوجود كله ما يمكن أن يقاس عليه أو يشبهه.

هكذا تنتهي السورة وقد رفعت العقل والقلب معًا فوق عالم الأشباه والنظائر، وأرشدتهما إلى أن الله سبحانه أجل من أن يقاس بخلقه، وأعظم من أن يدرك بقياس أو تمثيل، وأكمل من أن يلحقه ما يلحق المخلوقات من نقص أو احتياج أو تغير.

فإذا كانت الموجودات كلها تعرف بأشباهها وأمثالها، فإن الله سبحانه يعرف بأنه المتفرد الذي لا يشبهه شيء، ولا يدانيه شيء، ولا يكون له كفوًا أحد.

سـورة الفلق

الشرور الخفية غير المرئية

ليس أشد ما يخيف الإنسان في هذه الحياة ما يراه بعينيه، إنما كثيرًا ما يكون مصدر الخوف الحقيقي هو ما لا يراه، وما لا يعرف حقيقته، وما يشعر بآثاره دون أن يستطيع أن يحيط بأسبابه. فالخطر الظاهر يمكن الاحتراز منه في كثير من الأحيان، أما الخطر الذي يعمل في الخفاء، ويأتي من حيث لا يتوقع الإنسان، فهو الذي يبعث في النفس القلق ويذكرها بضعفها وحدود قدرتها.

وسورة الفلق من السور التي تلفت نظر الإنسان إلى هذا الجانب الخفي من الوجود، وتذكره بأن العالم لا يقتصر على ما تدركه الحواس أو تحيط به المعرفة المباشرة، بل إن هناك من أسباب الخير والشر ما يبقى مستورًا عن الأبصار، وإن ظهرت آثاره في حياة الناس.

ولهذا تبدأ السورة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يلجأ إلى ربه:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾

والفلق هو «الصبح» الذي يمثل انبثاق النور من الظلمة، وانكشاف الأشياء بعد خفائها. وكأن السورة منذ بدايتها تشير إلى الانتقال من عالم الغموض إلى عالم الوضوح، ومن حال الضعف أمام المجهول إلى حال الاعتصام بمن يعلم السر وأخفى.

ثم تأتي الآية الجامعة:

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾

وهي آية تفتح أمام الفكر آفاقًا واسعة. فالإنسان مهما بلغ من العلم والمعرفة لا يستطيع أن يحيط بكل ما في هذا الكون من أسباب الأذى والخطر. وقد يكتشف بعض الأشياء ويجهل أشياء أخرى، وقد يعلم اليوم ما كان يجهله بالأمس، ثم يظل بعد ذلك جاهلًا بأمور لا يعلمها إلا الله.

ومن هنا كان الاعتصام بالله أوسع من الاعتصام بالعلم البشري المحدود؛ لأن الله يعلم ما لا يعلمه الإنسان، ويرى ما لا يراه.

ثم تنتقل السورة إلى صورة أخرى من صور الشر الخفي:

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾

الغاسق هو الليل. والليل في ذاته نعمة من نعم الله، ولكنه حين يشتد ظلامه ويغشى الأشياء بستاره، يصبح مجالًا لما يختفي عن العيون، وما تتحرك فيه الأخطار دون أن تُرى.

ومن طبيعة الإنسان أنه يقلق مما يجهله أكثر مما يقلق مما يعرفه. ولذلك كان الظلام رمزًا لكل ما يختبئ عن الإدراك المباشر، ولكل ما يعجز الإنسان عن الإحاطة به.

ثم تأتي صورة أشد خفاء:

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾

وهنا لا يعود الشر ظاهرًا في قوة مادية أو عدوان مكشوف، بل يظهر في صورة عمل يجري في السر، ويتوسل إلى أهدافه بوسائل لا تقع تحت أنظار الناس. وكأن السورة تشير إلى أن بعض الشرور لا تأتي من المواجهة الصريحة، وإنما تنشأ في الخفاء وتتحرك بعيدًا عن الأبصار.

ثم تبلغ السورة غايتها في آخر آياتها:

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

والحسد من أعجب ما في النفس الإنسانية؛ لأنه لا يُرى كما تُرى الأشياء، ولا يُسمع كما تُسمع الأصوات، ولكنه مع ذلك قد يترك من الآثار ما تتركه أعظم القوى الظاهرة.

فهو يبدأ في القلب، ثم يمتد أثره إلى اللسان والسلوك والعلاقات بين الناس. وقد يدفع صاحبه إلى الإفساد، وإلى بث الكراهية، وإلى السعي في زوال النعم عن الآخرين، فيتحول من شعور خفي إلى قوة مؤثرة في المجتمع كله.

ومن هنا يبدو أن الآيات الأربع الأخيرة ليست أمثلة متفرقة لا يجمعها رابط، وإنما هي صور متعددة لحقيقة واحدة.

فالليل يخفي.

والسحر يعمل في الخفاء.

والحسد يسكن في القلوب.

والإنسان لا يحيط علمًا بكل ما في الوجود من مصادر الشر.

لهذا كانت الحاجة إلى الله حاجة دائمة لا تنقطع. وعلى هذا النحو تبدو سورة الفلق سورةً للاعتصام بالله من الشرور التي تعمل في الظل، ومن الأخطار التي لا تقع تحت بصر الإنسان ولا تحت سيطرته. فهي تذكره بأن قوته محدودة، وأن معرفته محدودة، وأن ما يجهله أكثر مما يعلمه.

لكنها في الوقت نفسه تفتح له باب الطمأنينة؛ لأنه إذا كان الإنسان عاجزًا عن الإحاطة بكل ما يهدده، فإن الله الذي يستعيذ به لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

هكذا تعلم السورة الإنسان أن يلجأ إلى ربه لا حين يواجه الأخطار الظاهرة فحسب، بل حين يشعر أيضًا بأن هناك في هذا الوجود قوى خفية لا يدركها إدراكًا كاملًا، ولا يملك تجاهها إلا أن يقول في ثقة المؤمن وطمأنينته:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

سـورة الناس

مصادر الوسوسة

قد يستطيع الإنسان أن يحتاط لكثير من الأخطار التي تحيط به من الخارج، فيتجنب ما يراه مؤذيًا، ويبتعد عما يعرف ضرره، ويتخذ من الوسائل ما يحفظ به نفسه من الآفات الظاهرة. لكنه يظل في مواجهة نوع آخر من الأخطار أشد خفاءً وأعمق أثرًا؛ لأنها لا تأتيه من خارج نفسه فحسب، بل تتسلل إلى داخله، وتنفذ إلى الموضع الذي تتكون فيه الإرادة، وتنشأ فيه الرغبات، وتتجه فيه الاختيارات.

وسورة الناس من أبدع السور القرآنية في تصوير هذا الخطر الخفي، وفي تعليم الإنسان الطريق الذي يلجأ إليه إذا أراد أن يحمي قلبه وعقله من المؤثرات التي تعمل في السر، وتتحرك بعيدًا عن أنظار الناس.

لهذا تبدأ السورة بالأمر بالاعتصام بالله:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ﴾

ومن اللافت للنظر أن السورة لا تكتفي باسم واحد من أسماء الله، بل تجمع بين الربوبية والملك والألوهية.

فالله هو رب الناس الذي يتولى أمرهم ويرعاهم، وهو ملك الناس الذي ترجع إليه السلطة كلها، وهو إله الناس الذي تتوجه إليه القلوب بالعبادة والخضوع.

وكأن الإنسان حين يواجه هذا الخطر الباطني يحتاج إلى أن يستحضر صلته بالله في جميع وجوهها، لأنه لا يستعين على شيء كما يستعين على نفسه، ولا يفتقر إلى عون الله في موضع كما يفتقر إليه في حماية قلبه.

ثم تكشف السورة عن طبيعة هذا الخطر:

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾

وما أروع هذا الوصف!

فالوسواس لا يقتحم النفس اقتحامًا، ولا يفرض نفسه عليها فرضًا ظاهرًا، إنما يدخل إليها في صورة همسات خفية وأفكار دقيقة قد لا يكاد الإنسان يشعر بها في أول أمرها.

ثم هو خنّاس؛ يظهر حين يغفل الإنسان، ويتراجع حين يذكر الله، ثم يعود في فرصة أخرى، وكأنه لا يملّ ولا يكلّ من المحاولة.

ومن هنا كانت خطورته. فهو لا يبدأ بالكبائر العظيمة، ولا يدعو الإنسان منذ اللحظة الأولى إلى الشر الصريح، إنما يبدأ بخواطر صغيرة، ثم تتبعها خواطر أخرى، حتى تتحول الفكرة إلى رغبة، والرغبة إلى عادة، والعادة إلى سلوك يستقر في الحياة.

ثم تحدد السورة موضع عمله بدقة عجيبة:

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾

فهو لا يغير العالم من حول الإنسان مباشرة، بل يحاول أولًا أن يغير العالم الذي في داخله. لأنه إذا استطاع أن يؤثر في الفكر والإرادة والميل، سهل عليه بعد ذلك أن يؤثر في العمل والسلوك.

ولهذا كانت المعركة الحقيقية قبل أن تظهر على الجوارح، وقبل أن تُرى في الأفعال، كامنة في أعماق النفس حيث تتكون النوايا وتتجه الرغبات.

ثم تأتي خاتمة السورة لتضيف معنى بالغ الأهمية:

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾

وهنا يتسع المجال اتساعًا كبيرًا.

فليس كل ما يفسد الإنسان يأتيه من عالم الغيب، بل قد يأتيه كثير من ذلك من بشر مثله. فقد تؤثر فيه كلمة يسمعها، أو فكرة تتكرر على سمعه، أو صديق يلازمه، أو نموذج يقلده، أو قدوة يتأثر بها دون أن يشعر.

وكثيرًا ما تنتقل الأخلاق والعادات والأفكار من إنسان إلى آخر انتقالًا هادئًا لا يلفت الانتباه، حتى يجد المرء نفسه قد تبنى ما لم يكن ينوي تبنيه، وسلك ما لم يكن يفكر في سلوكه.

ومن هنا يظهر خطر القدوة الفاسدة وخطر التأثير المستمر الذي يمارسه بعض الناس في محيطهم. فكم من إنسان لم يُدفع إلى الشر بقوة أو إكراه، إنما انجرف إليه شيئًا فشيئًا من خلال الإعجاب أو التقليد أو الرغبة في التشبه بغيره.

وعلى هذا النحو تبدو سورة الناس سورةً لحماية القلب قبل حماية الجسد، وحراسة الضمير قبل حراسة المصالح. فهي لا تتحدث عن الأخطار التي تقع على الإنسان من الخارج فحسب، إنما تتحدث عن الأخطار التي تحاول أن تستقر في داخله، وأن تعيد تشكيل أفكاره ورغباته ومواقفه.

فإذا كانت سورة الفلق تعلم الإنسان أن يستعيذ بالله من الشرور الخفية التي تحيط به في العالم من حوله، فإن سورة الناس تعلمه أن يستعيذ بالله من الشرور الخفية التي قد تتسلل إلى صدره نفسه، أو تأتيه من المؤثرات التي يلقاها في حياته اليومية.

هكذا يختم القرآن سوره القصار بنداء عميق إلى الإنسان: أن يحرس قلبه كما يحرس جسده، وأن ينتبه لما يدخل إلى نفسه كما ينتبه لما يدخل إلى بيته، وأن يعلم أن أعظم المعارك قد لا تكون في ميادين القتال أو ساحات الخصومة، بل في ذلك الموضع الخفي من النفس حيث تولد الأفكار، وتتكون النيات، ويتحدد المصير.

والحمد لله رب العالمين، وصلّ اللهم وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.